طه حسين
وزوال المجتمع التقليدي

طه حسين

وزوال المجتمع التقليدي

الطبعة الأولى

مطبوعات مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام

بالتعاون مع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

1977

الطبعة الثانية

مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله

للنشر والتوزيع ـ تونس

1988

د. عبد العزيز شرف

تقديم الطبعة الأولى

هذا كتاب عن طه حسين.

يقدمه مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية في ذكرى رحيله الرابعة ، بعد أن فارقنا في 28 أكتوبر 1973 .

وربما بدا غريباً ، لأول وهلة ، أن يمد « المركز » اهتمامه عبر دراساته المتخصصة والمتنوعة ، السياسية والاقتصادية والتاريخية والاجتماعية والعسكرية ليقدم عملا عن معلم ، ومفكر ، وأديب ، هو أحد الرواد العِظام بين المعلّمين والمفكّرين والأدباء المعاصرين.

لكن المركز ، إذ يقدم هذا الكتاب ، إنما يمضي في تعميق دائرة تخصّصه ، وإن كان لا يتجاوزها.

ففي السياسة يكون الموضوع ــ عادة وفي نهاية الأمر ــ الانسان أو « الحيوان السياسي » إذا استخدمنا تعبير أرسطو المشهور. وفي الاقتصاد يكون الموضوع الانسان أو « الحيوان الاقتصادي » إذا استخدمنا تعبير بعض علماء الاقتصاد.

وفي التاريخ يكون الهدف أن يستكمل الانسان ــ في هذه المرحلة أو تلك من مراحل تطوره ــ ويمد بذاته ، وأن تستكمل الإنسانية أيضا وعيها بذاتها.

لكن كل هذا إنما يجري في الانسان ، وبالانسان وفي المجتمع الانساني.

وكل هذا لا يشكل ما يسمى بوحدة المعرفة الانسانية فحسب ، وإنما يفرضها ويضعها في النهاية موضع دراسات أخرى ، تأتي في مقدمتها الدراسات السوسيولوجية الحديثة التي ما فتئت تسعى إلى تأصيل الوجه الاجتماعي لعلوم السياسة والاقتصاد والتاريخ.. الخ.

فإذا ما وصلنا إلى هذه النقطة فسوف نجد أن انتاج المركز قد تضمن بالفعل بعض الدراسات الاجتماعية نذكر منها:

* الشخصية العربية بين المفهوم العربي والاسرائلي. تأليف السيد ياسين (1974).
* حرب أكتوبر (دراسات في الجوانب الاجتماعية والسياسية).
تأليف مجموعة من خبراء المركز بالاشتراك مع المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة (1974).

وكتاب د. عبد العزيز شرف الذي يقدمه المركز، إنما يقدم مادة أساسية للمهتمّين بدراسة سوسيولوجيا المعرفة.

ومع أنه يركّز على دراسة فـن المقال الصحفي عند طه حسين، إلا أن د. عبد العزيز شرف قد استطاع في غمار دراسته أن يقوم بعملين هامين:

الأول: توثيق علمي دقيق لنشأة طه حسين ومصادر ثقافته. ولكتاباته العلمية والصحفية على امتداد الحياة الحافلة والمليئة التي عاشها الرائد الكبير.

الثاني: دراسة قيمة للدور التنويري الذي قام به طه حسين كمثقف ومفكر وكاتب وصحفي.

وكلا العملين قد أداهما د. عبد العزيز شرف بما يجعل من كتابه مرجعاً هاماً لكل من يريد أن يدرس ـــ من الناحية السوسيولوجية ـــ فكر طه حسين في ارتباطه بحياة وحركة المجتمع الذي عاش فيه، وبالتيارات الفكرية التي أثّر فيها وتأثّر بها.

وإذا كان مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية يحاول في كل عمل يقدمه أن يلتزم بالمنهج العلمي، فان المركز لا يفعل ذلك لمجرد أن يكون هيئة أكاديمية ترفع شعار «العلم للعلم» وإنما يضع المركز على الدوام في اعتباره احتياجات مصر ومشكلاتها والتحديات الهائلة التي تواجهها وتواجه أمتها العربية.

هنا، نؤكد مرة أخرى، على الدور التنويري الذي ينبغي أن تنهض به مراكز البحث العلمي على تنوعها. وهذا هو الجانب العملي من القضية.

وتلحّ علينا ذكرى طه حسين في أن نؤكد على هذا الجانب ولا نمل التأكيد عليه.

وهنا يقدم لنا كتاب د. عبد العزيز شرف طه حسين في صورة العالم والمثقف والصحفي الملتزم.

لقد نهل طه حسين ـــ ما شاء له ذكاؤه الخارق أن ينهل ـــ من أصفى ينابيع الثقافة الانسانية وأرفعها. وانه في القمة التي وصل إليها من العلم والثقافة يمكن أن يمثل

بحق أرستقراطية العلم والثقافة. لكنه ، وهو على وعي بذلك ، كان يقول أنه لا ينبغي على العلماء أن يؤثروا أنفسهم بالعلم وأن يحتكروه من دون الناس. وبهذا استطاع أن يحيي في عمله ومسلكه الدور التنويري الذي كان قد بدأه من قبل رواد عِظام مثل رفاعة الطهطاوي.

ويبقى التنوير في جوهره عملا مستمرا لحل المعادلة الصعبة بين ما يسمى بالأصالة والتحديث. وقد أصاب طه حسين على طريق الحل نجاحاً كبيراً.

ـ لقد تسلح بمناهج العلم الأوربي الحديث لكنه وظف هذه المناهج في بعث ما هو أصيل وحي في الثقافة القومية.

ـ وكان مدافعاً عنيداً عن اللغة العربية ، لكنه طالب كل مثقف بأن يكتب فيفهم الناس عنه بلا عسر ولا مشقة. فهذه مهمة يفرضها على المثقف واجب المشاركة في الحياة الواقعة ، وواجب الابتعاد عن العزلة والبروج العاجية. وواجب أن ينذر قلمه لتحريض الشعب على ألا يقنع من الثقافة بالقليل.

ـ وفي رحلته الصحفية الطويلة ، صاغ طه حسين مبادىء الدستور القديم لممارسة هذا العمل الشريف: الكتابة في الصحف ، وذلك حين دعا إلى أن يلتزم الصحفي في كل ما يكتب بإعلاء شأن العقل ، وبأن يقتنع بأن العقل ليس شيئاً قابلا للبيع والشراء.

ودافع طه حسين بلا تحفظ عن حرية الكاتب في أن يكتب ما يريد لكنه دعا الكتاب والصحفيين إلى ألا يؤثروا أنفسهم بخيرات « الديموقراطية ».

إن المركز حين يقدم هذا الكتاب كجهد جاد انما يقدمه في الوقت نفسه لطه حسين ، تحية في ذكراه الرابعة.

مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام

مقدمة الطبعة الثانية لكتاب
« طه حسين وزوال المجتمع التقليدي »

بقلم د . محمد عبد المنعم خفاجي ..

عشت عصر طه حسين بأكمله ، وشاهدت مجدهُ الأدبي الكبير في الحياة العربية والمصرية ، وقرأت مقالاته وكتبه واستمعت الى انصاره وخصومه ، وتكرر على سمعي حجج اصدقائه وأعدائه ، وحضرت مجالسه الأدبية ، و حاورته وحاورني حينما كان رئيسا للجنة الثقافية في الجامعة العربية ، ودعاني ذات يوم برقيا لاقابله ليسند الى تحقيق بعض كتب التراث ومراجعة تحقيقات بعض آخر : واقترحت على بعض طلابي في الدكتوراه في جامعة الازهر ان تكون رسالته عن « التيار الاسلامي في أدب طه حسين » ، وناقشت هذه الرسالة لجنة باشرافي واجيزت ومنح صاحبها اجازة الدكتوراه ، وكتبت عن طه حسين بعض البحوث والدراسات والقصائد ..

اذكر ذلك كله لاقول ان رأى المعاصرين في طه حسين يعدِ مصدرا اصيلا من المصادر الاولى عن طه حسين ..

ولا شك ان طه حسين كان عاصفة ، وهذا شأن الرجل العظيم دائما في كل عصر وكل جيل ، والحكم على العباقرة دائما يكون حكما من النقيض إلى النقيض، هكذا حكم النقاد المعاصرون لكل من جرير والفرزدق وبشار وابي تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز والمتنبي والمعري والبارودي وشوقي ولطفي السيد وهيكل والعقاد وابي شادي ، حكموا عليهم احكاما تتفاوت من النقيض الى النقيض .. فليس بعجيب ان يكون حكم النقاد المعاصرين لطه حسين على طه حسين متفاوتا من النقيض الى النقيض ..

والذي اقوله : ان طه حسين كان منهجا جديدا في الثقافة العربية وفي الأدب العربي وفي الفكر العربي ، ومن شأن الجديد دائما ان يثير حوله أعاصير من خلاف الرأي ومن التعصب للشيء والتعصب عليه ..

ولا شك أن في ثقافة طه حسين تيارات عديدة : التيار التراثي ، والتيار الاستشراقي ، والتيار المصري الخالص وتيارات الفكر الأوربي .. ومن شأن تعدد هذه التيارات في فكر طه حسين أن تثير النقاد للدفاع عنه أو للحملة عليه ..

وكما يذكر الناقد الكبير د . عبد العزيز شرف في هذا الكتاب « طه حسين وزوال المجتمع التقليدي » ..

ان منهج طه حسين وان أسخط قوما وشق على اخرين فسيرضى الطائفة القليلة من المستنيرين ، و هو لذلك يضع علم الاقدمين كله موضع البحث او الشك (ص 155 من هذا الكتاب ، 1ـ3 من الادب الجاهلي) ..

ومما لا ريب فيه ان التيارات السياسية تسللت الى التيارات النقدية التي كانت تناور في قضايا النقد والحكم الادبي على ادب وفكر طه حسين .

والذي أقوله ايضا : إن طه حسين مع الاختلاف الكبير في الاحكام التي كتبت عنه كان ملء أسماع كل مصري وكل عربي ، وملء بصره ، وكانت مقالاته وكتبه وآراؤه تثير دائما عواصف قوية من الخصومة في الرأي ، وكانت الجماهير العربية تحب طه حسين ، وتتأثر به وتقرأ له ، وتعجب كل الاعجاب بأدبه ، وصار أدبه مدرسة من مدارس الادب العربي الحديث ، وأصبح له تلاميذ كثيرون يتابعونه وينهجون نهجه في التعبير والاسلوب ..

وفي هذا السفر الثمين الذي ألفه الناقد الكبير د . عبد العزيز شرف تقرأ نقدا لفكر طه حسين وأدبه وتأثيره الكبير في المجتمع العربي الحديث بوضوح شديد ، وتقرأ ما قيل فيه ، وما ذهب اليه النقاد حوله ثلبا أو مدحا ، وتقرأ مختلف التيارات التي أثرت في تفكيره وأدبه ، وتقرأ كل ما يتصل بأدبه من دراسات وآراء ..

والدكتور شرف في هذا الكتاب يقف موقف الناقد النزيه،الذي يستقصي ويفحص ثم يحكم ، وحكمه وان كان لصالح طه حسين فليس ذلك عن هوى وميل ، وانما هو نتيجة دراسة منهجية أصيلة مفصلة ..

وكتاب د . عبد العزيز شرف أحدث حين ظهور طبعته الاولى دويا شديدا ، ولقي اقبالا منقطع النظير من القراء ، وكتبت عنه العديد من الدراسات ..

ولا شك ان هذه الطبعة الجديدة للكتاب بالزيادات الكبيرة التي ضمت اليه ،

سوف تكون اكبر واقوى وثيقة ادبية ونقدية ، تقدم لدارسي طه حسين ، ولناقدي أدبه. فتحية للكتاب وتحية للمؤلف من الأعماق.

طـه حسـين
والتحليل الإجتماعي للأدب

اتخذ الدكتور طه حسين من وسائل الإعلام - والصحافة بخاصة - وسيلة للإتصال بالجماهير في تحقيق التقارب ، والتواصل ، القائم على أن « الفكرة » في دلالتها الإجتماعية ، و« الكلمة » في صيغتها العملية ، من أقدم الوسائل لتحقيق ما ننشد . والفكرة والكلمة لهما القوة الساحرة التي تستطيع أن تتغلب على رواسب الفوارق والعنصريات بين الأمم في سبيل تحقيق المثل العليا من وحدة الشعور ووحدة الفكر ووحدة القيم ، لتعزيز الأخوة الإنسانية بأعمق دلالالتها وأكرم معانيها . ولقد كان طه حسين أحد الطلائع الذين استوت على أيديهم معالم النهضة المصرية الحاضرة ، فقوّموها على ذلك النهج الواضح من الفكر والثقافة العصرية ، وسبروا أعماق الشخصية المصرية وتمثلوها حتّى استقامت على نهجها الواضح ومعالمها الأصيلة . فكانت مراحل حياته المختلفة ، كما كانت جهوده في « الاتصال بالجماهير » مظهراً لإيمانه بهذه المثل ، ومصداقاً لعمله على التعبير عنها في الوصول بمصر إلى الغد المشرق ، وفي تعزيز صِلاتها بالفكر الانساني على تعدد آفاقه ، وفي مقاومة العزلة بجميع ألوانها ، متمثلا في ذلك كله تراثها التاريخي وطابعها العقلي وقيمها الفكرية ومقوماتها الأصيلة ، التي كانت في مجرى الحضارة الانسانية الموصول ، عاملا فعالا لا يجحد أثره الدارسون .

فتمثل نتاجه الفكري والأدبي والصحفي هذه الرؤيا ، لا يفصل بين الفكرة والفعل ، وإنما ترتبط رؤياه الذهنية برؤياه الاجتماعية الفاعلة لإحداث التغيير الأساسي في المجتمع المصري ، وتدعيم قيمه الايجابية .

ولعل في ذلك ما حدا بكثير من المستشرقين ، إلى توكيد الارتباط بين

الجوانب المختلفة في كتابات طه حسين ونبوغه الفني(1) في كتاباته الثقافية والسياسية والأدبية على السواء(2) . وهو الأمر الذي يؤكده التحليل الاجتماعي(3) لأدب طه حسين ، وهو المنهج الذي آثرناه في هذه الدراسة من حيث عنايته : بالمؤلف والعمل والجمهور . ومن أجل ذلك عنينا بدراسة طه حسين من حيث وضعه الاقتصادي ، وطبقته الاجتماعيه ، وجيله الأدبي ، كما عنينا بدراسة الجنس المقالي الشائع في أدبه ، ومضمونه ، وأسلوبه ، في تكامل مع عملية الاتصال في رؤياه الإبداعية(4) .

إن ذلك الطريق الطويل الشاق الذي قاد الشاب الأزهري إلى هضم أعظم الثقافات الكلاسيكية والأوروبية على النحو الذي تحدث عنه طه حسين في أيامه ، إنما يلخص سيرة « الاتصال بالجماهير » في أدبه ، فسرعان ما تخلى عن الأساليب التقليدية في الصحافة والأدب ، وسرعان ما اتجه إلى تحويل الفكر الأكاديمي المجرد إلى عرض فني منسق يستسيغه الجمهور دون أن يهبط إلى مستوى الاسفاف والمبالغة ، مواجهاً بأدبه المعادلة الصعبة أو التحدي العظيم الذي يواجه فن الاعلام من خلال ارتباطه بالجماهير ، وتمثله للوظائف الاعلامية الاجتماعية ، إلى جانب تمثله في لغته القومية : الأناقة والوضوح والشفافية التي امتازت بها اللغة الفرنسية التي أتقنها كل الاتقان ، والتي يسميها بعض المستشرقين « لغته الثانية » ، دون مساس بروح اللغة العربية ، ودون أن يعرض نفسه لتهمة الخروج عن قواعدها أو بث العجمة والكلمات الأجنبية في مفرداتها(5) . ذلك أن الرؤيا الاجتماعية للغة العربية هي التي جعلت لغته الاتصالية تبتعد عن الحذلقة والخشونة ، لتنساب في يسر وبساطة ، وفي عبارات وظيفية ، لا تتعارض مع ما في نثره الفني من ثروة وتنوع ، مكتفيًا بالأثر الذي يشع عن الفكرة العملية ، وما تتضمنه من إرادة في إحداث التغيير والتدعيم في المجتمع ،

---

(1) جورجيو ديلافيدا : « طه حسين المؤرخ » ـ طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ص 98 .
(2) فرانشيسكو جابريللي : « طه حسين الناقد » المرجع السابق ص 163 .
(3 4) السيد يسن : التحليل الاجتماعي للأدب ص 95 .
(5) فرانشيسكوا جابريللي : نفس المرجع ص 179 .

لتحقيق التواصل بين التجديد والأصالة ، من خلال أدبه وصحافته على السواء .

ولعل في ذلك ما يشير إلى هدف التحليل الإجتماعي لأدب طه حسين ، في التعرف عليه من وراء وسائل اتصاله بالجماهير ، على النحو الذي يبرز رؤياه الإجتماعية التي تكمن وراء آثاره الفكرية والصحفية والأدبية على السواء ، في نطاق الصحفيين والأدباء ودعاة الإصلاح الذين كان يعيش بينهم ، وفي نطاق علاقات التأثر والتأثير التي تمثل لنا مقاله الصحفي أشد وضوحًا ، وتضعه في مكانه من آثار رواد النهضة المصرية الحديثة .

ولعل في هذه الرؤيا الإجتماعية لآثارطه حسين ، ما يفسر اتجاه بعض الدارسين(1) إلى اعتباره أكثر اتساقا في التفكير وفنية الأسلوب ، وأكثر تأثيرًا في النهضة المصرية ، كما يذهب « البرت حوراني »(2) إلى أن الأفكار التي نادى بها زعماء النهضة الحديثة قد بدأت تتبلور عند طه حسين ، وأنها أثرت على التفكير الإجتماعي والعمل السياسي في العالم العربي بأسره على مدى ثلاثة أجيال .(3)

هذا ، وقد حرصت في هذه الدراسة ـ التي تمثل جزءًا من بحثي للدكتوراه ـ على التزام الحيدة العلمية ، بأقصَى ما وسعني الجهد ، وأرجو أن أكون قد وفقت إلى ذلك ، فجلّ من لا يخطىء تحيزاً أو قصورًا في عالم البشر .

(1، 2، 3) ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ص 390 .

الفصل الأول

المقومات الشخصية للدكتور طه حسين

«ويدأب في التعلم أي دأب ولا يرضى بأيسره منالا
ينال إجازة ويروم أخرى فلا يرضيه إلا أن ينالا
ويرجع للكنانة المعيا فيشغل منذ عودته الرجالا»

خالد الشواف

نتحدث الآن عن مقومات شخصية الدكتور طه حسين بما فيها المقومات الطبيعية والخلقية والمكتسبة ومنها مزاجه وثقافته، وذلك حتّى نتبين الصلة بين الفرد والجماعة(1) ونحاول تعيين ما لكليهما من أثر في ما أذاعه الدكتور طه حسين من خلال وسيلة الإتصال الصحفي بالجماهير من آداب وآراء فكرية ونظم اجتماعية وسياسية مختلفة، وذلك في إطار مفهوم العملية الإتصالية التي تتضمن تحرير الرسالة الإتصالية بطريقة تؤدي إلى تحقيق التناغم و التوافق بين الكاتب والقارىء، من خلال ربط هذه الرسالة بجوانب من خبرة الكاتب تشابه إلى حد كبير خبرة الوجهة أو المستقبل.

نشأته في الصعيد :

ولد طه حسين في 14 نوفمبر سنة 1889 في عزبة «الكيلو»(2) التي تقع على مسافة كيلو متر من «مغاغة» بمحافظة المنيا بالصعيد الأوسط، وكان والده حسين علي موظفًا في شركة السكر التي كانت تملك أراضي الدائرة السنية في تلك المنطقة، وأنجب ثلاثة عشر ولداً سابعهم طه حسين.

وكان زواج والده (حسين علي) بأمه (رقية بنت موسى محمد) هو الزواج الثاني بعد مرض زوجته الأولَى، ذلك أن والده وخاله كانا يجتمعان

---

(1) الدكتور طه حسين : قادة الفكر ص 8 .

(2) الدكتور عبد الرحمن بدوي «إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين» ص 9 ــ كذلك تجمع المراجع التي أرخت للدكتور طه حسين على أنه ولد في سنة 1889، ولم يشذ عن هذا الاجماع إلا الأستاذ سلامة موسى في مقال له بمجلة الهلال ــ فبراير 1954 إذ ذكر أنه ولد في 1891 .

على أخوة صوفية ، هي التي كانت وراء المشورة بهذا الزواج .(1)

والمعروف أن طبيعة الحياة في مثل هذه الأسر الكبيرة العدد ، المتداخلة العلاقات الإجتماعية . أن ينشأ أطفال الأسرة على نوع من القدرة على الدفاع عن النفس وعمل ما ترضَى عنه الأم مما قد لا يتوفر لأبناء الأسر الصغيرة بسيطة العلاقات .(2) ولعل في هذه النشأة ما يفسر اتجاه طه حسين من بعد في صحافته ومقالاته إلى النزال ، والعنف فيه في كثير من الأحيان ، على النحو الذي يبين من مقاله النزالي على الصعيدين الأدبي والسياسي .

أما ظرفه البصري الخاص ، فقد نشأ عن إصابته بالرمد وإهماله « أياما ، ثم دعَى الحلاق فعالجه علاجا ذهب بعينيه »(3) والقول المرجح أن هذا الظرف البصري قد وقع له في سن مبكر ،(4) الأمر الذي أدى إلى إلحاقه بكتاب الشيخ محمد جاد الرب(5) فقيه البلدة ليحفظ القرآن ،(6) وفي عام 1898 كان قد أتم حفظ القرآن الكريم(6) ، وإلى جانبه كان قد وعَى من الأغاني والتعديد والمأثورات الشعبية والقصص وشعر الهلاليين والزناتيين والأوراد والأدعية وأناشيد الصوفية جملة صالحة .(8)

وفي « الأيام » نتلمس الألم الكبير ، حين يهمس إلينا في استهلال الجزء الأول بلفظ غني بالإيحاء يجمع في تحفظه بين الحياء والكبرياء .(9) وهو قوله « لا يذكر من هذا اليوم وقتا بعينه » وإنما يقرب ذلك تقريبا . وأكبر

(1 ، 2) محمد سامي البدراوي : النقد الأدبي عند طه حسين ص 3 ، 4 .
(3) الأيام ج 1 ص 20 .
(4) ينفرد الدكتور « بير كاكبه » بتحديد سن الثانية تاريخا لكف بصر طه حسين (ص 45) ويحيل في ذلك على الأيام ، والواقع كما يذهب البدراوي (ص 15) إلى أن « الأيام » ليس فيها هذا التحديد لا في الموضع الذي أشار إليه كاكبه ولا في غيره . وكذلك يحدد الدكتور شوقي ضيف سن الثالثة في « الأدب العربي المعاصر في مصر » ج 2 ص 277 في حين يحدد الدكتور بدوي عام 1895 لهذا الظرف (ص 9) .
(5) مجلة الأدب ـ يناير 1963 .
(6) المصور 21 ابريل 1950 .
(7) الدكتور عبد الرحمن بدوي : نفس المرجع ص 9 .
(8) الأيام ج 1 ص 27 .
(9) الأيام ج 1 ص 1 ـ 3 ، 145 ـ146 .

ظنه أن هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم في فجره أو عشائه يرجع ذلك لأنه يذكر أن وجهه تلقى في ذلك الوقت هواء فيه شيء من البرد الخفيف الذي لم تذهب به حرارة الشمس ، ويرجح ذلك لأنه على جهله حقيقة النور والظلمة يكاد يذكر أنه حين تلقى هذا الهواء وهذا الضياء لم يأنس من حوله حركة يقظة قوية وإنما آنس حركة مستيقظة من نوم أو مقبلة عليه » .(1)

وإلى جانب هذا الظرف البصري الخاص فقد عاش الدكتور طه حسين طفولة قاسية ، نتلمس أبعادها من مستوى حياة أسرته ، التي كانت تعيش « من سعة » ولكنها كانت فقيرة على كل حال »(2) بحيث كانت زيارة الشيخ « تكلف صاحب البيت الاقتراض لشراء ما لا بد منه من الضأن والمعز »(3) وكان لوالده « أبناء كثيرون ، وكان يحرص على تعليمهم وتهذيبهم ، وكان فقيراً لا يستطيع أن يؤدي نفقات ذلك التعليم . وكان يستدين من حين إلى حين ويثقل عليه أداء الدين . وكان يطمع في أن يزاد راتبه من حين إلى حين »(4) بل لقد كانت زوجته تضطر أحيانا إلى بيع حليها .(5)

وترتبط هذه الطفولة القاسية بالإطار العام للمجتمع التقليدي الذي تمثله بيئته الأولى في أواخر القرن الماضي من انحطاط الوعي الصحي وشيوع الخرافات وخضوعها للعرف والمألوف خضوعا بعيداً عن المنطق ، كما يتضح من حرص الأسرة على صلتها بشيخ الطريقة وزياراته المتكررة برغم ما تكلف الأب من مال والأم من جهد وعناء .(6) وكانت « لأهل الريف شيوخهم وشبابهم وصبيانهم ونسائهم عقلية » خاصة فيها سذاجة وتصوف وغفلة ، وكان أكبر الأثر في تكوين هذه العقلية لأهل الطريق »(7) ثم هناك إلى ذلك ما يتسم به المجتمع التقليدي من هبوط في المستوى الثقافي

(1، 2) الأيام ج 1 ص 1 — 3 ، 145 — 146 .
(3، 4، 5) المرجع السابق ص 63 ، 105 .
(6) الدكتور زكي مبارك ومجلة الرسالة — أول ديسمبر 1941 محمد سامي البدراوي : مرجع سبق ص 6 .
(7) الأيام ج 1 ص 93 ، 96 .

والتربوي(1) وهي ثقافة ينم عنها «خليط من الأسفار»(2) يتنقل بها باعة الكتب في «المدن والقرى وهي كتب في السحر والطلاسم. (3)

وتتضافر هذه العوامل جميعا على أن تجعل من طفولة طه حسين طفولة مرة أشفق من أن يسمع ابنته أطرافاً منها. (4) ومهما يكن من شيء، فإن الصبي لم تبق له من هذه الآونة ذكرى واضحة بينة فهو «لا يذكر من القرية الا ذلك «السياج». (5) ومع ذلك. فقد كان عليه أن يستكشف بيئته الأولى، بكل ما يستطيع من وسيلة غير حاسة الإبصار. ولقد استكشفها في الدار وسط الأسرة في مقامه بين والديه وإخوته الكثار، فاستبان من علاقته معهم وما كان يجده من الإشفاق عليه ومن الإهمال المشوب بشيء من الإزدراء حقيقة علته التي لاذنب له فيها، فكان ذلك يسلمه حين يذكره إلى صمت عميق حزين.. (6)

أما استكشافات الصبي خارج الدار، فهو يذكر منها أنه «كان يحب الخروج من الدار إذا غربت الشمس وتعشى الناس، فيعتمد على قصب هذا السياج مفكراً مغرقا في التفكير، حتى يرده إلى ما حوله صوت الشاعر قد جلس إلى مسافة من شماله. والتف حوله الناس، وأخذ ينشدهم في نغمة عذبة غريبة أخبار أبي زيد وخليفة ودياب، وهم سكوت إلا حين يستخفهم الطرب أو تستفزهم الشهوة، فيستعيدون ويتمارون ويختصمون، ويسكت الشاعر حتى يفرغوا من لغطهم بعد وقت قصير أو طويل، ثم يستأنف إنشاده العذب بنغمته التي لا تكاد تتغير.» (7).

وفي هذه البيئة الأولى، كان للشخصيات التي اتصل بها طه حسين تأثيرها بحسب مدى صلته بها وأثر كل شخصية عليه: والده وأمه وسيدنا والعريف وأخيه الأزهري، ومفتش الزراعة ثم علماء المدينة. وهذه البيئة تحدد لنا المكونات الثقافية الأولى، التي استمع إليها ورعاها إلى جانب الأدب الشعبي والأوراد، والقرآن.

(1، 2) الأيام ج 1 ص 93 ــ 96.
(3، 4، 5) المرجع السابق ص 97، 98، 145، 4
(6) المرجع السابق ص 18.
(7) المرجع السابق ص 5، 68، 20.

فالأثر النفسي لصورة أبويه في نفسه ، رغم ما كانا عليه من فقر وسذاجة يبين من حزمهما وطموحهما الأمر الذي دفع بالصبي إلى أن يكون « من أول أمره طلعة لا يحفل بما يلقى من الأمر في سبيل أن يستكشف ما لا يعلم . وكان ذلك يكلفه كثيراً من العناء(1) واتجهت به حادثة اللقمة الشهيرة(2) إلى أن يعرف «لنفسه إرادة قوية »(3) لم تعنه على أن يفهم حقا ما تحدث به الرواة عن أبي العلاء فحسب ،(4) وإنما أخذته بألوان من الشدة في حياته ، جعلته مضرب المثل في الأسرة بين الذين عرفوه حين تجاوز حياة الأسرة إلى الحياة الإجتماعية .(5) الأمر الذي ييسر فهم دوره في الصحافة المصرية والفكر المصري الحديث على هدى من هذه المكونات الأولى ، فأصبح يؤدي دوره القيادي في حزم شديد ، وطموح إلى المثل الأعلى في الحياة المصرية ، وتجديد الحياة فيها على نحو ما سيجيء عند دراسة مضمون اتصاله بالجماهير .

والشق التربوي في هذه البيئة الأولى ، يتمم هذه المكونات الثقافية ، التي جعلته يتجه بدوره القيادي اتجاها تعليميا وتربويا جديداً لا ينفصل عن دوره القيادي في الصحافة والفكر ، دور المعلم . ومن أبرز المكونات الأولى في هذا الشق التربوي « كتاب القرية » الذي حمل إليه الصبي ليحفظ القرآن وفيه تتمثل لنا صورة التعليم في القرية المصرية أواخر القرن الماضي ونتعرف على شخصية « سيدنا » صاحب الكتاب ، وهو « غليظ بدين نهم أكرش ، كاذب يقسم أغلظ الأيمان وهو موقن أنه كاذب »(6) ومساعده وعريفه يمثل الرشوة والفساد ،(7) ويذكر طه حسين على لسان أمين بطل قصة « صالح » أن الشيخ علمه أن الصراحة والشجاعة وقول الحق خصال لا تحسن في جميع المواطن » .(8) كما يذكر في « الأيام » أنه أفاد من نموذج الشيخ كذلك : الاحتياط في اللفظ ، وتعلم أن من الخطل والحمق الإطمئنان إلى وعود الرجال ، وما يأخذون أنفسهم به من عهد .(9)

(1 ، 2) المرجع السابق ص 5 ، 68 ، 20 .
(3 ، 4) المرجع السابق ص 20 ، 21 ، 23
(5) المرجع السابق ص 20 ، 21 ، 23 .
(6 ، 7) المرجع السابق ص 28 ، 30 ، 54 .
(8) المعذبون في الأرض 16 ــ 18 .
(9) الأيام ج1 ص65 .

ومن التصوير الكاريكاتيري لنموذج « سيدنا » و أخلاقه وتصرفاته التي تدل على فساد علمه وتعليمه ، يبين اتجاه طه حسين من بعد إلى مسألة التعليم اتجاها جديداً في إطار من الإتجاه القوي إلى « زوال ، المجتمع التقليدي » كما سيجيء ، بما فيه من يدعي علم ما لا يعلمون من أمثال « الأمي الذي يفتي الناس في شئون دينهم ودنياهم » (1) ومشايخ الطرق(2) وغيرهم من نماذج مجتمع القرية في أواخر القرن الماضي ، وكان الصبي يختلف إلى هؤلاء جميعا« حتى اجتمع له من ذلك مقدار من العلم ضخم مختلف مضطرب متناقض ما أحسب إلا أنه عمل عملا غير قليل في تكوين عقله الذي لم يخل من اضطراب واختلاف وتناقض » (3)

ويكون مقدم « المفتش » إلى القرية مؤشراً لمعرفة الصبي بوجود لون آخر من العلم والثقافة ، فهو مطربش يجيد الفرنسية ، تخرج في مدرسة الفنون والصنايع . ويحفظ القرآن الكريم على نحو فتن الصبي « وكان خفيف الظل جذابا » (4)، ولعل في انطباع طه حسين عن هذا المفتش المطربش ما يفسر اتجاه طه حسين فيما بعده إلى بيئة المطربشين في « مدرسة الجريدة » بعد أن يئس من الأزهرين » . (5)

في الأزهـر :

ولم يلبث طه حسين بعد اتصاله بهذا المفتش ، ووصوله إلى الأزهر أن ينهي إلينا رفضه التام للعلم التقليدي في القرية : القائم على النقل والخرافة ومجافاة العقل والذوق « وقد أقسم لى بعد ذلك أنه احتقر العلم منذ ذلك اليوم » (6)

ولم يكن الأزهر حين اتصل به طه حسين يتقبل دعوة التجديد والإصلاح التي ذهب إليها الأستاذ الإمام بسبب مناوأة الأمير ، وتصوير العلوم التي أدخلها المفتي إلى الأزهر في صورة الجناية على الدين ،(7) وفي هذه الفترة من تاريخ الصراع بين الجديد والقديم في الأزهر توجه إليه طه

(1، 2، 3) المرجع السابق ص 86، 87 .
(4، 5، 6) المرجع السابق ص 6، 144 .
(7) عباس محمود العقاد : محمد عبده ص 209 .

حسين في عام 1902 ، وبعد أن أدى امتحانا في القرآن ، انتسب إلى الأزهر وحضر دروس المبتدئين ، واستمر على ذلك ثلاث سنوات ، سمع فيها آخر درسين ألقاهما الأستاذ الإمام في الأزهر في غضون شتاء 1905(1)

ويصف لنا طه حسين نفسه في هذه الفترة الأولى مقبلا على الأزهر إقبال « صبي جد وعمل »(2) تقتحمه « العين في هذا كله ، ولكنها تبتسم له حين تراه على ما هو عليه من حال رثة وبصر مكفوف ، واضح الجبين مبتسم الثغر مسرعا مع قائده إلى الأزهر ، لا تختلف خطاه ولا يتردد في مشيته ، ولا تظهر على وجهه هذه الظلمة التي تغشى عادة وجوه المكفوفين . تقتحمه العين ولكنها تبتسم له وتلحظه في شيء من الرفق ، حين تراه في حلقة الدرس مصغيا كله إلى الشيخ يلتهم كلامه التهاما ، مبتسمًا مع ذلك لا متألما ولا متبرما ولا مظهرًا ميلا إلى لهو ، على حين يلهو الصبيان من حوله أو يشرئبون إلى اللهو » .(3) وهو في ذلك مدفوع إلى غاية يترسمها ومثل يسعى إليه يتمثل في قول أبيه له « إني لأرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضيًا وأراك صاحب عمود في الأزهر » .(4)

ويشير طه حسين إلى أثر حركة الأستاذ الإمام في الأزهر وخارجه وقت انتسابه إليه في حديث له مع سلامة موسى : « إن المدة التي قضيتها في الأزهر كانت فترة انتقال فكان محمد عبده يفسر القرآن على طرق حديثة والشيخ المرصفي يعلمنا الأدب وكلاهما يذم الطرق الأزهرية . وكان قاسم أمين يقول بحرية المرأة وفتحي زغلول يترجم كتباً قيمة و« الجريدة » تنادي بمعايير جديدة في السياسة والإجتماع فكنا في اضطراب ذهني لا نستقر وشعرنا نحن تلاميذ الشيخ المرصفي أن طرق الأزهر عتيقة فكنّا نتكلم ونتناقش عن الإصلاح الذي يقول به الشيخ محمد عبده »(5)

ويذكر عن جيله من الأزهريين أنه كان « يؤمن إلى حد التعصب بحرية الرأي ، وبغض الجمود ، ووجوب الاجتهاد ، وتحطيم هذه الأغلال التي

---

(1) الدكتور عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ص 9 .
(2، 3، 4) الأيام ج1 ص148 ، 149 ، 144 .
(5) مجلة الهلال ــ نوفمبر 1927 : « ساعة مع طه حسين » .

كانت تأخذ بأعناق الشيوخ وأيديهم وأرجلهم . وكانوا يختلفون إلى دروس الشيخ محمد عبده في التفسير والبلاغة والمنطق ، مؤمنين أشد الإيمان بأنهم ليسوا كغيرهم من طلاب الأزهر يدرسون ليعلموا ما كان يعلمه الشيخ ، إنما كانوا رسل إصلاح وتجديد ونهضة . وكان من ألذ الأشياء وأحبها إلى النفس أن تستمع إليهم وهم يتحادثون بين درس ودرس ، يذكرون ماقال الشيخ وما عمل ، يقلدونه في الصوت ونبراته ، كما كان من ألذ الأشياء وأحبها إلى النفس أن تراهم يسرعون إلى الصحف يقرأون فيها متلهفين ما كان يكتبه خصوم الشيخ . وما كان يوحي به القصر حينئذ من كيد للشيخ ، وتأليب عليه . وكان من ألذ الأشياء وأحبها إلى النفس أن تسمعهم وهم يبسطون آمالهم العراض اذا انتهوا من الدرس ، وظفروا بالشهادة وارتفعوا إلى مناصب التدريس والقضاء . إذن فسيدرسون العلم على وجهه ، وسينفذون في المحاكم الشرعية آراء الشيخ ، وسيمحقون الرشوة محقا ، وسيلغون تعدد الزوجات ، وسيقيدون الطلاق وسيؤيدون آراء قاسم أمين التي رضيها الشيخ . وسيحيون فلسفة ابن سينا وابن رشد وبلاغة الجرجاني . وسيقضون على هذه الكتب العقيمة التي قضت على عقل الأزهر والأزهريين » .(2)

ومن ذلك يبين أن طه حسين منذ بداية التحاقه بالازهر كان مهيئا لاختيار جناح المجددين من تلاميذ الإمام وتمثل طموحهم ومثلهم العليا ، فهو قد عايش أخاه الازهري الشيخ أحمد حسين وأصدقاءه في « الربع » وهم من شيعة الامام(3) ، ثم إن أخاه عندما أخذه إلى الازهر أول مرة تعمد أن يختار له أستاذاً من شيعة الإمام كذلك(3) . وكان هذا الشيخ المختار يدرس بطريقة متحررة فلم يكن يتقيد بكتاب وانما كان يحاضر متطلبا من تلاميذه أن يتابعوه في الفهم ويدونوا ما يشاءون من ملاحظات(1) .

ولم يلبث طه حسين بعد وفاة الاستاذ الإمام(2) ، والتضييق على جناح

(2) الدكتور طه حسين : رحلة الربيع والصيف ص 134 ــ135 .
(3) محمد سلمي البدراوي: مرجع سابق ص 29.
(1) الأيام ج2 ص 10 .
(2) رحلة الربيع والصيف ص 136 .

المجددين ، أن تبرم بالازهر فلم يكن يحضر في سنة 1908 غير درس الفقه في الصباح على الشيخ بخبت ، ودروس الأدب على الشيخ سيد المرصفي ، إلى أن منع الشيخ المرصفي من تدريس الأدب . واستاء منه شيخ الأزهر هو وصاحباه أحمد حسن الزيات والشيخ محمود الزناتي ، فأظهر طردهم . ولم يستمر الطرد إلا لمدة قصيرة ، إذ توسط لطفي السيد لدى الشيخ حسونة فأعيدوا إلى الأزهر . وكان يحضر أحيانا درس البلاغة في شرح السعد على « التلخيص » ـ على الشيخ عبد الحكيم عطا ، ويثابر في الوقت نفسه على التردد إلى دار الكتب(3) .

ويبين مما تقدم أن مرجع هذا التمرد يعود إلى جمود أساليب التعليم وموضوعه ، وسخط طه حسين على المناهضين لحركة الإمام خاصة باعتبارها رمزًا للتجديد في البيئة المصرية العامة ، وهو السخط الذي اتخذ مظاهر الجدل المحرج للشيوخ التقليديين .(4) والتنقل الكثير من حلقة إلى حلقة وكثرة اصطدامه بالشيوخ وطردهم إياه أو مفارقته لهم طائعًا .(5) كما يبين هذا السخط من المقال الذي كتبه في الهجوم ضد الأزهر ، ومضى به إلى لطفي السيد لكي ينشره في الجريدة ، كل ذلك ينبىء عن استعداد مبكر إلى الإنصراف عن الثقافة التقليدية السلفية التي تقوم على النقل ، وأن يولي وجهه وجهة جديدة .

في الجامعة :

قضى طه حسين أربعة أعوام في الأزهر « يعدها أربعين عامًا ، لأنها قد طالت عليه من جميع أقطارها كأنها الليل المظلم ، قد تراكمت فيه السحب القاتمة الثقال ، فلم تدع للنور إليه منفذًا »(1) ولم يكن يضيق « بالفقر ، ولا بقصر يده عما كان يريد ، فقد كان ذلك شيئًا مألوفًا بالقياس إلى طلاب العلم في الأزهر الشريف »(2) « وإنما كان يضيق » أشد الضيق بهذا السأم الذي ملأ عليه حياته كلها وأخذ عليه نفسه من جميع جوانبها «(3) ذلك أنه في الأزهر « يسمع كلامًا معادًا وأحاديث لا تمس

(3) الدكتور عبد الرحمن بدوي ـ مرجع سابق ص 10
(4، 5) الأيام ج 2 ص 49 ، 162 ، 169 .
(1، 2، 3) مذكرات طه حسين ص 7 ، 8 .

قلبه ولا ذوقه ولا تغذو عقله ، ولا تضيف إلى علمه علمًا جديدًا . فقد تربت في نفسه تلك الملكة كما كان الأزهريون يقولون ، وأصبح قادرًا على أن يفهم ما يكرره الشيوخ من غير طائل »(4)

وفي أثناء ذلك أنشئت الجامعة المصرية القديمة في سنة 1908 ، فلم يلبث أن فهم كلمة الجامعة « فهمًا مقاربًا » وعرف أنها « مدرسة لا كالمدارس ، وأحس أن مزيتها الكبرى عنده أن الدروس التى ستلقى فيها لن تشبه دروس الأزهريين من قريب أو بعيد ، وأن الطلاب الذين سيختلفون إليها لن يكونوا من المعممين وحدهم بل سيكون فيها المطربشون ، وعسى أن يكونوا أكثر عددًا من أصحاب العمائم ، لأن هؤلاء لن يعدلوا بعلمهم الأزهري علمًا آخر ، ولن يشغلوا أنفسهم بهذه القشور التي كان يضيع فيها أبناء المدارس(5)

ويختلف طه حسين إلى دروس الجامعة منذ البداية(6) فيسمع لأول مرة درسًا في الحضارة الإسلامية « لم يكن بمثله عهد في الأزهر ، فهذا أحمد زكي بك يبدأ الدرس بهذه الكلمات التي لم يسمعها الفتى من قبل » أيها السادة : أحييكم بتحية الإسلام ، فأقول السلام عليكم ورحمة الله »(7) وكان كلامه واضحًا لا يحتاج إلى تفسير .(8) كما حضر دروس أحمد كمال (باشا) في الحضارة المصرية القديمة ودروس « أجناتسيو جويدى Ignazio Guidi في أدبيات الجغرافيا والتاريخ ، وكان « جويدي » يدرس بالعربية ، ولضعف صوته كان له معيد يردد ما يقول .(9) ولم يلبث جويدي أن عدل عن المجيء إلى مصر وجاء ليتمان «Litiman» لتدريس اللغات السامية فدرس السريانية وأصول العبرية والحبشية . ثم جاء « نللينو » سنة 1910 ـ 1913 ، فدرس لطلابه أولا تاريخ الفلك عند العرب ، ثم تاريخ الأدب العربي . كذلك درس طه حسين على « سانتللانا » تاريخ الفلسفة الإسلامية ، وكان له في نفسه أثر عميق يذكره بالتقدير ، وكان يصحب « سانتللانا » إلى بعض دروس الأزهر ، وحضر معه درسًا في

(4 ، 5) المرجع السابق ص 8 .

(6) المرجع السابق ص 7 .

(7 ، 8 ، 9) مذكرات طه حسين ص 11 .

التفسير كان يلقيه الشيخ سليم البشري الذي فسر فيه آية « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله »(1) فاعترض طه حسين على تفسير الشيخ قائلا : إن هذا جبرية مطلقة . فقال الشيخ البشري : من أين تعلمت هذا الكفر؟ من أساتذك الإفرنج »؟ ، فحثه « سانتللانا » على السكوت .(2)

وحضر كذلك في الجامعة دروس « ميلوني » في تاريخ الشرق القديم ، وخصوصًا تاريخ بابل وآشور وسومو ، كما حضر دروس « ماسينيون » 1912 ـ 1913 عن الاصطلاحات الفلسفية .(3)

وكان طه حسين قد بدأ في تعلم اللغة الفرنسية منذ عام 1908 ، وحين استأنس من نفسه القدرة على متابعة الدروس التي تلقى بها ، حضر دروس الأدب الفرنسي التي كان يلقيها « لوى كليمان «Louis Clément» وكان أستاذًا في جامعة «Lille» قبل انتدابه للتدريس بالجامعة المصرية(4)

كما استمع إلى دروس الجغرافيا التي كان يلقيها إسماعيل رأفت ، الذي لم يدرس لطلابه غير أفريقية الغربية وبعض جزر المحيط .(5)

على أن هذه الحياة الجامعية الجديدة لم تصرف طه حسين عن الأزهر تمامًا ، فقد ظل متصلا به حتى سنة 1912 ، ولعله كان يتمثل في ذهنه الجمع بين الدراستين ، متأثرًا بدور الأستاذ الإمام في البيئة العامة ، وحسبنا أن نسوق هذه العبارة الصريحة : « كنت أريد أن أكون شيخًا من شيوخ الأزهر مجددًا في التفكير والحياة على نحو ما كان يريد المتأثرون بالشيخ محمد عبده . أستعين في ذلك بما أسمع في الجامعة ، وما أقرأ من الكتب المترجمة ، وما أجد في الصحف ، وما ألتقط من أحاديث المثقفين ، فأصبحت وأنا أشد الناس انصرافًا عن الأزهر ونفورًا من دروسه وشيوخه ، وحرصًا على أن أهجر مصر وأعبر البحر إلى بلد من هذه البلاد التي

(1) سورة الأنعام ـ الآية 111 .
(2، 3، 4) مذكرات طه حسين ص 12ـ الدكتور عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ص 11 .
(5) الدكتور عبد الرحمن بدوي : نفس المرجع ص 11 .

يطلب فيها العلم الواسع والأدب الراقي وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه. (1)

وإذا كانت العوامل النفسية قد أثرت في هذا الإتجاه إلى التجديد، فإن تحوله إلى الجامعة القديمة التي فتحت أبوابها عام 1908 يمثل انتقالا من بيئة محافظة سلفية أحالت، أو كادت تحيل العقول إلى أجهزة تجتر المحفوظ من الأقوال والصيغ والروايات، إلى بيئة أخرى تكبر من شأن الفرد وتحترم قدرته على التفكير وتعينه على النقد والتقويم، وتدفعه إلى الإبتكار إذا كان من أصحاب الإستعداد له، وتفتح له أبواب البحث لكي يضيف إلى العلم جديدًا. والحق أن طه حسين استطاع أن يقوم التراث العربي، تقويمًا يضعه في مكانه من تاريخ حضارة الإنسان. (2)

وفي هذا الإتجاه الجديد، استشعار قوي للذات عند طه حسين، بعد رسوبه في امتحان العالمية كما هو معروف، يبين من الاستزادة من مناهج البحث الجديدة التي تختلف كل الإختلاف عن المناهج الأزهر. (3) وفي تلك الأثناء كان يحضر رسالة الدكتوراه، ولم يكن التقليد قد جرى بعد بأن يحضرها تحت إشراف أستاذ من أساتذته، فحضرها بنفسه وقدمها، فنوقشت بين يدي الجمهور في 15 مايو 1914، (4) وكانت هذه الرسالة — كما يقول — «أول كتاب نال صاحبه إجازة علمية منها (أي من الجامعة). (5) ونشرت هذه الرسالة في كتاب في العام التالي، وتولى نشرها عبد الحميد حمدي (صاحب السفور) سنة 1915. وكانت بسبيل أن تحدث ضجة لولا أنها أخمدت في المهد. ذلك أن أحد أعضاء الجمعية التشريعية، وهو عبد الفتاح الجمل عن بور سعيد، قدم سؤالا في الجمعية، وطالب بحرمان طه حسين من حقوق الجامعيين لأنه ألّف كتابًا فيه إلحاد وكفر، وهو هذه الرسالة. وكانت الأسئلة تقدم أولا إلى رئيس

---

(1) أديب ص 42.

(2) الدكتور عبد الحميد يونس: «طه حسين بين ضمير الغائب وضمير المتكلم» — مرجع سبق. 65.

(3) مذكرات طه حسين 66.

(4) أنظر ملاحق البحث — ملحق رقم ( ) من وثائق الجامعة — نص محضر لجنة الامتحان.

(5) مقدمة «ذكرى أبي العلاء».

الجمعية التشريعية ، سعد زغلول يومئذ ، الذي أحضر صاحب السؤال وأقنعه بالعدول عن سؤاله لما يترتب على ذلك من ضرر سيمتد إلى الأزهر أيضًا ولن يقتصر على الجامعة .(1)

الوسط الفرنسي :

أما الوسط الفرنسي في بيئة تكوين طه حسين ، فيعمق إحساسه بذاته الفردية والقومية ، والذي تعرفنا على بواكيره في الجامعة والجريدة ، حيث أصبح مهيئًا لتقبل الثقافة الأروبية ، وتمثلها من مصادرها وأتيح له ذلك حين قررت الجامعة في عام 1914 إيفاده في بعثة إلى فرنسا ، وكان من المقرر أن يسافر في 2 أغسطس ، ولكن هذا الموعد قد تأجل لنشوب الحرب العالمية الأولى ، كما أعيد بعض الطلاب الذين كانوا يدرسون في أوروبا .ثم أذن له بعد ذلك بالسفر ، في نوفمبر 1914 على ألا يذهب إلى باريس لقربها من ميدان الحرب . فسافر إلى مونبلييه ، وفيها اهتم بدراسة اللغة الفرنسية التي لم يكن يحسن الكلام بها بعد ، وحضر بعض الدروس في جامعتها في علم النفس على « فوكو » و« الأدب الفرنسي » و« التاريخ الحديث » وبقى في مونبلييه من نوفمبر 1914 إلى سبتمبر 1915 .(2)

ولم تلبث الجامعة المصرية أن ساءت حالتها المالية فقررت إعادة مبعوثيها في عام 1915 ، وعاد طه حسين ليمكث ثلاثة أشهر في مصر ، حدث في أثنائها أن إختلف إلى درس للشيخ محمد المهدي ، فلم يرقه وأعلن رأيه في « السفور » مقارنًا بين درس شيخه ودروس أساتذة الآداب الفرنسية التي سمعها في فرنسا . فاستشاط الشيخ المهدي غضبًا ، وشكاه إلى مجلس إدارة الجامعة ، وحاول إصدار قرار بمحو اسمه من بين طلاب البعثة ، ولكن علوي باشا أصلح ما بينهما بواسطة علي بهجت مدير دار الآثار ، فانتهت هذه الخصومة التي أوشكت أن تحرمه من العودة إلى فرنسا . وفي ذلك يذكر طه حسين أنه قد تألم بسبب انقطاع دراسته ، ألما ظهرت آثاره في مقالاته « بالسفور » إلا أن السلطان حسين كامل كان قد تدخل لحل أزمة

(1) الدكتور عبد الرحمن بدوي . مرجع سبق ص 12 ـ مذكرات طه حسين ص 33 ـ 39 .
(2) الدكتور عبد الرحمن بدوي : مرجع سبق ص 12 ـ مذكرات طه حسين ص 73 ـ 79 .

الجامعة المالية فانصلح مركزها المالي ، وتقرر إعادة إيفاد المبعوثين ، وقابلوا قبل سفرهم السلطان الذي سألهم وسأل طه حسين من أول من أنشأ التعليم العالي في مصر ،فلم يحر جواباً .(1)

ويعود طه حسين إلى فرنسا في أول يناير 1916 ، فيذهب إلى باريس ويلتحق بكلية الآداب في جامعتها ، ويتابع دروس اللغة الفرنسية ، ويشرع في دراسة اليونانية واللاتينية . وكان قد بدأ يفهم الدروس التي تلقى بالفرنسية فحضر التاريخ اليوناني على « جلوتز «Glotz » والتاريخ الروماني على « بلوك G. Block» والتاريخ الحديث على« سينوبوس Seignobos كما حضر دروسًا في علم الإجتماع على « أميل دوركايم Emile Durkheim الذي حضر تحت إشرافه رسالته عن « الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون » وبعد وفاة دوركايم تولى « سلستان بوجليه «Célestin Bouglé الاشراف عليه ، ومناقشته بدلا من دوركايم . كما حضر دروس « كازانوفا » في تفسير القرآن الكريم ، والتي كان يلقيها في « الكوليج دي فرانس(2) —Collège de France

وفي سنة ، 1917 يحصل على درجة الليسانس في الآداب من السوربون ، ويحصل في اللاتينية على 16 درجة من عشرين . ويحضر دروس « شارل ديل Charles Diehl» عن بيزنطه وعن العصور الوسطى كما يحضر دروس « لانسون Lanson» في الأدب الفرنسي ، ودروس ليفي بريل Lévy Brühl عن ديكارات .(3)

وفي 9 أغسطس من نفس العام يقترن بزوجته « سوزان بريسو» التي يكون لها أبعد الآثار وأعمقها في حياته من بعد ، ويذكر أنها قد مكنته في تلك الفترة من دراسة اللاتينية ، وأنها كانت تصحبه إلى مكتبة القديسة « جنيفاف » وقرأ عليها الأدب الفرنسي . ويشير الكاتب الفرنسي « روبير لا ندري » إلى هذا الزواج بقوله :

« وذات يوم بينما كان طه حسين على مقعده في قاعة المحاضرات في

---

(1) المرجع السابق ص 13 ــ مذكرات طه حسين ص 165 وما بعدها .

(2، 3) المرجع السابق ص 13 ــ مذكرات طه حسين ص 165 وما بعدها .

جامعة السوربون سمع صوتا جميلا يرن في أذنيه ، صوت صبية حنون تقول له بعذوبة إني أستطيع أن أساعدك في استظهار الدروس كانت صاحبة الصوت سوزان بريسو التلميذة الفرنسية المنحدرة من عائلة كاثوليكية في مدينة « بورجون » . . وقد ظلت سوزان تتردد زمنا قبل أن تتزوج طه حسين المسلم . ولكن أحد أعمامها استطاع أن يقنعها ، وكان ذلك العم قسيسا ، فقال لها « مع هذا يمكن أن تثقي بأنه سيظل معك دائما » .(1) على أن أثر هذا الزواج في نفس طه حسين يمثل ــ كما يقول في تصدير بعض كتبه ــ « نورا بعد ظلمة وأنسا بعد وحشة ، ونعمة بعد بؤس » وهي التي أحاطت حياته اليومية بجو من النظام والتركيز والتوازن والإهتمام بالشكل مع المحافظة على الجوهر ، مما أعانه كثيراً على أداء دوره في الجامعة والفكر والصحافة .

وهي التي أعانته على أن يفرغ من رسالة الدكتوراه عن ابن خلدون والتي نوقشت في يناير 1918 وكانت لجنة الحكم على الرسالة تتألف من « بوجليه «Bouglè وجستاف بلوك Block و« كازانوفا Casanova » ثم انتهى بعدها من دبلوم الدراسات العليا في مايو ــ يونيو 1919 ، وكان موضوع بحثه لنيل هذا الديبلوم :

«La loi de lèse-Majesté sous Tibere d'après Tacite»

واضطر من أجل إعداد هذا البحث إلى قراءة كتاب القانون المدني الروماني في ثمانية أجزاء وكتاب القانون الجنائي الروماني في ثلاثة أجزاء ، وكلاهما تأليف « مومسن Mommsen » العالم الشهير في التاريخ الروماني . وكان عليه أن يأتي بالنصوص في أصلها اللاتيني ليكشف عن مدى علمه باللاتينية . وقد حصل على درجة « ممتاز » في هذا البحث .(2)

ولم ينفصل تمثل طه حسين للثقافة الفرنسية عن تمثله الوسط الفرنسي الذي يمثل لديه « الحياة بعد أن تخرج من هذه الأعماق »(3) فباريس عند طه حسين تكاد تختصر العالم الإنساني باختلاف أزمنته وأماكنه .(4) ويقوم

---

(1) سامي الكيالي : مع طه حسين ج1 ص 33 ــ مذكرات طه حسين ص 165 وما بعدها .
(2) الدكتور عبد الرحمن بدوي : مرجع سبق ص 14 .
(3) أديب ص 101 .
(4) من بعيد ص 20 .

تمثله لهذا الوسط الفرنسي على تعمقه في « الإتصال بحياته الحقيقية الداخلية ، والوقوف على أسرار هذه الحياة ، وعلى هذه الأمور الخفية التي تبعث الأفراد على أن يعملوا ، والجماعات على أن يجاهد بعضها بعضا ، ويمكر بعضها بعض ، ويتغلب بعضها على بعض »(1) فهو لا يتمثل العمارة والتصوير والنحت والآثار وما يتصل بها من مصادر التاريخ فحسب(2) ولكنه معنى « قبل كل شيء » « بأهل » هذا البلد ، وأساليبهم في التصور والحس والشعور والحياة بوجه عام »(3) ويتوسل إلى هذه المعرفة بـ« الإمعان في قراءة الصحف الفرنسية والكتب الفرنسية والإمعان في تفهمها وتعرف حقيقتها »(4) .

ثقافة طه حسين :

نخلص مما تقدم إلى تحديد المكونات الثقافية لعقلية اتخذت من المقال الصحفي وسيلة لصياغة الثقافة المصرية وتوجيهها ما يقرب من نصف قرن ، ضمن أساليبه الأدبية والفنية العامة التي اتجه من خلالها طه حسين إلى دراسة فروع المعرفة المختلفة في النقد الأدبي وتاريخ الأدب والتاريخ الإنساني والإسلامي وفلسفة التربية والتعليم .

ولعل في مقدورنا أن نحدد هذه المقومات الثقافية من خلال عناصر ثلاثة التقت فيها التيارات القديمة والحديثة .

أولاً : العنصر المصرى الخالص ، الذي ورثناه عن المصريين القدماء على اتصال الأزمان بهم وعلى تأثرهم بالمؤثرات المختلفة التي خضعت لها حياتهم ، والذي « نستمده دائماً من أرض مصر وسمائها ، ومن نيل مصر وصحرائها »(5) وهو العنصر الذي تمثله طه حسين منذ تكوينه الثقافي الأول في البيئة الأولى . وعلى النحو الذي يظهر من تمهيده لدراسة الأدب الشعبي والمأثورات الشعبية (6) » . كما تمثله في بيئته الثانية في القاهرة ،

(1، 2، 3) رحلة الربيع والصيف ص 160 ، 161 .
(4) المرجع السابق ص 162
(5) الدكتور طه حسين : فصول ص 99 .
(6) الدكتور عبد الحميد يونس : مرجع سبق ص 67 .

وفي مدرسة « الجريدة » خاصة ، التي بلورت الأفكار القومية الأوروبية في فكرة « مصر للمصريين » التي انعكس فيها احساس مدرسة لطفي السيد بالتاريخ المصري ،(1) وبالنتائج التي توصل إليها علم الآثار المصرية القديمة ، والتي احتفى بها لطفي السيد في« الجريدة »(2) » ليخرج من نفس المصرى القنوط من ارتقاء مصر ويجعل آراء الذين يظنون بمصر عدم الاستعداد الطبيعي للاستقلال والسيادة من السخافة بمكان »(3) .

ويبلغ هذا العنصر المصرى الخالص مداه عند طه حسين حين يذهب في « مستقبل الثقافة » إلى أن « مصر الجديدة لن تبتكر ابتكاراً ولن تخترع اختراعاً ، ولن تقوم إلا على مصر القديمة الخالدة ، وبأن مستقبل الثقافة في مصر لن يكون إلا امتداداً صالحاً راقياً ممتازاً لحاضرها المتواضع المتهالك الضعيف »(4) .

وتتصل المكونات الأساسية للعقل المصرى عند طه حسين بأقطار الشرق القريب اتصالا قريباً منظماً مؤثراً في حياته ومتأثراً بها ، وباتصاله بالعقل اليوناني منذ عصوره الأولى اتصال تعاون وتوافق ، وتبادل مستمر منظم للمنافع في الفن والسياسة والإقتصاد . (5)

ويغذي هذا العنصر المصري في ثقافة طه حسين كذلك ما تلقاه في الجامعة القديمة ، من دروس في « الحضارة المصرية القديمة »(6) على يد أحمد كمال ، الذي شرح لطلابه « مذهبه في الصلة بين اللغة المصرية القديمة وبين اللغات السامية ومنها اللغة العربية . ويستدل على ذلك بألفاظ من اللغة المصرية القديمة يردها إلى العربية مرة وإلى العبرية مرة أخرى وإلى السريانية مرة أخرى . والفتى دهش ذاهل حين يسمع كل هذا العلم ، وهو أعظم دهشة وذهولا حين يلاحظ أنه يفهمه ويسيغه في غير مشقة ولا جهد » . (7)

ونخلص من ذلك إلى أن عوامل الثقافة في البيئتين الأولى والثانية، قد

---

(1) الدكتور حسين فوزي النجار : لطفي السيد والشخصية المصرية ص 150 .
(2، 3) الجريدة في 8 ديسمبر 1912 — لطفي السيد / تأملات ص 13 .
(4، 5) مستقبل الثقافة في مصر ج1 ص 6 — 12 .
(6، 7) مذكرات طه حسين ص 55، 56 .

تضافرت جميعاً على تكوين العنصر المصري الخالص في ثقافة طه حسين ، وهو العنصر الذي يثمر فكرته القومية ، التي تجعل من الأمة المصرية محور التفكير الأساسي ، أولا ــ بمعنى : الوطن القومي ، وثانياً ــ بالمفهوم الليبرالي ، تنفي مجموع المصالح الفردية ، حيث يغدو الشعور الوطني أهم عناصر هذه القومية ، بينما يكتسب الدين قيمته الإجتماعية مما يقدمه للفكرة الوطنية من محتوى ولوحدة الأمة من قيمة ، ولذلك فإن الدين الإسلامي عند طه حسين عنصر أساسي من عناصر الوطنية المصرية .(1)

ثانياً : العنصر العربي ، وتأسيساً على ما تقدم ، فإن العنصر العربي الذي يأتينا من « اللغة ومن الدين والحضارة »(2) من مقومات الشخصية المصرية عند طه حسين ومقوم أساسي من مقومات ثقافته ، لأن هذا العنصر العربي قد امتزج بالحياة في مصر امتزاجاً « فاللغة العربية فينا ليست لغة أجنبية ، وإنما هي لغتنا ، وهي أقرب إلينا ألف مرة ومرة من لغة المصريين القدماء وقل مثل ذلك في الدين ، ومثله في الأدب »(3)

وأول مصادر هذا العنصر في ثقافة طه حسين يرتبط ببيئته الأولى في القرية ، حين حفظ « ألفية ابن مالك » وبعض أجزاء مجموع المتون ، إلى شغفه منذ صغره بالاختلاط بالبيئة العلمية(4) ويتقدم القرآن الكريم مصادر هذا العنصر العربي في توجيه ثقافة طه حسين ، وتقويم أسلوبه ، في الأدب والصحافة وما في هذا الأسلوب من تأثير بياني وموسيقى ينبع من تناسق الألفاظ والعبارات تناسقًا فريداً ، وهذا التكرار الذي لا يمل وإنما يستزاد من غير ارتواء ، وهذا الشمول في التحليل مع الإهتمام بالتفاصيل ، كل هذا بغير انحراف عن الغاية الأساسية وبغير تشويه للجمال أو تعريض المعنى للغموض وعدم الوضوح(5) .

وعلى الرغم من تبرم طه حسين بأسلوب الأزهريين ، وسخطه عليهم فقد كانت السنوات الأربع التي قضاها في الأزهر من أهم مراحل تكوينه

---

(1) مستقبل الثقافة ج1 ص 81 .
(2،3) فصول ص 99.
(4) الأيام ج 1 ص 83 ــ 85 .
(5) الأب كمال قلته : طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في أدبه ص 39 .

العقلي ، التي أصبحت قواما أساسيا لثقافته اللغوية والنقدية ، فكل ما يمتاز به أسلوبه من الرصانة والفصاحة ، يرجع إلى هذه الفترة التي تعلم فيها دروس الأدب على شيوخ الأزهر وخاصة الشيخ المرصفي ، (1) الذي بغض إليه أبا العلاء فأحبه وشغف به بالرغم من بعض رضاه عن دروس الشيخ المرصفي . (2) الذي يعتبره الأستاذ الثاني بعد لطفي السيد (3) والذي أسهم في تحول طه حسين من الدراسة الدينية التقليدية إلى دراسة الأدب العربي القديم(4) حين رأى أخاه الشيخ أحمد حسين مع نفر من زملائه يكثرون من حديث الأدب ويتذاكرون فيما بينهم ديوان « الحماسة » وكان درساً خارج برنامج الدراسات الأزهرية ، كان الشيخ يلقيه في الضحى بين درس الفقه الذي كان يلقى في الصباح ودرس النحو الذي كان يلقى بعد صلاة الظهر ، وكان يلقى في مكان ممتاز هو الرواق العباسي الذي كان الأستاذ الشيخ محمد عبده يلقي فيه درسه بين المغرب والعشاء . ولم أكد أختلف إلى هذا الدرس أياماً حتّى شغفت به شغفاً شديداً فواضبت على شهوده ، وعنيت بحفظ كل ما يلقى فيه من شعر وكان الأزهريون يعدون هذا الدرس بين دروس العلوم الحديثة التي أدخلها الشيخ محمد عبده في الأزهر ، كالحساب والجغرافيا ، وما هي إلا أن أحببت الشيخ وأحبني أشد الحب ، وأصبحت من أقرب تلاميذه إليه . . وهذا الشيخ هو سيد علي المرصفي ، وكان أشد صفاته أنه يكره الأزهريين وتقاليدهم ، ويزدرى دراستهم ومذاهبهم في هذه الدراسة ، وكان يقضي أكثر وقته عابثاً بالشيوخ ساخراً منهم ، محاولا أن يحبب الأدب إلى تلاميذه ، ويبغض إليهم دروس الأزهر المألوفة وكتبه التقليدية ، وكان ينصح لنا أن نقرأ النحو والبلاغة والفقه في الكتب القديمة التي كان الأزهر يجهلها أشد الجهل ، ومنذ ذلك الوقت فتنت بالأدب وأستاذه ، وجعلت أسخر من شيوخنا وطرقهم في الدرس .(5)

ويلتقي طه حسين في هذا الدرس مع زميليه : أحمد حسن الزيات

(1 ، 2) الدكتورة سهير القلماوي : مجلة قافلة الزيت ، مجلة الهلال في فبراير 1966 .
(3 ، 4) كلمة طه حسين في تأبين لطفي السيد ص 12 .
(5) من حديث مع طه حسين ، أجراه فؤاد دواره في كتاب : عشرة أدباء يتحدثون ـ ص 16 .

ومحمود الزناتي ، وكانوا ثلاثتهم من أشد الناس سخطاً على الأزهر وشيوخه ، وكانوا مشغوفين بالأدب ، يسمعون دزوسه ، ويتجهون إلى دار الكتب ليقرأوا فيها كتب الأدب التي لم تكن تتاح لهم . ثم ترك الشيخ المرصفي ديوان الحماسة ، وأخذ يقرأ عليهم كتاب « الكامل » للمبرد فازداد افتتانهم بالأدب وحرصهم على الإنقطاع له ، واتسعت المودة بيننا وبين الأستاذ ، فكنا نذهب إليه في داره ، ونتلقى عليه بعض الدروس فيها ، ونتلقى عليه بنوع خاص العبث بالشيوخ والاستهزاء بهم . (1)

على أن هذا التحول إلى الدراسة الأدبية ، لم يحل بين طه حسين والإفادة من الدراسة الأزهرية التقليدية ، ففي هذا المعهد عرف من أسرار العربية وخصائصها ما جعله « يقف فرداً وعلماً في الأدب العربي الحديث من حيث رصانة الأسلوب وفصاحته . إنه أكثر الأدباء العرب تأثراً بأسلوب القرآن الكريم . منه يأخذ كثيراً من ألفاظه البديعة وإليه يرجع المثل الذي يحتذيه في كثير من التعابير والأساليب . (2)

ويدرس طه حسين في الأزهر : الفقه والنحو ، إلى جانب دراسته النظامية في الحديث والمنطق ، بمقدار ما في « مراقي الفلاح »(3) وشرح الكفراوي(4) وشرح الشيخ خالد(5) في النحو ، وفي المنطق يحضر « متن السلم » للأخضري وهو عبارة عن كتيب صغير من النظم التعليمي في المنطق كما درس شرح الكسائي على الكنز وهو كتاب في الفقه الحنفي عبارة عن شرح على متن الكنز للنسفي بعد أن خلصه الشارح من مسائل الخلاف مع أصحاب المذاهب الأخرى . (6) كما درس « الأزهرية » في النحو ، وهو من كتب الذاكره ، وكذلك كتاب « شرح السيد الجرجاني على إيساغوجي » كما ألم بكتاب « قطر الندى » لابن هشام تعجلا للتعمق في النحو والفراغ من كتب المبتدئين والوصول إلى شرح « ابن عقيل » على الألفية(7) ويطيل طه حسين في حديثه عن دروس النحو ، التي كان لها آثارها في تكوينه النحوي كما يقول ، إذ أسلمته دراسته الأزهرية إلى نوع

(1) من حديث مع طه حسين أجراه فؤاد دواره في كتاب : عشرة أدباء يتحدثون ــ 16 .
(2) الدكتورة سهير القلماوي : مرجع سابق .
(3، 4، 5) محمد سلمي البدراوي : مرجع سابق ص 35 ــ الأيام ج 2 ص 116 .
(6 ، 7) المرجع السابق ص 5 ، 6 ، 3 الأيام ج2 ص 114 ، 115 ، 129 .

من الثقة بالنفس ،(1) فأضاف دراسة التوحيد ، بعد أن قرأ في الفقه « شرح ملامسكين على الكنز » واستزاد من النحو فقرأ « المفصل » للزمخشري وكتاب (2) سيبويه إلى ما حفظه مع أخيه من آثار أدبية مثل(3) معلقتي طرفه وامرىء القيس وعشر مقامات للحريري ، وطائفة من كتاب نهج البلاغة (وكان يدرسها الأستاذ الإمام نفسه) وطائفة من مقامات البديع ، وقصيدة « أراك عصي الدمع » « لأبي فراس » وديوان الحماسة مع شرح التبريزي .

ومن ذلك تبين صورة المصدر الأزهري في ثقافة طه حسين العربية وهي الصورة التي يصورها في « الأيام » تصويراً مسهبا ، نرى فيه عقلية فتية تثور على الأوضاع العلمية إذ ذاك ، ولكن هذه الثورة لم تطمس الأثر الإيجابي في نفسه وثقافته ، وهو الحرص الشديد على التعمق في فهم النصوص وتجنب السطحية والعلم المحفوظ(4) ودراسة الأزهر في تلك الأيام كما يقول ـ كانت تمتاز بتنشئة الملكات التي تتيح الفهم والتعمق والصبر على البحث . وليس هذا بالشيء القليل(5)

وقد توهج هذا الأثر الإيجابي في البيئة الجامعية ، التي درس فيها المناهج الجديدة ، وجاءت رسالته عن « أبي العلاء » ثمرة هذا الأثر الإيجابي ، وفهم شعر الشاعر من خلال مقاييس عصرية .(3) أفاد فيها بملكته العربية من مناهج المستشرقين في البحث وليس بآرائهم ، كما يقول(7) الأمر الذي يوصله أحياناً إلى استكشاف خطأ في آرائهم ، لأن « علمهم بالعربية وأسرارها ودقائقها أقل من علم المتخصصين العرب »(8) /

وفي ذلك ما يبين تضافر المؤثرات العامة والخاصة في بيئة طه حسين ، على توجيه الثقافة المصرية الحديثة وجهة جديدة ، تمتاز بمتانة « الصلة بأدبنا

---

(1) المرجع السابق ص 5، 6، 3 الأيام ج 2 ص 114، 115، 129 .
(2، 3) الأيام ج 2 ص 129 ـ 131 ، 139 ، 154 ـ 160 .
(4 ، 5) من حديث مع طه حسين أجره فؤاد دواره : مرجع سابق ص 17 .
(6) الدكتورة سهير القلماوي : مرجع سابق .
(7 ، 8) من حديث مع طه حسين : نفس المرجع ص 19 .

القديم »(1) بحيث يصبح « كل حديث لا قيمة له ولا غناء فيه إذا لم يعتمد أصدق الاعتماد على الأدب القديم »(2)

ثالثاً : العنصر الأجنبي :

أما العنصر الثالث في ثقافة طه حسين فهو العنصر الأجنبي ، الذي أثر في الحياة المصرية دائماً ، والذي سيؤثر فيها دائماً ، ولا سبيل لمصر أن تخلص منه ، ولا خير لها في أن تخلص منه لأن طبيعتها الجغرافية تقتضيه وهو ، هذا الذي يأتيها من اتصالها بالأمم المتحضرة في الشرق والغرب . جاءها من اليونان والرومان واليهود والفينيقيين في العصر القديم ، وجاءها من العرب والترك والفرنجة في القرون الوسطى ويجيئها من أروبا وأمريكا في العصر الحديث الآن(3) .

ومصادر هذا العنصر الأجنبي في ثقافة طه حسين مستمدة من البيئة التي عاش فيها ـ أولا ـ من الثقافة الفرنسية ثانياً ـ ومن الثقافة اللاتينية ثالثا .

أما البيئة العامة فهي بيئة « التعقيل » التي عنيت بإشاعتها « مدرسة الجريدة» في الحياةالمصرية . والتوفيق بين الفكرين : الأوربي والمصري ، لإنتاج تفكير قومي خالص غير متخلف عن نظائره في الغرب .

وفي هذه البيئة يتابع طه حسين ما ترجم فتحي زغلول عن الفرنسية وما كان السباعي يترجمه عن الأنجليزية وما كان جورجي زيدان يكتب في « الهلال » من مقالات وما كان ينشر من قصص وما كان يؤلف من كتب في تاريخ الأدب والحضارة . (4) وكان فتحي زغلول ترجماناً للإنجليز عند قومه ، ولكنه ترجمان بالواسطة حين ترجم لهم في أوائل هذا القرن كتاب « أدمون ديمولان » « سر تقدم الإنجليز السكسونيين »(5) كما كان يتابع آثار العلمانيين ، وما نشروه من مقالات « تغريبية » فقرأ مقالات يعقوب صروف

(1، 2) الدكتور طه حسين : نهضتنا الأدبية وما ينقصها : مجلة الهلال ج1 م 42 عام 1933 .
(3) الدكتور طه حسين : فصول ص 100 .
(4) الأيام ج 2 ص 174 .
(5) فصول ص 38 .

في « المقتطف » كما كان يقرأ لشبلي شميل وفرح أنطون .(1) وإلى ذلك كان يقرأ ما يكتب الشيخ رشيد رضا في المنار ، وكتب قاسم أمين وكثيرا من آثار الأستاذ الإمام وكان يقرأ هذه القصص الكثيرة التي تترجم لتلهية القراءة والتي كان يفتن بما كان يجد فيها من صور الحياة (2) وكان يقرأ عليه بعض الشباب من المطربشين من غير أبناء أسرته ، بعض كتبهم كما كان هو يقرأ عليهم شيئاً من الأدب القديم .(3)

ومن ذلك يبين أثر البيئة العامة في توجيه طه حسين إلى الثقافة الأجنبية فكان لطفي السيد ـ يوجهه إلى آراء فولتير وروسو ومنتسكيو ، ويوجهه إلى تعلم الفرنسية والالتحاق بالجامعة المصرية ، التي تعرف فيها على الثقافة الفرنسية عن طريق أساتذته من الفرنسيين . ولعل « ماسينيون » من أول هؤلاء الذين استمع إليهم . وكانت رسالته للدكتوراه عن فلسفة ابن خلدون ، ثمرة تمثله للثقافتين الفرنسية والعربية ، ودليل تمكنه من الفرنسية واستعابه للفكر والأدب الفرنسيين ، واستعداده الطبيعي للتعمق في الثقافة الفرنسية .(4) وقد منحته « الكوليج دى فرانس » جائزة « سنتور » المعروفة بعد أن نالت رسالته أعظم تقدير من أساتذة السربون ،(5) رغم اعتذاره الرقيق عن أسلوبه الفرنسي الذي يكشف عن تواضع جم « إذا » مابدا في كثير من المواضع ركيكاً أو خاطئاً » .

وكان لهذا الارتباط بالثقافة الفرنسية أثره بعد عودة طه حسين إلى وطنه في سنة 1919 حيث ارتبط بصداقة الكثير من المفكرين المعاصرين ، مثل « أندريه جيد » ، « وما سينيون » ، « وسارتر » ، « وبول فاليري » ، ولم يقف عند حد الاستيعاب من الأدب الفرنسي ، بل وقف على كثير من الأدباء الفرنسيين في مختلف عصور الأدب الفرنسي ، موقف الناقد المحلل لكثير من الإنتاج الفكري الفرنسي ، كما حاول أن يؤرخ للأدب الفرنسي في بعض كتبه .(6) وله مقالات يدرس فيها البيئة الفرنسية وينقد الشعراء

(1 ، 2 ، 3) الأيام ج 2 ص 177 ، 174 .

(4) الأب كما ل قلته : مرجع سابق ص4 .

(5) سامي الكيالي : مع طه حسين ج 1 ص 37 .

(6) الأب كمال قلته : نفس المرجع ص 41 ــ ألوان ــ فصول ــ قصص تمثيلية ــ صوت باريس . . الخ .

والفلاسفة الفرنسيين ويترجم بعض القصص والروايات الفرنسية . (1) وحين عين عميداً لكلية الآداب ، أنشأ قسماً جديداً للدراسات الفرنسية على غرار الأقسام في جامعة السربون وأتى بأحسن الأساتذة وفرض على أستاذ اللغة الفرنسية أن يلقى المحاضرات من السنة الأولى وليس في السنة الرابعة وحدها كما كان معتاداً آنذاك ، وشجع البعثات للتخصص وكان سعيداً أن يرى تلاميذه يحصلون على درجات علمية أعلى مما كان معتاداً يوم كان طالبا في فرنسا . (2)

وتمثل الثقافة الفرنسية عند طه حسين نموذجاً رائعاً وصورة حية وامتداداً للثقافة اليونانية في تطور العقل البشري وأثره العظيم في كل عصر(3). ويقف طه حسين عند الآداب الفرنسية في عصر النهضة وأول العصر الحديث بنوع خاص لأنها كانت « معتدلة وحريصة على ألا تقيد المؤلف إلا بمقدار حرصها على أن تلائم بين ما تنتج على ما فيه من التجديد وبين ما هو قائم من النظام والتقليد »(3) لأن الأمة الفرنسية التي هي متأثرة بالطبيعة اللاتينية ومتأثرة بطبيعة هذه الحضارة ، حضارة البحر المتوسط ، قريبة في عقلها وشعورها من اليونانية واللاتينية(4).

على أن مصادر الثقافة الفرنسية عند طه حسين تتجاوز الآثار الأدبية ، إلى الاطلاع على الصحف الفرنسية والحرص على متابعتها والإفادة من طرائقها في التحرير والتعبير ، ومعالجة الموضوعات التى يعنى بها فن المقال في الصحافة الفرنسية ، التي كانت قد طفرت طفرة جديدة بفضل شخصية محرريها الذين كانوا يوقعون مقالاتهم ، وكان هؤلاء الصحفيون « من خيرة رجال الأدب الأمر الذي ساعدهم على التفوق في تحرير مقالاتهم السياسية بأسلوب رفيع مما اجتذب القراء إلى صحفهم » . (6) ومن هذه الصحف

(1، 2) الأب كمال قلتة: نفس المرجع ص 41 ـ ألوان ـ فصول ـ قصص تمثيلية ـ صوت باريس . . . الخ

(3) ألوان ص 189 .

(4، 5) طه حسين : الحياة والحركة الفكرية في بريطانيا ص 20 .

(6) جورج فيل (وترجمة ادرجار موصلي وحسن سلوفه) : الجريدة ص 88 الدكتور طه حسين : رحلة الربيع والصيف ص 162 وما بعدها .

التي ظهرت قبل بعثة طه حسين إلى فرنسا ، صحيفة « الفيجارو «Le Figaro التي وصلت إلى أوج قمتها قبل سفره وأصبحت عن جدارة صحيفة باريس الأولى(1) ثم صحيفة « الطان «Le Temps » التي كانت تشبه جريدة » « التيمس «Times» الإنجليزية لما اتسمت به من طابع جدي محترم في رواية الأخبار الصادقة ، وكانت صحيفة الرأي والخبر على السواء(2) . كما ظهرت عدة صحف في بداية هذا القرن ، قفزت إلى الصفوف الأولى من صحف الرأي منها « لومانتييه «L'Humanité» أهم الصحف الإشتراكية التى أسسها « جوريس «Jaurès» ثم جريدة « لاكسيون فرانسيز «L'action Fançaise» وجريدة « لوفر «L'oeuvre» الأسبوعية والتي صدرت يومية منذ سنة 1914 وكانت لسان الحزب الرايديكالي ، وكانت للجماهير صحفها مثل « لوبوتي جورنال «Le Petit Journal» التي كانت تباع النسخة منها بمبلغ « سو » واحد ، وصحيفة « لوبوتي باريزيان «Le petit Parisien» وكانت تنافس هاتين الصحيفتين جريدة رجال الدين «La Croix»(3)

وإذا كان طه حسين قد قضى فترة دراسته في فرنسا أثناء الحرب الأولى ، فقد أتيح له أن يجد الصحافة في قوتها وضعفها معا نتيجة فرض الرقابة عليها ،(4) التي لم يلغها « كليمنصو » بعد أن تولى رئاسة الوزارة ، ولكنه خفف من قيودها ، وترك الصحف تهاجمه وترسم له الصور « الكاريكاتيرية »(5) ولم ينقطع اتصال طه حسين بالصحف الفرنسية بعد عودته إلى مصر ، فقد كان حريصا على أن ينقل لقراء « السياسة » بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في فرنسا ، ويعلن أنه قرأ في « الطان »(6) أن رجلا أهدى إلى جامعة باريس عشرة ملايين فرنك لإقامة حي خاص يسكنه الطلبة الذين يدرسون في هذه الجامعة .(7) ثم يعلق على هذا

(1، 2) جورج فيل (وترجمة ادرجار موصلي وحسن سلوفه): الجريدة ص 88 الدكتور طه حسين: رحلة الربيع والصيف ص 162 وما بعدها.

(3، 4، 5) المرجع السابق ص 88 ، 103 ، 105 .

(6) الدكتور طه حسين : من بعيد ص 45 .

الخبر ، كما نجد في المقال التنويري ، ويتابع مذكرات « بيـيرلوتي » التي كانت تنشرها « الالوستراسيون » (1) كما نجد في فن اليوميات الصحفية ، وفي هذه الإشارات وغيرها نجد الصحافة الفرنسية عند طه حسين ليست « سبيلا للوصول إلى الحياة الفرنسية » (2) فحسب ، ولكنها تشكل نموذجا من نماذج صحافة المقال التي تمثلها ككاتب صحفي . فيقارن بين هذه الصحف والصحف المصرية (3) ويريد أن ينقل لصحافته ثروة عقلية ومتاعا للنفس والشعور على النحو الذي يمثله النموذج الفرنسي لديه . (4

ويحدد مفهومه للصحف وواجباتها في عصر الديمقراطية الحديثة (5) وهو المفهوم الذي تكشف عنه النماذج المقالية في صحافة طه حسين شكلا ومضمونا ، على النحو الذي سنفصله في هذا البحث ، ومن هذه النماذج ما يشير مباشرة إلى تمثل النموذج الفرنسي كما نجد في المقال التنويري خاصة ، بحيث يغدو طه حسين بين الكتاب المقاليين « ناقدا لتأثره وتأثيره (6) فهو لا يقرأ كتاباً ولا مقالاً ولا فصلاً في صحيفة ولا يسمع حديثاً من الأحاديث إلا مسه بالنقد والتحليل ورده إلى أصله واستخلص منه ما يلائم مزاجه وطبعه ، شأنه في ذلك شأن « أندريه جيد » ، (7) فكلاهما « ينشىء شخصيته الفنية تنشئة ممتازة قوامها الملاحظة والمراقبة الشديدة والنقد لا إسماح فيه » (8) ويبين هذا التقارب بينهما ، فيما كتبه « جيد » في الصفحة الأولى من « الليترير » الذي أصبح فيما بعد « الفيجارو ليتيرير » « الصادر يوم السبت 12 أبريل 1947 مقاله المعروف تحت عنوان » : « مقابلة مع الكاتب العربي طه حسين » واستخدم نص المقال باستثناء جملة أو جملتين ، كمقدمة لكتاب « الأيام » المنشور في العام نفسه عند « جاليمار » . (9) ومن الطريف أن نقرأ في هذا المقال ، وبشكل يكاد يكون مختلفًا ، رأياً يماثل رأي طه حسين في « جيد » يقول الأخير : « طه

---

(1) حديث الأربعاء ج 1 ص 312 .
(2 ، 3 ، 4) طه حسين : رحلة الربيع والصيف ص 162 ، 163 .
(5) المرجع السابق ص 164 .
(6 ، 7) فصول ص 144 .
(8) الأب كمال قلته : مرجع سابق ص 71 .
(9) الدكتور ريمون فرنسيس : طه حسين والأدب الفرنسي — مجلة الهلال — فبراير 1966 .

حسين متمرد « وراء مظهره الهياب وتواضعه الظاهري ليس إلا ستاراً لكبرياء عظيمة شرعية » ويختم « جيد »مقاله بهذه السطور التي تلخص إعجابه بصديقه ، ويرتقي ، على طريقته ، بالجدال :

« ما قد يدهشنا ونحن ثملون . أدبياً على الأقل ، بالإفلاس والفشل هو أخيراً هذا المثال للنجاح وتغلب الإرادة وانتصار النور الفكري حثيثاً على الظلمات ، مما يجعل هذا الكتاب الغريب مشجعا »(1) .

ولعل هذا المصدر الفرنسي في ثقافة طه حسين ، هو الذي دفع « تشارلس آدامس »(2) إلى قوله إن « أهم عامل في تكييف المثل الأدبية للعقاد والمازني هو الأدب الإنجليزي ، وهما من الكتاب المصريين الذين يعتقدون أن الشرق يستطيع الأخذ من ذخائر العلوم والآداب الغربية دون أن يتخلى عن الطابع الإسلامي العربي الذي يطبع مدنية الشرق وثقافته »(3) في حين يذهب « جب »(4) إلى أن هذا الرأي يجعل العقاد والمازني أقرب إلى المحافظين من الدكتور هيكل أو الدكتور طه حسين بحكم مصادر ثقافتها الفرنسية اللاتينية . وهو الرأي الذي يبين من انقسام المجددين على أنفسهم إلى « لاتينيين و سكسونيين » .

ومهما يكن من أمر هذه الخصومة التي بدأ فيها ضعف الإحساس بالذاتية العامة إلى حد عجيب ،(5) فإن اتصال طه حسين بالثقافة الفرنسية واليونانية ، لم يلبث أن أصبح عنصراً من عناصر ثقافته العامة ، التي تثمر في النهاية أسلوبا في الصحافة ، وفي الأدب هو ثمرة امتزاج العناصر الثلاثة ، المصري والعربي والفرنسي ، حيث تلتقي الأصول التقليدية واتجاهات التجديد ، اتصالاً « عقلياً وفنياً »(6) يضيف إلى « ثروة الغرب كما يضيف الغرب إلى ثروتنا » ،(7) وهي الآثار التي نجدها في مقال طه حسين وأسلوبه ، حيث نجد « روحا مصريا عذبا »(8) و« روحا أوروبيا

---

(1) الدكتور ريمون فرنسيس: طه حسين والأدب الفرنسي ــ مجلة الهلال ــ فبراير 1966 .
(2) الاسلام والتجديد ص 343 ، 460 .
(3، 4) الاسلام والتجديد ص 343 ، 460 .
(5) الدكتور عبد الحميد يونس : الأسس الفنية للنقد الأدبي ص 10 .
(6 ، 7 ، 8) فصول ص 82 .

قويا » ،(1) في ألفاظ وجمل عـربية مصريـة ، وتفكير عميق خصب دقيق يلح في التعمق ويغلو في الدقة ، ويأبى أن يترك حقيقة من الحقائق عرضة للشك أو هدفا للغموض .

وصفوة القول إن ثقافة طه حسين ، هي التي تعطى لمقاله الصحفي ، ضمن فنون القول ما نسميه « عناصر الأصالة والتجديد » والموازنة الحسنة بين هذه العناصر ، في توجيه الثقافة المصرية المعاصرة .

مقالات طه حسين ومؤلفاته :

نظمنا مقالات طه حسين ومؤلفاته في سلك واحد من القول عامدين ، ذلك أن الكثير من مؤلفاته كتبها أولا في مقالات ، ثم بسطها في كتب ، وقد يبث الفكرة في كتاب ، ثم لا يني يتحدث عنها في مقالاته ، شأنه في ذلك شأن معاصريه من قـادة الرأي الـذين توسلوا بـالمقال لأداء دورهم التنويري ، فانطلقوا أساساً من المقال الصحفي للإتصال بالجماهير ، على أوسع نطاق ، كذلك فعل العقاد(2) وسلامة موسى(3) والدكتور هيكل(4) وغيرهم ، وهو الجانب الذي يتيح دراسة هذا الجيل على الرغم من كثرة نتـاج كتابـه ، لأنهم كانـوا واضحى الرؤيـة ، يبتغـون التنـويـر والتثقيف والتوجيه ، فيما يبتغون .

ونقتصر عـلى ذكر الكتب ، ومـا أخرج من المقـالات في كتب ، أمـا المقالات السياسية فتتجاوز كل حصر ولم يخرج منها شيء في هيئة كتاب(5) ولكننا سندرسهـا في فصول هـذا البحث استخراجـا لهـا من مـظانها في الصحف والمجلات .

ووفقا للترتيب التاريخي في مؤلفات طه حسين فإن « ذكرى أبي العـلاء » التي قدمها إلى الجامعة المصرية سنة 1914 للحصول على الدكتوراه ، هي

---

(1) المرجع السابق ص 85 .
(2) الدكتور شوقي ضيف : مع العقاد ص 65 .
(3) سلامة موسى : الصحافة حرفة ورسالة .
(4) عبد العزيز شرف : الدكتور محمد حسين هيكل صحفيا .
(5) الدكتور عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ص 19 .

أول كتاب طبعه ونشره في سنة 1915 في 410 ص ،(1) وطبع طبعة ثانية بمطبعة المعاهد بمصر سنة 1922 دون تغيير . وطبعة ثالثة بعنوان « تجديد ذكري أبي العلاء » ،(2) وطبعة رابعة سنة 1901 ، ثم طبعة خامسة ، في سنة 1958 .

وفي هذا الكتاب يعرض طه حسين لحياة أبي العلاء المعري وشعره ونثره وكتبه وعقيدته وفلسفته والحياة السياسية والفكرية في عصره . ويكشف هذا الكتاب عن حاسة تاريخية بصيرة ، وسلامة في التقويم الأدبي وإتقان في فهم النصوص وتحليلها اتقانا رائعاً .(3) من خلال درس عصر أبي العلاء ، وما أحاط به من مؤثرات ،(4) ويحدد بذلك منهجا جديدا في الدراسات الأدبية لا يقوم على إتقان « علوم اللغة وآدابها فحسب ، بل لا بد له أن يلم إلماماً بعلوم الفلسفة والدين ، ولابد أن يدرس التاريخ القديم والحديث وتقويم البلدان درساً مفصلا ، وإذا الباحث عن تاريخ الآداب لا يكفيه من درس اللغة حسن البحث عما في القاموس واللسان . . الخ ثم « لا بد من درس الآداب الحديثة في أوروبا ، ودرس مناهج البحث عند الفرنج ، بل ما كتبه الأساتذة الأوروبيون في لغاتهم المختلفة عما للعرب من أدب وفلسفة ومن حضارة ودين .(5)

وفي سنة 1917 ينتهي من رسالته عن ابن خلدون بالفرنسية والتي حصل بها على درجة الدكتوراه من السوربون وعنوانها : دراسة تحليلية نقدية في الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون

(Etude analytique et critique de la philosophie sociale d'Ibn Khaldoun, Paris, 1917, (Thèse des Lettres de l'Université de Paris).

وقد ترجمها محمد عبد الله عنان بعنوان : « فلسفة ابن خلدون

---

(1) طبعته مطبعة الواعظ بمصر سنة 1334 هـ ـ 1915 م ـ الدكتور عبد الرحمن بدوي : نفس المرجع ص 19 .

(2) دار المعارف سنة 1937 .

(3) الدكتور شوقي ضيف : « طه حسين والدراسات الأدبية » مجلة الهلال فبراير 1966 .

(4) تجديد ذكرى أبي العلاء دار المعارف 1951 ص 13 ، 10 .

(5) المرجع السابق ص 10 .

الإجتماعية »(1) وفي الكلمة التمهيدية يبين طه حسين دوافع اختياره هذا الموضوع بقوله « يحتفظ تاريخ الآداب العربية منذ عصر الجاهلية إلى عصرنا هذا بذكر رجلين يمتاز كل منهما بابتكار خارق لم يتصف به أحد من المسلمين أساتذة كانوا أم تلامذة . . . أولهما أبو العلاء المعري الذي استحدث في أدبنا صنفين لم ينسج مثلهما منذ عهده . فقد استعرض في مجموعة شعرية اسمها « اللزوميات » فلسفة باهرة تفيض زهدا وتشاؤما حتى قيل إنه « لوكريس » العرب ، وتخيل لنا في شبه قصة اسمها « رسالة الغفران » التي تذكرنا قراءتها بالكوميديا الإلهية ــ رحلة إلى العالم الآخر وصف لنا فيها الجنة وصفا قوياً رائعاً . أما عمل الثاني فطبيعته تخالف عمل الأول تمام الخلاف ، وقد لا يجب أن نصفها بالعبقرية . كان ابن خلدون عقلية عملية ، لم تمكنه حياته الدبلوماسية ، التي مزجت أيّما امتزاج بالدسائس من تلك الحياة ذاتها ، ومن دراسته لتاريخ الإسلام ومختلف النظريات الفلسفية التي عرفها المسلمون دراسة عميقة مستفيضة ــ فلسفة جديدة موضوعها : المجتمع وتاريخه(2) .

وفي سنة 1919 يصدر طه حسين مؤلفه الثالث : « الظاهرة الدينية عند اليونان وتطور الآلهة وأثرها في المدينة »(3) . وفي الفترة من 1919 ــ 1924 ينشر بعض المحاضرات التي كان يلقيها في الجامعة المصرية بوصفه أستاذاً للتاريخ اليوناني والروماني القديم في صحيفة الجامعة المصرية » تحت عنوان « دروس التاريخ القديم في الجامعة المصرية » وفي سنة 1920 يصدر « صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان »(4) . ثم « نظام الأثينيين» مترجما عن اليونانية لارسطاطاليس »(5)

---

(1) ط 1 سنة 1343 هـ سنة 1925 ــ مطبعة الاعتماد ، ضمن منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة وتقع هذه الترجمة في 165 : ص ــ الدكتور عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ص 19 .

(2) المرجع السابق .

(3) نشر ضمن كتاب ، الهة اليونان وطبع في مطبعة الناشر سنة 1919 المرجع السابق ص 20 .

(4) مطبعة الهلال بمصر 1339 هـ (1920) ــ المرجع السابق ص 20 .

(5) الدكتور شكري عياد : مجلة الهلال ــ فبراير 1966 .

وفي هذا الإتجاه إلى الثقافة اليونانية نجد طه حسين يعبر بذلك عن عوامل حضارية عامة تشير إلى روح العصر في مصر، والذي يتميز بعناصر من الثورة الرومانسية ومن عصر التنوير(1) ومن هنا جاءت هذه الكتب مقسمة على ميادين ثلاثة: الأدب، والسياسة، وتاريخ الحضارة فنظام الأثينيين مثلا، رغم أنه ترجمة دقيقة محكمة لنص من أهم نصوص التاريخ اليوناني، فإن نشره في هذه الفترة الدستورية من تاريخ مصر الحديث، يشير إلى الهدف الأساسي من نشره، ونعني تقديم مفهوم واضح لمعنى «الديمقراطية» وهو يصرح بذلك في قوله «والكتاب كما هو أحسن صورة موجودة تمثل الحياة السياسية اليونانية، وهو مع ذلك صورة حية لنشأة الديمقراطية واستحالتها ورقيها قليلا قليلا حتى تصل إلى أقصى ما يقدر لها من النمو وسعة السلطان».

وفي سنة 1920 ـ 1921 يترجم مع محمد رمضان «الواجب» لجول سيمون «Jules Simon» في 4 أجزاء. كما ينشر في سنة 1924: «قصص تمثيلية لجماعة من أشهر الكتاب الفرنسيين»(2) كان قد نشرها من قبل في «الهلال» من المجلد 33 ج 4 إلى المجلد 35 ج 10، وهي مقالات نصنفها في «المقال التنويري» على النحو الذي سندرسه فيما بعد. ويترجم عن الفرنسية كذلك «روح التربية» لجوستاف لوبون «Gustave le Bon» في سنة 1921 (3)، وفي أبريل 1925 يصدر «قادةالفكر»(4) بعد أن نشره فصولا في «الهلال» وفي سنة 1925 يطبع المجلد الأول(5) من سلسلة مقالات «حديث الأربعاء» التي كان ينشرها في «السياسة»، على شكل عمود ثقافي متخصص، كما سيجيء وطبع الجزء الثاني(6) سنة 1926 ثم الجزء الثالث(7) سنة 1957 وقد نشرت فصول هذه

(1) المرجع السابق.
(2) المطبعة التجارية ـ مارس 1924.
(3) مطبعة الهلال ـ الدكتور عبد الرحمن بدوي: مرجع سابق ص 20.
(4)مطبعة الهلال في 1925 ـ وأعيد طبعه في مطبعة المعارف 1929 ثم أعيد طبعه مرارا في دار المعارف آخرها سنة 1959 ـ المرجع السابق ص 20.
(5 ، 6 ، 7) المطبعة التجارية بالقاهرة 1925 ـ مطبعة دار الكتب المصرية سنة 1926، وطبع هذان الجزآن طبعة ثانية بمطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة في 1937، ثم أعادت طبعهما دار المعارف 1959 ـ 1960 ثم تولت طبع الجزء الثالث في 1957 المرجع السابق ص 20.

الأجزاء إلى جانب « السياسة » في « الجهاد » فيما بعد .

أما كتاب « في الشعر الجاهلي » فقد صدر في سنة 1926(1) وهو الكتاب الذي سحب من السوق لما أثاره من ضجة، بعض أسبابها دينية علمية وبعضها الآخر سياسية ، على النحو الذي سندرسه في « المقال وزوال المجتمع التقليدي » . ثم أعيد طبع هذا الكتاب في سنة 1927 بعنوان « في الأدب الجاهلي » محذوفاً منه فصل ، ومضافاً إليه عدة فصول ، وهو خلاصة ما كان يلقي من محاضرات على طلاب السنتين الأولى والثانية في كلية الآداب .

أما مقالات « الأيام » فقد نشر الجزء الأول منها في « الهلال » ، 35 ج ص 161 ـ 168 ، م 35 ج3 ص 289 ـ 294 ، م35 ج4 ص 417 ـ 424 ، م 35 ج 5 ص559 ـ 566 ، م 35 ج 6 ص 713 ـ 717 ، م 35 ج 7 ص 808 ـ 812 ، م 35 ج8 ص943 ـ 946 ، م 35 ج 9 ص 1084 ـ 1088 ـ وذلك في الفترة من ديسمبر 1926 حتى يوليو 1927 ـ ثم جمعت في كتاب صدر في 1929(2) . وسنقوم بدراسة هذه المقالات في « المقال الاعترافي » و« فن اليوميات الصحفية » .

ومن ثمار الصحافة كذلك مقالات كتاب « في الصيف » التي جمعت في كتاب صدر سنة 1933(3) وهو مجموعة رسائل كتبها من أوروبا إلى صحيفة « السياسة » ندرجها في « المقال الوصفي والتقرير الصحفي » . وفي نفس العام جمعت مقالات « حافظ وشوقي » في كتاب(4) ، وكان قد نشرها في « السياسة » و« الجديد » و« المقتطف » و« الهلال » من سنة 1923 إلى سنة 1932 . كما نشر فصول « على هامش السيرة » في مجلة « الرسالة » قبل طبعها في كتاب الجزء الأول في 1933(5) لأول مرة ،

(1) مطبعة دار الكتب المصرية سنة 1344 هـ (1926 م) في 6 ـ 183 ص المرجع السابق ص 20 .

(2) مطبعة أمين عبد الرحمن ـ المرجع السابق ص 20 ، وأعيد طبعه في دار المعارف 1942 ، 1949 ، 1958 .

(3) مطبعة الهلال سنة 1933 .

(4) مطبعة الاعتماد 1933 .

(5) المطبعة الرحمانية : وقد أعيد طبعه مرارا .

وحقق مع عبد الحميد العبادي « نقد النثر » لقدامة بن جعفر في نفس السنة . وفي سنة 1934 أصدر « دعاء الكروان » كما جمعت مقالات « من بعيد » التي نشرها في « السياسة » في كتاب ، وفي نفس السنة صدر كتاب « أديب »(1) والذي نسلكه مع « الأيام » في « المقال الاعترافي » واليوميات الصحفية . كما يصدر في هذا العام أيضاً « الحياة الأدبية في جزيرة العرب » بدمشق(2) والذي أعيد طبعه في « ألوان » في سنة 1958 . كما يصدر « مع أبي العلاء في سجنه »(3) و« أندروماك لراسين »(4) .

وفي 1936 يجمع المحاضرات التي ألقاها في المناسبات الأدبية ، ونشرها في « كوكب الشرق » في كتاب بعنوان : « من حديث الشعر والنثر(5) » وفي سنة 1937 يصدر بالاشتراك مع توفيق الحكيم : « القصر المسحور(6) » وكتاب « المتنبي »(7) في نفس السنة . وبين عامي 1937 و1938 ينشر « الحب الضائع » على فصول في مجلة « الراديو المصري » ثم تطبع كاملة في العدد رقم 100 من سلسلة « إقرأ » التي تصدرها دار المعارف سنة 1951(8) .

وفي 1938 يصدر طه حسين أهم مؤلف في الفكر النظامي الاجتماعي(9) ونعني « مستقبل الثقافة في مصر » والذي يقوّم فيه نوعية الحياة الوطنية المصرية بعد معاهدة 1936 . وتقوم الأفكار التفصيلية في هذا المؤلف على أفكاره الأساسية التي دعا إليها في صحيفة « السياسة » منذ أواخر 1922 ، أي منذ صدورها ، وحتى صدور الكتاب ، كما سيجيء .

(1) مطبعة الاعتماد 1935 ــ وأعيد طبعه في 1944 بمطابع جريدة « المصري » ضمن « كتب للجميع » ــ الدكتور بدوي : ص 22 .
(2) دمشق ــ مكتب النشر العربي ــ المرجع السابق ص 22 .
(3) مطبعة المعارف 1935 ــ ثم طبع في 1956 ــ المرجع السابق ص 22 .
(4) المطبعة الأميرية ببولاق 1935 ــ المرجع السابق ص 22 .
(5) مطبعة الصاوي بالقاهرة 1936 ــ ثم طبع في 1948 بدار المعارف التي أعادت طبعه في 1957 ــ المرجع السابق ص 23 .
(6) دار النشر الحديث في مارس 1937 .
(7) ظهر في فبراير 1937 في جزئين ضمن مطبوعات التأليف والترجمة والنشر أعادت دار المعارف طبعه في 1957 في مجلد واحد وكذلك في سنة 1960 المرجع السابق ص 23 .
(8) المرجع السابق ص 23 .
(9) البرت حوراني : مرجع سبق ص 393 .

ويترجم بعد ذلك مسرحيات « الكترا » وإياس » و« وانتيجونا » و« أوديبوس ملكاً » » . وينشرها بعنوان « من الأدب التمثيلي اليوناني : سوفوكليس »(1) في سنة 1939 ، في هذه السنة يصدر الجزء الثاني من « الأيام »(2) كذلك . ثم في سنة 1942 تجمع الفصول التي نشرت في الصحف والمجلات تحت عنوان : « لحظات » في جزءين(3) . وهي مع مقالات « صوت باريس » التي صدرت في العام التالي(4) . تضم القصص التي لخصها من عيون الأدب الفرنسي المعاصر ، تتعرض لها عندما ندرس « المقال التنويري » وفي عام 1942 كذلك يصدر الجزء الثاني من « على هامش السيرة »(5) أما الجزء الثالث فقد صدر في العام التالي(6) الذي صدرت فيه كذلك « أحلام شهرزاد »(7) . وفي هذا العام ـ 1943 ـ تصدر « شجرة البؤس »(8) وهي الرواية الثانية بعد « دعاء الكروان »(9) التي يتابع فيها طه حسين حركة الأجيال المتعاقبة وتطورها الاجتماعي أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن . وفي العام التالي يصدر « جنة الشوك »(10) وسوف نقوم بدراستها في العمود الصحفي(11) المتوسل بالرمز وفي هذا العام كذلك تجمع مقالاته التي نشرت في « الرسالة » و« الثقافة » في « فصول في الأدب والنقد »(12) يصدر كتاب « ذكرى أبي العلاء » في سلسلة « إقرأ » في نفس العام (13).

وفي عام 1947 يصدر : « عثمان » (الجزء الأول من الفتنة الكبرى) (14)

---

(1) مطبعة لجنة التأليف ـ أعيد طبعه في دار المعارف .
(2) طبع طبعة ثانية بالمعارف 1956 .
(3، 4) المعارف 1942 ـ 1943 .
(5) دار المعارف ، وقد أعادت طبعه في 1953 ـ الدكتور بدوي : نفس المرجع ص 23 .
(6) المعارف ، وقد أعادت طبعه في 1955 و1958 و1961 ـ المرجع السابق ص 24 .
(7) العدد الأول من سلسلة « اقــرأ » المعارف 1943 ـ المرجع السابق ص 24 .
(8) المعارف 1944 ـ وصدرت عن نادي القصة ط 2 في 1953 ضمن سلسلة « الكتاب الذهبي » وعن دار المعارف في 1958 المرجع السابق ص 24 .
(9) دار المعارف 1945 .
(10) دار المعارف 1945 .
(11) راجع للمؤلف : فن المقال الصحفي .
(12) دار المعارف 1945 .
(13) العدد 23 من سلسلة « اقــرأ » .
(14) دار المعارف 1947 .

و« زاديج أو القدر »(1) و« أندريه جيد : من أبطال الأساطير اليونانية . أوديب . تسيوس »(2) . وفي العام التالي يصدر « رحلة الربيع »(3) و« المعذبون في الأرض »(4) التي نشرت في « الكاتب المصري » في عام 1948 .

أما في سنة 1949 ، فقد جمع مقالات « مرآة الضمير الحديث » في كتاب بعنوان : « نفوس للبيع »(5) قبل أن تطبع بعنوان « مرآة الضمير الحديث »(6) بعد ذلك .

وفي عام 1950 يصدر « ألوعد الحق » (7) كما تجمع فصول « جنة الحيوان » في كتاب : (8) أما مقالاته في مجلة « الكاتب المصري » التي نشرت من 1945 ــ 1948 فقد جمعت في كتاب « ألوان » (9) الذي صدر في 1952 . وفي هذا العام جمعت كذلك مقالاته في جريدة « البلاغ » في كتاب بعنوان « بين بين »(10) .

أما الجزء الثاني من الفتنة الكبرى » ــ « على وبنوه »(11) فيصدر في 1953 ، ويشترك بعد ذلك مع إبراهيم الإبياري في« شرح لزوم مالا يلزم » لأبي العلاء والذي صدر الجزء الأول منه في مجموعة « ذخائر العرب » في 1955 . وفي هذا العام أصدر « من هناك» ضمن سلسلة « الكتاب الذهبي» وهو بعينه « صوت باريس » . كما جمع مقالاته النقدية التي نشرت في جريدة «الجمهورية» في كتاب بعنوان « خصام ونقد » صدر في بيروت في نفس السنة .

---

(1) مطبعة الكاتب المصري 1947 وأعيد طبعها في سنة 1960 في دار العلم للملايين بيروت .
(2) مطبعة الكاتب المصري 1947 .
(3) العدد 69 من سلسلة « اقرأ » .
(4) طبعت أولاً في صيدا بلبنان سنة 1949 ، ثم في سلسة « اقرأ » .
(5) دار العلم للملايين ــ بيروت 1949 .
(6) العدد 86 من سلسلة « اقرأ » ــ وطبع بعد ذلك في 1954 ، 1959 ، 1960 .
(7) مطابع جريدة المصري سنة 1950 .
(8) دارالمعارف 1952 ، وطبع بعد ذلك في نفس الدار 1958 .
(9) دار العلم للملايين في بيروت 1952 .
(10) دار المعارف 1953 ــ وطبع بعد ذلك في 1961 .
(11) نشرته لأول مرة دار العلم للملايين في بيروت 1953 . وطبعته بعد ذلك 1961 .

وفي العام التالي أصدر في بيروت كذلك كتاب « نقد وإصلاح » وهو مجموعة المقالات التي نشرها في صحيفة « الجمهورية » أيضا ، (1) وفي عام 1957 ضمت « رحلة الربيع » التي طبعت في سنة 1948 إلى « في الصيف » الذي طبع من قبل في 1933 في كتاب : « رحلة الربيع والصيف » . (2) وفي عام 1958 جمعت مقالاته التي نشرت في « الجمهورية » و « الأهرام » في كتاب بعنوان : « من أدبنا المعاصر » . (3) وفي العام التالي أصدر « مرآة الإسلام » ، (4) و « من لغو الصيف » (5) الذي يضم بعض مقالاته في « الرسالة » و « الثقافة » و « من أدب التمثيل الغربي » (6) كما جمعت أحاديثه في الأدب والفن والثقافة في كتاب « أحاديث » . (7) أما « الشيخان » (أبو بكر وعمر) فقد صدر في 1960 . (8)

وقد ترجم من مؤلفات طه حسين وأعماله إلى اللغات الأجنبية ما يلي : (9)

1 ــ « الأيام » الجزء الأول :

إلى الإنجليزية :

1. F.H. Paxton : An Egyptian Childhood, The Autobiography Of Taha Hussein, London, 1832.

2. Taha Hussein : Le Livre de jours, Souvenirs d'enfance d'un Egyptien, Paris, 1934.

إلى الفرنسية :

(1، 2) دار العلم للملايين 1957 .
(3) دار المعارف 1959 .
(4) دار العلم للملايين 1959 .
(5) دار العلم للملايين 1959 .
(6) دار العلم للملايين 1959 .
(7) دار العلم للملايين 1959 .
(8) دار المعارف 1960 .
(9) الدكتور عبد الرحمن بدوي : مرجع سبق ص 27 ، 28 .

3. Kabiluk, Atamara. وترجمها إلى العبرية كابلوك وأتمارا

4. Tsingtin. وترجمها إلى الصينية

5. Kraçkovsky : Day وترجمها إلى الروسية بعنوان

6. Taha Hussein : Bardomsar i byn. Internationella Bokklubben. Li – dingo, 1956. Inledning ocd oversatining. Carl Elof Svenning.

وترجم إلى الفارسية.

2 ـ « الأيــام: الجزء الثاني :

ترجمه « جاستون فييت » ونشرت تـرجمته مـع ترجمـة « لـوسرف » الجزء الأول في مجلد واحد بعنوان :

Taha Hussein : Le Livre de jours, traduit par Jean Lecerf et Gaston Wiet. NRF, Gallimard, Paris, 1949.

وترجمه « كراتشكوفسكي » إلى الروسية وظهرت الترجمة في سنة 1960

3 ـ « دعاء الكروان »

إلى الفرنسية :

Taha Hussein : L'appel de Karawan, traduit par Raymond Francis, Paris, 1947.

4 ـ « شجرة البؤس » :

إلى الفرنسية :

l'arbre de la misère, traduit par Gaston Wiet, in Revue du Caire.

5 ـ « أديــب » :

Taha Hussein : Adib, ou Aventure Occidentale, traduit par Amina et Mouenis Taha Hussein, Le Caire, 1960.

6 ـ « مستقبل الثقافة في مصر » :

ترجمة ملخصة بعنوان :

Taha Hussein : The Future of Culture in Egypt , Translated from the Arabic by Sidney Glazer, Washington, 1954.

7 ـ « الوعد الحق » :

ترجمه إلى الفارسية أحمد آرام بعنوان : « وعده راسته » تهران سنة 1330 هجرية شمسية .

8 ـ « علي وبنوه » :

ترجمه إلى الفارسية أحمد آرام بعنوان : « علي عليه السلام ودوفرزند زركوارش » طبع في تهران سنة 1333 هجرية شمسية .

وترجمه إلى الأوردية بروفيسور « محمد .منور دايم » ـ بعنوان : « الفتنة الكبرى » طبع في لاهور بغير تاريخ .

طه حسين في البيئة العامة :

ونتم بهذه الصفحات الحديث عن المقومات الشخصية للدكتور طه حسين فنتعرف على مكانه من البيئة المصرية العامة ، تأسيساً على أن مكان المرسل أو الكاتب الصحفي في الهيئة الاجتماعية ، والأدوار التي يؤديها ، والمهام التي يقوم بها ، وصورته في أذهان الناس ، كل هذا يسعفنا في التعرف على مقاله الصحفي ومضمونه الاجتماعي وإطاره الثقافي ، وعلى سلوكه الاتصالي ذلك أن النظم الاجتماعية والثقافية تحدد إلى حد كبير نوع الكلمات(1) التي يستخدمها الكاتب الصحفي ، كما تحدد أهدافه من الاتصال بالجماهير واختيار هذه الجماهير ووسائل الاتصال بها .

وفي ضوء هذا الفهم نتعرف على الخطوط العامة لمكانة طه حسين في الحياة المصرية ، فنجده يعين بعد عودته من فرنسا في أكتوبر 1919 أستاذاً للتاريخ القديم (اليوناني والروماني) ، ويستمر في هذا المنصب حتى سنة

---

(1) Benjamin W.Whorf «The Relation of Habitual Thougt and Behavior to language» in Language, Thought and Reality (Mass. Institute of Technology, 1956, pp.134, 159.

1925 ، حيث ألحقت الجامعة المصرية بالدولة فأصبحت حكومية بعد أن ظلت أهلية من سنة 1908 حتّى سنة 1925 ، فعين الدكتور طه حسين أستاذاً لتاريخ الأدب العربي في كلية الآداب(1) ، وفي سنة 1926 يصدر كتاب « الشعر الجاهلي » فتقوم ضجة هائلة أقوى عوامل إثارتها عوامل سياسية . فقدم أحد النواب الوفديين ، وهو عبدالحميد البنان ، استجواباً بشأن هذا الكتاب . واختلف أعضاء مجلس النواب ، وكانت الوزارة برئاسة عدلي باشا ، فهدد بالاستقالة ، فسوى الأمر داخل المجلس . ولم تلبث الزوبعة أن ثارت خارج المجلس ، وقام ذلك العضو برفع الدعوى العمومية أمام النيابة ، وكان طه حسين متغيباً في العطلة الصيفية فلما عاد وجد الخصومة على أشدها في الصحف وفي كل مكان . وأصدرت النيابة قرارها ، وانتهى الأمر إلى سحب « الشعر الجاهلي » من البيع(2) . وفي عام 1928 عين الدكتور طه حسين عميداً لكلية الآداب ، فأثار ذلك التعيين أزمة سياسية . كان علي الشمسي وزيراً للمعارف وكان وفدياً ، فتدخل للحيلولة دون تعيينه لأن الوفديين كانوا يبغضونه لصلته الوثيقة بالأحرار الدستوريين . وطلب إلى الدكتور طه أن يستقيل ، وحسماً للأمر قبل أن يستقيل بشرط أن يعين أولا ، فعين يوماً وقع فيه بعض الأوراق ، وفي المساء قدم استقالته . وأعيد ميشو Michaud الفرنسي(3) الذي انتهت مدته في سنة 1930 ، فاختارت كلية الآداب الدكتور طه حسين عميداً . ووافق على تعيينه وزير المعارف آنذاك ، مراد سيد أحمد ، الوزير في وزارة اسماعيل صدقي الأولى وبعد يومين طلب منه أن يستقيل من الحكومة ليصبح رئيساً لتحرير جريدة « الشعب » لسان حزب الشعب ، الذي أنشأه صدقي حديثاً . فرفض وآثر البقاء في الجامعة . وألحوا عليه من قبل صدقي في قبول رئاسة التحرير ، فأصرّ على الرفض ، وأسرها صدقي في نفسه(4) .

وفي سنة 1932 حدثت الأزمة الكبرى في مجرى حياته العامة، ففي فبراير من هذه السنة كانت الحكومة تريد أن يمنح الدكتوراه الفخرية من كلية

(1 ، 2 ، 3) الدكتور عبد الرحمن بدوي : مرجع سبق ص 14 .

(4) المرجع السابق ص 15 .

الآداب لبعض السياسيين وهم علي ماهر وابراهيم يحيى وعبدالعزيز فهمي وتوفيق رفعت . فأبى الدكتور طه حسين حفاظاً على مكانة الدكتوراه . ودعاه حلمي عيسى وزير المعارف آنذاك ، فأصرّ على موقفه . فعدلت الحكومة عن كلية الآداب إلى كلية الحقوق . ونتيجة لهذا الموقف قرر حلمي عيسى ، وزير المعارف ، نقله في 3 مارس 1932 إلى وزارة المعارف . فنفذ النقل ، ولكنه رفض العمل ، وتابع الحملة في الصحف ، وحدثت ضجة هائلة في الصحافة والجامعة . وطلب إليه صدقي باشا التعاون مع حلمي عيسى فأبى وطلب إليه أن يعيده إلى منصبه في الجامعة . وهنا أوعز إلى أحد النواب ، وهو عبد الحميد سعيد ، فقدم استجواباً في هذا المسألة . وفي الغداة ، في 29 مارس سنة 1932 ، أحيل الدكتور طه حسين إلى التقاعد (1). وابتداء من 29 مارس 1932 لزم بيته ، إلا أن يكتب في جريدة « السياسة » اليومية مجاناً ، وتولى حيناً رئاسة تحريرها في أثناء غيبة الدكتور محمد حسين هيكل(2) .

ويقول الدكتور طه حسين في حديث طويل إلى الصحفيين في أعقاب تلك الأحداث(3) « . . . على أني أريد أن أقف وقفة قصيرة جداً من شيخ الإسلام . . ومن حامي الاسلام فقد أصبح صدقي باشا حامي الاسلام منذ فصل طه حسين من الحكومة . . . أريد أن أقف معهما وقفة قصيرة لأسألهما عن حماية الاسلام هذه ماهي ؟ وكيف تكون ؟ وماذا يبلغان منها بفصل طه حسين من خدمة الحكومة ! فهما لن يمنعاه بهذا الفصل من أن يتكلم ولا من أن يكتب ، ولا من أن يكون له تلاميذ ولا من أن يلقى تلاميذه القدماء . . وإذن . . فما حمايتهما للإسلام . . كيف يفهمانها وكيف يحققانها ؟ . . أهما يحميان الاسلام حقاً أم يرضيان شهوات خفية ؟ لقد قرأ صدقي باشا كتاب « الشعر الجاهلي » وكتاب « الأدب الجاهلي » وكان من المدافعين عنهما في الأزمات الماضية . وهو الذي سعى وألح لتعيين طه حسين عميداً لكلية الآداب . . وسعى وألح في السعي حين

(1، 2) المرجع السابق ص 15 .

(3) سامي الكيالي : مرجع سبق ص 68 .

كان رئيساً لهذه الوزارة . . فما بال هذين الكتابين يروعان صدقي باشا . . لقد أعلن صدقي باشا لطه حسين حين التقيا أخيراً أنه فوجيء باستجواب عبدالحميد سعيد ، وطلب إلى طه حسين أن يدع له أمر هذا الاستجواب السخيف . . واستعمل هذا اللفظ . . فكيف انقلب هذا الاستجواب قيماً بعد أن كان سخيفاً ؟ واستعمل هذا اللفظ . . . فكيف استحال صدقي باشا محامياً بعد أن كان منكراً لهذا الاستجواب ؟

« وقرأ شيخ الاسلام أو شيخ الجامع الأزهر هذين الكتابين فيما يقول ، والله وحده يعلم ماذا فهم من هذين الكتابين وكيف فهم ؟ ولكنه على كل حال كان يلقى طه حسين ويتلطف له . ويبارك عليه ، ويستشيره في كثير من أشياء الأزهر ، فكان يضمر شيئاً ويظهر شيئاً . . أم هو يؤمن ببعض الكتاب دون بعض ؟ » .

« إن حماية الاسلام لا تكون بفصل طه حسين من الحكومة . . وإنما تكون بتحويل نظم الحكم كلها ــ بتحريم الربا وإغلاق المصارف ، ومنع الحكومة من أن تستفيد من أموالها في البنك الأهلي وغيره من البنوك ، ومنعها من أن تبيح الخمر وتجبي عليها الضرائب ، ولعل مرتب الأستاذ الأكبر أن يكون بعضه من هذا الربا أو من ضريبة المحرمات » .

ثم يختم تصريحه للصحفيين بقوله : « أرجو أن ينسى رئيس الوزراء وشيخ الأزهر أنفسهما لحظة واحدة وأن يفكرا في أنهما يخجلان بلدهما ويسيئان إليه بهذا العبث الكثير . . فنحن في القرن العشرين لا في القرن الثاني عشر . . وكرامة الأمة يجب أن تكون أحب إليهما وآثر عندهما من النكاية بفرد من الأفراد وإن كان هذا الفرد طه حسين(1) .

ومن ذلك يبين موقفه من فترة الانقلاب الدستوري ، وهو الموقف الذي يعتبر نقطة حاسمة في مكانه من البيئة العامة ، فقد رأيناه فيما تقدم « رجل فكر » ينتمي إلى حزب « المفكرين » وصحيفتهم « السياسية » ولكنه يصبح أكثر التصاقاً بالجماهير المصرية ، سيما بعد اضراب الطلاب في الجامعة تحت قيادة الطلاب الوفديين احتجاجاً على نقله من الجامعة .

(1) المرجع السابق ص 70 ــ 71 .

وخروجهم في مظاهرة ضخمة إلى بيت طه حسين حيث استقبلوه وحملوه على الأعناق هاتفين بحياته . . وحياة الفكر الحر المضطهَد ، ومن يومها رفض طه حسين الذهاب إلى وزارة المعارف(1) . ومن قبل طلب منه مصطفى النحاس في مارس 1933 الإشراف على تحرير « كوكب الشرق » التي كان يصدرها حافظ عوض ، وكان ثمت ائتلاف بين الوفديين والأحرار الدستوريين ضد صدقي ، ثم اختلف طه حسين مع حافظ عوض بسبب امتناع الأخير عن دفع الغرامة عن أحد الكتاب بعد أن حكم عليه وعلى طه حسين وهيكل بغرامة(2) . فاستقال من « كوكب الشرق » واشترى امتياز جريدة « الوادي » وتولى الإشراف على التحرير فيها حتّى ديسمبر سنة 1934(3) . حيث أعيد إلى الجامعة أستاذاً في كلية الآداب بعد تولى وزارة نسيم الحكم خلفاً لوزارة عبد الفتاح يحيى المتممة لوزارة صدقي . فاستأنف دروسه في هذه الكلية بعد أن انقطع عنها منذ مارس 1932 . وفي مايو 1936 عين عميداً لكلية الآداب ، واستمر في العمادة حتّى مايو 1939 . لقد أعيد انتخابه . لكن حكومة محمد محمود ـ لم ترض بإعادة تعيينه عميداً ، فاضطر إلى الإستقالة من العمادة والبقاء أستاذاً(4) وفي أواخر عام 1939 انتدب مراقباً للثقافة في وزارة المعارف . واستمر كذلك حتّى فبراير 1942 ، مع بقائه يلقي دروساً في كلية الآداب . وحين عاد الوفد إلى الحكم في 4 فبراير 1942 عينه نجيب الهلالي ، وزير المعارف ، مستشاراً فنياً للوزارة ، ثم انتدب مديراً لجامعة الإسكندرية في أكتوبر 1942 . واستمر في هذين المنصبين حتّى 16 أكتوبر 1944 ، حيث أحيل إلى التقاعد ، واستمر خارج المناصب الحكومية حتّى 13 يناير 1950 (5) . إذ عين وزيراً للمعارف في الوزارة الوفدية ، واستمر في هذا المنصب حتّى أقيلت الوزارة الوفدية في 26 يناير 1952 إثر احراق القاهرة(6) .

وفي أثناء توليه وزارة المعارف قرر مجانية التعليم الثانوي والفني منذ البداية ، وحاول أن يجعل التعليم العالي مجانياً كذلك . فأبى الملك آنذاك .

---

(1) رجاء النقاش : مجلة الهلال ـ فبراير 1966 .

(2، 3، 4) الدكتور عبد الرحمن بدوي : مرجع سبق ص 15 ـ 16 .

(6،5) المرجع السابق ص 16 .

كما حول عدداً هائلا من المدارس الأولية إلى الابتدائية وأنشأ آلاف الفصول ، وكان شعاره أن التعليم ضروري للناس ضرورة الهواء والماء ، فانتشر التعليم انتشاراً واسعاً بفضله(1) وهي الدعوة التي ظل يدعو لها في مقالاته الصحفية بعد دستور 1923 ، وأخذت شكل برنامج تفصيلي في « مستقبل الثقافة في مصر » وتمكن من وضع بعض أفكاره موضع التنفيذ حين عين مستشاراً لوزارة المعارف من 1942 ـ 1944 ، فكان له دور كبير في إنشاء جامعة الإسكندرية التي كان أول مدير لها . ولم يكن الغرض من تأسيس هذه الجامعة أن تكون نسخة طبق الأصل من جامعة القاهرة أو امتداداً لها بل كان الغرض من ذلك أن تكون جامعة حقيقية ، متحررة من ضغط الوزارة والجماهير ، تحدد بنفسها أهدافها ومقاييسها ، وتجتذب إليها أحسن الطلاب والأساتذة وتكون منفتحة على ثقافة البحر المتوسط ووريثة تاريخ الإسكندرية ومركزاً الدراسات الإنسانية الكلاسيكية(2) .

ومن 26 يناير 1952 ينصرف طه حسين إلى الإنتاج الفكري الخالص ، وإلى ألوان النشاط في المجامع العلمية التي كان عضواً فيها ، ورئيساً لها فكان رئيساً « لمجمع اللغة العربية » بالقاهرة وعضواً في المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الإجتماعية » و« المجمع المصري » وعضواً مراسلا لعدة مجامع وهيئات علمية في الخارج . وحصل عى الباشوية سنة 1951 ، وعلى وسام « اللجيون دونير» من طبقة جراند أو فيسية وعلى الدكتوراه الفخرية من جامعة مدريد وجامعة كمبردج (3).

وفي 23 أبريل 1959 اختير عضوًا ممثلا للجمهورية العربية المتحدة ، في اللجنة الإستشارية للمشروع الرئيسى لتبادل القيم الثقافية بين الشرق والغرب . (4) وفي 12 أكتوبر 1959 جدد تعيينه أستاذاً غير متفرغ بكلية الآداب(5) وفي 16 أكتوبر من نفس السنة عين رئيسا لتحرير جريدة

(1) المرجع السابق ص 16.
(2) البرت حوراني : مرجع سبق ص 404 .
(3) الدكتور عبد الرحمن بدوي : نفس المرجع ص 17 .
(4) جريدة الأهرام في 24 ابريل 1959 .
(5) جريدة الأهرام في 13 أكتوبر 1959 .

« الجمهورية »(1) وفي 18 نوفمبر فاز بالجائزة التقديرية في الآداب .(2) وفي مايو 1960 اختير عضوًا في المجلس الهندي للعلاقات الثقافية عن مصر ، وفي نفس الشهر اختير ممثلا لمصر في مؤتمر الحضارة المسيحية والسلام في فلورنسا .(3) وفي يوليو 1961 رشحته كلية الآداب بجامعة الإسكندرية لجائزة « نوبل » . (4) وفي نوفمبر من نفس العام أسند إليه الإشراف على معهد الدراسات العربية العليا .(5) وفي مارس 1962 اختارته الهيئة الأدبية الإيطالية السويسرية محكما مع أعضاء جائزتها الأدبية « بوزان » التالية لجائزة نوبل العالمية .(6) وفي 4 يوليو 1962 استقال من جامعة القاهرة كأستاذ غير متفرغ لمرضه(7) وفي 13 مايو 1963 فاز برئاسة المجمع اللغوي خلفا لأستاذه لطفي السيد(8) وفي 14 يونيو 1964 قررت جامعة الجزائر منحه درجة الدكتوراه الفخرية ، وهو أول عربي يفوز بها(9) وفي 17 يناير 1965 أهدته جامعة باليرمو بصقلية بإيطاليا الدكتوراه الفخرية تقديراً « لفضله وعلمه بوصفه عالمًا وناقدًا ذاعت شهرته في أنحاء العالم »(10) وفي 17 ديسمبر 1965 أهداه الرئيس عبدالناصر قلادة النيل « لخدماته للأدب العربي »(11) وفي 2 أكتوبر 1967 أعيد انتخابه رئيسًا للمجمع اللغوي لمدة أربع سنوات .(12) وفي أول نوفمبر عين رئيساً لمجلس إدارة جمعية الأدباء .(13) وفي يوليو 1968 أهدته جامعة مدريد درجة الدكتوراه الفخرية تقديراً لخدماته في الثقافة العربية

---

(1) جريدة الجمهورية في 16 أكتوبر 1959 .
(2) جريدة الأهرام في 18 نوفمبر 1959 .
(3) جريدة الأهرام في 16 مايو 1960 .
(4) جريدة الأهرام في 7 يوليو 1961 .
(5) جريدة الأهرام في 9 نوفمبر 1961 .
(6) جريدة الأهرام في 16 مارس 1962 .
(7) جريدة الأهرام في 5 يوليو 1962 .
(8) جريدة الأهرام في 14 مايو 1963 .
(9) جريدة الأهرام في 25 يونيو 1964 .
(10) الأهرام في 18 يناير 1965 .
(11) الأهرام في 15 ديسمبر 1965 .
(12) لأهرام في 3 أكتوبر 1967 .
(13) الأهرام في 2 نوفمبر 1967 .

المعاصرة .(1) وفي مارس 1971 رشحه مجمع اللغة العربية لجائزة نوبل(2) وفي مايو انتخب رئيساً لمجلس اتحاد المجامع اللغوية العربية وافتتح أول اجتماع له في بيته .(3) وفي نفس السنة أقام مركز وثائق الدراسات الشرقية « بأوروجواي » مهرجانًا أدبياً كبيراً لتكريم طه حسين تحت رعاية « اليونسكو » في مجال نشاطها الخاص بالتقارب الثقافي بين الشرق والغرب . وفي هذا المهرجان أقيمت ندوة أكاديمية لتحليل أعماله في جامعتي « الجمهورية » بأوروجواي « وسلفادور » بالأرجنتين ، كما أقيم معرض لكتبه الأدبية والفكرية والثقافية .

وفي الثامن والعشرين من شهر أكتوبر عام 1973 فارقت روح طه حسين الحياة « بعد أن فارق اليأس روح مصر » كما يقول صاحب « عودة الروح » حقاً فقد كانت روح طه حسين حين أقبل على الناس يوم وداعه يحمل إليهم نضالهم الطويل كله ، وألمهم قيم القديم كله ، ومجدهم العظيم كله ، وجعل الآمال تبتسم لهم فيما سيستقبلهم ويستقبل أبناءهم من الأيام . ذلك لأن روح المناضلين من أبناء مصر ، كما يعلمنا طه حسين . تستحيل إلى هذه « الصورة التي تختصر كلما سعدت مصر به من آمال تحققت وأمانيٌ صدقت ، وعزة عرفتها لها الشعوب ، وكل ما شقيت به مصر من ألم وحزن ابتلتها بها الأيام ، ومن ظلم ويأس صبهما عليها المعتدون » . .

ومما تقدم يتبين لنا أن طه حسين وقادة الفكر من جيله قد عاهدوا مصر على أن « يحولوا بينها وبين النوم عن الحق » وقاوموا الاستبداد ولقوا في مقاومته ضروباً من الأذى » . ومن هنا تتحدد وظائف الإتصال بالجماهير عند طه حسين ، والتي ترتبط بشخصية جيل بأكمله ، ولد في ظل احتلال بغيض ، وكان عليه أن « يوظف » إمكاناته وقدراته من أجل مصر الحرة المستقلة الناهضة .

---

(1) الأهرام في 2 يوليو 1968 .
(2) الأهرام في 16 مارس 1971 .
(3) الأهرام في 14 مايو 1971 .

وتتحدد هذه الوظائف بالمقومات الثقافية والفكرية عند طه حسين ، ممتزجة بالمقومات الفطرية والمكتسبة لشخصيته ، والتي ألممنا بطرف منها فيما تقدم ، تأسيسًا على أن شخصية الكاتب الصحفي ، تميز اتصاله بالجماهير من خلال نظام ثابت نسبيًا يحدد الأساليب التي يتكيف بها مع البيئة المادية والإجتماعية .

الفصل الثاني

اتجاهات الاتصال بالجماهير

عند طه حسين

يقول الكاتب الأمريكي والترلبمان :(1) « إن المجتمع الحديث لا يقع في مجال الرؤية المباشرة لأحد ، كما أنه غير مفهوم على الدوام ، وإذا فهمه فريق من الناس ، فإن فريقاً آخر لا يفهمه » وهكذا يأتي الفن الإعلامي للشرح والتفسير والتكامل ، ذلك أن الفن الإعلامي فن حضاري بالضرورة يقوم على حل صياغة المعرفةبطريقة عملية واقعية .(2) .

وتأسيساً على هذا الفهم فإن الاتصال الصحفي بجمهور القراء يرتبط بالتقدم العلمي ، ويتطلب انتشار التعليم ، لكي يجعل المجالات البعيدة والمعقدة في متناول الجمهور . والصحفي الناجح في المجتمع المحديث هو الـذي يتقن مهـارة الاتصـال من خـلال نشر الأخبـار والتعليق عليهـا وتفسيرها ، وتبسيط المعلومـات وتجسيدهـا ، وتقديم صـور العالم وأحـداثه بشكل واضح ومجسد ودرامي ، وفي أشكال خالية من التجريد أو الأكاديمية أو التعقيـد .(3) ومن ذلك تبـين المقومـات الاتصـاليـة التي تجعـل الفن الصحفي طريقة تفكير ورؤية خاصة متميزة للحياة ، ذلـك أن الصحفي ينظر دائماً إلى جمهوره ، ويقرر ما إذا كان قادراً على فهم ما يقول أو غير قادر على ذلك ، وهو لذلك يضفي على عمله الفني أبعاداً ما كان ليضيفها عليه ، لولا هذه النظرة العملية للجمهور .(4)

وعلى ذلك ، فإن هذا الفصل يتحدث عن اتجاهات الاتصال بالجماهير عند طـه حسين ، ليمهد للتعرف على أبعاد رؤيته المتميزة للحياة من خلال فن المقـال الصحفي الملتزم بالمـوضوعيـة ، والذي يعكس مشـاعر الجـماعة وآراءها بحيث يتم التوافق والتناغم بين الكاتب وقرائه ، إذ بدون وجود

(1، 2، 3) Walter Lippmann, Public Opinion (1922), pp.29 - 81.
الدكتور ابراهيم امام : مرجع سبق ص 7، 8 .
(4) المرجع السـابق ص 7 .

هذا التوافق تنعدم إمكانية الاتصال(1) وهو الأمر الذي يقتضينا عند الحديث عن مقومات المقال الصحفي عند طه حسين ، أن نتحدث عن اتجاهاته في الإتصال بالجماهير ، تأسيساً على أن اتجاهات مصدر الاتصال تؤثر على الطرق التي يتصل بها ، أو كما يقول هربرت سبنسر Spencer في كتاب « المبادىء الأولى » : « إن وصولنا إلى أحكام صحيحة في مسائل مثيرة للجدل ، يعتمد إلى حد كبير على اتجاهنا الذهني ، ونحن نصغى إلى هذا الجدل أو نشارك فيه » .(2)

وهو في ذلك يستعمل اصطلاح « الاتجاه الذهني » القريب من الاستعمال الشائع في بحوث الاتصال بالجماهير(3) والذي يذهب إلى أن « الاتجاه حالة من الاستعداد أو التأهب العصبي والنفسي ، تنتظم من خلاله خبرة الشخص وتكون ذات تأثير توجيهي أو دينامي على استجابة الفرد لجميع الموضوعات والمواقف التي تستثير هذه الاستجابة » .(4)

ولما كان الاتجاه هو المقوم الأساسي للرأي ، فإنه يجدر بنا أن نناقش اتجاهات طه حسين في الاتصال بالجماهير ، التي تميز طبيعة فن المقال المركبة ، وتقتضي هذه الدراسة التعرض لأربعة اتجاهات أساسية هي :

(أ) اتجاه الكاتب نحو ذاته .
(ب) اتجاه الكاتب نحو الموضوع .
(ج) اتجاه الكاتب نحو جمهور القراء .
(د) اتجاه الكاتب نحو وسائل الإعلام .

على أن نحدد من خلال هذه الاتجاهات بعد ذلك مفهوم طه حسين لعملية الاتصال الذي يشير إلى أبعاد تجربته الاتصالية بالجماهير من بعد .

(1) اتجاه الكاتب نحو ذاته :

ونعني بهذا الاتجاه في الاتصال بالجماهير ، رؤية الكاتب لذاته ، التي تؤثر على تقييمه لرسالته أو مقاله الذي يكتبه ، كما تؤثر على درجة التناغم

---

(1) W. Schramm, How Communication Works, in «The Process and Effects of Mass Communication», p.6.

(2 ، 3 ، 4) الدكتور ابراهيم امام : مرجع سبق ص 7 ، 8 .

أو التوافق مع جمهور القارئين ، وأسلوب اتصاله بهم من خلاله ، ومصداق ذلك ما نجده في مقالات « الأيام » الاعترافية ، التي تكشف عن جانبين أساسيين .

الأوّل : أنها تعبير عن الذات في مرحلة التكوين وهي أهم مراحل العمر .

الثاني : أنها تعبير عن موقف نفسي خاص استتبع بالضرورة تداعي صور الطفولة وبواكير الصبا فانتزعها من أعماق الذاكرة ، وصورها بما يناسب الموقف النفسي وهو الإكبار من شأن الفكر الإنساني والإلحاح على حريته والإستخفاف ـ بل الاستعلاء ـ على المحافظة والسلفية والجمود(1)

ذلك أن « الأيام » كما سيجيء تقترن بمحنة الشعر الجاهلي ، وهي لذلك كما يقول في المقدمة الخاصة للطبعة البارزة التي طلبها منه الدكتور عبد الحميد يونس(2) استجابة « للهموم الثقال » التي كان يحس بها وقتذاك إبان الاضطهاد الذي وقع عليه من أجل تحرير الفكر باصطناع الشك في الروايات القديمة التي جعلها المحافظون في مكان المسلمات والمقدسات والبديهيات .(3)

كما سيجيء عند الحديث عن المجتمع التقليدي . فمكانة طه حسين إنما تحددها المعركة المتواصلة في سبيل الحرية . وأيا كانت المحاولات التي بذلت في التعرف على أبعاده ، فإن القليلين(4) هم الذين يستطيعون أن يتبينوا أن ظرفه الخاص كان بعيد الأثر في استشعاره بذاته أولا ، وبمكان هذه الذات من الأطر الإجتماعية في الحياة ثانيًا ، وفي اندفاعه انطلاقا من واقعه وتحدياً له ، يحقق ذاته بالدعوة إلى حرية الفكر وبالإلحاح على تعقيل الحياة ، وهذه هي الأصول التي يقوم عليها منهجه المعروف في النقد وتاريخ الأدب ، ويرتكز عليها عمله في الجامعة والحياة العامة ، وتستند إليها دعوته إلى الثقافة والتنوير وإشاعة المعرفة من خلال المقال الصحفي .

(1 ، 2 ، 3) الدكتور عبد الحميد يونس : « طه حسين بين ضمير الغائب وضمير المتكلم » مرجع سبق ــ ص 64 .
(4) المرجع السابق ص 65 .

ولذلك ينظر طه حسين إلى ذاته ، وإلى زملائه من المقاليين التجديديين الذين انتهجوا الكرامة التي اكتسبوها لأنفسهم ولأدبهم ،(1) وعلى أنهم « يعيشون أولا ويعيشون أحرارا ، ثم ينتجون أولا وينتجون أحرار » .(2)

على أن رؤية طه حسين لذاته ترتبط بظروف حياته ، التي استخرجت مذهبه في الحياة من أعماق طبيعته استخراجاً ، بعد أن « كان كامناً فيها كمون النار في العود كما يقول الشاعر القديم(3) » ، وأول ما يستكشف طه حسين من هذا المذهب خصلة يرى أنها قد صحبته منذ الصبا هي « الظمأ الشديد إلى المعرفة لا يطفئه اكتساب العلم ، وإنما يزيده قوة وشدة والتهاباً ، فأنا لا أحصل نصيبًا من المعرفة إلا أغراني بأن أحصل شيئاً آخر أبعد منه مدى وأشد عمقاً . وليس في هذا نفسه شيء من الغرابة . فإذا كانت حاجة من عاش لا تنقضي ، فحاجة من ذاق المعرفة أشد الحاجات إلحاحاً وأعظمها إغراء بالتزيد منها والإمعان فيها ، وأكبر الظن أن هذه الآفة التي ألمت بي في أول الصبا هي التي أذكت في نفسي هذه الجذوة ، فهي قد صرفتني عن كثير مما يشغل المبصرين وحرمت علي ألواناً من جدهم ولعبهم ، ويسّرتني فيما خلقت له من الدرس والتحصيل أنفق فيها من القوة والجهد والنشاط والفراغ ما ينفقه غيري فيما يضطربون فيه وما يختلف عليهم من ألوان الحياة وخطوبها »(4).

ويبين كلف طه حسين بهذا المثل القديم : « لا بد مما ليس منه بد » اتجاهه نحو ذاته ، والذي يدفعه إلى المعرفة ، وهو المثل الذي يؤثره مع بيت أبي العلاء(5) .

« وهل يأبق الإنسان من ملك ربه فيخرج من أرض لـه وسماء »

يقوله طه حسين : « لم يكن بد إذن من أن أوطن نفسي على الفراغ لما أحسنه . أو لما ينبغي أن أحسنه من الدرس والتحصيل ما وجدت إليهما سبيلا . وقد فعلت أو حاولت أن أفعل في آخر الصبا وأول الشباب . ولكن ما أسرع ما رأيت وسائل الدرس والتحصيل عسيرة عليّ أشد العسر ،

(1 ، 2) الدكتور طه حسين : الكاتب المصري ـ أكتوبر 1945 ـ ألوان ص 29 ، 30 .
(3 ، 4 ، 5) الدكتور طه حسين : « هذا مذهبي » مجلة الهلال ـ مارس 1955 .

فقد كنت مستطيعا بغيري ــ كما يقول أبو العلاء ــ لا أذهب ولا أجيء ، أو لا أغدو ولا أروح ، ولا أقرأ ولا أتعلم إلا أن يعينني على ذلك معين . وكانت طريقي إلى الدرس والتحصيل في تلك الأوقات ضيقة محدودة تبدأ بي في الأزهر وتنتهي بي إلى الأزهر وكان عليّ أن أنفق العمر في هذا المدار المحدود من العلم الذي كان الأزهريون يبدأون فيه ويعيدون ، ولا يضيفون إليه وقتئذ شيئاً ولا يستطيعون أن يضيفوا إليه شيئاً » . (1)

وهنا ظهرت خصلة ثانية من الخصال التي تؤلف اتجاه « طه حسين » نحو ذاته وهي « الصبر والمغالبة واحتمال المكروه ما وسعني احتماله . فقد صبرت وصابرت واحتملت من ألوان المشقة في الأزهر ما رضيت عنه وما سخطت عليه ، ولكني رأيتني مدفوعاً إلى شيء من المغامرة لم يكن يدفع إليها أمثالي في تلك الأيام . فإني لا أختلف مع بعض الصديق إلى دار الكتب لأقرأ منها من العلم ما لم يكن الأزهر يسيغه ، ولم أكد أستكشف علم القدماء من العرب وأدبهم حتى صرفت إليها عن الأزهر صرفاً . رأيتني ثائراً على الأزهر ودروسه ثورة جامحة لم أحسب لعواقبها حساباً . ثم لا أكاد أتصل بالجامعة التي أنشئت في تلك الأيام حتى أكلف بما كان يلقى فيها من درس أشد الكلف »(2) .

ومن ذلك تتبيّن خصلة ثالثة عند « طه حسين » وهي : « خصلة التصميم على اقتحام العقبات التي تعترض سبيلي إلى العلم مهما تكن أو أموت دونها . وإذا أنا مصمم على أن أحصل علم الجامعة ثم أعبر البحر إلى أوربا لأطلب العلم هناك . وما أكثر ما سألت نفسي كيف السبيل لمثلي إلى عبور البحر وطلب العلم غريباً في تلك البلاد التي لا أعرف من أمرها شيئاً . ولم أكن أجد جواباً لهذا السؤال ولكني كنت أقول دائماً : ومع ذلك فلابد من عبور البحر وطلب العلم في معاهد الغرب(3) .

ولم يحتج « طه حسين » إلى خصلتي الصبر وصدق العزيمة كما احتاج

(1) المرجع السابق .
(2، 3) المرجع السابق .

إليهما حين بلغ فرنسا ، فأنكر من حوله « كل شيء وكل إنسان » وأنكره من حوله « كل شيء وكل إنسان أيضاً . ولكن الصبر والاحتمال في عزم لا يعرف أناة ولا فتوراً »(1) أتاحا له أن يعرف الناس والأشياء ، وأن يعرفه الناس وتعرفه الأشياء وأن يحيا في فرنسا « حياة مهما تكن شاقة في أولها فقد أتيح لها اليسر والنجاح بعد العامين الأولين »(2) .

ويعود « طه حسين » إلى مصر لا ليجلس في حلقة من حلقات الأزهر كما كانت أسرته تتمنى له(3) ولكن « لأكون أستاذاً في الجامعة . وقد أخذت أشارك الناس في الحياة العامة وكانت ثقيلة في تلك الأيام كانت صراعاً بين مصر وبين الانجليز وكانت صراعاً بين الأحزاب المصرية نفسها وأنا أحمل نصيبي من هذه الأثقال كغيري من المواطنين(4) ولكن خصلة أخرى من خصال اتجاهه نحو ذاته ، تكشفها له الظروف الجديدة التي عاش فيها منذ عاد إلى مصر(5) . وهي « خصلة الصراحة ، والجهر بالحق مهما يكن مراً ممضاً ، والنضال في سبيله مهما يثقل هذا النضال ومهما تكن عواقبه)(6) يقول « طه حسين » : « وكذلك رأيتني أخاصم في السياسة وأخاصم في الاصلاح الاجتماعي . وأخاصم في تجديد العقل المصري ، وتغيير منهجه في البحث والدرس . وأخاصم في نقل المناهج الغربية الحديثة لأفرضها على دراسة الأدب والتاريخ في مصر . وإذا أنا أثير الخصومات وأحفظ الصدور وأغرق الناس بنفسي وألقي من ذلك الجهد والمشقة وأغضب في وقت واحد كثرة البرلمان وصاحب القصر ولكني لا أحجم ولا أتردد وإنما تزيدني المحنة إقداماً وتصميماً ثم أمضي فيما أنا فيه من الصبر والتصميم والمجاهرة بما أرى أنه الحق غير حافل بسخط الساخطين ولا رضى الراضين حتى يبلغ الأمر غايته ، فأقصى عن الجامعة وأحارب في الرزق وأتلقى ألوان النذير فلا يفل ذلك من عزمي وإنما يزيده مضاء وتصميماً ، وكذلك غالبت المصاعب والعقبات على اختلاف

---

(1) المرجع السابق .
(2، 3، 4) المرجع السابق .
(5، 6) المرجع السابق .

مصادرها وعلى اختلاف ألوانها وطبقاتها وأتيح لي التغلب عليها آخر الأمر ولو إلى حين »(1) .

وهنا تظهر الخصلة الأخيرة التي عرفها « طه حسين » من نفسه وهي : « حبي لأن أرى الناس جميعاً مثلي في الشوق إلى العلم والاستزادة منه والوصول إليه دون أن يجدوا مثل ما وجدت من المشقة ودون أن يمتحنوا بمثل ما امتحنت به من ضروب العناء . وإذا أنا أدعو إلى ذلك وألح في الدعوة إليه على كره السلطان له في ذلك الوقت . والناس يسمعون لي ويستجيبون لدعوتي والسلطان يضيق بي وبالناس ، ولكنه مضطر آخر الأمر إلى أن يستجيب لبعض ما كان الناس يلحون فيه ، بخيلا باستجابته متردداً فيها لا يقبل عليها إلا كارهاً ثم تتاح لي المشاركة في السلطان ذات يوم ، وإذا أنا أستحي أن ألقى الناس بغير ما عودتهم من المطالبة بنشر التعليم وتيسير المعرفة للناس جميعاً . فأبذل في ذلك ما أملك من الجهد ولا أترك السلطان إلا وقد استقر في نفوس الناس أن العلم حق لهم يجب أن يكونوا جميعاً سواء في القدرة على أن يطلبوه أحراراً لا يجدون في سبيله مشقة مهما يكن لونها »(2) .

وكذلك يكشف « طه حسين » من طبيعة نفسه عن خصال هي التي كونت اتجاهه نحو ذاته : ظمأ إلى المعرفة لا سبيل إلى تهدئته ، وصبر على المكروه ، ومغالبة للأحداث ، وطموح إلى اقتحام المصاعب في غير حساب للعواقب وجهر بما يرى أنه الحق مهما يعرضه له ذلك من الخطوب ، ثم شعور كأقوى ما يكون الشعور بالتضامن الاجتماعي يفرض عليه أن يحب للناس من الخير ما يحب لنفسه(3) على أن هذه الخصال ترتبط باتجاه دائب نحو المثل الأعلى ، الذي يتيح لهذه الخصال أن تحقق له « الغبطة التي يطمئن إليها القلب والرضى الذي يرتاح إليه الضمير »(4) . يقول : « وكيف السبيل إلى السعادة والغبطة والرضى وأنا لم أحقق شيئاً إلا طمحت إلى شيء آخر أبعد منه منالا ، ولم أحقق أملا لنفسي والناس إلا

(1، 2، 3) المرجع السابق .
(4) المرجع السابق .

دفعت إلى أمل هو أشق منه تحقيقاً إنَّما يسعد الناس هذه السعادة حين يتاح لهم حظ من الفلسفة لم يتح لي ، أو يقضى عليهم بفراغ النفوس والقلوب والعقول ولم يقض علي بهذا الفراغ . . . فإذا كان الأمل الذي لا حد له والعمل الذي لا راحة منه سعادة فأنا السعيد الموفور ما في ذلك شك . أما إذا كانت السعادة هي الرضى الذي لا يشوبه سخط ، والراحة التي لا يشوبها تعب ، والنعيم الذي لا يعرض له البؤس فإني لم أذق هذه السعادة بعد وما أرى أني سأذوقها إلا أن يأذن الله لي بها فيما وراء هذه الحياة »(1) .

ومن ذلك يبين أن اتجاه « طه حسين » نحو المثل الأعلى إنما ينبع من اتجاهه نحو ذاته ، ويتصل باتجاهه نحو موضوعه وقرائه ، فقد تبين من الأصداء التي احتفت بانضمام « طه حسين » إلى كوكب الشرق العهد الذي عاهد قراءه به . ولكن هذا العهد يتضمن هذا النزوع إلى المثل الأعلى ، ولذلك يعترف بأنه لا يهاب شيئاً كما يهاب « رضا الناس عنه ، ولا يشفق من شيء كما يشفق من حسن ظنهم به(2) » ويقول : « فأنا أشهد الله قلما أرضى عن نفسي أو أحسن الظن بها ، وما أذكر أني كتبت شيئاً أو أتيت شيئاً من الأمر إلا وأنا مؤمن بأنه دون ما كان ينبغي أن يكتب(3) .

ويرتبط المثل الأعلى في الاتجاه الذاتي عند طه جسين بالحرية ، فالكاتب « مسؤول قبل كل شيء أمام ضميره وذوقه ، وعليه هو أن يلائم بين ما ينتج وبين بيئته وعصره والظروف التي تحيط به(4) » ويؤمن طه حسين « بالعقل » إيمان أبي العلاء به « فهو ناقد اجتماعي لحياة الناس ، لا فرق عنده بين الحاكمين والمحكومين(5) » ويريد أن يكون الناس جميعاً مثله مؤمنين بعقولهم(6) . وتلمس هذا الاتجاه يلخص مقومات الاتصال بالجماهير عند « طه حسين » ، فهو ـ كما يؤكد « صديق عليم(7) » ـ كان في

(1) المرجع السابق .
(2، 3) كوكب الشرق في 6 مارس 1933 .
(4، 5، 6) من حديث مع طه حسين ـ مجلة العربي ـ الكويت ـ أكتوبر ـ تشرين الأول 1959 .
(7) أحمد حافظ عوض « طه حسين ـ الماة صديق عليم » كوكب الشرق في 8 مارس 1933 .

« جميع مراحله في الصحافة التي كثيراً ما خدمها ، وكثيراً ما أحسن البلاء فيها والإفادة لها ــ كان إلى جانب رسالته العلمية والفكرية والأدبية ــ لا ينشد من وراء كتاباته كلها إلا ما يراه متفقاً والمصلحة الحقيقية بحافز صادق من إيمانه الفياض المرسل كاسمه إرسالا ، والمنطلق بوجدانه الحي المترع حساسية وشعوراً ، وبعاطفته النبيلة المعناة ، وحماسه المتقد الحكيم ، وكان في كل أطواره نِعم العون والظهير ، ونِعم المدافع والنصير لجميع الحريات ، حرية الفكر ، حرية الكتابة ، حرية الاجتماع ، حرية الخطابة(1) » .

ويقول حافظ عوض عن « طه حسين » إنه « كان في جميع مراحل حياته الخصم الشريف في العرف الكتابي ، والمصري الوطني في التاريخ الواقعي ، مع سعة عطن ، وليانة جناب ، ومع عطف وحدب ، ومع ضمير ووجدان ، ومع إخلاص صامت ، ومع حماس جياش ، ومع اتئاد في تدفق ، ومع حصافة في احترام ، ومع احترام في هدوء ، ومع هدوء في حياة ، ومع حياة في اتزان . كل ذلك ورائده في مصلحة الوطن في غير صخب ولا ضوضاء . وشعاره « إما الجهر بالحق في غير خور ولا تردد . وفي غير حذر ولا حيطة »(2) .

ونخلص من ذلك إلى أن هذه الخصال جميعاً ، إنما تصدر عن اتجاه إيجابي نحو الذات ، يتيح لصاحبه أن يشارك في شؤون الحياة مشاركة إيجابية ، ويعمل « في صباحه ومسائه » ، ويكدح في مغداته ومراحته ، لأداء الواجب ، وأمانة لذاته لا طمعاً في جزاء ولا حسن صنيع(3) ، وإيجابية الاتجاه الذاتي عند « طه حسين » هي التي تجعله يجنح باستمرار إلى « الإكباب على التأليف والتحبير وعلى إلقاء محاضراته الأدبية ، وموالاة بحوثه الفنية ، وعلى إمتاع الجميع من مستشرقين وأجانب ، ومن متأدبين ومتعلمين بما يراه واجبه الإنساني والعلمي من غير أن يلج بنفسه مع ما يتفق

(1 ، 2) أحمد حافظ عوض « طه حسين ــ اللامة صديق عليم » كوكب الشرق في 8 مارس 1933 .

(3) المرجع السابق .

وطبيعتها واستبعادها في بحر السياسة الخِضم التي أومن ويؤمن معي الكثيرون أنه خلق لها ، وقُدّ منها ، لأنه رجل إخلاص ، ورجل كفاح ، ورجل عقيدة ، ورجل وطن . ثم هو قبل كل هذا وذاك رجل يراعة وبراعة ومنطق وإعجاز(1) .

وعلى ذلك فإن اتجاهات « طه حسين » نحو قرائه وموضوع اتصاله لا تنفصل عن اتجاهه نحو ذاته ، وهو اتجاه إيجابي يقوم على « صرامة خلقية(2) ، تبين من خصاله ورؤيته لذاته . ذلك أن الاتجاه في نهاية الأمر نِتاج التجارب والخبرات والظروف .(3)

(ب) الاتجاه نحو الموضوع :

وإذا كان الاتجاه نحو الذات يؤثر على السلوك الاتصالي ، فإن الاتجاه نحو الموضوع يرتبط بالاتجاه نحو الذات ارتباطاً وثيقاً ، ذلك أن الاتجاه يقوم عليه الرأي أو الاعتقاد المتعلق بموضوع معين ، من حيث القبول أو الرفض ، ودرجة هذا القبول أو الرفض(4) . الأمر الذي يؤثر تأثيراً توجيهياً نحو الموضوعات أو المواقف المتعلقة بهذا الاستعداد العقلي أو العصبي(5) . ويبين هذا الارتباط بين الاتجاه نحو الذات والاتجاه نحو الموضوع من مقال كتبه « السنيور جيوافرامي فراري » بعنوان : « الكاتب الضرير والأب الروحي لمصر الحديثة : « طه حسين » باعث الثورة التي كافح من أجلها منذ حداثة سنه(6) » حيث يلخص هذه العلاقة بقوله : « إن « طه حسين » إذ يذكر بصره المفقود يصيح من أعماق سجنه إلى شعبه بالثورة حتى لا تُفقد أبصار بريئة أخرى لأطفال صغار ، وقد استجاب المصريون لصيحته . ولكن « طه حسين » لم يتجه به إلى المصريين ، وحدهم بل تجاوزهم إلى الانسانية كلها ، وقد أثار إعجاباً بعيد

---

(1) المرجع السابق .
(2) المرجع السابق .
(3 ، 4 ، 5) الدكتور ابراهيم امام : الإعلام والاتصال بالجماهير — ص 249 .
(6) صحيفة « مومنتوسيرا » الايطالية في 27 سبتمبر 1952 ، سامي الكيالي مع طه حسين ج 2 — ص 16 .

الأثر في أوروبا ، وحماسة شديدة في أمريكا حتى أن الكاتب « دونالد روبنسن » في مؤلفه عن أشهر الرجال المائة الذين هم على قيد الحياة . عده بين العشرة الذين لهم أعمق الأثر في الحضارة العربية(1) » .

فالاتجاه نحو الموضوع عند « طه حسين » اتجاه يقوم على التجربة ، التي لم تتوفر للكثير من معاصريه على الصورة التي تجمع بين الأزهر والسوربون . فإن « طه حسين » لم يستقر على نظرية معدة سلفاً ، تكفيه مؤنة البحث ، إنما عانى بنفسه مهمة البحث عن كل ما يعتقد أنه الصواب في كل هذه القضايا التي كانت تشغل أذهان أبناء مجتمعه ، كما سيجيء في دراسة مضمون الاتصال ، ولهذا فإن أحب صفات « طه حسين » إلى قرائه : الصدق(2) .

ولكن تنوع الوجوه والنوافذ التي يطل منها في اتصاله الجماهيري ، وتعدد المسالك التي طرقها خلال سيره الطويل في خدمة المجتمع المصري متوسلا بالاتصال الصحفي ، لا يستطيعان إخفاء اتجاه قوى مستمر ومتماسك نحو ذاته وموضوعه وقرائه ، يتمثل في مسار فكره وصحافته وتحركه الاجتماعي . ونتلمس هذا الاتجاه على « أصعدة عدة(3) » .

أولاً : في استمرار دوران ذهنه وخلقه الفكري حول بعض الميادين المحدودة العدد التي كانت تشكل ما يشبه الشرايين الكبرى لتحركه الصحفي والتي كانت تصب في قنواتها الواسعة الفرعية المتحدرة مما لا يحصى من الموضوعات واللفتات إلى آفاق بالغة التشعب .

ثانياً : في الاتجاه العام لخطي السير في تحركه في الميدان الأدبي والفكري من جهة ولتحركه في الميدان الاجتماعي والسياسي والصحفي من جهة أخرى وفي ما يبدو من تلازم وتقارب بين هذين الخطين ومن توجه دائم مستمر نحو مرامي وأهداف اجتماعية صريحة تارة ، وخفية طوراً آخر ، ومرتبطة دائماً برؤيا واحدة لأوضاع مجتمعه وبإرادة غير معلنة لتغيير المجتمع التقليدي الجامد، والضار من تقاليده .

---

(1) صحيفة « مومنتوسيرا » الايطالية في 27 سبتمبر 1952، سامي الكيالي مع طه حسين ج 2 ص 16.

(2، 3) الدكتور علي سعد : مجلة الآداب ـ بيروت ـ آذار ـ مارس 1974 .

ثالثاً : في المنهج الواحد الذي كان يتبعه في معالجة مختلف القضايا الكبرى التي تعرض لها .

رابعاً : في أسلوبه المميز في صياغة أفكاره .

خامساً : في القاعدة الركائزية التي ينطلق منها فن المقال الصحفي في أدب « طه حسين » ، ونعني مجموعة المؤشرات التي عملت على تكوين هذه المظاهر التي تميز مقاله في الاتجاهات الثقافية والاجتماعية والسياسية .

ومن ذلك تبين وجوه الوحدة والتناسق والتماسك والاستمرار في رؤية « طه حسين » الإبداعية ، والتي تتعلق بالاتجاه العام لخطى السير في اتجاهه نحو الموضوع « في الميدان الثقافي والأدبي من جهة ، وفي الميدان الاجتماعي والسياسي(1) من جهة أخرى » . ومن هذا الباب نذهب مع الدكتور علي سعد(1) ـ إلى أن تاريخ الفكر العربي الحديث قلما عرف مفكرا صحفيا جند مواهبه بمثل الحيوية والمضاء والاتساع التي كانت لـ « طه حسين » لخدمة قضية بمثل هذا الالتصاق بقضية شعبه ومجتمعه ، ذلك أن الصفة التي دفعت « بطه حسين » إلى عقول قرائه وأفئدتهم هي بقاؤه دائما في « قلب الساحة التي كانت تتصارع فيها الأفكار والأقلام حول القضايا اللاهبة التي تهم المجتمع واهتداؤه إلى ينابيع الثقافة العالمية بمعناها الأشمل والأعمق ، وعمله في الدراسات والتحقيقات والبحوث الأكاديمية التي تتطلب الهدوء والأناة الموضوعية ، وارتقاؤه أعلى المناصب الجامعية والسياسية ، كل ذلك لم يمنع حضوره الدائم على كل الجهات التي كان ينبض فيها قلب وطنه وشعبه ، ولا أنساه عادات النزول إلى ميادين العراك حول المبادىء والأفكار ، حتى أواخر مراحل عمره ، بمثل الاندفاع والحرارة التي كان يقبل فيها على العراك أيام كان طالبا الأزهر أو في الجامعة المصرية »(3)

فاتجاه « طه حسين » نحو موضوعه يتمثل في هذا البذل الدائم الذي كان يسخو به طه حسين فيعطي من نفسه بقدر ما كان يعطي من قلمه ولسانه ، وهو الذي رسخ « هذا الحضور الحي في حياة مجتمعه وفي عقول قرائه . وأن بقاء « طه حسين » قريبا دائما من مواضع النبض والتحضر

(1، 2، 3) المرجع السابق ـ ص 1 .

والتفاعل في حياة المجتمع المصري خاصة والمجمع العربي عامة هو الذي يجعل من أدبه انعكاساً مدوياً وملتهبا ليس فقط لمراحل حياتـه الفكريـة والنفسية ، وإنما أيضا لهواجس وأشواق وتطلعات الناس البسطاء والنيرين ، الفقراء والأقل فقراً في بلده . ولئن جـاء أدبه شهادة باهرة على التحولات الضخمة التي حدثت في مجتمعه خلال ثلاثة أرباع القرن المنقضية ، فإن حياته الحافلة بالعمل والنشاط كانت أحد العوامل الهامة في أحداث هذه التحولات »(1) من مجتمع تقليدي إلى مجتمع حديث ، كما سيجيء ، من خلال رؤية حضارية عامة تجدد الأساليب والوسائل لتحقيق غاية حضارية عامة تـرتبط بالغـايات القـومية والمبـادىء الديمقـراطية التي استلهمهـا من المفكرين الموسوعيين الـذين مهدوا للثـورة الفرنسيـة ومن دراساتـه لتاريـخ الديمقراطية في الإسلام وعند اليونان وفي روما الجمهورية .

وهذه الرؤية الحضارية هي التي توجه مقاله الصحفي إلى الإعتراف من الينابيع الثقافية التي صدرت عنها الحضارة الأوروبية ، واستلهمت منهـا ، وخاصة من فلسفة أرسطو ، الفلسفة العقلانية والتفكير العلمي المنظم . كما كـانت وراء دوافع « طــه حسـين » للإكثـار من تعـريف القـرّاء العـرب بـالآداب الأوربية الحـديثة ، عن طـريق « المقـال التنـويـري » و « المقـال النقدي » ، بهدف رفع ذوق القارىء العربي وتفتيح حواسه على آفاق أوسع وأرحب . . ومن هـذا القبيل كـانت ثورتـه العارمـة على طـريقة التعليم التقليدية ، ودعوته إلى إرساء التعليم في مصر على قواعد حديثة « مأخوذة من الحضارة الأوربية المتقدمة »(2) .

وعندما نتحـدث عن مضمون الاتصـال عند « طــه حسـين » ، فإننـا سنجد أن المضمون الفكري أو العملي على السواء ، تمثيل لاندماج الفكرة بالفعل ، وعدم انفصال الـرؤية الـذهنية عن التحـرك الاجتماعي الفـاعل لأحداث التغيير الأساسي ، بهدف زوال المجتمـع التقليدي فـدور الكاتب عند طــه حسين يتلخص في « التمهيد للثورة »(3) لأنه « يشب جذوتها في

(1) المرجع السابق ــ ص 7 .
(2، 3) الدكتور طه حسين : خصام ونقد ــ ص38 ص 51 .

النفوس بما يلقي في قلوب الناس من الآراء الجديدة وبما يصور لعقولهم من القيم المستحدثة ، وحين ينقل أذواقهم من طور إلى طور جديد وحين يبغض إليهم القديم من أوضاعهم الاجتماعية ويدفعهم إلى تغيير الأوضاع »(1) .

ولذلك يصبغ اتجاه « طه حسين » نحو موضوعه ، فن المقال في صحافته ، بصبغة العلم التي كانت أحب الصفات إلى نفسه وألصقها بذاته ،(2) فهو في جميع مقالاته وكتبه وأعماله لم ينقطع يوما عن اتخاذ هذه الصفة التي كان يجد فيها وسيلة للاتصال بالجماهير لتوصيل « أضواء المعرفة إلى نفوسهم : المعرفة بالتراث القومي . والمعرفة بتراث الانسانية(3) وهذه النزعة التوجيهية هي التي تتجلى في وظيفية أسلوبه الصحفي البالغ الوضوح ، والبالغ الشفافية ، وفي نمذجته الاعلامية التي تجعل اتصاله فعالا بجمهورقرائه عن طريق توصيل الأفكار والمعلومات إلى نفوسهم وعقولهم .

ويتسم اتجاه « طه حسين » نحو موضوعه بالعقلانية والتفتح الفكري والتسامح إزاء كل الثقافات . ذلك أن « طه حسين » يؤمن بوحدة الفكر الإنساني « وبجدوى التقارب الثقافي على الصعيد العالمي »(4) فهو ينكر « حدود الزمان والمكان ويأبى فواصل العناصر والأجناس ، ويسعى إلى « التفاهم » والترابط لبلوغ المثل العليا في شيوع المعرفة ، وشمول الخير وسيادة السلام بين الناس أجمعين » . (5) ولذلك ينزع الاتجاه الموضوعي في اتصال « طه حسين » نزعة إنسانية تستند إلى قيم الحضارة العربية التي يذهب إلى أنها كانت « من سعة الأفق ، وشرف الغاية بالمكان الذي يعرفه لها العلماء والمفكرون على امتداد التاريخ لم يكن بها انكماش عن امتصاص ما في الحضارات السابقة من عصارة المعرفة على اختلاف أنواعها ، ولم تقف هي بهذه الحضارات عند حدود التقليد ، والمحاكاة . أخذت فانتفعت بما أخذت أكرم انتفاع ، وأعطت فوصلت ماضيها بحاضرها ، وكانت في مجرى الحضارة الإنسانية الموصول عاملا فعالا لا يجحد أثره الدارسون »(6)

---

(1) الدكتور طه حسين: خصام ونقد ـ ص 38 ص 51

(2، 3) الدكتور علي سعد : نفس المرجع ـ ص 51 .

(4، 5، 6) « خطاب طه حسين الى أدباء أمريكا اللاتينية » الأخبار 1970/12/13 .

ويذهب « طـه حسين » إلى أن العلاقة بين الصورة والمحتوى ، هي العلاقة بين « الفكرة » في دلالتها الاجتماعية و « الكلمة » في صيغتها الأدبية ، وهي علاقة تنتظمها النزعة الإنسانية في اتجاهه الموضوعي ليكون الفن القولي « من أقوم الوسائل لتحقيق ما ننشد من التقارب والتواصل على خير ما يكون ، وأن الفكرة والكلمة لهما القوة الساحرة التي تستطيع أن تتغلب على رواسب الفوارق والعنصريات بين الأمم في سبيل تحقيق المثل العليا من وحدة الشعور ، ووحدة الفكر ، ووحدة القيم ، لتعزيز الأخوة الإنسانية بأعمق دلالاتها وأكرم معانيها » . (1) ولقد صبغ هذا الاتجاه الموضوعي اتصال « طـه حسين » في مراحل حياته المختلفة بحيث أصبح مظهراً لإيمانه « بهذه المثل العليا »(2) ومصداقا لعمله على التعبير عنها . (3)

وفي ضوء هذه الرؤية ، يمكن فهم اتجاه « طـه حسين » نحو موضوع مقاله ، وهو اتجاه يتسم بالتفتح العقلي وحب المعرفة وحرية التفكير والتعبير ، الأمر الذي ذهب به حين يعالج موضوعا من الموضوعات إلى أن يكون « باحثاً يحاول أن يفهم ، ويحاول أن يدعو غيره إلى الفهم والاستقصاء » ،(4) ولكن حريته في موضوعه ، تمنح هذا الموضوع اتجاها إيجابيا يتسم بالصدق والدقة ، بحيث يسيطر على قرائه ويستحوذ على عقله واهتمامه ، دون أن يجد القارىء من نفسه قوة على معارضته أو مقاومته أو انكار شيء مما يقول ، حتى إذا فرغ من قراءة أثره الأدبي أو الصحفي واضطر بحكم هذا الفراغ إلى أن يفارق الصحيفة أو الكتاب ويشغل عنه وعن أثره وقتا ما ــ استطاع بعد ذلك أن يعود إلى الأثر الذي بقي في نفسه بعد القراءة ، فيفكر فيه أو يخضعه للنقد أو التحليل أو التعليل . (5) ذلك أن هذا الاتجاه الموضوعي في نهاية الأمر يصدر عن « القلب والعقل والذوق »(6) في مقال طـه حسين .

(1، 2، 3) المرجع السابق .
(4) مجلة الثقافة في 14 نوفمبر 1939 .
(5) مجلة الكاتب المصري ــ يوليو 1946 .
(6) من أدبنا المعاصر ــ ص 175 .

(ج) الاتجــاه نحو الجمهــور :

تحدد اتجاهات الكاتب نحو مستقبل رسالته مدى فعالية الاتصال ، ذلك أن التناغم بين الكاتب والقارىء من شأنه أن يزيد من احتمالات قبول رسائله ومقالاته ، بحيث أن هذه الاتجاهات تمثل الجانب الاجتماعي من الكاتب في المجتمع ،(1) وهي التي يصدر عنها السلوك الـواقعي في الاتصال . (2)

وتأسيساً على هذا الفهم ، نقول إن اتجاه طـه حسين نحو قرائه اتجاه إيجابي فالكاتب ــ لديه ــ ليس في مقدوره تحقيق اتصـال فعال دون أن « يدرس نفوس الأفراد والجماعات ويتعرف خصائصهم وما يعرض لهم في حياتهم الداخلية والخارجية من الأحداث والخطوب ، وهو محتاج إلى هذا لأنه مضطر بحكم صناعته »(3) ولا بد للكاتب ــ « عند طـه حسين » ــ من أن يفهم الناس ليتحدث عنهم ولا بد من أن يفهم الناس إذا تحدث إليهم ، وهو من هاتين الجهتين محتاج إلى العلم بشئون الناس والتأثير في نفوسهم إذا تحدث إليهم في فصاحة وبلاغة وحسن أداء »(4) .

ومن الوثائق الهامة التي تشير إلى قوة الاتجاه نحو قراء « طـه حسين » ما كتبه عن « الكتاب والقراء »(5) يذهب فيه إلى أن « القراء كل شيء بالقياس الى الكـاتب ، ويوشـك ألا يكون الكـاتب شيئاً بـالقيـاس الى القراء »(6) وآية ذلك أن الكتاب « لا يعيشون إلا للقراء »(7) وهم لذلك « يفكرون في القراء حين يقدمون على الكتابة وحين يمضون فيهـا وحين يفرغون منها » . (8) ويوضح « طـه حسين » طبيعـة العلاقـة بين الكـاتب والقارىء بقوله(9) : « ولو أن القـارىء استطاع أن يـدخل بـين الكاتب وبين نفسه وأن يشهده حين يهم بالكتابـة ثم حين يهجم عليهـا ويمضي فيها ، لرأى شيئا عجبا . لـرأى أن الكاتـب يصـارع خصمين عنيـدين ، أحدهما الموضوع الذي يريد أن يكتب فيه ، والثاني القارىء الذي يريد أن

(1 ، 2) الدكتور ابراهيم امام : مرجع سبق ــ ص 248 ، 249 .
(3 ، 4) الهلال ــ يناير 1935 .
(5 ، 6 ، 7) الهلال ــ يونيو 1934 .
(8 ، 9) المرجع السابق .

يكتب له ، ولرأى أن الموضوع في أكثر الأحيان ليس أشد الخصمين عناداً ولا أثقلهما خصومة ، وإنما الخصم العنيف المخيف حقا هو هذا القارىء الذي لا يعرفه الكاتب ولا يستطيع أن يحصي ميوله وأهواءه وعواطفه ، ولا أن يتبين ذوقه ولا أن يستيقن بما يلائمه وما يخالفه ، وإنما هو خطر محقق واقع ، ولكنه مبهم غامض شائع متناقض متفاوت لا سبيل إلى حصره ولا إلى تحديده ولا إلى العلم بالطريق التي يجب أن تسلك إليه » .(1)

ومن ذلك يبين مكان القراء في عملية الإبداع الفني عند « طه حسين » ، ذلك أنه ـ كما يقول ـ « لم يستطع في يوم من الأيام أن يقدم على الكتابة إلا وهو يحسب للقراء أشد الحساب وأعسره »(2) فيبذل كل ما يملك من القوة ليرضيهم ويقدم إليهم ما ينتظرون كأنه يعرف ما يرضيهم أو كأنه يعرف ما ينتظرون . ولكنه يذهب كذلك إلى أن نفوس الكتاب كنفوس القراء « تنشط حين تتهيأ لها أسباب النشاط وتفتر حين تجتمع عليها أسباب الفتور »(3) ويتفهم موقف القراء من الكتاب ، ذلك أن القراء في مصر قليلون . هذا شيء لا شك فيه ، ولكن الكتاب أقل منهم ألف مرة فإحصاء القراء يرقى إلى الألوف بل إلى عشرات الألوف ، وإحصاء الكتاب لا يكاد يرقى إلى العشرات . وهؤلاء القراء القليلون بالقياس إلى مصر ، القليلون بالقياس إلى حاجات الكتاب والناشرين ، الكثيرون مع ذلك بالقياس إلى طاقة الكتاب ، هؤلاء القراء يختلفون فيما بينهم اختلافاً شديدا موجبا لليأس من إرضائهم حقاً ، منهم المثقفون الذين لا يعجبون إلا بمقدار ، ومنهم أنصاف المثقفين الذين يعجبون حين لا يوجد ما يعجب ويسخطون حين يجب أن يرضوا ، ومنهم الذين لا حظ لهم أو ليس لهم إلا حظ يسير من الثقافة ، ولكنهم كغيرهم محتاجون إلى أن يقرءوا قادرون على أن يشتروا الصحف والكتب والمجلات » .(4)

ويضيف « طه حسين » طوائف القراء في مصر وفق مصادر ثقافتهم ، فهؤلاء « تثقفوا في المدارس المدنية العالية المصرية ، وهؤلاء تثقفوا في

---

(1) المرجع السابق .
(2) المرجع السابق .
(3 ، 4) المرجع السابق .

الجامعات الأوربية، وهؤلاء خرجوا من الأزهر بعد أن أتموا الدرس فيه، وهؤلاء ظفروا بالشهادة الثانوية المدنية أو هم يطلبونها، وآخرون ظفروا بالشهادة الثانوية الأزهرية، أو هم يطلبونها وقوم وقفوا عند الشهادة الإبتدائية، وقوم لم يجاوزوا ما تعلموا في الكتاب. وكل أولئك على ما بينهم من الاختلاف والتفاوت يريدون أن يقرءوا ويريدون أن يرضوا،(1) وفي مقابل هذا التصنيف يلاحظ « طه حسين » أن ليس في مصر إلا « عدد يسير من الكتاب لا يبلغ العشرات متقارب الثقافة ، وهو مكلف أن يقدم لهؤلاء جميعاً ما يلائم طباعهم وأذواقهم وطاقاتهم ومثلهم العليا(2) ويمتاز هذا العدد اليسير من الكتاب بانقطاعهم إلى الصحف على اختلافها ، و « من ذكر الصحف فقد ذكر النظام والاطراد . ومن ذكر النظام والأطراد فقد ضيق على الفن أشد التضييق(3) وذلك أن الفن عند طـه حسين « في حاجة إلى الإجادة والإتقان وإلى راحة النفس وفراغ البال » .(4) فالكاتب يخضع لإلحاح مستمر حين « ينقطع لصحيفة يومية أو أسبوعية أو شهرية فكيف إذا انقطع الكاتب لهذه الصحف جميعاً ؟ وكيف إذا ألحت عليه المطبعة في كل يوم وفي كل أسبوع ، وفي كل شهر ، وكيف إذا اجتمعت عليه هذه الضروب الثلاثة من الالحاح في يوم واحد » . (5)

وأمر النظام والأطراد في وسيلة الاتصال الصحفي هو الذي يحدد التحدي الذي يواجه طـه حسين حين يكتب للصحف . لتحقيق الإجادة والإتقان والحرية فيما يقدم للصحف من (مقالات وفصول)(6) يومية أو أسبوعية وشهرية في « نظام ودقة واطراد »(7) فالصحف « المنتظمة المطردة لا تمنع الكتاب من الإجادة فيما يكتبون لأنفسهم وللناس »(8) حين يتمكن الكتاب من مواجهة تحدي النظام والاطراد في الاتصال الصحفي ، على نحو ما تمكن طـه حسين من مواجهته مواجهة واقعية ، فوفى بمتطلبات الوسيلة الجماهرية ، كما ارتفع بمستوى رسائله إلى القراء ، لأنه تغيا من وراء ذلك الارتفاع بالذوق العام مؤثراً « الوضوح والجلاء حيناً فيطنب

(1 ، 2) المرجع السابق .
(3) المرجع السابق .
(4 ، 5) المرجع السابق .
(6 ، 7 ، 8) المرجع السابق .

ويسهب ويصطنع ألفاظاً ألفها الناس ويؤثر القصد والإيمان حيناً فيوجز ويتخير ألفاظاً منتقاة والذوق هو الذوق ، والكتابة هي الكتابة ، وروح العصر الذي يعيش فيه هو فيم يكتب لنظرائه وفيما يكتب لعامة الناس » . (1)

فالاتجاه نحو القراء في الاتصال الصحفي عند طه حسين يقوم على مقومات اتصالية تلائم بين « اللغة والحياة » و« تفكر في هؤلاء الناس »(2) وتراعي « الذوق العام بحيث لا يعجز الناس عن فهم »(3) الرسالة الاتصالية في نهاية الأمر .

ومن ذلك يبين أن الجمهور من القراء لا ينفصل عن اتجاه الكاتب نحو ذاته واتجاهه نحو موضوعه ، وهو الإتجاه الذي يتسم بالحرية العقلية والتفتيح العقلي ، فهو يريد للقراء أن يكونوا كذلك: « أحراراً في أن يحمدوا ذلك مني أو يذموه وفي أن يعرفوا ذلك أو ينكروه »(4) ذلك أن الصلة بينه وبين قرائه تقوم على « الفهم » المشترك ، بحيث « يستمتع كل قارىء بحريته المطلقة الخالصة التي لا حدّ لها فيما يقرأ »(5) .

فالأصل عند طه حسين أن «حرية القارىء مطلقة »(6) ولكن هذه الحرية في الواقع « مقيدة محدودة بقيود كثيرة وحدود ضيقة أيسرها وأظهرها أنه لا يستطيع أن يقرأ إلا ما ينشر وما يصل إليه »(7) كما أنه « إنسان يتأثر بما يتأثر به الناس . والإعلان من أشد الأشياء تأثيراً في نفوس الناس مهما يكونوا »(8) وإذن « فهذه الحرية المطلقة التي يقررها الحق للقارىء والتي نحلم بها جميعاً ليست في حقيقة الأمر مطلقة ولا بريئة من كل قيد »(9)

وعلاج ذلك يرتبط بالمفهوم الصحيح لقيادة الرأي في الأدب والصحافة والفكر ، فالكاتب قائد رأي بهذا المعنى ، من حيث هو عند طه حسين « مرآة لقرائه »(10) « القراء مرآة »(11) له وطه حسين قائد رأي بهذا المعنى

(1) المرجع السابق .
(2، 3، 4) حديث الأربعاء ج 3 — ص 16 ، 17 .) المرجع السابق — ص 211 .
(5) المرجع السابق .
(6، 7) المرجع السابق — ص 94 ، 218 .
(8، 9، 10) المرجع السابق — ص 209 ، 210 .
(11) فصول — ص 10 .

يتوسل بالمقال الصحفي في توجيه الرأي العام . كما يتوسل به في التنوير والتثقيف والتنشئة الاجتماعية ، من خلال أسلوب ينم عن اتجاه قوي نحو القراء ، يتسم بالتناغم والتوافق . يقول:

« لست أبغض شيئاً كما أبغض إلقاء الدروس في الوعظ والإرشاد وتنبيه الغافلين وإيقاظ النائمين وتحذير الذين لا يغني فيهم التحذير ولا النذير . وأنا مع ذلك مضطر إلى هذا أشد الاضطرار . أراه واجباً تفرضه الوطنية الصادقة وتفرضه الكرامة الإنسانية . ويفرضه الحرص على ألا تتعرض مصر للأخطار العنيفة قبل إبانها ، وعلى أن يسلك هذا الوطن البائس طريقه إلى التطور في أناة ورفق وهدوء لا تعصف به العواصف ولا يجري عليه ما جرى على بعض الأمم من هذه الثورات التي لا تبقي على شيء »(1)

فقيادة الفكر والرأي في مقال طـه حسين تقوم على تضامن وثيق مع الجماهير واتصال يقوم على التناغم بين الكاتب وقرائه ، فجاء مقاله « لساناً للساسة ، وسيفا للقادة وسفيراً بينهم وبين الشعب(2) وجاء سوطاً في أيدي الشعب يمزق به جلود الظالمين تمزيقاً »(3) فأبلى في مقاومة العدوان والمعتدين شأنه في ذلك شأن مقالات الكتاب الوطنيين فى الصحافة المصرية الذين كانوا جميعاً يخاصمون في السياسة وجه النهار ثم يفرغون لأدبهم آخره ، وكلهم قد أنتج في الأدب أثناء المحنة ، وفي الأدب الخالص الذي لا يتصل بالسياسة ولا يمت إليها بسبب ، ومنهم من اتخذ السجن وسيلة إلى هذا الإنتاج ومنهم من لم تصرفه ظلمة الحياة العامة وشدة الحياة الخاصة عن أن يجول في عالم الفن جولات »(4) ومن ذلك يبين أن اتجاه طـه حسين نحو قرائه . يفرض عليه مسئولية اتخاذ المواقف من « مشكلات الحياة حين تعرض للناس في سياستهم وفي نظمهم الاجتماعية »(5) في حين « لا يغفل ألوان البحث والتفكير »(6) وذلك ما نعنيه بحل طـه حسين لمعادلة متطلبات الاتصال الجماهيري ، وذلك أن تحديد علاقته بجمهوره هو

(1) المعذبون في الأرض 150 ، مجلة الكاتب المصري – فبراير 1948 .
(2، 3) فصول – ص 30 ، 32 .
(4) المرجع السابق .
(5، 6) المرجع السابق – ص 33 ، 171 .

الحل الصحيح لهذه المعادلة ، فطه حسين يتفق مع أرسطوطاليس في مدنية الإنسان بالطبع(1) وأنه « محتاج إلى الناس ، والناس محتاجون إليه ، وهو متضامن مع الناس والناس متضامنون معه(2) فليس من سبيل إذن إلى أن يقطع الكاتب المثقف « الممتاز ما بينه وبين الناس من صلة وإنما هو مضطر إلى أن يعيش معهم وإلى أن يشاركهم فيما يلم بهم من خير أوشر وما يعرض لحياتهم من عرف أو نكر »(3) بل إن موقف الحيدة من الأحداث التي تعرض لمواطنيه وشركائه في الانسانية عامة غير ملائم « لطبيعة الأشياء » (4)

ويفرض هذا الإتجاه على مقال طه حسين وظائف إصلاح « حياة الشعب وتثقيف الشباب وتعليمهم ، وتمكين الشعب من أن يرقى إلى الفن شيئاً ، ومن أن يكره الفن على أن يهبط إليه شيئاً ، ومن أن يتحقق بينهما هذا اللقاء الخصب الذي ينتج ما يتاح للأمم الراقية »(6) كما يفرض هذا الإتجاه على مقال طه حسين أسلوباً إعلامياً يقوم على الوظيفية الهادفة والوضوح والإشراق في اللغة ، رصينة في غير إغراق ،(7) وهو الأسلوب الذي يقوم على التناغم والتوافق بين الكاتب وقرائه ، في الإتصال اللغوي ، ذلك أنه « يريد أن يظهر الناس على ما يفكر ويقدر : »(8) وهو لذلك « يصور تفكيره وتقديره في الألفاظ والعبارات ، ويودعه الصحف ويسره إلى الأوراق »(9) ويقوم هذا الإتصال اللغوي على مقومات شخصية طه حسين ومزاجه ، ووجوده واتجاهاته ، فهو ــ كما يقول المازني(10) « رجل أنيس المحضر ذكي الفؤاد جريء القلب تعجبك منه صراحته وتقع من نفسك رجولته وأنفته ويعلق بقلبك إخلاصه ووفاؤه ، ويثقل عليك أحياناً اعتداده بنفسه »(11) وتنعكس هذه المقومات على خصائص اتصاله اللغوي

---

(1) المرجع السابق ص 33، 171.

(2، 3، 4) المرجع السابق ــ مجلة الثقافة في 7 نوفمبر 1939 .

(5) نقد واصلاح ــ ص 181 .

(6) خصام ونقد ــ ص 37 .

(7) المرجع السابق .

(8، 9) فصول ــ ص 6 ــ مجلة الثقافة في 3 يناير 1939 .

(10، 11) قبض الريح ــ ص 31 ، 33 .

فيوجه الخطاب للقارئ في الأغلب الأعم « كما تفعل حين تحادث جليساً لك ، ويقصر جمله ويؤكد عباراته بالتكرير والإعادة ويلتمس التأثير من طريق ذلك ، حتى وأنت تقرأ أحلامه كأنما كان يهز قبضة يده حين بلغ هذه العبارة ويومىء بأصابعه لما وصل إلى تلك إلى آخر ذلك »(1) . ومن مظاهر هذه الخصائص الأسلوبية في الإتصال اللغوي ، عند طه حسين ، توجيه الخطاب إلى القراء ، والإكثار من ذكرهم في سياق المقال ، ومن ذلك : « . . . والقراء لم ينسوا بعد أن كاتباً لا منى منذ حين »(2) و« يقال إن كثيراً من القراء ذهبوا مذهب هذا الكاتب »(3) « وليس لذلك مصدر إلا أن القراء عرفوا منّي العنف في النقد والحزم في التقريض والأعراض عن المصانعة واللين »(4) و« أريد أن أعود إلى ذلك الحديث الذي تحدثت به إلى القراء أول أمس »(5)

ومن ذلك يبين الحضور الدائم للقراء في الرؤية الاتصالية عند طه حسين وهو الحضور الذي يتمثل كذلك في توجيه الخطاب إلى القارئ الفرد ، بحيث يشعر هذا القارئ ، أنه يجلس إلى صديق من أصدقائه ويستمع إلى بعض أخوانه ، يدور معه حيث يدور ، ويدخل معه في شجون من الحديث لا يجب أن يصل إلى نهايتها . ومن مظاهر ذلك:

- « وأنت تمضي في الكتاب كله متنقلا من صورة إلى صورة . . . الخ »(6)
- وتسألني عن هاتين الظاهرتين ما صدرهما وما أسبابها ولم امتازت مصر من بلاد الله جميعاً »(7) .

ويبلغ الإتصال اللغوي القائم على مشاركة القراء ذروته عند طه حسين في استخدام ضمير الجماعة بهدف المشاركة:

- « كثير منا يألف الحدائق ، ويكثر الإلمام بها . . . »(8)

---

(1) المرجع السابق ص 33 .
(2، 3، 4) فصول ــ ص 58 ــ مجلة الثقافة في 11 ابريل 1939 .
(5) كوكب الشرق في 17 مايو 1933 .
(6) فصول ــ ص 68 ، 70 .
(7) كوكب الشرق في 31 مايو 1933 .
(8) فصول ــ ص 70 .

ومن هذه المظاهر الأسلوبية ننتهي إلى القول بإيجابية الإتجاه نحو القراء عند طه حسين . وهو الإتجاه الذي يلقى استجابة بنفس الدرجة من جانب جماهير القراء تبين من نماذج الأصداء التي تتمثل في رسائل القراء ، فيما تقدم وهي الأصداء التي عمقت من إيجابية هذا الإتجاه عند الكاتب الذي . « يعاهد » قراءه على « الإخلاص في القول والعمل والصدق في الرأي »(1)

ويلخص هذا « العهد » اتجاه طه حسين نحو جمهور قارئيه ، وهو اتجاه يقوم في نهاية الأمر على توافق وتناغم في الإحترام ، والتأثير والإقناع ، يؤدي في أسلوب متناسق متوازن ، تتكدس فيه المرادفات وتتقابل الصور المتعاكسة بمدلولاتها مما يؤدي إلى تآلف في محصل البناء الذهني للمقال ، وإلى تناغم لفظي وجرس موسيقى خاص ينبع من هذا التناسق والتوازن بين مصاريع الجملة ، ومن اختيار المفردات الأكثر سهولة على اللفظ والسمع ، واستخدام هذه الوسائل الأسلوبية استخداماً وظيفياً في إطار الرؤية الوظيفية للمقال . كما سيجيء .

(د) الاتجاه نحو وسائل الإعلام :

نتحدث في هذه الصفحات عن الدكتور طه حسين وبيئة المقال الصحفي في مصر ، لنتبين مكانه من هذه البيئة ، ونتعرف على الصحف التي حررها أو اشترك في تحريرها ، كما نحاول التعرف على أثر هذه البيئة في اتجاهات الاتصال بالجماهير في مقاله ، والأصداء التي تنبئنا عن فعالية اتصاله بجمهور القارئين ، وفي هذه البيئة التي تمتد زمنيا لتشمل النصف الأول من هذا القرن ، نجد طه حسين يعاصر عهوداً متباينة من عهود الكتابة والتحرير الصحفي ، ويتطور معها على النحو الذي تقتضيه دون أن يقصر في شروطها ومقتضياتها .

---

(1) كوكب الشرق في 9 مارس 1933 .

ويمكن أن نتبين في بيئة المقال الصحفي في مصر في النصف الأول من هذا القرن ، تطوراً لوظيفة هذا المقال بحيث لم يعد كما كان بالنسبة للأستاذ الإمام جانباً من جوانب رسالته شأنه في ذلك شأن الدين والسياسة والأدب ، تنصهر جميعاً في شخصه الواحد ، فكان لا بد أن ينساق كل جانب منها إلى دواعي الجوانب الأخرى ، فأدبه يتسق مع صحافته ، وصحافته تتسق مع سياسته ، وسياسته تتسق مع عقيدته الدينية ، فلم تلبث هذه الجوانب أن أخذت تنفرط ليضطلع بكل منها من يجيد فنونه ، فقد جاء العقد الأول من هذا القرن برجال من طراز يختلف عن طراز محمد عبده ، من أمثال لطفي السيد وقاسم أمين ، ثم جاء العقد الثاني بطراز ثالث من أمثال: هيكل والعقاد وطه حسين ، وأعقبه العقد الثالث بطراز رابع من أمثال سلامة وموسى وعلي عبد الرازق ، ثم العقد الرابع بطراز خامس تمثل في توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ومدرسة أبولو ، وفي العقد الخامس حدثت حيرة ، وإرهاصات بالفكرة الإشتراكية ، وقامت ثورة يوليو 1952 ، فأصبحت محوراً رئيسياً ، واشتدت الصلة بين الفكر والحياة .(1) ومن الواضح أن هذه الموجات المتلاحقة قد تداخل بعضها في بعض ، فأبناء الموجة المعنية منها يبقون على مسرح الحياة الثقافية ليضاف إليهم ــ لا ليحل محلهم ــ أبناء الموجات التالية .(2) ذلك أن هؤلاء جميعاً يجتمعون حول هدف مشترك أعظم ، وهو الحرية بكل فروعها وشعابها والإنفتاح على العصر ، بينما تسلك كل فئة نحو ذلك الهدف سبيلا يختلف بعض الشيء في محور ارتكازه عن الفئة التي بدأت من قبل ، فكان رجال الموجة الأولى ــ بعد محمد عبده ــ أقرب إلى الساسة ، وهم الذين تتلمذ عليهم جيل طه حسين ، ورجال الموجة التالية أقرب إلى الأدباء ، ورجال الموجة الثالثة أقرب إلى العلماء ، على أن الصحافة كانت قاسما مشتركاً بين أولئك وهؤلاء جميعاً ، حتّى جاءت الموجة الرابعة فاستطاعت أن تسلخ الأدب عن السياسة وعن الصحافة معاً .(3)

(1 ، 2) الدكتور زكي نجيب محمود : « الثورة الصامتة » ــ جريدة الأهرام في 25 يناير 1974 .
(3) المرجع السابق .

وتأسيساً على هذا الفهم ، فإننا نتحدث عن طه حسين في بيئتين: الأولى بيئة التكوين في مطلع القرن . والثانية : بيئة المقال الصحفي بعد ثورة 1919 .

1 ــ طه حسين والبيئة الأولى:
« بيئة التكوين الصحفي »

تتميز هذه البيئة الصحفية الأولى ، بالحركة الوطنية قبل الحرب العالمية الأولى ، حيث بلغ الإحساس الوطني فيها ذروته وبدت اليقظة الوطنية في كمالها وتمام قوتها .

ويتصل طه حسين في هذه البيئة الأولى بحزب الأمة وجريدة « الجريدة » ونرجح أن السبب الرئيسي في هذا الإتصال إنما يرجع إلى شخصية لطفي السيد مفكر الحزب ومدير « الجريدة » ، فهو الذي خرج بالجريدة من النطاق الحزبي الذي صدرت لتمثله ،(1) لا سيما وأنها لا تمثل حزباً فحسب بل تمثل طبقة من الأمة لهامصالحها ولها أهدافها ولها خطتها التي تتحرى تحقيق هذه المصالح وتنشد الوصول إلى هذه الأهداف .(2)- على أن الجريدة لم تلبث أن أصبحت مدرسة فكرية لها أفكارها ومثلها التي تتحمس لها وتجمع من حولها الرواد والأنصار والمؤيدين .(3) على النحو الذي نعلمه عنها تماما ، ومن هنا يمكن القول إن ارتباط طه حسين برجال حزب الأمة لم يكن ارتباطاً بالحزب السياسي بقدر ما كان ارتباطاً بالمدرسة الفكرية التي خرج بها لطفي السيد عن نطاق الحزب .

ومن جهة أخرى فإن طه حسين يميل بقوة إلى التيار الذي خلقه الأستاذ الإمام والذي ذكره بكل إجلال في الجزء الثاني من الأيام وحده تسع عشرة مرة لم يرد اسمه في أيها مجرداً ، كما كانت روح الإعجاب تشيع في كل إشاراته عنه في تلك المرحلة المبكرة وما بعدها . وكانت الأسباب

(1 ، 2 ، 3) تكون حزب الأمة فعلا بتكوين شركة الجريدة ،في 23 يوليو 1906 وإن لم يعلن عن تكوينه رسميا إلا في 21 سبتمبر 1907 . وبعده تكونت الأحزاب المصرية الأخرى : الحزب الوطني الحر في مايو 1907 والحزب الوطني في اكتوبر وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية في ديسمبر من نفس العام . الدكتور حسين فوزي النجار : أحمد لطفي السيد ــ ص 135 .

النفسية قد تقطعت بين طه حسين وبين الأزهر حين استيأس من الأساتذة وساء ظنه بالشيوخ.(1) وأحس أن الذين بكوا الشيخ صادقين، لم يكونوا من أصحاب العمائم، وإنما كانوا من أصحاب الطرابيش، فوجد في نفسه ميلا إلى أن يقترب من أصحاب الطرابيش هؤلاء.(2) وهم الذين نسب إليهم أنهم من أتباع الشيخ محمد عبده، كما قال عنهم كرومر، وغيره.(3) وإن كنا لا ننكر تأثير الأستاذ الإمام فإننا لا نبالغ فيه، وغاية ما نذهب إليه أن أفكار الأستاذ الإمام السياسية والإصلاحية قد وجدت صداها في نفوسهم، ذلك أنه كان رائد حركة الإصلاح الاجتماعي والديني (4) بل التفكير السياسي. وكان الإمام يميل إلى الإعتدال فوافق مشربه مشربهم، وخاصة حين نزع عن نفسه رداء السياسة إلى العلم والتثقيف وجعلها وسيلة إلى تحقيق الغرض السياسي في النهاية (5) فمهد بذلك للوطنية المعتدلة والتف حوله كثير من الوطنيين المعتدلين واتفقت آراؤه مع آرائهم في أن الإصلاح الحقيقي الداخلي هو وسيلة الجلاء (6) ولا ضير في الاستعانة بالانجليز في ذلك.(7)

وفي ذلك ما يفسر اقتراب طه حسين من رجال «حزب الإمام» كما يسميه بعض الباحثين،(8) إلى جانب ارتباطه بلطفي السيد والمدرسة الفكرية التي رادها. فلم يرتبط طه حسين، إذن، ارتباطاً سياسياً بالكيان الحزبي ومصالحه، ذلك أن طه حسين كما يقول ـ كان فقيراً متوسط الحال في أسرته، فأتاح له هذا الاتصال بحزب الأمة أن يفكر في الفروق الحائلة بين الأغنياء والبائسين.(9) وكانت بيئة الجريدة أنسب البيئات الصحفية لذهنه المتفتح، الذي يضيق بالبيئة السلفية في الأزهر.(10)

وفي بيئة الجريدة تعرف إلى كثير من الذين كانوا يلمون بلطفي السيد من الشيوخ والشباب، واتصل برفاق له «أحباء عمل معهم فيها بعد ولقى

(1، 2) الأيام ج 2 ص 190، 145، 147.
(3) كرومر: تقرير 1906 ص 16 ـ تشارلس آدمز: الاسلام والتجديد ـ ص 214.
(4، 5، 6، 7) المرجع السابق ص 53 ـ 56 ـ أحمد أمين: زعماء الاصلاح - ص 335، 311 العقاد: سعد زغلول ـ ص 90.
(8) ألبرت حوراني: مرجع سابق 208.
(9، 10) الأيام ج 2 ـ ص 19 173، 145، 147.

معهم خطوباً أي خطوب . عرف عنده هيكل ومحمود عزمي والسيد كامل . وكامل البنداري وأترابا لهم كثيرون ، وعرف بفضله لوناً من المعرفة لم يكن يقدر أنه سيتاح له في يوم من الأيام . فقد لقي عنده ذات يوم تلك الفتاة التي كان الناس يتحدثون عنها فيكثرون الحديث ، لا لأنها كانت جميلة فاتنة ولا لأنها كانت جذابة خلابة ، ولكن لأنها كانت طامحة ملحة في الطموح ظفرت لأول مرة بالشهادة الثانوية ، وكانت أول فتاة ظفرت بها ، وهي نبوية موسى »(1).

ولم يلبث طه حسين أن شغل بهذه البيئة الجديدة ، فقد كان يخلص لحياته فيها منذ قرأ لنفسه « أول مقال نشرته له الصحف . أرضاه ذلك عن نفسه وأطمعه في المزيد منه ، فجعل يكتب في الجريدة رغبة في الكتابة أحياناً ، وتقرباً بها إلى مدير الجريدة أحياناً أخرى . وجعل مدير الجريدة يرضى عن فصوله ويغريه بالكتابة ويحثه عليها حثاً ويعلمه القصد في اللفظ والأناة في التفكير » .(2)

ومن ذلك يبين أن ارتباط طه حسين بصحيفة حزب الأمة ، إنما يجيء من خلال التيار الفكري وليس من خلال التيار السياسي الحزبي ،- ذلك أنه ارتبط بمدرسة الجريدة واتجاهاتها الفكرية الداعية إلى تعقيل الحياة المصرية ، وإلى التنوير والحرية وتجديد شباب مصر بمقومات الحضارة الحديثة . فنجد عند دراسة مقالاته في « الجريدة » تعبيراً عن اتجاهات التجديد التي ذهبت إليها مدرستها الفكرية ، الأمر الذي يفتح أمامه أبواب التجديد على مصاريعها .

وفي حين تمثل الجريدة الجانب الفكري في تكوين طه حسين الصحفي ، نجد إعجابه بشخصية مصطفى كامل الذي جعله أحد ثلاثة تدين مصر لهم بما أتيح لها من اليقظة أولهم الأستاذ الإمام الذي أحيا الحرية العقلية ، والثاني قاسم أمين الذي أحيا الحرية الاجتماعية ، أما مصطفى كامل فهو الذي أذكى جذوة الحرية السياسية ،(3) الأمر الذي يكشف عن

(1 ، 2) مذكرات طه حسين ــ ص 44 ، 35 .
(3) مذكرات طه حسين ــ ص 226 .

اتجاه سياسي حماسي في بيئة التكوين الصحفي لطه حسين ، متطرف في عداوته للاحتلال . على أن توزع طه حسين بين الاتجاهين الأساسيين في مرحلة التكوين ، يجعله كذلك لا ينتمي إلى الحزب الوطني انتماء سياسياً ، ذلك أن هذا الحزب قد ظل متحفظاً في كثير من القضايا الفكرية الرئيسية ، وقد اتخذ لنفسه هذا الطابع منذ زعيمه الأول مصطفى كامل .(1) فهو حزب يحترم الدين ، ويدعو إلى التمسك بتعاليمه ، ويرى في ذلك ضماناً لتماسك الأمة وحفاظاً على قوتها المعنوية أمام المحتل .(2) ولذلك نجد تأثر طه حسين باتجاه الحزب الوطني المرتبط بالحرية السياسية : الجلاء والاستقلال التام ، ولا يرتبط بالجانب الفكري في هذا الاتجاه ، وذلك ما نجده في القصائد المبكرة التي نشرها في صحف الحزب الوطني ، ومنها قصيدة يهنيء فيها عبد العزيز جاويش بمناسبة خروجه من السجن سنة 1909 : ومطلعها :

« الآن حق لك الثناء ... فلتحي وليحي اللواء
« ولتحيى مصر وأهلها ... شاء العدى أو لم يشاءوا »

ومنها:

« إن كان ذكرك للجلا ... ء يسوء فليكن الجلاء »
« أو كان صوت الشعب عنـ ... ـد همو هو الداء العياء »
« فليعل صوت الشعب حتـ ... ـى يرجعوا من حيث جاءوا »(3)

ويكتب طه حسين في هذه البيئة الأولى قصائد كثيرة يدافع فيها عن الجلاء والاستقلال في هذه الفترة ، نشر معظمها في صحف الحزب الوطني ، ومن نماذج تلك القصائد ما نشره في سنة 1909 تحت عنوان : هم جائش(4) حينما عرضت حكومة بطرس غالي على مجلس الشورى مشروع مد امتياز قناة السويس . ومطلعها :

(1 ، 2) الدكتور عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة ج 8 ـ ص 239 .
(3) مصر الفتاة في 23 نوفمبر 1909 ـ محمد سيد كيلاني : طه حسين الشاعر الكاتب ـ ص 21 .
(4) المرجع السابق ص 25 ـ مصر الفتاة في 5 نوفمبر 1909 .

« تيمموا غير وادي النيل وانتجعوا فليس في مصر للأطماع متسع
« كفوا مطامعكم عنا ، أليس لكم مما جنيتم وما تجنونه شبع ؟ »

وفي قصيدة أخرى يخاطب العام الهجري الجديد يقول :

« كن أنت بعد أخيك خير هلال وأضيء لمصر سبيل الإستقلال »(1)

ومن هذه المناذج يتضح لنا تمثل طه حسين المبكر للإتجاهات السياسية التي كان يعبر عنها بالمقال الصحفي في « اللواء و « مصر الفتاة » وغيرها من صحف الحزب الوطني ، ولكن طه حسين مع ذلك ظل « محتفظاً بخلافاته الفكرية مع الحزب الوطني »(2) ومن ذلك أنه حين يتناول موضوع المرأة وما تلاقيه من إهمال ، يتبنى آراء قاسم أمين التي عنيت بها « الجريدة » .

الأمر الذي يشير إلى أن طه حسين في بيئة التكوين الصحفي كان موزعاً بين اتجاهين :

الأول : اتجاه فكري تقوده، مدرسة الجريدة .

الثاني : اتجاه سياسي تقوده صحف الحزب الوطني في سبيل « الجلاء التام والاستقلال الكامل » فالاتجاه الفكري عند مدرسة الجريدة أقرب لعقل طه حسين ، وخاصة بعد خروجه من الأزهر والتحاقه بالجامعة ، وكان لطفي السيد يدعو إلى « التعقيل » وفي ذلك ما جذب اليه الشباب من جيل طه حسين كمحمد حسين هيكل وعباس العقاد وغيرهم من الذين كانوا أقرب إلى الإيمان « بالعقل » منه إلى الايمان « بالشعور » ـ فكانوا ـ كما يقول العقاد(3) ـ يقرأون مقالات اللواء فيحمدون له غيرته ويعجبون بصدقه في جهاده ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام منهج من الكتابة والقول غير المنهج الذي يتلقون منه رسالة الفكر والعاطفة وتستجيب إليه بديهتهم المتطلعة إلى الوعي والمعرفة ، فإن ذلك الأسلوب « الخطابي الشعوري » الذي كان له أبلغ الأثر في جمهور صحف الحزب الوطني (4) لم يكن هو

(1) المرجع السابق ص 23 ـ مجلة الهداية ـ ديسمبر 1910 .
(2) رجاء النقاش : مرجع سبق ـ ص 150 .
(3 ، 4) عباس محمود العقاد : رجال عرفتهم ـ ص 50 .

الأسلوب المختار الذي عهده رواد التجديد فيما اطلعوا عليه من كلام مقروء أو كلام مسموع .

وعلى ذلك فإن اتجاه طه حسين نحو الجريدة اتجاه فكري يتمثل دعوتها إلى التجديد والتعقيل ويتخذ من معلمها لطفي السيد أستاذاً ، يتنبأ لتلميذه بأن « سيكون موضعه من مصر موضع فولتير من فرنسا »(1) الأمر الذي جعله يتطلع بعد تخرجه من الجامعة إلى فرنسا خاصة .(2) وأخذ في تعلم الفرنسية ، وأخذت مناهج التفكير الأوربي بلبه ، ولذلك وجد مع أبناء المدرسة التجديدية من جيله في « الجريدة » محط آمالهم ، سيما أن هذه الجريدة قد خرجت على « أعقل » طراز بين الصحف الأوربية ، وبخاصة صحافة فرنسا التي كان معظم المتعلمين من رؤساء الحزب يتثقفون بثقافتها ويفضلون صحفها على صحف « انجلترا » دولة الاحتلال ،(3) ويذكر العقاد ،(4) أن رجال الحزب اختلفوا زمنا على اختيار إحدى الصحيفتين الكبيرتين في باريس مثالا لصحيفة الحزب اليومية ، وهما « الطان » و « الجورنال » أما الطان فكان المرجح لها عند العارفين بالشئون الصحيفة أن ترجمة اسمها « الزمان » تجعلها أصلح للنداء عليها في اللغة العربية . ولكن « الطان » صحيفة شبيهة بالرسمية وعلى صلة بالدواوين العليا . فليس من الموافق لحزب يسمى بحزب الأمة ويتجنب الاتصال بقصر عابدين وقصر الدوبارة على السواء أن يتخذها مثالا لصحيفته القومية فانتهى الخلاف إلى اختيار « الجورنال » نموذجاً لصحيفتهم و « الجريدة » هي ترجمة لكلمة « الجورنال » . (5)

وظهرت « الجريدة » على مثال « الجورنال » في الصبغة غير الرسمية وفي نظام التحرير وترتيب الصفحات . وأظهر ما كان في هذا النظام فتح صفحات « الجريدة » للكتابة الأدبية بأقلام ناشئة الجيل الحديث ، وربما أفسحت في صفحاتها الأولى – إلى جانب المقال الإفتتاحي – موضعاً بارزاً لقصيدة عاطفية أو مقالا طريفا من مقالات الوصف والنقد اللغوي ،

(1 ، 2) مذكرات طه حسين – 78 ، 73 – 79 .
(3 ، 4) عباس محمود العقاد : نفس المرجع – ص 236 – 237
(5) المرجع السابق 237 .

وترددت على صفحاتها أسماء : محمد حسين هيكل ، ومصطفى عبد الرازاق وطه حسين ، وعباس محمود العقاد ، ومحمد السباعي وعبد الرحمن شكري والمازني والقاياتي وغيرهم كثيرون .(1)

وكان « اللواء » لسان الحزب الوطني ، و« المؤيد » لسان حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية يتقبلان الكتابة بأقلام الناشئين ، ولكنهما يقصرانها على الناحية السياسية ولا يرحبان بالكتابة الأدبية إلا إذا كانت بأقلام الشعراء والكتاب النابهين من طراز شوقي وحافظ ومطران والمويلحي والمنفلوطي وأمثالهم بين أدباء الجيل المتقدم ، فاتجه الأدباء الناشئون إلى « الجريدة » ولا سيما الطلبة والموظفون ، إذ كانت الكتابة في السياسة محظورة عليهم ، وكانوا يكتبون فيها أحيانا إلى الصحف عامة ــ ومنها الجريدة ــ بتوقيع مستعار (2) وكان شعار الجريدة الذي اختاره لطفي السيد من كلمات الفيلسوف الأندلسي ابن حزم يمثل نزوع جيل طه حسين من التجديديين إلى الجريدة ، لأن هذا الجيل كان يعلم أن معارضيه بالرأي أضعاف مؤيديه : « من حقق النظر وراض نفسه على السكون إلى الحقائق وأن آلمتها لأول صدمة ، كان اغتباطه بذم الناس إياه أشد وأكبر من مدحهم إياه » ، وهو يلخص لنا العلاقة النفسية بين هذه المدرسة وبين طه حسين الثائر على البيئة السلفية المحافظة في الأزهر ، والذي فصل منه نتيجة تطرفه في الرأي الذي صدم هذه البيئة .

أما اتصال طه حسين بصحف الحزب الوطني بعد وفاة مصطفى كامل فهو يرتبط بشخصية الشيخ عبد العزيز جاويش الذي أكثر الاختلاف اليه والاستماع له ،(3) وكان الشيخ جاويش يتشبه بـ« جمال الدين الأفغاني » في حين يتشبه أقرانه على الأكثر بالأستاذ الإمام كالشيخ رشيد رضا ، ومصطفي المراغي ، وطنطاوي جوهري ، وعبد الحميد الزهراوي ومحمد الخضري ومحمد المهدي والنجار وغيرهم .(4) وفي ذلك ما يفسر إعجاب

(1) المرجع السابق 237 .
(2) المرجع السابق ــ ص 237 .
(3) مذكرات طه حسين ــ ص 18 .
(4) عباس محمود العقاد : نفس المرجع ــ 180 .

طـه حسين بعنف الشيخ جاويش في السياسة وحملاته على الأزهر وشيوخه وكان « يحبب العنف إلى الفتى ويرغبه فيه ويزين في قلبه الجهر بخصومة الشيوخ والنعي عليهم في غيرتحفظ ولا احتياط ، فهو كان يرى أنهم آفة هذا الوطن يحولون بينه وبين التقدم ، بما كانوا يلجون فيه من المحافظة ويعينون عليه الظالمين بمالأتهم للخديو ، ومصانعتهم للإنجليز » .(1) وقد وجد هذا العنف من نفس طـه حسين قبولا واستجابة ، فلم يكد يأخذ في الكتابة « حتى عرف بطول اللسان والإقدام على ألوان من النقد ، قلما كان الشباب يقدمون عليها في تلك الأيام . ولكنه كان نقداً محافظاً غالياً في المحافظة ، إلا أن يعرض لشئون الأزهر ، فهنالك كان يخرج حتى عن طور الاعتدال ويغلو في العبث بالشيوخ ويجد التشجيع على ذلك كل التشجيع من الشيخ عبد العزيز جاويش وربما وجد منه إغراء بذلك وحثا عليه » . (2)

ومن ذلك يبين أن طـه حسين كان موزعاً بين مذهبين من مذاهب الكتابة ، كما كان موزعاً بين هذين الحزبين الوطنين في ذلك الوقت . أحدهما مذهب الاعتدال والقصد ، ذلك الذي كان الأستاذ لطفي السيد يدعوه إليه ويزينه في قلبه . والآخر مذهب الغلو والإسراف ، ذلك الذي كان الشيخ عبد العزيز جاويش يغريه به ويحرضه عليه تحريضاً . وكان الفتى يستجيب للمذهبين معاً . فإذا اقتصد في النقد نشر في الجريدة ، وإذا غلا نشر في صحف الحزب الوطني »(3) .

ومن ذلك يبين أثر هذين المذهبين في بيئة التكوين الصحفي لمقال طـه حسين ، فإذا كان لطفي السيد تلميذ الأستاذ الإمام في القصد والاعتدال والعلم والتثقيف ، وهو مذهب يرجع إلى تاريخ « الاقدام » في حياة الإمام لأن نظرته إلى الغرض القريب لم تعجله عن النظر الطويل إلى الغرض البعيد ، الدائم وراء جميع الأغراض ،(4) فإن هذا الأثر يبين من اهتمام

(1 ، 2) مذكرات طه حسين ــ 18 ، 19 .
(3) المرجع السابق ــ ص 19
(4) عباس محمود العقاد : محمد عبده ــ ص 181 .

مقال طــه حسين من بعـد ، بنشر المعرفـة و « تعقيل » الحيـاة المصرية ، والاهتمام بالتربية والتعليم ، كما كان لقاؤه بالشيخ جاويش ـ المتشبه بجمال الدين ـ من الحوادث الهامة في تربية الصحفي الناشيء ، وشحذاً لمواهبه في النزال على الـرغم من أن « طول اللسـان هو الـذي قطع الصلة قـطعاً حاسما بين صاحبنا وبين الأزهر ، ودفعه دفعاً إلى حياته التي أتيحت له ، وعرضه لسخط أي سخط ، وحزن أي حزن ، وعناء أي عناء »(1) .

وعلى الشيخ جاويش يلقي طــه حسين نصيباً غير قليل من « ثقل تلك الفصول الطوال السمجة التي كتبها الفتى فشغل الأدباء والمثقفين حيناً ، ثم لم ينقطع استخذاؤه لها وضيقه بها وخجله منها كلما ذكـرت له . وكـان موضوعها نقد « نظـرات » المنفلوطي رحمه الله . وكان عنوانها « نظرات في النظرات » . وما أسرع ما انزلق الفتى من هذا النقد السخيف إلى طول اللسان وشيء من الشتم لم تكن بينه وبين النقد صلة . ولم ينس الفتى مقالا دفعه ذات مساء إلى الشيخ جاويش ، فلم يكد يقرأ أوله حتى طرب له وأبى إلا أن يقرأه بصوته العذب على من يحضر مجلسه ذاك . وابتهج الفتى حين سمع الثناء وأحس الإعجاب واستيقن أنه أصبح كاتبا ممتازاً . ثم لم يذكر بعد ذلك أول هذا المقال حتى طأطأ من رأسـه ومن نفسه وسأل الله ان يتيح له التكفير عن ذنبه ذلك العظيم . وكان أول المقال .

« عم صباحاً أو مساء ، واشرب هواء أو ماء ، واستأجر من تشاء لما تشاء فقد وضح الحق وبرح الخفاء » . (2)

ويذكر طــه حسين ، فيما بعد ، أن أحاديثـه تلك عن المنفلوطي قد شغلت الناس حتى تحدث اليه فيها كل من كان يلقاه إلا رجلا واحداً لم يشر إليهاقط على كثرة ما كان يلقاه ويتحدث إليه ، وهـو مديـر الجريـدة لطفي السيد . (3) الذي لم يرض عن هذه الفصول ، (4) ربما لما اتسمت به من عنف لا يتفق مع مذهب القصد والاعتدال سيما وأن طــه حسين

(1 ، 2) المرجع السابق .
(3) مذكرات طه حسين ـ ص 20 ، 37 .
(4) المرجع السابق ـ ص 38 .

كان يعيب على المنفلوطي فقط « أنه يخطىء في اللغة ويضع الألفاظ في غير مواضعها ويصطنع ألفاظاً لم تثبت في لسان العرب ، ولا في القاموس المحيط » ،(1) وربما لأن لطفي السيد كان من المرحبين بالظاهـرة الأدبية التي تمثلت في فن المنفلوطي ، أو في أسلوبه الإنشائي ، عند ظهورها في الصحافة ، وبعد جمع المقالات في كتاب « النظرات » لأن المقالة الإنشائية كانت « قالباً لفظياً » لا عناية فيه بالمعنى قبل المنفلوطي ، وقبل المويلحي في فصول « عيسى بن هشام » على التخصيص وكانت كتـابة المنفلوطي عـلى عهد « الجريدة » ظاهرة ملحوظة بين المنشئين .(2)

ومهما يكن من شيء ، فقد أصبح طـه حسين كاتباً في الضحف بفضل هذين الرجلين : لطفي السيد والشيخ جاويش(3) وأصبح كاتبا لشيء آخر وهو أنه أثناء الأعوام العشرة الأولى من كتابته في الصحف لم يكتب إلا حباً في الكتابة ورغبة فيها ، لم يكسب بها « درهما ولا مليما » .(4)

ولم يقف فضل الشيخ جاويش عند تعـريف طـه حسين إلى جمـاهير الناس ووقفه بين أيديهم منشداً للشعر ، كما كان يفعل الشعراء المعروفون وحافظ منهم خاصة في بعض المناسبـات العامـة ، وإنما « علمـه الكتابـة والتحرير في المجـلات ، فقد أنشـأ مجلة « الهدايـة » وطلب إلى الفتى أن يشارك في تحريرها ، ثم ترك له أوكاد الإشراف على هذا التحرير ، وكان له الفضل كل الفضل فيما تعلم الفتى من إعداد الصحف وتنسيق ما ينشر فيها من فصول . ولم تخل « الهدايـة » من جدال عنيف دفـع إليه الفتى دفعا . وكان خصمه الشيخ رشيد رضا وقد أسرف الفتى على نفسه وعلى الشيخ رشيد في ذلك الجدال »(5) .

ومن هذا النقد الذاتي لموقفه من بيئة التكوين ، نجد أن طـه حسين قد آثر خطة لطفي السيد في الفكر والقصد ، وهي الخطة التي تبين من انضمامه لأسرة « السفور » التي تتألف من تلاميذ « الجريدة » بعد توقفهـا

---

(1) المرجع السابق ـــ ص 38 .
(2) عباس محمود العقاد : رجال عرفتهم ـــ ص 246 .
(3، 4، 5) مذكرات طه حسين ـــ ص 38 .

عن الصدور في الحرب الاولى ، واستحال العمل الصحفي في ظلّ الأحكام العرفية ، وقد ترك احتجابها في نفوسهم من الألم ما دفعهم إلى مواصلة رسالة التجديد في « السفور » . يقول مصطفى عبد الرزاق :

« استبشرنا بها راية يلتف حولها الجوهر المصفّى من شبابنا وتسير في ظلها دعوة الحرية والتقدم بين جاه العلم والعقل وجاه العصبية . . ماتت الجريدة وتفرق عنها أصحابها غافلين لاهين بمظاهرألقابهم وأموالهم . . إن المرزوئين في الجريدة هم أهل الجد من فتيانها الذين كانت لهم صحيفة الأعيان مظهراً لمذاهبهم الحرة وأفكارهم الجديدة ، ولن يعدموا ، بإذن الله ، وسيلة لنشر دعوتهم الصالحة في جرائد إن كانت صغيرة ضعيفة فستمدها قوة الحق فتكبر وتقوى . أما بعد فإننا في هم من موت الجريدة يشغلنا اليوم عن التقدير لجريمة من أماتوها وعاشوا بعدها » .

وقد جاءت « السفور » امتداداً للجريدة في اتجاهاتها التجديدية ، ذلك أن « للسفور معنى أشمل مما يتبادر إلى الذهن عند سماع هذه الكلمة »(1) ويمتد هذا المعنى إلى كشف النقاب عن المجتمع التقليدي « فنحن أمة محجبة على حقيقتها ، لا تتفق مع ما فطرت عليه في شيء(2)

وفي « السفور » يختم طه حسين مرحلة التكوين الصحفي التي بدأها في سنة 1908 موزعا جهوده بين الأزهر والجامعة المصرية ، بين الجريدة وصحف الحزب الوطني ، حتى انتهت تلك المرحلة بحصوله على الدكتوراه في الآداب سنة 1914 ، وسفره إلى فرنسا ، ويحدد موقفه من بيئة التكوين الصحفي حين يؤثر امتداد الجريدة في « السفور » ، ويستمر مع تلاميذ الجريدة في أداء رسالتها التجديدية ، في فترة وهنت فيها الحياة الأدبية والصحفية وهي فترة الحرب ،(3) ولذلك جعلوا من أنفسهم كما يقول محرر السفور ــ عبد الحميد حمدي ــ(4) « جيل التضحية » الذي « يحتاج إلى شجاعة وأسمى أنواعها الشجاعة الأدبية ، لأن التضحية بالنفس هينة وإذا

(1 ،2) السفور ــ في 21 مايو 1915 .
(3) هاملتون جب : مرجع سبق ــ ص 349 .
(4) السفور في 29 أغسطس 1917 .

كان لا بد من جيل يضحى بنفسه لمصلحة بلاده سواء اليوم أو غدا فهل يرضى جيلنا هذا أن يسميه التاريخ في الغد جيل التضحية » .(1)

ونخلص مما تقدم إلى أن الدكتور طـه حسين قد تمثل بـئة التكوين الصحفي في مقاله ، كما تمثل تيارى القديم والحديث في ثقافتـه ، وأخذ مزاجه المصري من الثقافة الأجنبية ما يلائمه وعدل فيه وأضاف إليه ، وهو الأمر الذي تبين أثاره في مقاله بعد عودته من فرنسا ومشاركته في الخدمة العامة عن طريق الكلمة ، والمقال الصحفي خاصة وأن السياسة المصرية والحياة المصرية قد انتقلت إلى طور جديد بعد ثورة 1919 ، ويتمثل لنا المقال الصحفي فناً أصيلاً في مزاج جيله ، له في أدبنا تقاليد مكينة كما تبين من دراستنا لمصادرها في القديم والحديث ، وهي المصادر التي كانت بيئة التكوين الصحفي مهيأة لتمثلها نتيجة لإحياء القديم كما يحـدث في النهضات القومية ولتعقيل الحياة المصرية ، والتوفيق بين الثقافتين ، الأمـر الذي نجد آثاره في اتجاهات المقال الصحفي عند طـه حسين ، والتي تنم عن تمثله للحيوات القومية والسياسية والإجتماعية والفكرية وللثقافة الفرنسية في نهاية الأمر .

ومن آثار ذلك في بيئة التكوين الصحفي اتجاه طـه حسين في اتجاهاتها سياسياً واجتـماعياً وأدبيـاً ولغويـاً ، وهي اتجاهـات تنم عن تمثل مصـادر الثقافة ، والإتجاه القوي نحو التجديد ، فلم يعد أسلوبه يميل إلى الغريب أو المحسنات كأثر للبيئة السلفية في مقالاته الأولى ، ولكنه اتجه بأسلوبه الى السلاسة والسهـولة وهما الصفتان اللتـان أصبحتا من مميـزات أسلوبه في الصحافة والأدب من بعد ، ورسم لمقاله غايـة تتمثل في « اثـارة التفكير لدى القراء »(2) ودعوتهم إلى « قراءة ما يكتب »(3) وهو الأمر الذي ظل من لوازم مقالاته الصحفية من بعد ، وغدت أكثر حجية ومنطقية كنتيجة مستفادة من دراساته العربية والأوربية .

---

(1) السفور في 29 أغسطس 1917.
(2 ، 3) الجريدة في 28 أكتوبر 1910 .

2 ـ طـه حسين والبيئة الثانية:

ويبين مما تقدم أن بيئة التكوين الصحفي قد هيأت لطـه حسين كاتب المقال الصحفي قدرات تميز بها في بيئته الثانية، بيئة المشاركة العامة بعد ثورة 1919 ونعني قدرات: الشرح والتفسير والاعتماد على الحجج المنطقية والعاطفية لتأكيد ما يذهب إليه، أو لتدعيم نزالياته، وتلك هي قدرات «كاتب المقال الصحفي»(1).

وفي هذه البيئة الصحفية الثانية التي بنيت فيها الحركة الوطنية على أساس المفاوضات المصرية البريطانية، تألق قلم «طـه حسين» مع غيره من كتاب المقال الصحفي في مصر، ذلك أن حرية الصحافة قد أطلقت بالرغم من القيود الرسمية المفروضة عليها، وأكبر الظن أن لبعثة ملنر دخلا في تقرير هذه الحرية التي بدونها يعز على البعثة فهم الموقف على حقيقتة، كما أشار تقرير ملنر إلى ذلك،(2) وفي هذه الأثناء أصدر محمود عزمي جريدة «الاستقلال» في مايو 1921 وهي الصحفية التي حرر فيها طـه حسين وكتب مقالاته بعد عودته من باريس، واتسمت هذه الصحفية بخلوها من العنف الذي أثر عن جريدة «الأخبار». تم نقل امتياز «الاستقلال» فيما بعد إلى جبرائيل تقلا صاحب «الأهرام»، ومن اسم «الاستقلال» يبين ارتباطها بالفترة التي نشأ فيها الخلاف بين الوطنيين على مسائل المفاوضات(3).

ولعل في ذلك ما يفسر مفهوم «طـه حسين» لمهمته في الصحافة المصرية بعد الثورة. ذلك أن العلماء والمفكرين «سيكونون هم الذين يحققون التوازن بين الساسة حين يختلفون، وسيقضون بينهم فيما يضطرون إليه من الاختلاف(4) ولذلك آثر الصحف «المعتدلة» التي لا تميل إلى جانب متطرف. فيكتب في «الاستقلال» و«الأهرام» مقالات يتناول فيها السياسة المصرية العامة، ويذهب إلى أن «الاستقلال وسيلة لا غاية. إننا

---

(1) الدكتور عبد اللطيف حمزة: المدخل في فن التحرير الصحفي ـ ص 218.
(2، 3) الدكتور ابراهيم عبده: تطور الصحافة ـ ص 205.
(4) مذكرات طه حسين ـ ص 258.

نطلب الاستقلال لتكون لنا الحرية الكاملة في تدبير حياتنا والأخذ من لذاتها المختلفة بأعظم نصيب نطلب الاستقلال لنسعد لا لنكون مستقلين »[1] .

وتأسيساً على هذا الفهم يذهب طه حسين في اتجاه مدرسة الجريدة ، فيكتب افتتاحيات يدعو فيها إلى « عناية المصريين بتاريخ مصر » .[2] كما ينشر في « الأهرام » الكثير من المقالات عن الحضارة التي يجب أن يكون الاستقلال وسيلة إليها .[3]

ويكتب مقالات عما ينبغي أن يبذل في سبيل الفنون والعلوم والآداب كسبيل إلى الحضارة[4] ذلك أن طه حسين قد اشترك في البيئة الصحفية الثانية في الوقت الذي « ظهر فيه نشاط مصر كلها للسعي إلى الاستقلال والإلحاح فيه ، والمطالبة بأن تعترف لها الأمم به وتقرها الأمم منه على ما تريد في الوقت الذي كان المصريون يثورون فيه على ضفاف النيل ليظفروا باستقلالهم السياسي يضحون في سبيل ذلك بالأنفس والأموال »[5] ويذهب طه حسين إلى أن هذا الاستقلال وسيلة وليس غاية في ذاته ، فالنهضة المصرية لا ينبغي أن تكون « كلاما ولغواً ، ولا محاولة من هذه المحاولات التي لا تجدي وإنما هي حقيقة واقعة تصور شعباً قد استيقظ بعد نوم ، ونشط بعد فتور ، ووصل جديده بقديمه ، وأبى إلا أن يكون هذا الجديد ملائما لذلك القديم »[6] لذلك ينظر طه حسين إلى تصريح 22 فبراير 1922 على أنه .. أتاح لمصر مظاهر الاستقلال وشيئاً من حقائقه مهما يكن قليلا فإن له ما بعده . ولكن السعديين كانوا ينكرون هذا التصريح ويرونه شراً ونكراً ويرون قبوله جريمة وإثما[7] وإذا كان التنظيم الحزبي ، نتيجة توزع طرائق النظر إلى الأهداف العليا والاختلاف على

---

(1) الأهرام في 27 فبراير 1922 ، 1 ،3 ،5 مارس 1922 .
(2) الاهرام في 7 فبراير 1922 .
(3) الاهرام في 21 ابريل 1922 .
(4 الاهرام في 26 ابريل 1922 .
(5 ، 6) الدكتور طه حسين : «حديث المساء» كوكب الشرق في 28 مارس 1934 .
(7) مذكرات طه حسين ــ ص 258 .

تفاصيل الحركة الوطنية قد أدى إلى تنظيم الاشتغال بالسياسة من حيث البرامج والعمل ، فإن هذا التنظيم كانت له اتجاهات ومثل ، فاتجه الوفد في العهد البرلماني من تاريخنا المعاصر نحو نظام وأهداف « الحزب الواحد » الذي عرفته بعض الأمم في طور من تاريخ العالم الذي تلا الحرب العالمية الأولى .(1) وتألف حزب الأحرار الدستوريين ، قبل صدور الدستور للدفاع عنه كما وضعته اللجنة التي أنيط بها وضعه (2) وللحزب أشباه في الأحزاب السياسية الفرنسية من حيث فلسفة برامجه ، ومن حيث اضطراره ـ في أثناء هذه الفترة من تاريخنا ـ للعمل في الحكم أو في المعارضة مشتركاً مع غيره . « وكان على العموم حزب موازنة وتلطيف »(3) ويصدر هذا الحزب جريدة « السياسة » في 30 أكتوبر 1922 يرأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل ، ويشترك في تحريرها طه حسين ومحمود عزمي وتوفيق دياب وغيرهم .

وتتضح رسالة الحزب من العنصر النفسي لهذه الصحيفة ، والذي يمثل غرضاً مزدوجاً في كيانها الصحفي وهو: « الدفاع عن المشروع الذي وضعته لجنة الدستور حتى يصدر والحرص على أن تحقق المعاهدة التي تعقد مع انجلترا كمال استقلال مصر وكفالة حقوقها في السودان »(4) وتتوسل في سبيل ذلك بتوجيه الرأي العام ، وتنويره والدعوة إلى هذا العنصر بأسلوب يقترب من أسلوب « الطان » الفرنسية . أسلوب التعقل والاعتدال »(5) ومن هذا العنصر النفسي وذلك الأسلوب ، يبين الامتداد الفكري لمدرسة « الجريدة » ومثلها التي تتحمس لها وتجمع من حولها الآراء . وعنايتها بالإرشاد والتثقيف والتوجيه والتجديد في « الأسلوب والموضوع » (6) فخرجت عن تلك الدائرة الضيقة التي كانت الصحافة فيها قاصرة على « ذكر

---

(1) محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات ج 1 ـ ص 116 .
(2) الدكتور حسين هيكل : مذكرات ج 1 ص 145 .
(3) محمد شفيق غربال : نفس المرجع ص 116 .
(4) السياسة في 5 نوفمبر 1922 ـ عبد العزيز شرف : الدكتور محمد حسين هيكل صحفيا ـ ص 124 .
(5) المرجع السابق ص 124 ـ الدكتور حسين هيكل : نفس المرجع ـ ص 150 .
(6) المرجع السابق ص 142 ـ السياسة في 2 نوفمبر 1922 .

الحوادث السياسية في الداخل وفي الخارج »(1) وأفردت « صحائف للأدب والفن والزراعة والسيـدات » .(2)

وفي هذه الصحيفة يواصل طـه حسين رسالته التي انتهى إلى تصورها في « الجريدة » . فالإمام الذي جمع الجاهين في شخصه وحاول أن يجمعهما في حزب الأمة ــ جاه العلم والعقل وجاه العصبية والغنى ـ(3) هو نفس الإمام الذي حاول نفس الجمع في حزب الأحرار الدستوريين ، فهو أستاذ « لـطـه حسين » و« للشبـاب الناهض المفكـر كله »(4) يتخذ من ألفـاظ مقالاته « نموذجا للكتابة ومعناها نموذجاً للتفكير »(5) ويصبح طـه حسين من « أنصار الجديد في قصد واعتدال »(6)، وفي ذلك تفسير ارتباطه بالأحرار الـدستـوريـين وصحيفتهم ، التي نـرجـح أن تسميتهـا تعـود إلى محـرر « الجـريدة »الـذي ترجم لأرسطـو ، فالسيـاسة عنـد أرسطو هي « أشرف العلوم ، لأنه يعرفها بأنها تدبير المدينة ليكون سكانها فضلاء ، ومن هذا التعريف ترجع إلى السياسة سائر العلوم ، أو كما قال أرسطو إن السياسة تبين ما هي العلوم الضرورية لحياة فضلى » .(7) ولعل في ذلك ما يبين العنصر النفسي الذي قامت عليه صحيفة « السياسة » وهو العنصر الذي جعل طـه حسين ينظر إلى زملائه في تحريرها على أنهم « مصلحون ودعاة إلى التجديد ، وهم أحرار ودعاة إلى الحـرية ، وهم محبـون للذوق حين يفكـرون وحين يعملون ، وهم أبـاة حـريصـون عـلى الكـرامـة الفـرديـة والاجتماعية ، لهم لون خاص يمتازون به ويعرفون بين الطبقـات المختلفة والأصناف المتباينة من الناس ، يتخذهم خصومهم أحيانا هزؤا وسخرية ، ولكنهم على ذلك كله يقـدرونهم ويتأثـرون خطاهم ويحسـدونهم على مـا يسخرون منهم من أجله .(8)

(1، 2) المرجع السابق ص 142 ـ السياسة في 2 نوفمبر 1922 .
(3) من كلمة محمد شفيق غربال في كتاب « الدكتور محمد حسين هيكل » ــ أشرف عليه : أحمد لطفي السيد.
(4، 5، 6) حديث الأربعاء ج 2 ص 49 .
(7) لطفي السيد : قصة حياتي ــ ص 169 ــ عبد العزيز شرف : مرجع سبق ص 276 .
(8) حديث الاربعاء ج 2 : ص 51 .

وتأسيساً على هذا الفهم ، فإن اتجاه « طه حسين » إلى صحيفة « السياسة » يمثل اتساقا مع مفهومه لدور « العلماء والمثقفين » من أبناء هذا الوطن . فهم قد عرفوا تجارب الأمم وعرفوا حقائق العلم واستطاعوا أن يميزوا بين ما يمكن من الأمر وما لا يمكن وهم القادرون على أن يقودوا الشعب إلى الخير ويسلكوا به قصد السبيل » .(7)

على أنه لم ينفق في مصر شهوراً بعد عودته حتى تبين أنه « كان واهماً في كل ما قدر » .(1) وأن العلماء والمفكرين « ناس من الناس يتأثرون بالجماعات التي يعيشون وسطها فيخطئون مثلها ويصيبون . بل هم قد يرون الخطر ويعمدون إليه متابعين للجماعات التي يذهبون مذهبها أو يرون رأيها »(2) .

ومهما يكن من أمر فإن اتجاهات صحيفة « السياسة » تتسق مع مفهومه لمهمته في الصحافة ، والتي تقوم على الملاءمة « بين نتائج العلم على اختلافها وبين حاجات الناس وطاقاتهم واستعدادهم للتطور والمضي في سبيل الرقي » ،(3) وهي المهمة التي تحدد نوعية مقالاته في هذه الصحيفة ، فهو معنى بالأدب والثقافة العامة أول الأمر ، متجه إلى السياسة والنزال بعد ذلك . وهو يبتدع فنونا جديدة لمقاله ، نجد منها ما يمكن أن نسميه « بالعمود الثقافي » في « حديث الاربعاء »(4) والاتجاه نحو قضايا التعليم وشئونه وغاياته ،(5) وحرية الفكر والرأي(6) وقضية الجديد والقديم(7) وفي « السياسة » يكتب كذلك المقال الرئيسي موقعاً في كثير من الأحيان ، وقد يتناول قضية اجتماعية كالتعليم(8) كما قد يتجه اتجاها سياسيا أو نزاليا كما سيجيء . ويكتب « المقال الافتتاحي » للصحيفة:

(1 ، 2) مذكرات طه حسين ــ ص 253 .
(3) المرجع السابق ــ ص 253 .
(4) السياسة في أول نوفمبر 1922 .
(5) السياسة في 14 نوفمبر 1922 .
(6) السياسة في 29 نوفمبر 1922 .
(7) السياسة في 20 ديسمبر 1922 .
(8) السياسة في 14 نوفمبر 1922 .

« حديث اليوم » مكان الدكتور هيكل في بعض الأحيان(1) ولكنه يوقعه، ويتخذ له عناوين تميزه وعن هذه الصحيفة عرف التهكم السياسي إن صح التعبير، في مقالات طه حسين (2) كما سيجيء، ولم يلبث المفهوم الارسطي «للسياسة» أن وسم مقالاته بسمات «التنوير» و«التثقيف» و« التصوير » و« النقد » في صفحة « الأدب » التي كان يحررها طه حسين، والتي وسمت صحيفة « السياسة الأسبوعية » من بعد منذ صدورها في 13 مارس 1926. ويذكر الأستاذ حافظ محمود(3) أن إدارة جريدة « السياسة » اليومية لاحظ أعضاؤها رواجها يوم الإربعاء الذي تظهر فيه الصفحة الأدبية، ولم يكن رواج قراء فقط، ولكنه كان رواج أفكار يرسل بها كتاب وقراء هذه الصفحة، ومن هنا نشأت فكرة إصدار « السياسة الأسبوعية ».

على أننا نلاحظ كذلك ارتباطاً بين توقيت إصدار « السياسة الأسبوعية » التي صدرت في مارس 1926، وبين قضية فكرية كان بطلها طه حسين، ونعنى قضية « الشعر الجاهلي » الذي صدر في نفس العام، وانتصر فيها كتاب المقال الصحفي من مدرسة التجديد على اختلاف نزعاتهم الحزبية لحرية الفكر. فكان إنشاء هذه الصحيفة الأسبوعية في تلك الأثناء تأكيداً لحرية الفكر، وتحريره من قيود السياسة. وهو ما نلاحظه في مقال لطه حسين بالعدد الأول عن « الشعر الجاهلي والشك فيه ». (4) الأمر الذي يوجب إطلاق وظيفة التثقيف في الصحافة المصرية من كل القيود والمؤثرات الحزبية.

ونتيجة لذلك أتاحت « السياسة الأسبوعية » و« البلاغ الأسبوعي » من بعد، للكتاب قسطا من الحرية لم يتح لهم في الصحف اليومية ليعالجوا موضوعات تتعلق بالنهضة المنشودة.

---

(1) السياسة في 11 يناير 1923 و 26 يناير 1923.
(2) الدكتور ابراهيم عبده: مرجع سبق ـ ص 205.
(3) من حديث معه ـ عبد العزيز شرف: مرجع سبق ـ ص 218.
(4) السياسة الأسبوعية في 13 مارس 1926.

ولم يلبث طه حسين أن عين رئيساً لتحرير جريدة « الإتحاد » لسان حزب الإتحاد الذي أوعز القصر بإنشائه سنة 1925 ويذكر الدكتور هيكل أن « الصحف أعلنت أن جريدة الإتحاد ستظهر لسانا لحزب الإتحاد ، وأن المسئولين عن هذا الحزب قد اختاروا صديقي وزميلي في تحرير السياسة الدكتور طه حسين رئيس تحرير لجريدتهم ، كما عين يحي باشا إبراهيم رئيسا للحزب ، وعلي ماهر باشا وكيلاله ، وظهرت الجريدة الجديدة فهاجمها الوفديون وهاجموا الحزب الذي تنطق باسمه وردت الجريدة هجومهم ، وبدأ محرروها ينهضون بالعبء الملقى على كواهلهم »(1) على أن هذه الصحيفة لم تلبث هي وزميلتها « الشعب » من بعد ، أن خمل ذكرهما ، رغم الأقلام الغنية عن علم وفهم فيهما ، إذ كان يحرر فيها إبراهيم المازني وغيره من الكتاب النابهين .(2) ولعل مرجع ذلك إلى أن الحزب نفسه لم يلق استجابة من الرأي العام ، بل وجد على النقيض من ذلك انصرافاً مرآ(3) وعن هذا الحزب يقول طه حسين فيما بعد ، « إنما هي جماعات تتألف من أفراد لهم مآرب ،(4) ويذهب إلى أن حزبي « الإتحاد » و « الشعب » : « حزبان شقيقان لأم وأب لم يقع بينهما خلاف ولن يقع بينهما خلاف ولم تكن بينهما فرقة ، ولن تكون بينهما فرقة ، أصدق تصوير لما بينهما من ألفة ومودة ومن صلة لن تنقطع وحب لن يصيبه الصدأ ، هو قول الشاعر القديم :

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما بأسحم داج عوض لا تتفرق » .(5)

ولعل تجربة طه حسين في صحيفة « الإتحاد » هي التي جعلته يرفض طلب صدقي باستقالته من الجامعة ليصبح رئيسا لتحرير « الشعب » لسان حزب « الشعب » الذي أنشأه صدقي في 1930 ، كما تقدم .

وفي مارس 1933 طلب إليه زعيم الوفد: مصطفى النحاس أن يكتب في « كوكب الشرق » التي كان يصدرها حافظ عوض ، فقبل وكان ثمت

(1) الدكتور حسين هيكل : مذكرات ج ١ – ص 227 .
(2) الدكتور ابراهيم عبده : مرجع سبق – ص 213 .
(3) محمد زكي عبد القادر : مرجع سبق – ص 56 .
(4) كوكب الشرق في 19 مارس 1933 .
(5) كوكب الشرق في 29 يوليو 1933 .

ائتلاف بين الوفديين والأحرار الدستوريين ضد صدقي . ويعلل طه حسين انتقاله إلى صحف الوفد بقوله: « لقد جرت العادة أن يتغير الناس كلما تقدمت بهم السن فينقلون من الشمال إلى اليمين وينتقلون من الثورة إلى الإعتدال ، أما أنا فقد انتقلت من اليمين إلى الشمال ، لقد وجدت الأحرار الدستوريين والسعديين قد ائتلفا وكنت أفهم أنني أكتب معهما ، هنا تحولت إلى الوفد .(1)

وتحتفي « صحيفة كوكب الشرق » بانظمام طه حسين إليها حفاوة ذهبت إلى اعتباره الزعيم الفكري لحزب الأغلبية ، وموجه حركة الجماهير في هذه الصحيفة التي أصدرها حافظ عوض وفدية في 21 سبتمبر 1924 فآخت « البلاغ » في اتجاهها الحزبي ، وأعلن صاحبها بأن شعارها سيكون « العمل المتواصل لتحقيق الأمنية العظمى ألا وهي استقلال مصر استقلالا صحيحا »(2) وقد لقيت هذه الصحيفة متاعب جمة من السلطات المحلية كلما اعتدى على الدستور وتوقفت الحياة النيابية .(3)

وتحتفي « كوكب الشرق » بانظمام طه حسين إليها في المحنة الدستورية الصدقية ، فتنشر في صفحتها الأولى على عددين متتاليين هذا التنويه :(4)

« الكوكب في 12 صفحة واشتراك الدكتورطه حسين في تحريره » .

وتحت هذا العنوان تقول الصحيفة إنها ستظهر في « اثنتي عشرة صفحة متنوعة الأبواب والموضوعات(5) و« قد كان من توفيق الله أن أتاح للكوكب فضلا من لدنه سبحانه ، باشتراك حضرة الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب السابق في تحريره يوميا ، ولن تقتصر آثار الدكتور طه حسين على ما تفيض به موهبته من الفصول السياسية الرائعة ، بل ستعم أيضا الصفحات الأدبية والفنية والإجتماعية » ،(6) ويظهر الكوكب بثوبه الجديد هذا يوم الخميس المقبل 9 مارس (1933)

---

(1) من حديث معه ، أجراه أنور الجندي : الصحافة السياسية في مصر .
(2، 3) الدكتور ابراهيم عبده : نفس المرجع ـ ص 209 .
(4، 5، 6) كوكب الشرق في 5 ، 6 مارس 1933 .

وسيزدان العدد الأول منه بتصريح تفضل فوعد به حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا .(1)

وتصدر « كوكب الشرق في 9 مارس ، متضمنة في الصفحة الأولى « تصريح الرئيس الجليل ـ تحية دولته للكوكب في ثوبه الجديد وللأستاذ الدكتور طه حسين بخط يده » .(2) ويتضمن هذا التصريح : « وإني لمغتبط باشتراك النابغة الكبير الدكتور طه حسين في تحريره على المبدأ الوفدي الذي دلت الحوادث على أنه مبدأ الحق ودين الأمة(3) الذي قامت عليه في نهضتها نحو غايتها السامية في الحرية والإستقلال » .

ويعاهد طه حسين قراء « الكوكب » على « الإخلاص في القول والعمل والصدق في الرأي ، والمضاء في العزم ، والقوة على المقاومة والإستعداد لاحتمال المكروه ، في سبيل الواجب والوطن » .(4) ويحضر زعيم الوفد محاضرته بالجامعة الأمريكية في الأدب العربي(5) ويقابل طه حسين مقابلة شعبية ، وتنوه « الكوكب » بلقاء « الوطنية والأدب » : « ولا عجب أن يفعل الزعيم وصحبه ذلك حتى تقر عيونهم وتمتلىء نفوسهم غبطة بزعيم « التحرير للسان حالهم ، وزعيم الثقافة في بلد يجاهدون لتحريره واستقلاله ، والثقافة أكبر أساس من أسس الحرية والإستقلال » .(6)

ومن الأصداء التي تمثلها رسائل جمهور القراء إلى الصحيفة ، الذين « ابتهجوا بظهور الكوكب في ثوبه الجديد ورحبوا بالأستاذ الكبير الدكتور طه حسين .(7) نتبين أثرطه حسين في جمهور صحيفة حزب الأغلبية ، وتأثره بهم في مقالاته الصحفية التالية على أساس من هذا التأثر وهكذا تكتمل الدورة الإتصالية ، كما يقول علماء الإتصال بالجماهير فلم يكد يصل

---

(1) المرجع السابق .

(2، 3، 4) كوكب الشرق في 9 مارس 1933 .

(5) نشرت جريدة « الاتحاد » لسان الوزارة في اليوم التالي 10 مارس تعليقا على تحية النحاس للدكتور طه حسين وانصب التعليق على أن النحاس لم يقل أن « دين الأمة هو الاسلام » ـ وعلقت « كوكب ا لشرق » على ذلك بأن « الاتحاد » لا تفهم معنى كلمة الدين ومدلولها وأنه يجوز للواحد أن يقول بأن الوطنية ديني والاخلاص ديني كما يقول الاسلام ديني » .

(6) كوكب الشرق في 14 مارس 1933 .

(7) كوكب الشرق في 11 مارس 1933 .

(الكوكب) إلى قرائه متضمنا الإعلان عن انضمام طه حسين حتى « انهالت الرسائل البرقية والبريدية من مختلف الجهات »(1).

ومن هذه الرسائل نتبين نموذج طه حسين في أذهان جمهور صحيفة الأغلبية الوفدية ، فهو « زعيم الثقافة الحديثة ورافع لواء التفكير الحر لا في مصر وحدها ، بل في الشرق العربي »(2) وطه حسين « رجل سياسي حكيم »(3) و« كاتب كبير »(4) و« من أمراء البيان » .(5) و« خريج كتاب الله »(6) و« الباحث ـ الناقد » .(7) الخ

ويبين تأثر طه حسين بهذه الأصداء في رسائله الصحفية ، من « عهد »(8) عاهد فيه القراء في أول مقال له بالصحيفة الوفدية ، يقول فيه: « . . . وأنا واثق مطمئن إلى أني إن لم أبلغ ما يأملون في ، ويرجون مني فلن أقصر عن الإخلاص الذي ليس فوقه إخلاص ، ولن أفتر عن النصح الذي ليس بعده نصح ، ولن أضن بقوة أملكها أوجهد أقدر عليه » وإنما أبذل هذا كله صادق الرأي ماضي العزم ، قوي الأمل ، كأحسن ما يكون الرجل استعدادا لاستقبال الخطوب ، واحتمال الآلام في خدمة هذا البلد الحزين » .(9)

ويمضي مقال طه حسين في « كوكب الشرق » محققا لهذا « العهد »متوسلا ـ كما يقول حافظ عوض(10)ـ « بقلمه الفياض ، وإيمانه الفياض ، وعقله الفياض ، في الصحافة المصرية وفي السياسة المصرية ، في الأزمة المصرية الحالية » . (11)

على أن الخصومة بين طه حسين وصدقي ليس مصدرها كما زعمت الصحف الوزارية فصله من الجامعة ،(12) وموهمة بأن هذه الخصومة « انتقام لنفسه »(13) إذ كان في مقدوره أن يظل « عميدا لكلية الآداب

(1) كوكب الشرق في 11 مارس 1933 .
(2، 3) المرجع السابق .
(4، 5، 6) كوكب الشرق في 7 مارس 1933 .
(7) المرجع السابق .
(8، 9) كوكب الشرق في 9 مارس 1933 (ملحق رقم(8).
(10، 11) كوكب الشرق في 8 مارس 1933 .
(12، 13) الشعب في 10 مارس 1933 .

والى أكثر من هذا المنصب لو أراد »(1) ولكنه « أراد مصلحة الوطن وعمل على استقلال الجامعة وإبعادها عن أهواء الوزارة وشهواتها الحزبية وفي سبيل ذلك ضحى راضيا مغتبطا بمنصبه الخطير» . (2)

ومن ذلك يبين أن طه حسين يتحول بسرعة متعاقبة إلى ارتباط بالوفد وجماهيره وصحافته ، فينتقل من التجديد الفكري إلى التنشئة الإجتماعية ، والإقتراب من مشكلات المجتمع ، التي تجسدت في الأزمة الاقتصادية ، وما نجم عنها من تهديد للعقائد الثابتة عند الناس من خلال التبشير ، وفساد الحكم ،(3) ويتخذ من هذه المشكلات مواقف عنيفة جريئة ، يساق بسببها إلى النيابة والقضاء ، مع الدكتور هيكل وعبده حسن الزيات وحفني محمود ، ويصدر الحكم عليهم بالغرامة ، وتعطيل السياسة شهراً واحداً . (4)

ثم يشتري طه حسين امتياز جريدة « الوادي » بعد استقالته من « كوكب الشرق » في إبريل 1934 ، ويشرف على تحريرها حتى ديسمبر 1934 ، إذ أعيد إلى الجامعة في الوزارة النسيمية . وقد أصدر هذه الصحيفة على نفقته في أعقاب الأزمة الاقتصادية ، مواصلا مهمته الصحفية في « كوكب الشرق » وتجديد المجتمع إلى جانب التجديد الفكري والثقافي ، وينتقل معه إلى « الوادي » تلاميذه الذين عملوا معه في « كوكب الشرق » . وقد خسر طه حسين في « الوادي » ثلاثة آلاف جنيه كانت دينا عليه لموزع جريدته « المعلم الفهلوي » وربما لبعض أصدقائه (5) . ولم ينقذه من هذه الأزمة إلا عودته للجامعة ، وبداية الانفراج السياسي.

ومن ذلك يبين أن طه حسين قد تألق ككاتب مقال صحفي ولم ينجح كصاحب جريدة أو مدير ، ولذلك يواصل الكتابة والتحرير في الصحف ، قبل عودته للجامعة ، وبعد عودته فيكتب في « الرسالة » التي أصدرها الزيات في 15 يناير 1933 بالاشتراك مع طه حسين وأعضاء لجنة التأليف

(1، 2) كوكب الشرق في 11 مارس 1933 .

(3) الدكتور حسين هيكل : مرجع سبق ـ ص 353 .

(4) كوكب الشرق في 23 ابريل 1933 .

(5) محمد صبيح : « طه حسين وعصره » مجلة الثقافة ـ ديسمبر 1973 .

والترجمة والنشر وكانت خطتها «ربط القديم بالحديث ووصل الشرق بالغرب»(1) . ويصور الزيات مولد الرسالة ، واللقاء الذي تم بينه وبين طه حسين بشأن إصدارها في وقت كانت المجلات الهزلية تطغى على الصحف الثقافية بعد تحول السياسة الأسبوعية إلى الإتجاه الحزبي ، يقول: « في ذات عشية من عشايا نوفمبر من عام 1932 زرت أخي طه حسين في داره بالزمالك . وكنت منذ أربعة أشهر قد رجعت من العراق بعد أن أغلقت دار المعلمين العليا ببغداد . . وكان هو قد أنزل عن كرسيه في كلية الآداب من جامعة فؤاد . فقلت له بعد حديث شهي من أحاديث الذكرى والأمل: ما رأيك في أن نصدر معاً مجلة أسوعية للأدب الرفيع ؟ فضحك ضحكته التي تتبدىء بابتسامة عريضة ، ثم تنتهي بقهقهة طويلة ، وقال: وهل تظنك واجداً لمجلة الأدب الرفيع قراء في مجتمع ، ثقافة خاصته أوربية ، وعقلية عامته أمية ، والمذبذبون بين ذلك لا يقرأون ـ إذا قرأوا ـ الا المقالة الخفيفة والقصة الخلعية والنكتة المضحكة ؟ . فقلت له: لعل من بين هؤلاء طبقة وسطى تطلب الجد فلا تجده ، وتشتهي النافع فلا تناله . . فقال وهو يهز رأسه ويمط شفتيه: حتى هذه الطبقة ، إن كانت ، ستقبل على الجد النافع أول الأمر لأنه تغيير وتنويع ، فإذا ما ألح عليها ، لا تلبث أن تسأمه وتزهد فيه . . والمثل أمامك في السياسة الأسبوعية .

فقلت له : ربما كان لإقبال القراء على السياسة الأسبوعية ، ولإدبارهم عنها سببان آخران غير التغيير والسأم . . كانت هذه المجلة أول ما صدرت قوية غنية خصبة فأصبحت حاجة ، ثم اعتراها ما يعتري الكائن الحي من الوهن والإنحلال فصارت فضلة .

فقال لي بعد نقاش طويل ، أنت وشأنك . . أما شأني فهو المقال الذي أكتبه ، والرأي الذي أراه . . . وكان يظاهرني على تفائلي أصدقائي الأدنون

---

(1) الدكتور ابراهيم عبده : مرجع سبق ـ ص 215 .

من لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فكانوا بهذه المظاهرة نقطة الإرتكاز ومبعث المدد .(1)

وحين عيّن طه حسين في « كوكب الشرق » خوطب في شأن الزيات فقبل نيابة عنه ولكن الزيات هاله الأمر إشفاقاً على المجلة الوليدة التي أحاطت بمولدها الأماني ، فيعرض المسألة على أعضاء لجنة التأليف الذين أيدوا الزيات ، فترك طه حسين الرسالة مغضبا ، واضطلع بها الزيات يعاونه رجال الفكر(2) من أعضاء لجنة التأليف ، ثم أخذ طه حسين ينازل توفيق الحكيم في (الوادي) تحت عنوان (أخلاق الأدباء) نزالا هدد بقطع الصلة بينهما ، ولما كانت (الرسالة) قد شهدت مولد الحكيم الأدبي ونشرت تقديم طه حسين ، فقد نشر الزيات فيها مقال « أخلاق الأدباء » ليعرف قراء الرسالة النهاية بعد أن عرفوا البداية على صفحاتها . فأحنق ذلك طه حسين وهاجم الزيات أيضا في « الوادي » تحت نفس العنوان « أخلاق بعض الأدباء » . فرد عليه الزيات تحت عنوان « بين أسلوبين » في سنة 1934 .

وكانت هذه المقالات من المساجلات الأدبية التي كان لها دوي في ذلك الحين شغلت الرأي الأدبي العام . كما شهدت « الرسالة » المقالات النقدية والقومية لطه حسين بين سنتي 1936 ، 1939 ، وشهدت معركته مع العقاد « لاتينيون وسكسونيون » وفصول « على هامش السيرة » قبل نشرها في كتاب .

على أن احتجاب « الرسالة » من الأمور التي أسف لها طه حسين أسفا عميقا ، في مقال بعنوان « لا بأس »(3) يقول فيه: « رأيت مصرع

---

(1) أحمد حسن الزيات : وحي الرسالة ج 4 ـ ص 72 ، 83 ـ ومما يذكر في صدد صدور الرسالة أن الخطاط الذي عهد اليه أن يعلن مولدها على الجدران نظر في الإعلان الذي كلف بكتابته فإذا به مسطور على هذا النحو (مجلة الرسالة يحررها الزيات وطه حسين) . وعرت الخطاط هزة أمام الاسمين الكبيرين . ورأى من سوء الأدب أن يكتبهما بلا ألقاب عرفها الناس لهما ، فتطوع باضافة الأستاذية وكتب مجودا : (مجلة الرسالة يحررها (الاستاذين الزيات وطه حسين) . وكانت (قفشة) تلقفتها مجامع العاصمة واحتشدت لها قدرتها على التفكه والدعابة ، فكان ذلك خير اعلان عن المجلة الجديدة مكن لها من الرواج ـ الدكتورة نعمات فؤاد : قمم أدبية ـ ص 181 .

(2) المرجع السابق ـ ص 83 .

(3) الأهرام في 23 فبراير 1953 .

صحيفتين أدبيتين في شهر واحد أو في أقل من شهر فضاق صدري ومن حقه أن يضيق ، وثارت نفسي ومن الواجب عليها أن تثور ، ولم أكتب في هذه الصحيفة أو تلك منذ عهد بعيد جدا ، فلم أغضب لعلمي إن كان لي علم ولا لفني إن كان لي فن ، إنما غضبت لعقلي ، وأحسب أن لي عقلا ، فقد كان يجد في هاتين الصحيفتين عزاء ومتاعا ، وغضبت لعقول فريق من المصريين والشرقيين كانوا يجدون فيهما مثل ما كنت أجد من الغذاء والمتاع » .(1) إلى أن يقول: « كنت أذكر كيف قهر الأدب في بعض الأوقات السياسة والأحزاب وكيف انتصر عليها ، وكيف كان الناس يشترون بعض الصحف سرا يختلسون شراءها اختلاسا ويدسونها حتى لا يراها الناس لأن الزعماء كانوا قد حذروا من قراءة تلك الصحف لكن الأدب كان أقوى من الزعماء فكان الناس يخالسون بشراء الصحف ، ويفرغون لقراءتها حين يخلون إلى أنفسهم وحين يأمنون عيون الرقباء » .(2) ويعقب العقاد على هذا المقال بعنوان: « وأي بأس »(3) يتحدث فيه عن أثر احتجاب المجلتين: « الرسالة والثقافة » ، على الحياة الثقافية التي شارك فيها هذا الجيل من المقاليين

ذلك أن مجلة « الثقافة » كانت قد توقفت قبل توقف « الرسالة » ، بعد ست عشرة سنة من صدورها ، فهي من الإنجازات الثقافية في صحافة طه حسين ، التي انفردت بها لجنة التأليف بعد انفصالها عن « الرسالة » فصدرت في 3 يناير 1939 لصاحب امتيازها أحمد أمين « تتقدم للعالم الشرقي مؤمنة بقدرتها بنفسها وبأصدقائها شاعرة بتبعتها مقدرة لواجبها وثقتها بقرائها » . وكان طه حسين قد أعيد للجامعة وترك العمل في الصحف السياسية اليومية ، واستمر في عمادة كلية الآداب حتى مايو 1939 ، فكان اشتراكه في تحرير « الثقافة » هو العمل الصحفي المنتظم بعد تركه العمل في « الوادي » اليومية ، ليواصل رسالته مع لجنة التأليف الغنية بأعضائها وتخصصها ، ففيها العالم من كل صنف ، وفيها الأديب من كل نوع ، وفيها الفنان في كل فن ، حصلوا كثيرا من العلم والأدب ،

(1 ، 2) الاهرام في 23 فبراير 1953 .
(3) الاهرام في 25 فبراير 1953 .

فرأوا من واجبهم أن يشركوا في عملهم وأدبهم أكبر عدد ممكن في مختلف الأقطار » . (4)

وفي مجلة « الثقافة » تتحدد الوظيفة النقدية في مقال طه حسين ، التي تلقى استجابة من الرأي العام الأدبي ، كما يبين من الأصداء المتمثلة في رسائل القراء ، ومنها نجد رسالة من « علي زكي وكيل مديرية الغربية »(1) يقول فيها: « وقد يربط الله بين النفوس من غير طريق الرباط بين الأجساد ، وقد تتعارف الأرواح وتأتلف ، دون حاجة إلى ما ألفه الناس من المقابلات والمحادثات » . (2)

ومن ذلك تبين العلاقة النفسية بين طه حسين وجمهور قرائه ، والتي دفعته إلى أن يرأس تحرير مجلة « الكاتب المصري » التي صدرت في أكتوبر 1945 عن دار الكاتب المصري للطباعة والنشر ، والتي استمرت مدة ثلاث سنوات ، حددت خلالها مفهوم الصحافة الأدبية عند طه حسين في محورين يستقطبان كل أبحاثها هما: العرض والنقد ، عرض الفكرة الجديدة أوالكتاب أو الأثر القديم ، ومن خلال هذا الإحتكاك بين العرض والنقد يرسم طه حسين مفهومه للصحيفة الأدبية أو الفكرية العامة لإغناء الفكر المصري وتأصيله من خلال التعريف والتصحيح والتقويم في النطاق الفكري أو الخلقي على السواء .

وفي « الكاتب المصري » يبين الأثر الفرنسي في ثقافة طه حسين ، والنموذج الذي تمثله للصحافة الفرنسية ، والذي ظهرت آثاره من قبل في صفحات الأدب في السياسة اليومية والأسبوعية ، وكوكب الشرق ، والوادي . ومن نماذج المجلات الفكرية العامة: « المجلة الفرنسية الجديدة »(3) التي كانت تتيح لكتابها معالجة موضوعات أخرى غير الأدب تظهر فيها مقدرتهم التحريرية ، وتضمنت فنونا أخرى من النقد الموسيقى والفني(4) عنى بها طه حسين في مجلته ، التي كانت على اتصال وثيق كذلك بمجلة « الأزمنة الحديثة »(5) التي يديرها سارتر ، والتي ناقش طه

---

(4) مجلة الثقافة 3 يناير 1939 .

(1، 2) مجلة الثقافة في 7 فبراير 1939 .

(3، 4، 5) Gaiton Picon : Panorama de la Nouvelle Littérature Française, p.280.

حسين دعوتها إلى الالتزام والمذهب الوجودي في الأدب والفكر ، من خلال الريبورتاج والوثيقة ومقال التحليل الاجتماعي . وقد نشرت « الكاتب المصري » مقالات لسارتر كان يخصها بها ، وكان بعضها ينشر فيها وفي « الأزمنة الحديثة » في وقت واحد(1) .

وعنى رئيس تحرير « الكاتب المصري » بالشهريات التي تصل القارىء العربي بالعالم مثل: شهرية السياسية الدولية ـ من وراء البحار ـ ظهر حديثاً ـ في مجلات الشرق ـ شهرية المسرح والسينما ـ في مجلات الغرب ـ إلى جانب المقالات النقدية والاجتماعية والسياسية لطه حسين في هذه المجلة .

ومن هذه المجلة يبين العنصر النفسي للكيان الصحفي فيها ، من تسميتها باسم « الكاتب المصري » لأن هذه المجلة ـ كما يقول طه حسين ـ تستمد « برنامجها وخطتها وسيرتها من تاريخ مصر القديم والحديث ، وعن المهمة التي نهضت بها مصر منذ شاركت في الحضارة الإنسانية العامة »(2) ولذلك يتوسل طه حسين بهذه المجلة الفكرية في تحقيق « صلة ثقافية بأدق معاني هذه الكلمة وأرفعها بين الشعوب ـ العربية أولا وبين هذه الشعوب وأمم الغرب ثانياً » .(3)

فهذه المجلة الفكرية تحدد مفهوم طه حسين للثبات والاستقرار ، والنمو والتطور والارتقاء ، وتأصيل الشخصية المصرية ، وهو المفهوم الذي ذهب بمجلته إلى أن « تحرص أشد الحرص على العناية بهذين المقومين للأدب العربي ، فتعني بقديم هذا الأدب تدرس تاريخه وتكشف أسراره وتحيي آثاره . وتعني بالأدب الحديث الذي ينتجه الممتازون من كتاب الشرق العربي تذيعه وتدرسه وتنقده وتشجعه وتجعله غذاء لعقول العرب وقلوبهم وأذواقهم ، وتهيئه لعقول غير العرب من أبناء الأمم الأخرى المتحضرة بحيث يمكن أن ينتقل إلى اللغات الأوربية المختلفة » .(4) ولذلك عنيت « الكاتب المصري » بالآداب الأجنبية ، تعرفها إلى القراء بالدرس والنقد

---

(1) الكاتب المصري ـ أعداد : نوفمبر ، أكتوبر ، يونيو 1947 .
(2، 3، 4) الكاتب المصري ـ أكتوبر 1945 .

والتحليل ، واتفقت مع « طائفة من كبار الكتاب العالميين بأن يوافوها بمقالاتهم ودراساتهم بحيث تكتب خصيصاً لها ، وتنشر في اللغة العربية قبل نشرها بأي لغة أخرى » .(1) كذلك حاولت « الكاتب المصري » أن « ترفع الأدب عن هذه الخصومات التي تثيرها منافع الحياة العاجلة بين الناس »(2) .

ومن ذلك يبين أن طه حسين في بيئة المقال الصحفي في مصر ، على الرغم من عمله في الجامعة لم يقتصر على المشاركة الصحفية أثناء فترات الابتعاد عنها ، ولكنه ظل يسهم في البيئة الصحفية عن قرب في أحيان كثيرة ، وعن بعد في أحيان قليلة ، فكتب في « البلاغ » و « الجهاد و « المصري » في الفترات التي لم يكن يشتغل بالصحافة فيها اشتغالا منظماً » ، وبعد ثورة 1952 يكتب في« الأهرام » « والجمهورية » التي تولى رئاسة تحريرها في 16 أكتوبر 1959 . فلم ينقطع عن الكتابة الصحفية إلا حين أعجزه المرض قبل وفاته بفترة . فهو ــ كما يقول « لا يعفي نفسه من بعض الالتزام إلا ليفرض عليها التزاماً آخر . ونحن لا نخرج من عمل إلا لندخل في عمل آخر »(3) .

ونخلص مما تقدم إلى أن طه حسين في بيئة المقال الصحفي ، كاتب من أبرز كتاب مصر في عهود متتابعة منذ أسهم في بيئة التكوين إلى أن ختم حياته صحفيا يكتب « من بعيد » .

فمكان طه حسين ككاتب مقالي في البيئة الصحفية المصرية ، يحدد الجانب الشامل في انتاجه المتعدد النواحي ، والوسائل كذلك ، ذلك أن الصحف السياسية والثقافية هي وسيلة الاتصال الجماهيرية التي أذاعت مقالاته في الاتجاهات السياسية والاجتماعية والثقافية . والمقال الصحفي هو الشكل التحريري الذي ينقل هذه الاتجاهات من خلال وسيلة الاتصال الصحفي بالجماهير . وكانت هذه الوسيلة الجماهرية مثيرة النقاش ووعاء الجدل في السياسة والثقافة والفكر .

(1 ، 2) المرجع السابق .
(3) سامي الكيالي : مرجع سبق ــ ص 116 ، 117 .

ويحدد هذا المكان من بيئة المقال الصحفي في مصر مفهوم هذا المقال على النحو الذي أدت إليه المؤثرات الثقافية الغربية في الحياة المصرية، ذلك أن لفظ مقال Essay يدل في الأصل على «المحاولة» أو «الخبرة» أو «التطبيق المبدىء» أو «التجربة الأولية»(1) وفي هذا المفهوم مشابهات من حيث البيئة التي بلورته على هذا النحو، والبيئة المصرية التي عرف فيها المفهوم الصحيح لهذه الكلمة، فالمقال وليد روح التجربة في عصر النهضة، والعناية بالخبرة «الانسانية»، والاهتمام برأي الفرد، والإيمان بقدرته(2) وفي الأدب الفرنسي نجد مفهوما يقترب من هذا المفهوم لكلمة Essai يذهب إلى أنها عمل لثري وغير سردي يعبر عن أفكار ذات طابع غير تكنيكي(3). فالمقال حديث يوشك أن يكون عادياً، يعرض الكاتب فيه على قرائه فكرة أو اتجاهاً(4).

وليس مجرد صدفة أن يكون أول من يكتب في هذا الفن اثنان من أئمة عصر النهضة هما. مونتاني وبيكون(5) عندما تظهر الثورة على الفلسفة القديمة وعلى فلسفة أرسطو وعلى النظام العقلي، كما تركه اليونان والرومان والعرب، وهي تظهر عند بيكون الذي يستعرض حياة العقل ويستعرض الفلسفة ويريد أن يحرر العقل أمام نفسه، كما يقول طه حسين(6)، ومن ذلك يبين أن فن المقال يرتبط باتجاه قوي إلى التعقيل، بحيث لا يتأثر العقل بهذه القواعد التقليدية وإنما يأخذ هذه القواعد واحدة واحدة فينقدها نقداً حرا صريحا، ولا يستبقي من هذه القواعد إلا ما يثبت لهذا النقد فما يثبت له يجب أن يبقى، وما لم يثبت له يجب العدول عنه في حرية وصراحة وفي غير تحفظ ولا احتياط.(7)

ويتمثل طه حسين هذا المفهوم المقالي في تحرير العقل مما فرضته القواعد السلفية، بحيث يمكنه أن يفكر «تفكيراً صحيحاً مستقيماً منتجاً»(8)

---

(1) الدكتور ابراهيم امام: «من المقال الصحفي في الأدب الأنجليزي» — ص 7.

(2) الدكتور ابراهيم امام: دراسات في الفن الصحفي — 180.

(3) Albérés, R.M : Bilan Littéraire du XXème siècle,p 115.

(4، 5، 6) الدكتور ابراهيم امام: نفس المرجع — ص 180

(7، 8) الدكتور طه حسين: «الثقافة الانكليزية وأثرها على تقدم العالم» الحياة والحركة الفكرية في بريطانيا، المجموعة الأولى للمحاضرات العربية 13 مارس 1941 — 24 أبريل 1941.

ويستتبع ذلك عند طه حسين ، أن يتحرر العقل في التفكير دون أن يتعرض لخطر ما ، دون أن يتعرض للرقابة ودون أن يتعرض للمحاكمة من حيث إنه قد فكر وأعلن رأيه .(1)

على أن اتفاق طه حسين مع مقاليي عصر النهضة الأروبية ، لم يصل به إلى تحديد حرية العقل أمام العقل فحسب ، وإنما ذهب إلى تحديد ماهية المقال أمام وسيلة الاتصال الجديدة بالجماهير ، على النحو المستفاد من بيئته الصحفية العامة ، فالصحافة هي الوعاء المادي للمقال ، بفنونه المختلفة ، وهي لذلك تنتهي إلى وضع خطوط واضحة تفصل بين فن المقال الأدبي وفن المقال الصحفي ، فانشعب المقال في بيئته المصرية كما انشعب في بيئته الأروبية ، شعبتين: (2) شعبة يغلب عليها الطابع الذاتي ويمثلها مونتاني في البيئة الأروبية ، وشعبة أخرى تهتم بالموضوع من نواحيه المختلفة .

ولم تلبث صحافة طه حسين أن انتقلت من طور التكوين إلى طور المشاركة العامة ، فتلقف فن المقال الأدبي واستثمره كقالب جديد يصوغ فيه الأفكار ، ويتخذ منه سلاحاً ماضيا في النقد والتعقيب ، وأداة فعالة للتوجيه والإرشاد ، وقد يقصد بها إلى الإخبار والإعلام كذلك . أما المقال الصحفي فقد تنوعت موضوعاته وأشكاله ، عند طه حسين ، يشتق موضوعاته من الحياة الواقعية ، ويشتق لغته كذلك من نفس تلك الحياة الواقعية ، التي يتوسل بها في الإتصال بجمهور القارئين على اختلاف أذواقهم أو أفهامهم أو بيئاتهم أو ثقافتهم » .

ويذهب طه حسين في هذا الصدد إلى أن الخصومات السياسية قد يسرت اللغة ، ومنحت العقول حدة ونفاذا رائعين ، واستطاعت أن تشغل الجماهير وتعلمهم العناية بالأمور العامة والإهتمام بها والتفكير المتصل فيها ،(3) كما يذهب إلى أن الخصومة السياسية قد دفعت صحف الأحزاب المختصمة إلى التنافس « فافتنت فيما جعلت تنشر من الفصول »(4) أو

---

(1) المرجع السابق ـ ص 24 ، 25 .
(2) الدكتور ابراهيم امام : مرجع سبق ـ ص 181 ، 182 .
(3 ، 4) ألوان ـ ص 27 .

المقالات ، فاستعرض الكتاب الأدب القديم يحيونه بالنقد والتحليل ، كما استعرضوا الآداب الأوروبية الحديثة يذيعونها ناقدين ومحللين ومترجمين ، وإذا هم بعد هذا كله « يرقون إلى إنشاء الدراسات التي تطول حتى تصبح كتبا تستقل بنفسها ، وتقصر حتى تصبح « فصولا » تنشر في الصحف والمجلات ، ثم يجمع بعضها إلى بعض » (1) وفي ذلك ما يبين مفهوم المقال عند طه حسين ، وهو مفهوم مستفاد من ثقافته الفرنسية التي تنظر إلى المقال على أنه « أدب أفكار » (2) يثير لدى القارىء غيرالواعي الحاجة إلى التفسير والتوضيح . (3)

ولعل في ذلك ما يفسر إيثارطه حسين لكلمة « فصل » في الدلالة على مفهوم « المقال » ، فمن النادر أن نجد كلمة « المقال » في معجم مفرداته ، بل إن المقالات الصحفية السياسية في الصحف اليومية ، كان يشير في استهلالها إلى أنه يكتب « فصلا » حول هذا الموضوع أوذاك . فالصحف اليومية — كما يقول — قد أخذت « تنشر الفصول الأدبية تقلد في ذلك صحف أروبة ، ولكنها تخدع الناس وتستدرجهم إلى قراءة ما تكتب في السياسة ، وما هي إلا أن أصبحت الكتابة في العلم والأدب نظاما تحرص عليه صحيفة تقدر لنفسها كرامة صحفية ، وتريد أن يحفل بها الجمهور ، وأصبح الجمهور نفسه لا يقدر الصحف إلا إذا قدمت له مع الفصول السياسية فصولا في العلم والفلسفة والأدب والفن » .(4)

وتأسيساً على هذا الفهم فإن « الفصول الصحفية » أو المقالات الصحفية فن حضاري يقوم على وظيفة إجتماعية عملية ، ويتوسل بلغة صحفية عملية تقترب من لغة الأدب وتمتاز بالسلاسة والواقعية والتبسيط ، فالمقال الصحفي عند طه حسين يمثل التقارب المنشود بين مستويات اللغة : العلمي والأدبي والعملي ، وهذا التقارب في نهاية الأمر دليل على « تجانس المجتمع ، وتوازن طبقاته ، وحيوية ثقافته ، ومن ثم إلى تكامله وسلامته

---

(1) المرجع السابق — 27 .

(2 ، 3) Albérés, op. cit, pp. 120 - 124.

(4) حافظ وشوقي — ص 72 .

العقلية ، فمن الثابت أن العصور التي يسود فيها نوع من التآلف بين هذه المستويات، هي غالبا أزهى العصور وأرقاها » .(1)

وتمتاز بيئة المقال الصحفي في مصر ـ عند طه حسين ـ بأن ولاء الكاتب فيها يرتبط « بالبيئة المتحضرة التي يعيش فيها الكاتب للجمهور وبالجمهور »(2) وتبين هذه الميزة في بيئة المقال الصحفي في مصر إذا نظرنا إلى المنفلوطي والرافعي من جهة، والمازني وهيكل والعقاد وطه حسين من جهة أخرى . فقد كان المنفلوطي لا يعيش لأدبه وإنما يعيش بأدبه .(3) ولا بد له من « مسين » كما يقول الأوروبيون ، يحميه ويعطيه ويحوطه بالرعاية والعناية ، ويدفع عنه العاديات والخطوب . أما الأربعة الآخرون فثائرون على هذا النوع من الحياة والأدب، يكبرون أنفسهم أن يحميهم هذا العظيم أو ذاك . يعيشون أولا ويعيشون أحراراً . وهم يأبون أن يؤدوا عن إنتاجاهم حسابا لهذا العظيم أوذاك ،(4) وقد فتحت هذه الحرية أمام مقال طه حسين وزملائه من المقاليين التجديديين أبوابا « لم تكن تفتح لهم حين كان الأدب خاضعا للسادة والعظماء » .(5) فهم « يؤثرون أنفسهم ويؤثرون الفن ويؤثرون الشعب بما ينتجون » .(6) وكذلك عكف طه حسين في بيئة المقال الصحفي على « الشعب » فجعل يدرسه ويتعمق درسه ويعرض نتائج هذا الدرس على الشعب نفسه فيما ينتج له من الآثار »(7) المقالية ، ومن ثمار هذه الدراسة جاءت بلاغة المقال الصحفي الجديدة لتجعل من لغته لغة « المغزى والمعنى والأهمية ، لأنها تقوم على الوظيفية الهادفة ، والوضوح والإشراق ، بحيث تكاد تكون فناً تطبيقياً قائماً بذاته . فالفن الصحفي تعبير اجتماعي شامل ، ولغته ظاهرة مركبة خاضعة لكل مظاهر النشاط الثقافي من علم وفن وموسيقى وفن تشكيلي . . الخ . إلى جانب السياسة والتجارة والاقتصاد والموضوعات العامة »(8) .

---

(1) الدكتور ابراهيم امام : مرجع سبق ـ ص 41 .
(2 ، 3) الدكتور طه حسين : الوان ـ ص 28 .
(4) المرجع السابق ص 28 .
(5 ، 6 ، 7) المرجع السابق ص 28 .
(8) الدكتور ابراهيم امام : مرجع سبق ص 45 ، 48 .

وعلى ذلك فإن التمييز بين أنواع المقال إلى علمي وأدبي وصحفي ، على النحو المألوف ، لم يعد مجدياً أمام ضرورة الوسيلة الجماهرية في بيئة المقال الصحفي في مصر ، ذلك أن المقال الصحفي عند طـه حسين يدور في اتجاهات ثقافية واجتماعية وسياسية ، ويصوغها في قالب صحفي تتوفر له الحالية والحيوية والاستجابة لاهتمامات الجمهور ، واللغة الوظيفية العملية القريبة من قرائه ، كما سيجيء .

ونخلص من ذلك إلى أن المقال الصحفي في أدب طـه حسين يلائم بيئة هذا الفن الصحفي في مصر سياسيا وثقافيا واجتماعيا ، ملاءمته لفن المقال نفسه .

(هـ) مفهوم الاتصال عند طـه حسين

ونخلص ممّا تقدم جميعاً ، إلى أن تجربة الاتصال عند طه حسين تتضمن اختياراً للموضوع وللشكل واللغة ، بقصد « التوصيل » ومبادلة جمهور القارئين اهتماماً باهتمام ، كما تبين من دراسة الاتجاهات الاتصالية ، بحيث يمكن القول إن المقومات الاتصالية في صحافة طـه حسين تقوم على سعي مقصود من أجل إيجاد الاتصال والفهم المشترك.

1ــ نموذج الاتصال:

وعلى ذلك ، فإن مفهوم الاتصال عند طه حسين ، يتحدد بمكانه من رؤيته الابداعية ، فالكاتب أو الأديب عند طه حسين ، حيوان اجتماعي(1) لا يعيش إلا بالناس وهو لا يعيش إلا للناس. منهم يستمد خواطره وآراءه وإليهم يوجه خواطره وآراءه « ينتج إن غذوا حسه وشعوره وعقله بالظواهر والحوادث والواقعات ، وينعم إن أحسّ أنهم يسيغون ما يقدم إليهم من غذاء وهو مفلس إن عاش في بيئة لاتغذو الحس والشعور والعقل . وهو مبتئس إن عاش في بيئة لا تستمتع ولا تظهر له أنها تستمتع بما يقدم إليها من ثمرات »(2)

(1، 2) فصول ص 7 ـ مجلة الثقافة في 3 يناير 1939 .

ومن ذلك يبين ارتباط مفهوم طـه حسين بتجربته الاتصالية في مجموعها ، وأثر الأصداء في تكوين نموذجه ، إن الكاتب « يستطيع عن طريقها أن يكيّف عملية الاتصال ويعدلها »(1) بحيث يجسد تجربته الاتصالية في المقال الصحفي خاصة عن قصد ووعي فيجعل هذا المقال على قد التجربة ويمثلها أصدق تمثيل.

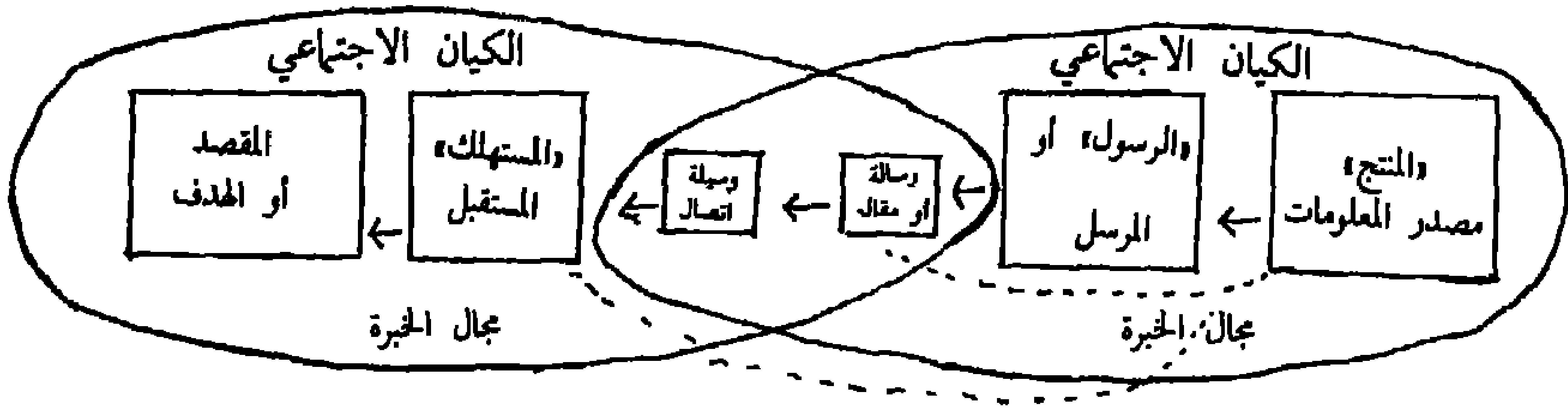
ولسنا مضطرّين إلى الجزم بأن الدافع اللاشعوري عند الكاتب أو الفنان هو دائماً الرغبة في التوصيل مميزين هذه الرغبة عن رغبته في خلق شيء من صفاته أنه صالح للتوصيل ، وإلى ضرورة حدوث التوافق الطبيعي بين دوافع الكاتب والدوافع الممكنة لدى القارىء « فكل اتصال ناجح كل النجاح يتضمن هذا التوافق ولن يستطيع أن يعوّض عنه أي تدبير أوتفكير (2).

ويذهب علماء النقد الأدبي إلى أن كبار الفنانين قد ضمنت لهم هذه الرؤية فعالية اتصالية ضمنت لإنتاجهم النجاح ، ومن هؤلاء : شكسبير،(3) ولذلك نجد أن هذه الرؤية قد امتدت عند طـه حسين من اشتغاله بالكتابة الصحفية إلى الفن الأدبي نفسه ، وربما كانت هذه الرؤية هي مصدر النجاح الأساسي في أدب طه حسين.

ومهما يكن من شيء فإننا يمكن أن نتبين نموذجاً اتصالياً عند طـه حسين يركز على عنصرين أساسيين تقوم عليهما عناصر عملية الاتصال ، التي تسعى في نهاية الأمر إلى أداء وظائف المقال الصحفي ، فالكاتب أو الأديب في الإبداع الأدبي عند طـه حسين هو « المنتج » والجمهور هو « المستهلك » والناقد هو « الرسول » بينهما ، وفي الاتصال الصحفي يصبح « المنتج » هو صانع القرار أو مصدر المعلومات ، وبين « المنتج » والمستهلك يحتل كاتب المقال الصحفي مكان« الرسول » الذي يحقق الصلة بين المنتج والمستهلك ويمكن أن نجد هذه العناصر في النموذج التالي:

---

(1) الدكتور ابراهيم امام : الاعلام والاتصال بالجماهير ص 76 .
(2، 3) 101 . وتشاردز (وترجمة الدكتور مصطفى بدوي) مبادىء النقد الأدبي ص 65، 66، 67 .



ومن هذا النموذج يتضح مفهوم طـه حسين لعملية الاتصال الصحفي والأدبي على السواء ، فالصلة بين « المنتج » و« المستهلك » تتيح للجمهور أن « يشتط في الطلب وأن يتجنّى فيلحّ في التجني ، وأن يقصر حين تحسن العناية ، وأن يعني حين يحسن الإهمال »(1) وأمور الإنتاج والإستهلاك في الإتصال جارية على هذا منذ أقدم العصور ويظهر أنها ستجري على هذا المنوال مادام في الناس أدباء ينتجون وقراء يستهلكون »(2) وتقتضي هذه الصلة بين المنتج والمستهلك « تحقيق الصلة العقلية والقلبية بين صفوة الشعب الممتازين وبين غيرهم من الطبقات التي تصرفها الحياة اليومية عن الفراغ للمعرفة »(3) وتحقيق هذه الصلة في نموذج الاتصال على الصعيد الأدبي ـ قد يتم مباشرة بين الأديب المنتج والجمهور المستهلك عن طريق وسيلة اتصال جماهيرية، قد تكون الصحيفة أو المجلة أو الكتاب، وقد يتم عن طريق وسيط، هو عند طه حسين « الناقد » الذي يقوم بتحقيق هذه الصلة « كما يتردد الرسول بين المحبين »(4).

أما على الصعيد الصحفي ، فإن الصلة بين مصدر المعلومات والجمهور المستهلك، تجعل من وظيفة، « الرسول » أو الكاتب الصحفي، دفع المنتج إلى العمل، والتنشيط للإنتاج . وإثارة الآراء المستمدة من إرجاع الصدى الواردة من جمهور المستهلكين، والتي تفرض على الكاتب الصحفي لغة تمتاز

(1، 2، 3) فصول ص 7 ـ مجلة الثقافة في 3 يناير 1939 .
(4) المرجع السابق ص 7 ـ مستقبل الثقافة في مصر ص 488 .

بالقوة والحدة والنشاط »(1) وتفرض عليه أن « يلائم » بين هذه اللغة وبين قلوب الذين يقرأونه ويسيغونه على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم في جمهور الناس »(2) ومن هنا تحتل « الرسالة » أو المقال الصحفي مكاناً في نموذج الاتصال عند طه حسين، لتحقيق « الصلة بين المنتج والمستهلك، على أتم وجه وأقواه وأنفعه، لأنه يقوم مقام الرسول بين هذين العاشقين اللذين يختصمان حيناً ويأتلفان حيناً آخر »(3) وهما المنتج ومصدر المعلومات، أو الأديب، والجمهور المستهلك، في نموذج طه حسين، وهذا المقال الصحفي أو الرسالة الإعلامية هي التي تبلّغ إلى الناس رسالة المنتج « فتدعوهم إليها وترغبهم فيها أو تصرفهم عنها وتزهّدهم فيها »(4) والتي تبلّغ المنتج صدى إنتاجه في « نفوس الناس وحسن استعدادهم لها أو شدة ازورارهم عنها، أو فتورهم بالقياس إليها »(5) وبذلك يصبح المقال الصحفي من أهم الأصداء التي تؤثر في قرارات المنتج، ولعل المقال أن يبين له « إقبال الناس عليه وإعراضهم عنه ». (6)

ومن ذلك يبين مكان كاتب المقال أو « الرسول » في نموذج الاتصال بين مصادر القرار السياسي أو الإجتماعي أو الثقافي وبين الجمهور المستهك، فهو ينصح للساسة وصنّاع القرار كما ينصح للجمهور المستهلك « وهو الرسول الحكيم الذي نصح القدماء باتخاذه لذوي الحاجات. هو حكيم بالقياس إلى الجمهور، لأنه يدل الناس على ما يحسن أن يقرأوا ، وعلى ما يحسن أن يفهموا مما يقرأون »(7) وعلى ما يحسن أن يقتنعوا بما يسمعون. وهو رسول بالقياس إلى المنتج لأنه يبين له مواقع ما يصنع من الناس، وأصداء إنتاجه السياسي أوالأدبي، وقد يدله على الخطأ ان وقع ليتجنبه، وعلى الصواب إن وفق إليه ليتزيد منه، وقد يدله على التقصير ليتقيه، وعلى الإجادة ليبتغيها فيما يستأنف من الآثار والقرارات(8).

وترتبط مكانة الكاتب الصحفي أو الرسول في نهاية الأمر بالمقصد أو « الهدف » الذي تنتهي إليه وظائف المقال ، ذلك أن هذه المكانة لا تقوم « بالرسالة في الهواء بين المنتج والمستهلك »(9) ولكنها محوطة « بالأطر

(1، 2، 3، 4) فصول ص 9 .
(5 ، 6 ، 7) المرجع السابق ص 9 .
(8، 9) المرجع السابق ص 8 ، 9 .

الإجتماعية » من كل جانب ، وهي لـذلك يجب أن تكـون « فعـلا إيجابياً »(1) إن أردنا الإيجاز ، وفيما يستتبعه ذلك من « أخذ ورد ، ومن جذب ودفع ومن جدال وحوار ومن خصام ومراء أيضا » ،(2) ومن ذلك يبين أيضاً أن « رجع الصدى » لاينفصل عن هذه « الأطر الإجتماعية » التي تشمل المنتج والمستهلك ذلك أن الإنتاج الأدبي أو الصحفي « ظاهرة اجتماعية لا يمكن أن تكون إلا في الجماعة التي تسمع الأثر أو تقرؤه فتتأثر به ، راضية عنه أوساخطة عليه »(3) فالمنتج أو الكاتب في نهاية الأمر « كائن اجتماعي لا يستطيع أن ينفرد ، ولا يستقيم له أمره إلا إذا اشتدت الصلة بينه وبين الناس ، فكان صدى لحياتهم ، وكانوا صدى لإنتاجه ، وكان مرآة لما يذيع فيهم من رأي وخاطر وما يغذوهم به من هذه الآثار على اختلاف أنواعها »(4) .

أما وسيلة الاتصال في نموذج طه حسين ، فهي تتعرض لمخاطر من جانب الناشرين وأصحاب الصحف ، ذلك أن هؤلاء يهملون « الأديب والقارئ ويضحون بهما في سبيل التنمية المسرفة الآثمة لرأس المال »(5) وهم لذلك يعبثون « بالقارىء المستهلك »(6) واهتمام طه حسين بتحرير وسائل الاتصال من هذه السيطرة « الآثمة » يرتبط « بالمقصد » أو الهدف الوظيفي في نموذجه الاتصالي بالجماهير ، ذلك أن هذه الوسائل الجماهرية تمثل لديه ما يسميه ليرنر: « مضاعف التحرك »(7) نتيجة لتضاعف الخبرة المادية المتزايدة ، وتضاعف نشر التجربة الوسيطة ـ غير المادية ـ في وسائل الاتصال الجماهيرية(8) وهذه الوسائل عند طه حسين هي « هذه الأدوات الحديثة التي استكشفها العلم وابتكرتها الحضارة واتخذتها وسيلة إلى الإذاعة والتغلغل في طبقات الناس إلى أبعد حد ممكن وهي : الصحافة والسينما والراديو »(9) وهو يكبر هذه الأدوات الثلاث ويؤمن « بنفعها ينتظر منها الخير كل الخير »(10) فهي ليست « أدوات للإذاعة »(11) فحسب ، ولكنها

(1، 2) المرجع السابق ص 8، 9

(3) المرجع السابق ص 9، 5، 8 .

(4، 5) المرجع السابق ص 5، 8 .

(6، 7) حديث الأربعاء ج 3 ص 212، 225 .

(8، 9) ويلبور شرام (وترجمة محمد فتحي : أجهزة الاعلام والتنمية الوطنية ص 68، 69 .

(10، 11) مستقبل الثقافة ج 2 ص 514 .

أدوات لتثقيف الشعب وتهذيبه وتصفية ذوقه وتنقية طبعه ، وتحقيق الصلة بين طبقاته وتحقيق الصلة بينه وبين غيره من الشعوب » (1) وهي « ليست مكملة للتعليم الشعبي » (2) فحسب ، ولكنها « قد تكون أشمل نفعاً وأبعد أثراً من هذا التعليم ، ولكن بشرط أن تحقق هذه الأغراض وألا تصرف عنها إلى أغراض أخرى ليست من الخير في شي » (3) وإذا كان « الأدباء والفلاسفة الأروبيون يشفقون من هذه الأدوات الثلاث على العقل والثقافة أشد الإشفاق »(4) فإن طه حسين يؤكد على أن « ظروف مصر مخالفة لظروف الحياة في أوروبا ، فالشعوب الأوربية قادرة كلّها على القراءة لأنها أخذت بالتعليم منذ عهد بعيد . ومن المحقق أن الصحافة والسينما والراديو خليقة أن تصرف الناس عن القراءة الهادئة المطمئنة ، وأن تنافس الكتاب منافسة خطرة على العقل والثقافة . ولكن كثرة المصريين لا تقرأ فلا أقل من أن تتلى عليها الصحف التي تعلمها وتهذبها بلغتها السهلة وعباراتها العربية ، وأساليبها اليسيرة ، ولا أقل من أن تبلغ السينما والراديو عقولها وقلوبها وأذواقها بما يعرضان عليها ويحملان إليها من المشاهد والأخبار ، ومن ألوان العلم والأدب والفن الميسرة المقربة إلى طاقتهم . وإلى أن تتعلم هذه الكثرة المصرية وأن تصبح هذه الأدوات خطراً على القراءة الهادئة المطمئنة . نستطيع أن نعتمد على هذه الأدوات نفسها على أنها وسائل أساسية في تثقيف الشعب وتهذيبه وارشاده إلى الخير في سيرته وإلى الصواب في رأيه » (5) .

ويذهب طه حسين إلى « الحد من حرية هذه الأدوات بعض الشيء »(6) لا عن طريق « إدارة الأمن العام وإدارة المطبوعات » (7) وإنما عن طريق تنظيم « هيئات من المثقفين تشرف من بعيد على حياة هذه الأدوات الثلاث ، وواضح أن هذه الهيئات لن تكون غريبة عن هذه الأدوات » (8) .

(1، 2، 3) المرجع السابق ص 514 ، 515 .
(4، 5، 6) المرجع السابق ص 515 ، 519 .
(7، 8) المرجع السابق ص 516 ، 517 .

فنقابة « الصحافة » هي التي « ستشرف على حياة الصحافة وهي التي ستردها إلى القصد إن جارت عنه وإلى الخير ان تنكبت طريقه وقل مثل ذلك في لجنة الراديوا »(1) أو في فن السينما « فإن أوربا نفسها على حريتها تشكو من خطره على الذوق والخلق ، فأحرى بنا أن نحتاط منه للذوق والخلق ، وأن نراقبه مراقبة دقيقة وألا نبيح عرضه إلا إذا وجدنا منه الخير وأمنا شره على أقل تقدير ، والمهم أن يكون أمر ذلك إلى هيئة مثقفة ترتفع عن التحكم والجور وتتنزه عن الرجعية والجمود » .(2)

على أن خطر السينما ــ عند طه حسين ــ يمتد إلى « فن ناشيء في مصر ونحن أحرص على أن نقويه وننميه ، لأن في تقويته وتنميته إحياء للأدب من ناحية وترقية صحيحة للذوق من ناحية أخرى وهو فن التمثيل » ؟(3) ذلك أن هذا الفن « الطارئ على لغتنا العربية من أقوم الفنون وأرقاها وأبلغها أثراً في إمتاع النفوس وتصفية الأذواق . وهو لا يتجه إلى النظارة وحدهم وإنما يتجه إليهم وإلى القراء أيضا » (4) وللتمثيل على السينما « فضل الفن الرفيع والبقاء . والصلاح لأن يراجع في أناة ومهل على انفراد »(5) ولذلك يذهب طه حسين إلى العناية بالتمثيل وإلى « إيثاره على السينما ، لأنه من عناصر التربية الأدبية والفنية معاً » .(6)

ومن ذلك يبين التأكيد على الوظائف الإيجابية لوسائل الاتصال بالجماهير في نموذج طه حسين ، ومقاومة الآثار السلبية التي أخضعها العلماء للدراسة والتحليل بالنسبة للفرد والجماعة الفرعية ، والمجتمع والثقافة .(7) وتذهب هذه الدراسات إلى أن وظيفة الصحافة ــ كوسيلة إعلام تتصل بمراقبة البيئة وجمع أخبارها والربط بين أجزاء المجتمع لخلق الإتفاق العام أو الرأي العام ، وكذلك نقل التراث الثقافي من جيل إلى جيل .(8) ولذلك يذهب طه حسين إلى أن الحياة الجديدة قربت بين الناس أشد القرب

---

(1) المرجع السابق ص 516، 517.

(2) المرجع السابق ص 517 .

(3 ، 4 ، 5) المرجع السابق ص 517 .

(6 ، 7) الدكتور ابراهيم امام : دراسات في الفن الصحفي ص 87 ، 88 .

(8) الدكتور طه حسين : مجلة الهلال في فبراير 1922 .

وباعدت بينهم أشد المباعدة وأحدثت هاتين الظاهرتين المتناقضتين في وقت واحد(7) . فوسائل النشر والإذاعة وأسباب المواصلات قد ألغت المسافة الزمانية والمكانية إلغاء وأتاحت للناس أن يتعرف بعضهم على آراء بعض في غير مشقة ولا جهد ولا انتظار(8) . ويلاحظ طه حسين(9) شأنه في ذلك شأن علماء الإعلام في الدول الحديثة خطر الوسائل الجماهيرية على الخصائص الفردية »(10) « ولست أعرف عصراً اشتد فيه الصراع بين الفرد والجماعة كهذا العصر الحديث »(1) الذي اختل فيه التوازن بين « الفرد والجماعة » اختلالاً شديداً كما يقول أصحاب السياسة » .(2)

على أن نقد طه حسين لوسائل الاتصال بالجماهير ، إنما يرتبط بتوظيف هذه الوسائل لرفع المستويات الاجتماعية والحضارية كما تذهب إلى ذلك دراسات الاعلام في الدول النامية(3) بحيث لا تقوم على الترفيه والإخبار الخالص ، كما يلاحظ بالنسبة للإذاعة ، ولكنها يجب أن ترقى « الشعب إليها » »(4) وألا « تأخذ نفسها بتسلية القراء بألوان الدعابة والفكاهة والصور وما شئت من هذا السخف الكثير »(5) لأن هذا الاتجاه يؤدي إلى أن يقل « حظ الناس شيئاً فشيئاً من القراءة ومن الثقافة بعد ذلك طبعاً لأنه لا يستطيع أن يقرأ الصحف ويستمع إلى الإذاعة ويشهد التليفزيون ويختلف إلى دور السينما ثم يجد بعد ذلك وقتاً يخلو فيه إلى الكتب التي ترفع حظه من العلم وحظه من الثقافة وحظه من فهم الحياة في وطنه أولاً وفي الأوطان الأخرى ثانياً »(6) .

ومن ذلك يبين توظيف الإعلام لخدمة المجتمع المصري في النموذج الإتصالي عند طه حسين للتنمية والتثقيف والتوجيه ، وهو الأمر الذي « يوثق الصلة بين الإعلام والمجتمع والجماهير »(7) ولذلك يذهب طه حسين إلى ضرورة « إصلاح هذه الأدوات الديمقراطية بحيث تصبح وسائل

(2،1) الدكتور طه حسين: مجلة الهلال في فبراير 1922.

(9 ، 10) الدكتور ابراهيم امام : نفس المرجع ص 91 .

(1 ، 2) الدكتور طه حسين : نفس المرجع .

(3 ، 4) الدكتور ابراهيم امام : « الاعلام والمجتمع » مجلة الفن الاذاعي ـ أكتوبر 1972 .

(5 ، 6 ، 7) الدكتور طه حسين : « أزمة الثقافة » جريدة الجمهورية في 16 ديسمبر 1961 .

للنفع والرقي وللقوة العقلية والخلقية لا للضعف والانهيار»(1) ويلاحظ أن الصحافة المصرية بعد انتشار التليفزيون لم تعد «تعرب عن النفس المصرية المعاصرة وتصور شعورها بالحياة وردها على أحداث الحياة وتصور آمالها وآلامها»(2) ويصف الصحف المصرية التي تخلت عن وظائفها التي يريدها لها بـ «مرآة الغريبة»(3) مستعيراً هذه المرآة من الشاعر القديم، لأن هذه الصحف «تصور من حياة مصر ظاهراً ولكنه ظاهر رقيق جداً لا عمق له وهو في الوقت نفسه كثيف جداً لا يكشف مما وراءه عن قليل أو كثير» فما(4) «أكثر الصدأ وما أكثف الغبار الذي يغشى مرآة الصحافة»(5).

2 ـ قادة الفكر في نموذج الاتصال.

وتأسيساً على ما تقدم، فإن قادة الفكر في نموذج طه حسين، هم الذين يوظفون هذه الوسائل الجماهيرية، للنفع والرقي والقوة العقلية والخلقية، ذلك أن هذه الوسائل شيء مشترك بين المنتجين والمستهلكين، كما يقول أصحاب الاقتصاد(6)، فالكاتب «لا يستطيع أن ينتج إنتاجا حسناً إلا إذا كان مستكملا أدوات هذا الانتاج، والثقافة الواسعة العميقة المنوعة هي أهم هذه الأدوات، والمستهلك لا يستطيع أن يقرأ، ولا أن يفهم ولا أن يذوق، إلا إذا كان على حظ من ثقافة تؤهله للقراءة والفهم والذوق (7) فمجال «الخبرة» بين الكاتب والقارىء، يمثل «الاطار الدلالي» الذي يشتركان فيه، هو الذي يفرض على طه حسين «توظيف» المقال الصحفي لتحقيق النفع والرقي والقوة العقلية.

ومن ذلك تبين مكانة قادة الفكر في نموذج طه حسين، وهي مكانة ترتبط «بظهور الصحف السياسية والعلمية والأدبية الذي قوى توزع قيادة الفكر»(8) فقد كان العلماء والكتاب والفلاسفة والساسة ينشئون كتبهم وينشرونها، فيستغرق ذلك منهم الأشهر والأعوام، ويستتبع ذلك بطئاً فيما

---

(1) الدكتور ابراهيم امام: المرجع السابق.
(2) الدكتور طه حسين: نفس المرجع.
(3، 4، 5) خصام ونقد ص 18.
(6، 7) حديث الاربعاء ج 3، 202.
(8) قادة الفكر ص 138، 140.

يكون بينهم من النزاع والنضال والاستباق إلى قيادة الفكر . أما ظهور الصحف فالنزاع « يومي » أو أسبوعي أو شهري ، وهو عنيف ، وهو سريع ، وهو متصل ، وهو يؤثر في توزيع قيادة الفكر ، بمقدار ما يشتد ويسرع ويستمر(1) كما أن وسيلة الاتصال الصحفي قد قوت « الصلة بين الجماعات ، فقرب بعضها من بعض ، واستطاع بعضها أن يفهم بعضا »(2) ولكن هذا الأمر قد أدى إلى توزع قيادة الفكر بين الأفراد النابهين(3) وبين الشعوب النابهة(4) .

ويفرض مكان طه حسين من قيادة الفكر ، توظيف الاتصال الصحفي للمعرفة والثقافة بالنسبة للمنتج والمستهلك على السواء ، تأسيساً على أن مقتضيات الحياة الديمقراطية تقتضي اشتراك أفراد المجتمع في فهم أحداثه ، وفي اصدار أحكام منصفة(5) فكاتب المقال الصحفي ــ في نموذج طه حسين ــ قائد رأى وفكر ، تغذيه ثقافة عميقة ، تتيح له إصدار أحكام يترتب عليها تطور المجتمع لا تدهوره ، ويتميز طه حسين في هذا النموذج الاتصالي بأمرين :

الأول : أنه يكبر من شأن الموضوع الذي يكتب فيه، أو يتحدث عنه ، ذلك أنه حين يكتب مقالا، يحتشد له ذهنياً كما لو كان يعد محاضرة لطلاب، من خلال أفق «متفتح في الموضوع يغري بالاستمرار في البحث والدرس وينفتح ويمزج بين أطراف الموضوع وما يمكن أن يتصل به من موضوعات في قدرة عجيبة خالقة تجعل من الحياة كلا متكاملا لا مجال فيها لشيء وحده أو لفكرة منفصلة عن غيرها»(6).

والثاني : تميز المقال المتكامل فنياً بالفكرة اللماحة التي تجعل « علمه الدقيق وثقافته الواسعة الرحبة التي وسعت الثقافات المعروفة كلها يتداخلان بشكل رائع »(7) في رسالته المقالية : ذلك أنه معنى بالتوصيل سواء في الاتصال المواجهي في قاعة الدرس ، أو في الاتصال الصحفي بالقراء .

(1، 2، 3)المرجع السابق ص 140 .

(4)المرجع السابق ص 142 .

(5)الدكتور ابراهيم امام: فن العلاقات العامة والاعلام ص 184، 86 .

(6، 7)الدكتورة سهير القلماوي: « أستاذي طه حسين » مجلة الهلال فبراير 1966 .

وهو لذلك يجمع بين مزايا الاتصال المواجهي ومزايا الاتصال الصحفي في مقاله ، ولا يعتمد ككاتب صحفي على علم الأمس ، فيضيف إلى معرفته وثقافته في كل يوم زاداً من اطلاعه على الصحف العربية والفرنسية ، إلى جانب الكتب ووسائل النشر والإذاعة ، ويتمثل من الصحف الفرنسية وظائفها الثقافية والتوجيهية التي تغرى « بالعلم وتحث على الاستقصاء »(1) في السياسة التي لا غنى « للمثقف عن الإلمام بها »(2) وفي الثقافة والنقد الأدبي والفني والنزال في مسائلها جميعاً(3) . وما تنشره من دراسات وبحوث(4) ذلك أن « الحضارة لا تكسب بالاختلاف إلى الجامعات والحصول على الدرجات والألقاب ، وإنما هي ثقافة يجب أن تتثقف بها النفوس وأن تتغلغل في أعماق الضمائر ، وأن تؤثر أشد الأثر فيما يعمل الناس وما يقولون »(5) ووسيلة الاتصال الصحفي عند طه حسين هي التي تقوم على ذلك « في معناها الدقيق » فالصحيفة يجب أن تتضمن من المواد : الأخبار والمقالات الأدبية والعلمية والقصص ، وأنباء السوق والبورصة وأخبار البلاد الأجنبية ، وكل ما يمكن أن تشتمل عليه صحيفة بهذا الاسم(6) .

ومن ذلك يبين الارتباط الوثيق بين وسيلة الاتصال الصحفي وكاتب المقال الذي يجب أن يحرص في عصر الديمقراطية الحديثة على أن تفهم الأمم بعضها بعضا حق الفهم(7) ويتصل بعضها أشد الاتصال ببعض ، وتتداخل فيها الحياة العقلية والشعورية ، تحقيقاً للوحدة الانسانية والتضامن بين الشعوب(8) .

فكاتب المقال الصحفي ــ بهذا المعنى قائد فكر في نموذج طه حسين ، يتحدد بدوره في النظام الاجتماعي والثقافي والمهام التي يقوم بها . والوضع الذي يراه الجمهور عليه ، وقد تعرفنا على شيء من ذلك عند الحديث عن طه حسين ، مما يعين على تعرف المضمون الثقافي والاجتماعي في مقاله ، كما سيجيء .

(1، 2، 3)رحلة الربيع والصيف 57 ، 58 .
(4، 5)المرجع السابق ص 64 ، 69 .
(6، 7، 8)المرجع السابق ص 71 ، 146 ، 147 ، 162 ، 163 .

وفي ضوء هذا الفهم يمكن النظر إلى طه حسين في الاتصال الصحفي على أنه « قائد فكر » يختلف في دوره عن « الأديب التقليدي بأن هيبته وحسن سمعته ونفوذه تجاوز أفق الأدب »(1) ذلك أن الكتاب الصحفيين من رجال الفكر ، هم الذين يبتكرون دائماً أفكاراً جديدة ، وهم الذين يستخدمون لغة جديدة ، ليصوغوا من جديد حقائق قديمة وجدت منذ الأزل ، وأنهم « صوت العالم ، كما يقول بعض الباحثين »(2) ذلك أن طه حسين وأثر الفن كما يؤثر الشعب بما ينتج ويعكف عليه فجعل يدرسه ويتعمق درسه ، ويعرض نتائج هذا الدرس ويظهر الشعب على نفسه(3) فيما ينتج من مقالات . على أن هذا المكان القيادي للفكر في نموذج الاتصال يرتبط عند طه حسين بهذه الدفعة الكبرى للعلم الحديث ، وما صحب ذلك من ارتفاع في قدر التفكير العلمي في مواجهة مستحدثات الحضارة الحديثة ، لأن الكتاب هم المرشدون في عالم الأشياء الجديد وهم الذين يوافون الناس بتفسيراتهم للعصور الجديدة ، ومعاونتهم على تأويل ما يمارسون من تجارب .

ولذلك فإن قادة الفكر في النموذج الاتصالي الحديث ، مطالبون بمواجهة ما نجم عن هذه الحضارة من « شر وتلف »(4) كما يذهب بالنسبة الى « تجربة الإعلان وتجربة الدعاية »(5) حيث « يؤخذ الفرد وتؤخذ الجماعة من جميع أقطارهما » ، يخضعون للاعلان في كل لحظة من لحظات الحياة »(6) والإعلان لا يخاطب العقل ولا يقوم على الصدق ولا يتجه إلى عقول الناس وملكاتهم المفكرة المقدرة المتدبرة »(7) فيه « خصائص الخطابة التي تتجه إلى عواطف الجماهير ، وتهاجم مواطن الضعف لتقهرها وتبهرها وتبلغ منها كل ما تريده ، وفيه خصائص الكتابة التي تتجه إلى الغائبين منفردين ومجتمعين ، فتقرأ جهراً وتقرأ سراً ، ويقرؤ ها الفرد وحده ويقرؤها الفرد

(1، 2)أندريه سيشينسكي: (وترجمة أحمد خاكي) : « التحولات الحديثة في الأدوار التي يقوم بها رجال القلم » ديوجين — مصباح الفكر — نوفمبر 1973 — يناير 1974.
(3)الوان ص 30، 31 .
(4، 5، 6)مجلة الثقافة في 14 نوفمبر 1939 من لغو الصيف ص 69.
(7)المرجع السابق ص 75.

مجتمعاً إلى غيره ، وهو من هاتين الناحيتين بعيد كل البعد عن أن يكون شيئاً عقلياً ممتازاً أو متوسطاً قوامه الصواب والصدق ، والنصح والإخلاص ، إلا أن يكون الإخلاص متصلا بما يريد المعلن ـ أن يروج له ويدعو إليه »(1) .

وفي مواجهة ذلك تتحدد مهمة قادة الفكر في نموذج طه حسين ، للتغلب على هذا العنصر الدعائي « الغامض المبهم الخطر » .(2) الذي يقوم على « الشبهات »(3) بأسلوب الإيحاء الذي تستخدمه الدعاية في مفهومها المتدهور لتحقيق أغراضها ،(4) ذلك أن هذا العنصر ـ كما يذهب إلى ذلك طه حسين ـ يضعف حظ العقل من « التأثير في الحضارة ، وحظ الاختيار القائم على التفكير الصحيح وعلى تحري الصواب والإخلاص في هذا التحري(5) الأمر الذي يجعل مهمة قادة الفكر في وسائل الاتصال بالجماهير هي تحقيق حرية الفرد وحرية الجماعة .(6) وانتصار العقل والتفكير وتحري الصدق والصواب(7) وهي الأمور التي تجعل من نموذج الاتصال الإعلامي عند طه حسين في نهاية الأمر إعلاماً موضوعياً يقوم على « الصدق والنصح والإخلاص للقراء »(8) حتى يتمكن القارىء في نهاية النموذج الاتصالي من أن « يكون ديمقراطياً في القراءة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة »(9) .

وتفرض هذه المكانة على قائد الفكر في النموذج الاتصالي أن يحترم ذاكرة القراء ،(10) ولذلك ينكر طه حسين على الكتاب أن يضللوا قرائهم(11) ذلك أن وسيلة الاتصال الصحفي ظاهرة اجتماعية لا فردية ، فهي ملك للجماعة وإن كان صاحبها فرداً»(12) فالأصل أن «كل صحيفة سيارة يومية تصدر للناس جميعاً ، فهي إذا خادعت أوضللت تخادع الناس جميعاً وتضلل الناس جميعاً »(13) ولذلك يجب أن يتميز قادة الفكر في

(1، 2، 3)المرجع السابق ص 76، 77.
(4)الدكتور ابراهيم: الاعلام والاتصل بالجماهير ص 10 .
(5، 6، 7)الدكتور طه حسين نفس المرجع ص 77، 78.
(8، 9، 10)حديث الاربعاء ج3 ص 210، 211، 226 .
(11، 12، 13)المرجع السابق ص 227 .

الاتصال الصحفي بما يسميه طـه حسين «النزاهة الصحفية»(1) التي يقوم عليها «الضمير الصحفي(2) في نموذج الاتصال لـتزويد النـاس بالإعـلام الموضوعي والحقائق الثابتة، التي تساعـدهم على تكـوين رأي صائب في واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات، في ظل الظروف الحضارية التي تحجب هذا الإعلام الموضوعي عن الجماهير.

(1، 2)المرجع السابق ص 228، 229.

الفصل الثالث

طه حسين

وزوال المجتمع التقليدي

نتحدث في هذا الفصل عن « طــه حسين » وزوال المجتمع التقليدي تأسيساً على أن الإعلام فن تطبيقي وليس فناً تجريدياً ، يقصد لـذاته ، وإنما يهدف إلى تحقيق غايات معينة ، وأداء وظائف محددة .(1)

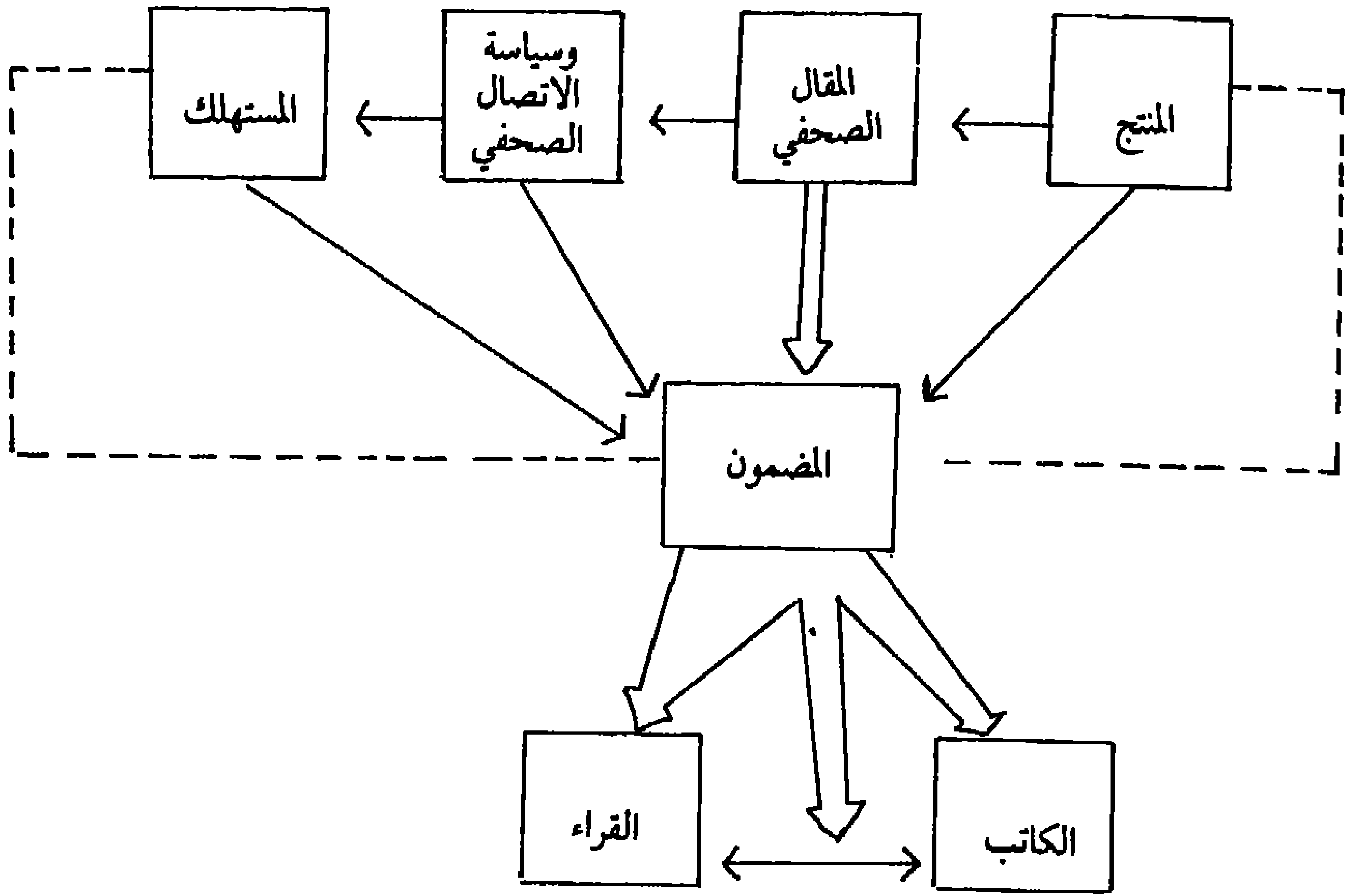
وتتحدد هذه الوظائف في اتصال طــه حسين في دوائر أساسية ثلاث من وظائف الفن الإعلامي ، هي : التثقيف والتنشئة الاجتماعية ، والتوجيه والإرشاد والتفسير والتبسيط ، وهي كما تبين مما تقدم ترتبط جميعا بمفهومه لكـاتب المقال ومكـانه من قيـادة الفكر في نمـوذج الاتصال بـالجـماهـير ، وبمضمون هذا المقال في نهاية الأمر .

وتأسيساً على هذا الفهم فإن مكان مضمون المقال عند طــه حسين ، يقـوم على أداء وظـائف محددة لا تنفصـل عن متغيرات اتصـالية أخـرى درسناها فيما تقدم مثل الاتجاه والمقومات الشخصية والمؤثرات العامة . ونفيد في دراسة المضمون الاتصالي من نموذج الاتصال عند طــه حسين الذي يقترب أن يكون وصفا لعملية الاتصال وتحليلها بوصفها عملية إنسانية ، ويبين « مضمون » المقال من الشكل التالي .

ومن هذا الشكل يتحدد مكان مضمون المقال في النموذج الاتصالي عند طــه حسين وهو الأمر الذي يحدد الرؤية أمام هذا الجزء بفصوله المقبلة ، في دراسة الموضوعات التي عنى بهـا المقال الصحفي عنـد طــه حسين ، والعوامل والمتغيرات التي ترتبط بهذه الموضوعات ، ودراسة اتجاهات الكاتب إزاء هذه الموضوعات، ثم وظائف المقال، لنتعرف بعد ذلك على أساليب التحرير التي توسل بها في أداء هذه الوظائف .

---

(1) الدكتور ابراهيم امام: دراسات في الفن الصحفي ص 57 206.

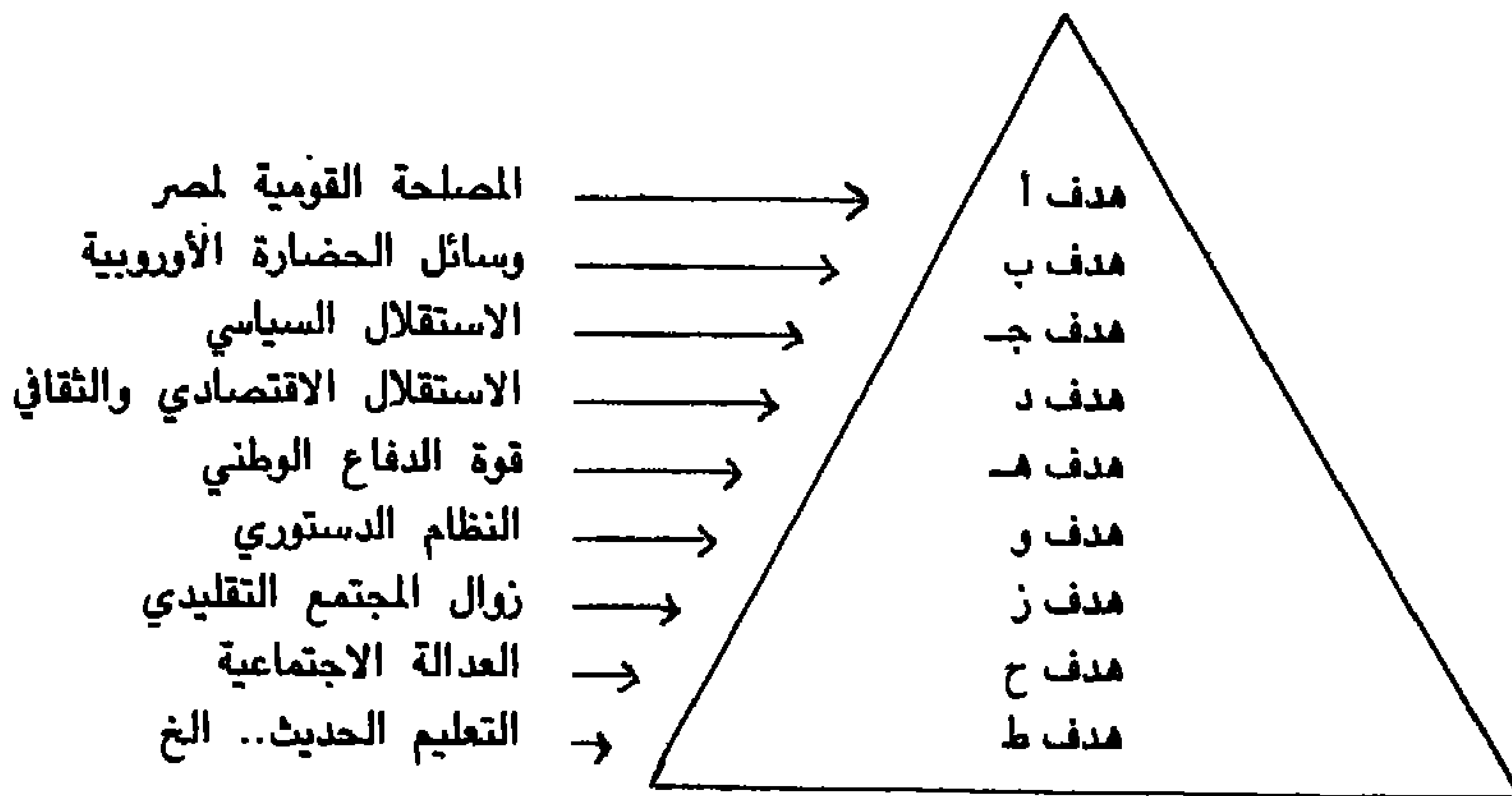


استراتجية الاتصال بالجماهير
عند طـه حسين .

وفي ضوء ما تقدم ، فإن دراسة مضمون الاتصال ووظائفه ، تقتضي أن نتبين استراتيجية هذا الاتصال عند طـه حسين ، وهي استراتيجية تقوم على ما يسميه بـ « الوسائل والغايات »(1) فالوسائل في هذه الاستراتيجية هي التي توصل إلى تحقيق هذه « الغايات » . وإذا كانت الخطة الشاملة تنطوي على أهداف فرعية أو مرحلية ، تشبه معالم الطريق للوصول إلى الهدف النهائي »(2) فأن استراتجية الاتصال الجماهيري عند طـه حسين تذهب إلى أن المصلحة القومية لمصر وسعادة الشعب تكمن في « تحقيق المساواة التي هي حق طبيعي لأبناء الوطن الواحد جميعاً(3) وأن « نظام المساواة في الحقوق والواجبات الذي نريد أن نقره في حياتنا الداخلية ، هو بعينه النظام الذي يجب أن نقره في حياتنا الخارجية وفيها بيننا وبين أوربا من الصلات »(4) وهنا تصبح الوسائل إلى هذه الغاية القومية هي أن نسير

(1) الدكتور طـه حسين: بين بين ص 106، 107 .
(2) الدكتور إبراهيم إمام: الإعلام والإتصال بالجماهير ص 225 .
(3، 4) الدكتور طـه حسين: مستقبل الثقافة ص 44، 45 .

سيرة الأروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها(1) وهذه الوسائل تتضمن وسائل فرعية تحقق غايات مصر القومية فنحن في « حاجة إلى قوة الدفاع الوطني »(2) ومعنى ذلك أن « جيشنا يجب أن ينظم تنظيماً أروبيا ، وأن شبابنا يجب أن يعد لهذا الجيش كما يعد الشباب الأروبيون لجيوش أروبا »(3) ولعل في ذلك ما يشير إلى الاستراتجية العامة في مقال طـه حسين ، كما يبين من هذا الشكل :



ومن هذا الشكل الهرمي نتبين أن الغاية الأساسية هي مصلحة مصر القومية ، والتي يتوصل إليها بالحرية الداخلية والنظام الديمقراطي ، والحرية الخارجية وقوامها الاستقلال الصحيح والقوة التي تحوط هذا الاستقلال(4) ويبين من الشكل الهرمي كذلك أن الحضارة الأروبية تمثل وسائل لتحقيق الغايات القومية ، فهي التي « مكنت للأوطان الأروبية من أن تكون حرة في داخلها ، مستقلة في خارجها ، كريمة في نفوسها ونفوس النـاس »(5) فالتوسل بوسائل الحضارة الأوروبية يقصد به في استراتجية طـه حسين إلى أن « نـرد لهذه الشخصيـة المصرية الخـالدة حقهـا من العزة والاستقـلال والكرامة »(6) الأمر الذي يقتضي زوال المجتمع التقليدي الـذي اضطرت إليـه مصر « أيام الـترك العثـمانيـين »(7). ومـا تـرتب عليـه من « ركـود

(1، 2)المرجع السابق ص 44، 45.
(3، 4، 5)المرجع السابق 50، 51.
(6، 7)بين بين 107، 106.

وخمود »(1) في حين مضت « أوربا في طريقها إلى الرقي حتى سادت العالم وسيطرت عليه ، ففكر زعماء النهضة منذ أول القرن الماضي في أن أول ما يجب على مصر هو النشاط الذي يتيح لها أن تدرك أوربا ، وأن تأخذ بأسباب الحضارة كما أخذت بها ، وتسعى إلى الرقي كما سعت إليه . فكان التشبه بأوربا في أول النهضة وفي أثنائها أيام محمد علي واسماعيل وسيلة لا غاية لم يكفر محمد علي وأعوانه ولم يفكر اسماعيل ومشيروه في أن تكون مصر كأوربا ، لأن التشبه بأوربا غاية من الغايات التي تقصد لنفسها ، وإنما فكر محمد علي وإسماعيل وأعوانهما ومشيروهما في أن أوربا قد غيرت من حياة القرون الوسطى فأتيح لها رقي في النظم الاجتماعية والسياسية كفل لشعوبها حرية بعد استعباد وعدلا بعد جور ، واستعلاء في الأرض بعد أن كانت مستضعفة متهالكة »(2) ولكن هذه الوسيلة لم تلبث أن انحرف بها المصريون وأصبحت غاية في ذاتها فليس « المهم الآن هو أن يتحقق في مصر مثلما تحقق في أوربا من العدل الاجتماعي والسياسي ، وإنما المهم هو أن توجد في مصر النظم والأدوات التي اتخذتها أوربا وسيلة إلى تحقيق العدل السياسي والاجتماعي ، سواء أكان لهذه النظم والأدوات من الإنتاج مثلما كان لها في أوربا أم لم يكن »(3):

ولعل في ذلك ما يفسر وضوح استراتيجية الاتصال عند طه حسين ، في تصحيح مفهوم الغايات والوسائل ، فهو لايريد نقل وسائل الحضارة الأروبية اكتفاء بنقلها ليعرف العالم أن مصر ليست أقل من أروبا تقدماً ولا رقياً(4) كما تنقل « الأزياء من باريس »(5) ولكنه يحدد هذه الوسائل في مكانها من الغايات القومية ، ومن هذه الوسائل يذهب طه حسين إلى أن « ننشىء لمصر الحديثة أجيالا من الشباب كراماً أعزاء أباة للضيم حماة للحرم ، لا يتعرضون لمثل ما تعرض له بعض أجيالنا السابقة من الذلة والهوان . وسبيل ذلك واحدة لا ثانية لها وهي : بناء التعليم على أساس متين » . (6)

(1)المرجع السابق ص 108، 109 .
(1، 2، 3)المرجع السابق ص 109، 111 .
(4، 5، 6)مستقبل الثقافة ص 51، 47، 48 .

فبناء التعليم هو الذي يهيء قوة الدفاع الوطني « كما يتهيأ لها الأوروبيون(1) عندما يهيئون « أبنائهم للدفاع عن أرض الوطن » ،(2) وذلك أيضا في سبيل الغاية القومية لمصر : « لنرد عن أنفسنا غارة المغير ولنقول لأصدقائنا الإنجليز بعد أعوام : انصرفوا مشكورين فقد أصبحنا قادرين على حماية القناة . ومن أراد الغاية فقد أراد الوسيلة ، ومن أراد القوة فقد أراد أسباب القوة ، ومن أراد جيشاً أوروبياً قوياً فقد أراد تربية أوروبية وتعليما أوروبياً يهيئان الشباب لتكوين الجيش القوي العزيز » .(3) ونحن في حاجة إلى « استقلال اقتصادي ما يشك في ذلك شاك ولا يجادل في ذلك مجادل »(4) حتى « نحميْ ثروتنا وأقواتنا كما نريد الجيش لنحمي به أرض الوطن . وهذا الاستقلال الاقتصادي يجب أن يكون استقلالا اقتصادياً من الطراز الأوروبي ، لأننا لا نريد أن نستقل في الاقتصاد بالقياس إلى الحجاز واليمن والشام والعراق ، وإنما نريد أن نستقل في الاقتصاد بالقياس إلى أوروبا وأمريكا(5) وإذن فلا بد من أن « نهيء شبابنا للجهاد الاقتصادي على نفس النحو الذي يهيء الأوروبيون والأمريكيون عليه شبابهم لهذا الجهاد : ولا بد من أن ننشيء المدارس والمعاهد التي تهيء لهذا الجهاد على النحو الذي أنشأ الأوروبيون والأمريكيون عليه مدارسهم ومعاهدهم لأن من أراد الغاية فقد أراد الوسيلة . وليس يكفي ولا يستقيم في العقل أن نريد الاستقلال ونسير سيرة العبيد »(6)

وتتضمن استراتيجية الاتصال عند طه حسين كذلك « الاستقلال العلمي والفني والأدبي الذي يمكننا من أن نهيء شباباً قادرين على حماية الوطن ، أرضه وثروته من جهة ، وعلى إشعار الأجنبي بأننا مثله وأنداده من جهة أخرى هذا الذي يمكننا من أن نتحدث إلى الأوروبي فيفهم عنا، ومن أن نسمع للأوروبي فنفهم عنه ، ومن أن نشعر الأوروبي بأننا نرى الأشياء كما يراها، ونقوّم الأشياء كما يقوّمها ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها. وإذن فنحن نطلب منها مثل ما يطلب، ونرفض منها مثل ما يرفض،

(1، 2)المرجع السابق ص 48، 49.
(3)المرجع السابق ص 48، 49.
(4، 5، 6)المرجع السابق ص 49، 50.

ونريد أن نكون شركاءه في الحياة وأعوانه عليها ، لا خدمه ووسائله إلى هذه الحياة » .(1)

ويذهب طه حسين إلى أن وسائل هذا الاستقلال العقلي والنفسي لا تكون إلا « بالاستقلال العلمي والأدبي والفني » ويقتضي ذلك بالضرورة أن نتعلم كما يتعلم الأروبي ، لنشعر كما يشعر الأروبي ، ولنحكم كما يحكم الأروبي ، ثم لنعمل كما يعمل الأروبي ، ونصرف الحياة كما يصرفها » .(2)

ومن ذلك يبين أن زوال المجتمع التقليدي في استراتيجية طه حسين ليس غاية في ذاته . ولكنه وسيلة من الوسائل العامة ، التي تنتهي إلى تحقيق الغاية القومية . والنظرة إلى الهرم الاستراتيجي في اتصاله ، من أعلى تبين لنا أهدافاً متلاحقة، والنظرة إليه من أسفل تبين وسائل تحقيق هذه الأهداف لأننا نريد « آخر الأمر أن نكون أحراراً في بلادنا ، أحراراً بالقياس إلى الأجنبي بحيث لا يستطيع أن يظلمنا أو يبغي علينا ، وأحراراً بالقياس إلى أنفسنا بحيث لا يستطيع أن يظلم بعضنا بعضا أو يبغي بعضنا على بعض » .(3)

ذلك أن مضمون المقال في صحافة طه حسين ، يدور في إطار هذه الاستراتيجية العامة للوسائل والغايات ، فلا سبيل إلى الاصلاح « حتى يقر في نفوس المصريين عامة ، وفي نفوس القادة والساسة خاصة ، أن الاستقلال والدستور ونظم الحكم والوزارات والمصالح كل هذه وسائل لا تقصد لنفسها ، وإنما تتخذ أدوات لشيء آخر هو الذي يجب أن نفكر فيه ، ونحرص عليه ، وهو سعادة الشعب ، أو على أقل تقدير تخفيف ما يلقى الشعب من الشقاء »(4) .

وتأسيساً على هذا الفهم يذهب مقال طه حسين ليقر في نفوس المصريين أن « ينظروا إلى الوسائل على أنها وسائل لا على أنها غايات »(5) ويتجه في هذه الاتجاهات من خلال استراتيجية عامة تقوم على النظرة العملية للواقع المصري وتاريخه ولمستقبل الوطن المصري في نهاية الأمر .

(1)المرجع السابق ص 50 .
(2، 3)المرجع السابق ص 50 .
(4، 5)بين بين ص113 ــ البلاغ 11 مايو 1947 .

القوة الدافعة للتحول العصري:

ويبين من الاستراتيجية المقالية في صحافة طه حسين « توظيف » المقال الصحفي لأداء وظائف محددة في إطار من الوسائل والغايات ، ولذلك نجد هذه الاستراتيجية توظف المقال في الإتجاهات المختلفة التي تتضمن هذه الوسائل والغايات ، فالمقال يدور في الاتجاه السياسي كما يدور في الاتجاهين الاجتماعي والثقافي ، وهي الاتجاهات التي يتميز بها المقال الصحفي الذي أصبح « موسوعي » الاهتمام .(1) ولكن هذه الاتجاهات تنتظمها استراتيجية عامة « توظف » موسوعية المقال لتحقيق الوسائل والغايات . لا تفصل بين التوجيه والتثقيف والتنشئة الاجتماعية ، كما توظف التفسير والتبسيط ومن هذه الاستراتيجية نتبين توظيف المقال في «زوال المجتمع التقليدي» إن جاز هذا التعبير ، الذي استخدمه « ليرنر Daniel Lerner » في دراسته لبعض دول الشرق الأوسط ، وهي الدراسة التي ركزت على عملية « التحول العصري » في سنة 1959 ، مع إدراك أن هذا التعبير نسبي ،(2) على أننا حين نستخدم هذا التعبير في توصيف مضمون مقال طه حسين ، إنما نضعه في مكانه من الاستراتيجية العامة ، كوسيلة تؤدي إلى ما بعدها ثم إلى الغاية القومية في نهاية الأمر .

وتشير هذه الرؤية إلى الجهود السابقة على دراسة ليرنر لمصر وغيرها ، طوال معركة « التأورب » والأخذ بالأساليب العصرية ابتداء من الاحتكاك بالحملة الفرنسية ، وعبوراً بكتابات لطفي السيد وكتاب المقال من المدرسة التجديدية طوال نصف قرن على التقريب ، وهي الجهود التي أثمرت ما توصل إليه ليرنر في 1951 من « وصول الأساليب العصرية إلى نسبة أكبر من السكان تمسّ التطلعات العامة والخاصة على السواء » ذلك أن مركز هذا التغيير ــ كما يقول ليرنر ــ هو التحول « في وسائل نقل الأفكار والمواقف ، فإذاعة الصور الحية من الأساليب العصرية على جماهير كبيرة هي مهمة التحول العصري »(3) .

(1)الدكتور إبراهيم إمام: دراسات في الفن الصحفي ص 57، 206.
(2)ويلبور شرام مرجع سبق ص 66، 67.
(3)المرجع السابق ص 67.

وإذا كانت « أوربا » قد « استخدمت الوسائل الطبقية ، فإن التحول العصري قد استخدم الوسائل الجماهرية ، وهي الوسائل التي تصنع الفارق بين أثر هاتين الحركتين الاجتماعيتين » .(1) ذلك أن نهضة مصر منذ أوائل القرن الماضي ذهبت إلى الأخذ بأسباب « الحياة الحديثة على نحو ما يأخذ بها الأوربيون » ،(2) ولكن هذا « التأورب » يستخدم الوسائل الطبقية في بداية الأمر ، فأصبحت « حياتنا المادية أوربية خالصة في الطبقات الراقية . وهي في الطبقات الأخرى تختلف قرباً وبعداً من الحياة الأوربية باختلاف قدرة الأفراد والجماعات ، وحظوظهم من الثروة وسعة ذات اليد . ومعنى هذا أن المثل الأعلى للمصري في حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوربي في حياته المادية . نتخذ من مرافق الحياة وأدواتها ما يتخذون ، ونتخذ من زينة الحياة ومظاهرها ما يتخذون » .(3) ومن مظاهر التحضر المادي في مصر استخدام الطرق الحديدية وأسلاك التلغراف والتليفون ، واصطناع أدوات الطعام الأوربية ، ولباسهم ، بحيث أصبح مقياس رقي « الأفراد والجماعات في الحياة المادية مهما تختلف الطبقات عندنا إنما هو حظنا من الأخذ بأسباب الحياة المادية الأوربية » .(4)

أما التحول العصري في الحياة المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها ، فهو يتجه إلى « التأورب » كذلك(5) في نظام الحكم وأشكال الحياة السياسية(6) والمحاكم الأهلية والقوانين المدنية ، والنظم الادارية والمالية والاقتصادية ،(7) والحياة الدستورية النيابية(8) بحيث أصبح « المحافظون والمسرفون في المحافظة ، والمبغضون أشد البغض للتفريط في القديم ، هؤلاء أنفسهم لن يرضوا بالرجوع إلى العصور الأولى ، ولن يستجيبوا لمن يدعوهم إلى النظم العتيقة إن دعاهم اليها « .(9)

فالعنصر الأول إذن في القوة الدافعة لبناء الشخصية المصرية الحديثة أن تكون « أسباب الحضارة الاوربية هي أسباب الحضارة المصرية لأننا

---

(1)مرجع سابق ص 67 .
(2، 3، 4)مستقبل الثقافة ص 21 .
(5، 6، 7)المرجع السابق ص 31، 32، 33 .
(8، 9)المرجع السابق ص 35، 36، 54 .

لا نستيطيع أن نعيش بغير ذلك فضلا عن أن نرقى ونسود »(1) . وهي الأسباب التي تتيح تكوين الشخصية العصرية أو « المتحركة غير الجامدة » كما يقول ليرنر . (2) ويقتضي هذا التكوين العصري ـ عند طه حسين ـ (3) أن يطمئن إليه المشفقون والخائفون وأن يقبلوا عن رضى وأمن على هذه الحضارة التي يقبلون عليها عن إشفاق وخوف »(4) وإلا « فمن السخف أن ندعو إلى أسباب الحضارة الأوربية وقد دخل الراديو في الأزهر الشريف وقام صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر يتحدث به إلى المسلمين في أقطار الأرض جميعا »(5) بل ان « هذه الحضارة وفنونها قد دخلت في الأزهر وانتشرت بعوث الأزهر في عواصم أوربا لتتلقى العلم والفن على الأساتذة الأوربيين »(6) وعلى ذلك فان التحول الحضاري يعني أن نسعى اليه « جهرة وفي وضح النهار » . (7)

ويذهب طه حسين إلى أن التكوين العصري للشخصية المصرية ليس فيه ما يشكل خطراً على « شخصيتنا القومية وعلى ما ورثناه عن ماضينا المجيد من هذا التراث العظيم » ، (8) ذلك أن هذا التكوين العصري ليس غاية في نفسه ولكنه يمثل وسيلة من وسائل الغاية القومية في الاستراتيجية العامة . فالتكوين العصري يتيح لمصر أن « تثبت لأوربا وتحفظ استقلالها من العدوان والطغيان » ، (9) ذلك أن الشخصية المصرية تقوم على مشخصات واضحة بينة ، تعصمها من الفناء في الأمم الأخرى . (10)

ومن ذلك يبين الدور الوظيفي للاتصال الجماهيري عند طه حسين في التكوين العصري ، وهو الدور الذي يحدد رسالته في الصحافة من خلال دور قادة الفكرة « لأنهم هم الذين يستطيعون أن يلائموا بين نتائج العلم على اختلافها وبين حاجات الناس وطاقتهم واستعدادهم للتطور والمضي في سبيل الرقي » . (11)-

---

(1) المرجع السابق ص 35، 36، 54.
(2) ويلبور شرام: نفس المرجع ص 18 .
(3، 4، 5) نفس المرجع ص 59، 60.
(6، 7، 8) المرجع السابق ص 61، 62.
(9 ـ 10) المرجع السابق ص 63، 64.
(11) مذكرات طه حسين ص 253 .

مضاعف التحرك: وظائف الاتصال الجماهيري:

سبق أن تعرفنا على «وسائل الاتصال بالجماهير في نموذج طه حسين»، على أن هذه الوسائل هي التي تجعل التحول العصري جماهرياً وليس تحولا طبقيا، كما ذهبت إلى ذلك وسائل الحضارة المادية، ذلك أن الوسائل الجماهرية ـ كما يقول ليرنر ـ(1) هي المضاعف الأعظم للأفكار والاعلام من أجل التنمية الوطنية، فتداول الاعلام يؤدي تدريجيا إلى توسيع الآفاق. ولذلك وجدنا طه حسين يوظف المقال والحديث الجماهيري للوسائل والغايات في استراتجيته العامة، للتوعية والايقاظ والتنبيه وبث روح المسئولية، والايمان بالقيم والمبادىء الايجابية والشعور بالولاء العميق للقومية المصرية.

فالرؤية الوظيفية للاتصال بالجماهير، تجعل الصحافة عند طه حسين ليست «أخباراً وتعليقاً على الاخبار وإعلاناً وتنظيما للاعلان فحسب، ولا ينبغي أن تكون الصحيفة كذلك وإنما الصحيفة شيء آخر إلى جانب الأخبار والاعلان هي مصدر من مصادر الثقافة الشعبية أيضاً. والثقافة على اختلاف فروعها في حياة الناس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقلية والشعورية أيضاً». (2)

ومن ذلك يبين أن الوظيفة الثقافية تمتد لتشمل الثقافة بمفهومها الاجتماعي وهي على ذلك تلخص الوظيفة الاجتماعية للاتصال بالجماهير لتكوين الشخصية العصرية التي لا تقتصر على «لون من ألوان المعرفة دون لون وإنما هي تتناول كل ما يتاح لأوساط الناس أن يذوقوه»(3) كما أنها ليست «جامدة ولا راكدة ولا واقفة عند حد وإنما هي متصلة نشطة متجددة تجري في اطراد كما يجري النهر أو كما يجري الغدير»(4) في حين تتسم الشخصية التقليدية بثقافة المجتمع التقليدي التي تقوم على الحفظ والجمود(5) لأنها شخصية «راكدة ان صحّ أن تشبه بشيء فهي تشبّه

---

(1)ويلبور شرام: مرجع سبق ص 72.

(2)الدكتور طه حسين: مقدمة كتاب الأستاذ جلال الدين الحامصي: هذه هي صحافتنا بين الأمس واليوم ص ن.

(3، 4، 5)الدكتور طه حسين: «من هو المثقف» ـ مجلة الهلال مايو 1934.

بالماء الراكد الذي لا يتحرك ولا يتجدد والذي هو خليق أن يفسده هذا السكون ».(1)

والشخصية العصرية عند طه حسين هي التي تفرض على الرجل الا يقف « بعلمه واطلاعه عند حد محدود ، ولكنه يضيف إليهما ما يستطيع من وقت إلى وقت ، يقرأ ما تذيعه الصحف ، وما تنشره المجلات ، وما تتحدث به هذه الكتب اليسيرة إلى الذين لا يختصون ، ولا يقفون جهودهم على ناحية معينة من نواحي الحياة العقلية ».(2)

فالوظيفة الثقافية للاتصال الجماهيري بمفهومها الاجتماعي أوسع من وظيفة التعليم ، فليس « كل متعلم مثقفاً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة »(3) ولكن المثقف هو هذه الشخصية العصرية بما تمتاز بـه من تهيؤ الطبـع والعقل لقبول المعرفة مهما تختلف فروعها ومهما تكن مادتها » . (4) و« يحدد تبعة هذه الشخصية بالقياس إلى البيئة التي تعيش فيها » « بمقدار ما يكون لها من حظ في العلم أو حظ في الثقافة أو حظ في كليهما (5) » ذلك أن الانسان لا يحسن العلم » ليجعله شيئاً بينه وبين نفسه دون أن ينفع به أحداً من الذين يعيشون معه في بيئته أو في وطنه ، وإنما يحسن العلم والثقافة ليكون مصباحاً يضيء لمن حـوله من النـاس سبيل الحيـاة وسبيل الـرقي وسبيل المعرفة أيضاً »(6) ويضرب للذين يحسنون العلم والثقافة ثم يكتمونها « هذا المثل الرائع الذي ضربه القرآن الكريم للذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ولم ينفعوا بها أنفسهم ولم ينفعوا بها الناس من حولهم ، فشبّههم بالحمار يحمل أسفاراً لأنه يحمل هذه الأسفار ولا يعلم مـا فيها شيئاً ولا ينفع الناس بما فيها »(7) .

ومن ذلك تبين وظيفة المقال في الاتصال بالجماهير فهو « مكلف أن ينشر ثقافته بين الناس من جهة ، ومكلف من جهة أخرى أن يضيء للناس سبل الحيـاة بما أتيـح لـه من الثقـافة » ،(8) وبـذلـك تتمكن هـذه الـوظيفـة

(1)المرجع السابق.
(2)المرجع السابق.
(3، 4، 5)الدكتور طـه حسين: « ثقافة » .. ومثقفون « جريدة الجمهورية 9 ديسمبر 1961 ».
(6، 7، 8)المرجع السابق.

الاجتماعية من تحقيق التكوين العصري فهي «معرفة يجب أن تنشر بين الناس وهي في الوقت نفسه تذكي عقل المثقف وتيسر له فهم الحياة وتعينه على حل بعض المشكلات التي تعرض للناس في حياتهم اليومية». (1) فالمعرفة في تكوين الشخصية العصرية لا تعرف الحدود وإنما هي «متحركة أبداً ومتحركة دائماً لايدركها الركود إلا حين تصيب الحضارة آفة من الآفات أو عارض من العوارض فتمنع العقل من نشاطه وتكفّ المعرفة عن المضي إلى الأمام»،(2) فالانسان في المجتمع الحديث ـ عند طه حسين ـ يتعمق العلم لتزداد قدرته على نفع الناس. ويتعمق الثقافة لتزداد قدرته على تثقيف الناس من جهة، وعلى دعوتهم إلى الخير وهدايتهم اليه من جهة أخرى». (3)

ولكي يقوم المقال على وظيفته الاجتماعية في الاتصال الجماهيري، فان على كاتبه أن يفهم «حياة الناس من حوله ويعرف موضع حاجتهم إلى الانتفاع بثقافته. فالمثقف الذي يعيش بين الناس ولا يفهم حياتهم ولا يتعمق نظمهم الاجتماعية والسياسية ولا يلاحظ نشاطهم اليومي عاجز كل العجز على أن ينفعهم حق النفع، وعلى أن يكون لهم معلماً وهادياً إلى الخير. وإنما هو ثرثار إذا تكلم وأثر اذا سكت. فليس له بد إذن من أن يعيش مع الناس في العصر الذي يعيشون فيه، ويتعمق الظروف التي تحيط بحياتهم ليضع ثقافته موضع الحاجة إليها وليشعر الناس بأنه نافع لهم حقاً، يعلمهم ما لم يعلموا، ويدلهم من سبل الرقي على ما لم يهتدوا اليه»(4).

ويبين مما تقدم أن الثقافة في الوظيفة الاجتماعية للاتصال بالجماهير عند طه حسين ترتبط بالمعنى الاشتقاقي لها من الارتباط بين العمل الانساني والخبرة الحية، والامتحان والتجربة والعمل. وهي لذلك ترتبط بالمعنى العام للاستراتيجية الحضارية في مقال طه حسين، لتكوين الشخصية العصرية وتهيئة الفرد لاستخدام أساليب التعامل مع الناس، والتكيف مع البيئة فقد ثبت الآن بعد دراسات علم النفس الارتقائي، وعلم الانسان

(1، 2، 3، 4)المرجع السابق.

(الأنثربولوجيا) وعلم الاجتماع أن الثقافة ذات أثر كبير في تشكيل الاتجاهات النفسية والرأي العام .(1)

وعلى ذلك فإن توظيف الاتصال الجماهيري يعني مضاعف التحرك الأعظم في مقال طه حسين ، بين الكاتب ومجتمعه ، فهو « متضامن مع الناس ، والناس متضامنون معه »(2) وإذن فلا سبيل إلى أن يقطع الإنسان الجديد ما بينه وبين الناس من صلة ، وإنما هو في المجتمع الحديث « مضطر إلى أن يعيش معهم وإلى أن يشاركهم فيما يلم بهم من خير أو شر ، وما يعرض لهم من عرف ونكر »(3) .

وتأسيساً على هذا الفهم يذهب طه حسين إلى توظيف الاتصال الجماهيري للمعرفة والتثقيف والتنشئة الاجتماعية ، فالمطابع « تنشر الكتب لجميع الطبقات والصحف تذيع المعرفة في جميع الطبقات ، والراديو يقدم المعرفة إلى جميع الطبقات » ،(4) ومن ذلك يبين ارتباط هذه الوسائل الجماهرية بالاستراتيجية الحضارية عند طه حسين ، فهي بالقياس إلى مصر في مرحلة التحول ، وتدهور المجتمع التقليدي لا تشكل خطرا على العقل ، كما يذهب « دوهاميل »(5) بالقياس إلى فرنسا ، لأنها تجاوزت ظروف المجتمع المصري من زمن بعيد ، فالوسائل الجماهرية في مرحلة التحول ، يجب أن توظف في إطار الاستراتيجية الحضارية لأنها « تدخل البيوت كلها ، والأندية كلها ، والميادين كلها »(6) فهذا « الراديو يغنيك عن القراءة لأنه يحدثك في الأدب والعلم والفن »(7) . ومع ذلك فإن الوسائل الجماهرية في استراتيجية طه حسين « أشمل نفعا وأبعد أثرا من التعليم الشعبي » (8) لما تقوم به من نشر أفكار التحرك الاجتماعي والتغيير ، ثم تفاعل التحضر وتعلم القراءة والكتابة ومشاركة الوسائل في خلق المجتمع

---

(1) الدكتور إبراهيم إمام: الإعلام والإتصال بالجماهير ص 224.
(2) المرجع السابق.
(3) الدكتور طه حسين: « ساعة » مجلة الثقافة، في 7 نوفمبر 1939 ــ فصول ص 170..
(4) فصول ص 216.
(5) المرجع السابق ص 175 مجلة الثقافة في 7 نوفمبر 1939.
(6، 7) المرجع السابق ص 175.
(8) مستقبل الثقافة ج2 ص 514.

العصري. (1) فالصحف والمجلات ـ عند طه حسين ـ أكثر اتصالا بالجماعات وتغلغلا بين طبقاتها من الكتب. والراديو أكثر اتصالا بالجماعات وتغلغلا بين طبقاتها من الصحف والمجلات فضلا عن الكتب، والسينما أكثر دعاء وأشد استهواء للجماعات على اختلاف طبقاتها من التمثيل. (2)

فالوسائل الجماهرية إذن هي مضاعف التحرك في التحول العصري ولكن هذه الرؤية تقتضي توظيفها لأداء الوسائل والغايات في الاستراتيجية العامة عند طه حسين، وألا «تصرف عنها إلى أغراض أخرى ليست من الخير في شيء»(3) وإنما يجب أن توظف لتحقيق استقلال مصر وتحقيق الاصلاح الاجتماعي والعدل بمعنييه السياسي والاجتماعي ذلك أنها ترتبط بالحياة. «الحرة التي يملؤها الطموح إلى العدل، والاستمتاع الحر بالحق، والابتهاج بنعيم المعرفة». (4)

ووسيلة الاتصال الصحفي في ضوء هذا الفهم يجب ألا «تتملق الغرائز ولكن وظيفتها تهذيب الغرائز»،(5) وهي لذلك عند طه حسين «صحافة رأي تهتم بتثقيف عقول القراء»(6).

على أن وظائف الاتصال الجماهيري ليست ايجابية التأثير مائة في المائة ولكنها كما يذهب إلى ذلك جمهرة من العلماء من أمثال «لازرسفيلد» و«ميرتون» و«كلابار» تعمل في المجتمع بطريقة تكمل المؤسسات الاجتماعية الأخرى كالأسرة ودار العبادة والأصدقاء والمدرسة والجامعة وغيرها. وهو الامر الذي يؤكد فعالية هذه الوسائل الجماهرية في التنشئة الاجتماعية ولكن هذه الفعالية تقتضي مؤازرة عوامل أخرى بعضها نفسي وبعضها اجتماعي، وفي غيبة هذه العوامل لا يكون تأثير الأعلام عارما، كما توهم البعض في منتصف هذا القرن.(7) ولذلك يذهب طه حسين بعد بلائه للوسائل الجماهرية ما يقرب من نصف قرن، إلى أن اختراع

---

(1)ويلبور شرام: مرجع سبق 69.
(2)طه حسين: مجلة الكاتب المصري نوفمبر 1947 ـ الوان ص 325.
(3)مستقبل الثقافة ص 514.
(4)فصول ص 217.
(5، 6)من حديث مع طه حسين إجراء كامل الشناوي الجمهورية 12 ماي 1959.
(7) الدكتور ابراهيم امام: مجلة الفن الاذاعي أكتوبر 1972.

« الراديو كان يظن أنه سيكون اداة صالحة لنشر الثقافة والمعرفة في أعماق الشعوب ، وإذا هو يؤدي إلى عكس ما كان يظن به ويرجى منه . ذلك لأن الاذاعة تريد أن تبلغ طبقات الشعب على اختلاف حظوظها من المعرفة وهي من أجل ذلك مضطرة إلى أن تصطنع اليسر والسهولة لتبلغ هذه الطبقات »(1) وإذا اضطرت الاذاعة إلى « السهولة واليسر اضطرت إلى أن تجتنب المعرفة الرفيعة والثقافة العميقة الواسعة »(2) ويذهب طه حسين إلى أن الاذاعة تشكل خطراً عل القراءة « وقلة القراءة معناها ثيق الثقافة وقل مثل ذلك بالقياس إلى التليفزيون وقل مثله إلى السينما »(3) .

على أن هذا الخطر الذي تشكله الأجهزة الآلية للاتصال بالجماهير على القراءة ، لا يعني « إلغاء الإذاعة والتليفزيون والصحف الجادة والهازلة »(4) ولكنه يجب أن يواجه بالاصلاح ، لأنها أدوات « ديمقراطية »(5) ، بحيث تصبح « وسائل للنفع والرقي وللقوة العقلية والخلقية لا للضعف والانهيار » . (6)

وفي ضوء هذه الرؤيا ، فإن الاتصال الجماهيري عند طه حسين ، اتصال « موظف » لأداء الوسائل والغايات ، بحيث قام « بالدفع إلى التغيير »(7) وتصويره أولاً ثم تصوير « آثاره في حياة الناس ، ويحبب إليهم هذه الآثار ويدفعهم إلى الأمام في ميدان الاصلاح والرقي والتجديد »(8) . ودفع القراء إلى « القراءة والفهم والدرس والذوق »(9) .

في الشعر الجاهلي وتصدّع المجتمع التقليدي:

وتأسيساً على ما تقدم ، فإن الاستراتيجية الحضارية عند طه حسين تقوم على عنصرين أساسيين ، أولهما تغيير المجتمع التقليدي الذي لا تزال القيم التقليدية السلبية تميزه- بالسلفية ، رغم توسل أفراده بأدوات الحضارة المادية

---

(1)الدكتور طه حسين: « أزمة الثقافة » - جريدة الجمهورية 16 ديسمبر 1961 .
(2، 3)الدكتور طه حسين: « أزمة الثقافة » - جريدة الجمهورية 16 ديسمبر 1961 .
(4، 5، 6)المرجع السابق.
(7)خصام ونقد ص 158، 170.
(8، 9)خصام ونقد ص 158 - 170 .

وثانيهما تدعيم القيم الايجابية في المجتمع المصري ، على نحو ما سيجيء ، عندالحديث عن الاتصال في الاتجاه الاجتماعي .

ونتحدث هنا عن قضية من أهم القضايا الفكرية ، التي أسهمت في « تصدع قيم الانسان التقليدي » كما يقول « جاك بيرك »(1) ، وهو التصدع الذي يرتبط بقضيتين ثقافيتين شغلتا الصحافة المصرية في العقد الثاني والثالث من هذا القرن ، تسابقت كلتاهما إلى التعرض لقضايا فكرة عدم تجزئة الواقع السلفية . فقد ذهب الشيخ علي عبد الرزاق إلى تفصيل أصول الحكم وممارسته خاصة عن العقيدة(2) . أما طه حسين فقد رفض الاعتراف بالتقييم التاريخي للشعر الجاهلي . وقد قوبلت هاتان المحاولتان بمعارضات غاضبة . تكشف عن مغزاهما ، إذا ما أضيفتا إلى غيرهما من الأحداث ـ وهو تصدع قيم الانسان التقليدي(3) . ذلك أن الكتاب التجديديين كانوا ينظرون إلى « الجهود التي توجه لمحاربة الجمود »(4) على أنها ليست »(5) دون الجهود التي توجه لمحاربة الاستعمار والاستبداد ، فالجمود هو الذي مكن في الماضي للمستعمرين والمستبدين » ، ولذلك وقفت مدرسة « السياسة » تؤيد علي عبد الرزاق ، وطه حسين ، الذي يندد بمهاجمي علي عبد الرزاق قائلاً:

« سنعرف ـ أهي ـ أي مصر ـ جزء من أوربا كما قال اسماعيل أم قلعة من الشرق المظلم كما يزعم المصريون ، وعرفنا وسنعرف: أيستطيع الناس أن يفكروا أحراراً ويعيشوا أحراراً أم هم مأخذون بلون من التفكير والكتابة والحياة يأمنون ما حرصوا عليه ، فإن عدوه وأعرضوا عنه فويل لهم من عذاب أليم »(6) .

وتفسر قضية « الاسلام وأصول الحكم » عن نتيجة إيجابية ، تتمثل في تآزر الكتاب التجديديين على اختلاف أحزابهم السياسية في التأييد لحرية الفكر والانتصار لها ، كما فعل العقاد وحافظ عوض من الوفديين ، ذلك

(1، 2، 3)مجلة الهلال يناير 1966 .
(4، 5)الدكتور محمد حسين هيكل: السياسة الأسبوعية في 25 فبراير 1928 .
(6)السياسة في 6 يونيو 1945 .

أن « الأحـرار من كل الأحـزاب »(1) ــ كـما يقـول حـافظ عـوض ــ في « حاجة إلى التآزر أمام الأفكار الرجعية مما يمس الدستور ومـا كفل من الحريات العامة » . (2)

وتأتي قضية الشعر الجاهـلي ، لتسفر عن تصـدع القيم التقليديـة عند الاتجاه السلفي ، الذي يحاول أن يعوق تطور المجتمع المصري ، فيذهب الكتاب إلى التوسل بمناهج البحث العلمي الحديث ، وهي المنـاهج التي لا تنفصل عن استراتيجيته الحضرية العامة ، أو كما يقول: « أريد أن أريح الناس من هذا اللون من التعب وأن أريح نفسي من الرد والدفع والمناقشة فيما لا يحتاج إلى مناقشة . أريد أن أقول اني سأسلك في هذا الجو من البحث مسلك المحدثين من أصحـاب العلم والفلسفة فيـما يتناولـون من العلم والفلسفـة ، أريـد أن أصـطنـع المنهـج الفلسفي الـذي استحـدثـه « ديكارت » للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث والناس جميعاً يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً . والناس جميعاً يعلمون أن هذا المنهج الذي سخط عليه أنصار القديم في الدين والفلسفة يوم ظهر ، فقد كان من أخصب المناهج وأقواها وأحسنها أثراً وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديداً ، وأنه قد غير مذاهب الأدباء في أدبهم ، والفنانين في فنونهم ، وأنه هو الطابع الذي يميز هذا العصر الحديث » . (3)

ومن ذلك يبين أن هذا المنهج ليس منهجا فلسفيا يستخدم في العلم والفلسفة فحسب ، ولكنه عند طه حسين منهج التغيير الاجتماعي ، الذي يبدأ بمواجهة الجمود الثقافي ، وتحطيم « القيود الثقيلة التي أمسكت بأيدينا وأرجلنا ورؤوسنا لتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحـرة ، وتحول بيننـا وبين الحركة العقلية الحرة أيضاً » . (4)

ويبدأ بتطبيق هذا المنهج على الأدب لأنه « عند الذين يعلمونه ويحتكرونه

(1، 2) كوكب الشرق في 17 أغسطس 1925 .
(3، 4) في الأدب الجاهلي ص 63، 68 .

وسيلة لا تدرس لنفسها وإنما تدرس من حيث هي سبيل إلى تحقيق غرض آخر ، وهي تدرس في رأي أصحاب الأدب القديم من حيث هي وسيلة إلى فهم القرآن والدين » . (1)

ويذهب هذا المذهب في التغيير ـ كما ذهب ديكارت ـ لتحرير العقل من سلطان الجمود ، فلا « يسلم بشيء إلا أن يعلم أنه حق » ولذلك يرفض تقديس القدماء والسلف ،(2) وإنما ينظر إليهم: « كما أنظر إليك وإلى نفسي ، وأعلم أنهم مثلي ومثلك يجدون ويمزحون ، يحسنون ويسيئون » ،(3) فكأن هذا المنهج وسيلة من وسائل الاستراتيجية الحضارية يتوسل به طه حسين في تغيير المجتمع القديم وقيمه التي تقف بالأفق العربي في مكان دون الأفق الأوربي .(4) وحتى يتحول الأفق الجديد إلى أن ينهل من الثقافات وأن يتحرر من التعصب السياسي أو الديني أو العنصري . (5)

ومن ذلك يبين أن منهج التغيير عند طه حسين يذهب إلى تغيير الأفق العربي ، تغييراً يقوم على ما يسميه بعض الباحثين بالقدرة على « التقمص الوجداني » أو التفتح السمح ، والتي تميز انتقال المجتمع من الشكل التقليدي إلى الشكل الحديث .(6) الذي لا يرفض السلفية في التفكير الأدبي فحسب ، ولكنه يرفض قيم المجتمع التقليدي التي « تدع كل شيء حيث تركه القدماء ولايناله بتغيير ولاتبديل ، ولا يمسه في جملته وتفصيله إلا مساً رفيقاً ،(7) ويضع المنهج الجديد في التغيير الذي « يقلب العلم رأساً على عقب ، وأخشى إن لم يمح أكثره أن يمحو منه شيئاً كثيراً »(8) وقادة التغيير حين يتوسلون بهذا المنهج « لا يكادون يمضون إلا في أناة وريث »(9) ولكنهم « لا يطمئنون إلى ماقال القدماء وإنما يلقونه بالتحفظ

---

(1)المرجع السابق ص 46.
(2، 3)حديث الإربعاء ج 2 ص 64، 70،.
(4، 5)في الأدب الجاهلي ص 19، 56.
(6)Daniel Lerner, The Passing of Traditional Society: Modernizing the Middle East (Illinois , (1964),PP. 47 – 75.
(7، 8، 9)الأدب الجاهلي ص 2، 3، 5.

والشـك ، ولعل أشـد ما يملكهم الشـك حين يجـدون من القدمـاء ثقة واطمئنانا » .(1)

وعلى ذلك فإن منهج التغيير في الشعر الجاهلي ليس ثورة أدبية فحسب ولكنه يذهب إلى التغيير الاجتماعي بمفهومه العام: « وحسبك أنهم يشكون فيما كان الناس يرونه يقينا ، وقد يجحدون ما أجمع الناس على أنه حق لا شك فيه » . (2) ذلك أنهم « قد ينتهون إلى تغيير التاريخ أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ . وهم قد ينتهون إلى الشك في أشياء لم يكن يباح الشك فيها » .(3) ويتوسل طه حسين بهذا المنهج في تغيير المجتمع المصري لأنه يجب أن « يفكر وأن يبحث وأن يعلن إلى الناس ما انتهى إليه بعد البحث والتفكير، ولا يكره أن يأخذ نصيبه من رضا الناس عنه أو سخطهم عليه حين يعلن إليهم ما يحبون أو يكرهون »(4) .

وإذا كانت وظيفة الإعلام ليست دعم الاتجاهات فقط ، فإنها قد تحدث التغيير أيضا،(5) وهو الأمر الذي يجعلنا ننظر إلى «الشعر الجاهلي» وما أحدثه من آثار من خلاله، فاستخدام المنهج الديكارتي يوضح الأسلوب الذي آثره طه حسين في تغيير اتجاهات المجتمع المصري ، والاتجاهات السلفية فيه خاصة . ذلك أن هذا المنهج يتيح له « هدم الهدم » إن صح التعبير ذلك أن جوهر الحركة الفكرية في مقال طه حسين هو التجديد العقلي ، وليس الشك الديكارتي إلا وجهاً من أوجه هذا الجهد العقلي ، حقاً إنه شك منهجي استطاع عن طريقه أن يزيل كثيـراً من الأوهام في الشعـر الجاهلي ، الذي يغلب عليه الانتحال ، ولكن هذا الشك المنهجي مظهـر من مظاهر منهج التعقيل الصارم في التغيير الإجتماعي عند طه حسين . ذلك أنه يتيح لمقاله إثارة الجدل والنقاش الذي قد يغضب فئة من فئات الجمهور ، ولكنه ما يلبث أن يحدث أثره في التغيير على الرغم من وجود عوائق تجعل من فرص الدعم أكثر من فرص التغيير(6) ذلك أن بحث طه

(1، 2) المرجع السابق ص 9.

(3، 4)المرجع السابق ص 6.

(5)الدكتور إبراهيم إمام: الاعلام والاتصال بالجماهير ص 156 ـ 187.

(6) الدكتور ابراهيم: نفس المرجع ص 159.

حسين نحو من البحث جديد « لم يألفه الناس عندنا من قبل ، وأكاد أثق بأن فريقاً منهم سيلقونه ساخطين عليه ، وبأن فريقاً آخر سيزور عنه ازورارا . ولكني على سخط أولئك وازورار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث ، أو بعبارة أصح أريد أن أقيده فقد أذعته قبل اليوم حين تحدثت به إلى طلابي في الجامعة ، وليس سراً ما تتحدث به إلى أكثر من مائتين » .(1)

ومن ذلك يبين أن هذا المنهج في التغيير – من وجهة التفسير الاتصالي – يعني النظر إليه على اعتبار أن الاتصال عملية دينامية تشترك في مجالها عدة قوى أهمها: (2) الاستعدادت الشخصية وما يتصل بها من انتقاء للتعرض الإعلامي ، والإدراك ، والتذكر ، ودور الجماعات ومعاييرها ومبادئها ، وأثر الاتصال الشخصي في نقل المعلومات وانتشارها ، وقادة الرأي وناقلي المعلومات وطبيعة النظام الإعلامي نفسه ومكانه في النسق السياسي والإجتماعي للدولة .(3)

ولذلك يذهب طه حسين إلى أن منهجه « وإن أسخط قوماً وشق على آخرين ، فسيرضي هذه الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم في حقيقة الأمر عدة المستقبل وقوام النهضة الحديثة » ،(4) وهو لذلك يضع « علم الأقدمين كله موضع البحث(5) أو « الشك: أريد ألا تقبل شيئاً مما قال القدماء في الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت إن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان » .(6)

على أن هذا المنهج في التغيير ، قد ينجح مرة في الاتصال بالجماهير ولكنه قد لا يلقى نجاحاً كذلك ، وعلينا أن ننظر إليه من خلال دراسة الظروف والعوامل التي تساعد على نجاح التأثير الاتصالي والتي تعوق هذا النجاح والأسباب التي تؤدي إلى الايحاء العكسي: (7) وهي النظرة التي تنقل: « الشعر الجاهلي » من مجرد بحث علمي يلقى على جمهوره محدود

---

(1) في الأدب الجاهلي ص 1 .
(2،3) الدكتور إبراهيم إمام: نفس المرجع ص 156 – 187 .
(4،5،6) الأدب الجاهلي ص 1 – 3 .
(7) الدكتور إبراهيم إمام: نفس المرجع ص 154 .

من الدارسين إلى قضيـــة فكرية تشغل بها الصحافة المصرية والرأي العام المصري كله ، وقد رأينا عند الحديث عن الأحزاب ، كيف أدت الضغوط الاجتماعية إلى اتفاق مع الأحرار الدستوريين لأنهم يتفقون مع مبادئه الجديدة التي لم يقبلها الأغلبية المحافظة التي لم تقبل ما تصورته هجوماً على العقائد والموروثات الاجتماعية التي تسيطر على المجتمع المصري ، وتواجه آراؤه بمعارضة عنيفة نفسر اتصاليا حين « تحملها الوسائل الجماهرية ، باحتمال رفض رسالتها أو تحريفها » .(1) وقد تواجه بعقبات تحد من فعاليته لدى الجماهير نتيجة عوامل « بعضها شخصي والآخر اجتماعي . من هذه العوامل مثلا مجموعة التحيزات والخرافات التي تكمن في عقول الجماهير ، بالإضافة إلى عوامل اختلاف اللغة والسن والعقبات السياسية والإقتصادية . والمنافسات الحزبية الشريفة وغير الشريفة » .(2) والواقع أن هذه العوامل جميعا تضافرت على مقاومة آراء الكاتب المجدد الذي يسعى إلى التغيير الثقافي في مجتمع تقليدي ، وهو الأمر الذي يجعل من دور قادة التغيير في هذا المجتمع عند طه حسين دوراً مجهداً لأنهم « بذلوا من الجهد واحتملوا من العناء ، ما لايشعر به المعاصرون لهم وما سيقدره لهم التاريخ حق قدره ، نشأوا في بيئة معادية للثقافة أشد العداء ، ممانعة لها أشنع الممانعة ، وقد بدأوا بأنفسهم فحرروها من كثير من التقاليد الثقلية الفادحة حتى عدتهم بيئتهم شذاذا وقاومتهم ألواناً من المقاومة ، فلم يهنوا ولم يضعفوا وإنما مضوا إلى الأمام لا يلوون على شيء حتّى كتب لهم النصر ، قاومهم الشعب لأنه لم يفهم عنهم ، وقاومهم السلطان الظاهر لأنه أشفق منهم ، وقاومهم السلطان الخفي لأنه رأى فيهم قادة الحرية والهداة إلى الإستقلال ، فثبتوا على هذا كله وخرجوا من المعركة ظافرين ، وقد أدركنا هذا العهد الذي لم يكد ينتهي بعد والذي ما نزال في أعقابه وما نزال نشهد بعض آثاره ، والذي التقى فيه جيلان من المثقفين: أحدهما الجيل القديم الذي كان يتخذ الأدب وسيلة إلى العيش وكسب القوت ، ثم إلى كسب الثروة والحظوة عند الكبراء وأصحاب السلطان وعند الأغنياء

(1) ويلبور شرام: مرجع سبق 179.
(2) الدكتور ابراهيم امام: فن العلاقات العامة والاعلام ص 184.

والموسرين . مهدراً في سبيل هذا كله بل في سبيل ما هو أيسر من هذا كله كرامته وحريته ورأيه وشعوره أيضاً ، والجيل الحديث الذى آثر الحرية والكرامة على كل شيء ، وتعرض في سبيل الحرية والكرامة لكل شيء ، فلم يتخذ الأدب سبيلا إلى القوت ، ولا إلى الثروة ، ولا إلى الحظوة وإنما اتخذه سبيلا إلى لذته العقلية ، ومتعته الفنية ، وإلى إيقاظ الشعور ، وتنبيه الشعب إلى حقه وواجبه ، وترقية الذوق ، وإذاعة هذه الحياة العقلية الجديدة في مصر بوجه عام (1) .

ومن ذلك تتضح ضرورة العوامل التي تضافرت على مقاومة الدعوة إلى التغيير الثقافي في « الشعر الجاهلي » وفي مقدمة القوى التي تحركت ضد هذا الكتاب ، وضد الدعوة إلى التغيير ، على المستوى الشعبي ، بعض القوى والأوساط التي استطاع القصر أن يحركها ضد الكتاب وما جاء فيه من أفكار وهو الأمر الذي يبين من بلاغ الشيخ حسنين الطالب بالقسم العالي بالأزهر في 30 مايو سنة 1926 للنائب العمومي يتهم فيه الدكتور طه حسين « الأستاذ بالجامعة المصرية » بأنه ألف كتاباً سماه « في الشعر الجاهلي » ونشره على الجمهور وفي هذا الكتاب طعن صريح في القرآن حيث نسب الخرافة والكذب لهذا الكتاب السماوي الكريم إلى آخر ما ذكره في بلاغه .(2) وهو الأمر الذي بلغ مداه بموقف الأزهر الذي يكشف عنه خطاب شيخ الجامع الأزهر بتاريخ 5 يونيو 1926 إلى النائب العمومي « يبلغه له به تقرير رفعه علماء الجامع الأزهر عن كتاب ألفه طه حسين المدرس بالجامعة المصرية سماه « في الشعر الجاهلي » كذب فيه القرآن صراحة وطعن فيه على النبي صلَّى الله عليه وسلم وعلى نسبه الشريف وأهاج بذلك ثائرة المتدينين وأتى فيه بما يخل بالنظم العامة ويدعو الناس للفوضى ، وطلب اتخاذ الوسائل القانونية الفعالة الناجحة ضد هذا الطعن على دين الدولة الرسمي وتقديمه للمحاكمة » .(3)

على أن هذه القضية الفكرية لم تلبث أن أصبحت قضية عامة تتواتر بشأنها البلاغات فيقدم عضو مجلس النواب عبد الحميد البنان في 14

(1)مستقبل الثقافة في مصر ج2 ص 502 ــ 506 .
(2، 3)خيري شلبي : محاكمة طه حسين 5، 6.

سبتمر 1926 بلاغاً آخر يذكر فيه: أن الأستاذ طه حسين المدرس بالجامعة المصرية نشر ووزع وعرض للبيع في المحافل والمحلات العامة كتاباً سماه « في الشعر الجاهلي » طعن وتعدى فيه على الدين الإسلامي وهو دين الدولة بعبارات صريحة واردة في كتابه بينتها في التحقيقات . ا(1)

ولم تلبث هذه البلاغات أن أيقظت العوامل الوسيطة في المجتمع المصري ، مستخدمة في ذلك التحريف الذي يقوم به الأفراد لكي يتمشى الاتهام مع المعلومات والاتجاهات السائدة . معتمدة على دور الادراك والتذكر الانتقائي في تحويل العناصر الموضوعية إلى عناصر تتلون بأفكارهم ومعلوماتهم وعقائدهم(2) لكي لا يفهم الشعب عن المثقفين ، كما ذهب إلى ذلك طه حسين وهو الأمر الذي يبين من الأدلة التي اعتمدت عليها هذه البلاغات والتي اتخذها الكتاب من السلفيين وسيلة للتحريف وايقاظ عوامل الانتقاء في معارضة الدعوة إلى التعبير والتجديد ، فهم يتخذون من حديثه عن إبراهيم وإسماعيل(3) عليهما السلام وتأثير الدين في انتحال الشعر(4) وسيلة لاتهام الكاتب بأنه « كذب القرآن في أخباره عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وأنه أنكر القراءات السبع ، وطعن في نسب النبي عليه الصلاة والسلام ، وأنكر للاسلام أولويته في بلاد العرب وأنه دين ابراهيم عليه السلام(5) واتخذ أسلوب إيقاظ العوامل الوسيطة في المجتمع المصري طريقين: المقال الصحفي من جانب والكتاب من جانب آخر ، ومن هذه الكتب « تحت راية القرآن » لمصطفى صادق الرافعي ، «والشهاب الراصد » لمحمد لطفي جمعة ، و« نقد الشعر الجاهلي »لمحمد فريد وجدي ، و« نقض الشعر الجاهلي » للشيخ محمد الخضر حسين و« النقد التحليلي في الأدب الجاهلي » وغيرها من الكتب(6) .

ومن هذه الكتب نشير إلى طائفة من العبارات التي توقظ العوامل

---

(1)المرجع السابق ص 6.
(2)الدكتور ابراهيم امام: الاعلام والاتصال بالجماهير ص 158.
(3)في الشعر الجاهلي ص 26.
(4)المرجع السابق ص 72.
(5، 6)سامح كريم: مرجع سبق 82.

الوسيطة فالرافعي يقول: « من أقبح ما في كتاب طه حسين أنه يعلن في مقدمته تجرده من دينه عند البحث، يريد أن يأخذ النشيء بذلك اتباعاً لمذهب ديكارت الفلسفي الذي يقضي على الباحث بالتجرد من كل شيء عندما يبحث عن الحقيقة » وهو في ذلك يشير إلى قول طه حسين: « يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى عواطفنا القومية وكل مشخصاتها وأن ننسى عواطفنا الدينية وكل ما يتصل بها، وأن ننسى ما يضاد هذه العواطف القومية والدينية، يجب ألا نتقيد بشيء ولا نذعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح » والتحريف في معنى عبارة طه حسين من جانب الرافعي تحريف ظاهر، شأنه في ذلك شأن قادة الرأي من السلفيين الذين قاوموا كتاب طه حسين وآرائه والمعروف أن قادة الرأي هؤلاء يفسرون الأمور على ضوء ما يفهمونه من قيم وأفكار(1). وهو الأمر الذي نلاحظه كذلك في دفوع فريد وجدي حين يقول: « أنا لا أملك نفسي من أن أقول صراحة إن هذا الكلام ثمين، ولا أغالي ان قلت إنه أعرق في الاسلام من كل كلام قرأته قبل هذا ولا يعيبه إلا شيء واحد وهو أنه مفرغ في قالب الخروج على الجماعة، على حين أنه مذهب القرآن الذي هو دستور هذه الجماعة. فلو كان قال إنهَ سيعالج البحث في الأدب العربي وتاريخه ناسياً قوميته وكل مشخصاتها، ودينه وكل ما يتصل به، وغير متقيد بشيء. ولا مذعن لشيء. إلا مناهج البحث الصحيح، جاريا بذاك على مذهب القرآن لا (ديكارت) لكانت كلماته هذه عدت أجمل تفسير لآيات الكتاب التي وردت خاصة بمنهج البحث عن الحقائق » أما لطفي جمعة فيذهب نفس المذهب في إيقاظ العوامل الوسيطة كذلك بعنف أشد يظهر تدعيمه لتقاليد الاتجاه السلفي، يقول « الحقيقة أن كتاب في الشعر الجاهلي ــ عبارة عن بعض نصوص صحيحة أو مزورة، وبعض أكاذيب وأساطير وشيء من التهويل، وشيء من السياسة وشيء من الخرق ولم يترك المؤلف نبياً ولا صديقاً أو عالماً أو راوية أو شاعراً إلا ابترك في عرضه ابتراكا، ونال من شرفه وسمعته « و» يقول المؤلف أنه ليس لنا أن نتمسك بالقديم لمجرد قدمه وهو يعد أعظم مفاخر

(1) الدكتور ابراهيم امام؛ نفس المرجع ص 168.

المدنية العربية في القوانين والأنظمة والعلوم والآداب قديماً يجب تركه ... الخ » .

ويقول محمد أحمد الغمراوي في « النقد التحليلي لكتاب الشعر الجاهلي »: أن طه حسين ذهب إلى أن نسيان القومية والدين شرط أساسي من شروط البحث العلمي ، فإن كان أراد بذلك أن يقول إن على الباحث ألا يخفي بعض الحق أو يتراخى في استيفاء الدليل العلمي محاباة لقوميته أو إرضاء لعاطفته فقد أصاب . أما إذا كان أراد أن يقول إن الإنسان لا يستطيع أن يكون ذا عاطفة قومية أو دينية من غير أن يحابي أو يداجي في العلم فقد أخطأ ولم يصب إن التدين الصحيح يزيد الباحث المتدين إن أمكن حرصاً على الحق واستمساكاً به إذا وصل إليه » ، كما يذهب الشيخ محمد الخضر حسين في « نقض كتاب الشعر الجاهلي » إلى أن « الباطل ما برح يحارب الحقيقة الإسلامية المغلولة بسيوفه وشبهاته الضئيلة ، ثم يرجع خائبا بغير جدوى ، وقد عاد اليوم إلى جولة يدفعه إليها نفر من المتأثرين بكتب الداعين إلى معاداة دين سيد المرسلين » .

وقد ذهب فريق من كتاب المقال الصحفي إلى تدعيم هذا الاتجاه السلفي كذلك ، في مقدمتهم كتاب حزب الوفد ، الذين قدم بعضهم صفحة مشرقة في تأييد حرية الفكر ، رغم العداء الشديد والصراع الحزبي بين الوفديين والأحرار الدستوريين ، الذين ينتمي إليهم طه حسين بل ورغم اشتداد الهجوم عليه ، والذي بلغ مداه بقيام المظاهرات التي توجهت إلى البرلمان ، وخروج سعد زغلول ليقول للمتظاهرين: « إن مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر في هذه الأمة المتمسكة بدينها . هبوا أن رجلا مجنوناً يهذي في الطريق فهل يضير العقلاء شيئاً من ذلك ؟ إن هذا الدين متين وليس الذي شك فيه زعيما ولا إماماً حتى نخشى من شكه على العامة . فليشك ما شاء ، ماذا علينا إذا لم يفهم البقر » .(1) ومن هؤلاء الوفديين الذين وقفوا إلى جانب الكتاب وصاحبه المثقفون من مدرسة التجديد ، وفي مقدمتهم عباس العقاد الذي رأى رغم انتمائه للوفد ازدواجية القضية

(1)سامح كريم: مرجع سبق ص 104.

حين ارتطم الكتاب بأوضاع السياسة ، فساند صاحب البحث أمام الجهات الرسمية وتحت قبة البرلمان . ذلك أن العقاد كان يعتقد أن هزيمة الفكر في هذه الأزمة هي هزيمة منكرة سيعقبها افتيات أصحاب الحكم على رجال الأقلام . (1)

على أن الكتاب الوفديين الآخرين ذهبوا إلى تدعيم العوامل الوسيطة وإثارتها ضد طه حسين ، كما فعل السلفيون من قادة الرأي من الأزهريين والباحثين ، ومن ذلك مقال لعبد ربه مفتاح في « كوكب الشرق » يقول فيه: « تبرأ طه حسين بجواب أرسله إلى مدير الجامعة بعد أن قامت الأمة وقعدت لفعلته الشنيعة ، تبرأ الآن من الكفر والإلحاد بعد أن سجله في مؤلفه وأذاعه بين الناس وأفسد به عقول النابتة . ولكن فات دكتور أروبا أن هذا ليس سبيل البراءة والخلاص ، وإنما السبيل أن يعلن رجوعه عن هذا الكفر الصريح ، وأن ينص على غير مواربة ولا لف ولا دوران أن مؤلفه باطل لا يعول عليه وبخاصة ما يمس منه الدين » .(2) كما فتح « البلاغ » صدره لهجوم عنيف شنه رجال الأزهر ودار العلوم على الدكتور طه حسين ، ومن ذلك أن أحد مفتشي اللغة العربية وخريجي مدرسة دار العلوم — وهو الغمراوي — قام بحملة كبيرة ضد الكتاب ، ونشر له البلاغ ما لا يقل عن اثنتي عشرة مقالة بعنوان « الشعر الجاهلي وقيمته من الوجهة العلمية » ثم في العدد 1093 من أعداد البلاغ بتايخ 20 أكتوبر 1926 نشر التحقيق الذي أجرته النيابة مع الدكتور طه حسين ، في البلاغات المقدمة ضده من علماء الأزهر .

ولم يقف الهجوم عند الصحف الحزبية المناوئة وحدها ، بل امتد إلى الصحف المستقلة ، فيكتب محمد عبد المطلب في الأهرام(3) بعنوان « الشعر الجاهلي والأستاذ طه حسين » يستهله بقوله: « وارحمتا للإسلام يحرص على سعادة بني الإنسان ويحرصون على شقائه. ولئن كن قد شقى بأعدائه قديماً لهو اليوم بأهله أشقى فقد أصبحوا يعدون من مفاخرهم عقوقه

(1)عبد العزيز شرف: عباس العقاد صحفيا — الفصل الخاص « بالعقاد وبعض القضايا الفكرية ».
(2)سامح كريم: نفس المرجع ص 88.
(3)المرجع السابق ص 88 الأهرام في 2 مايو 1926.

والخروج عليه لا عن مصلحة ولا اجتهاد ولكن إرضاء لأعدائه ... إلخ »
كما يكتب عبد المتعال الصعيدي المدرس في الجامع الأحمدي في « الأهرام »
أيضاً بعنوان « في الشعر الجاهلي سرقات مؤلفه »(1) يذهب فيه مذهب
الهجوم على منهج الدكتور طه حسين كذلك ، متهماً إياه بأنه انقلب
« مبشراً ينقل آراء المبشرين التي يمليها عليهم حقدهم » الخ .

ومما تقدم يبين تعقيد عملية التغيير الاجتماعي التي ذهب إليها الدكتور طه حسين من وراء بحثه ، ذلك أن الأفراد هم الذين يتغيرون ، ولكن هؤلاء الأفراد في المجتمع المصري في ذلك الوقت يعيشون في جماعات وينتمون إلى أحزاب ، وكثير من المعتقدات والقيم التي يتمسكون بها شأنهم – في ذلك شأن أفراد كل مجتمع – أمور مشتركة عند الجماعة لا يتهاونون فيها ويدافعون عنها مجتمعين(2) . على أن الأمر الذي جعل من الدعوة إلى التغيير الثقافي أمراً يقابل بهجوم شعبي تمثله المظاهرات ، يقع عبؤه على قادة الرأي من السلفيين الذين حرفوا آراء الكاتب ونفذوا من العوامل الوسيطة إلى الناس ، تأسيساً على أن من العسير على الفرد أن يقف في وجه معتقد جماعي قوي إذ يتعين عليه في تلك الحالة إما أن تتغير الجماعة بأسرها أو أن يجد لنفسه جماعة جديدة(3) .

ومعنى ذلك اتصالياً أن التغير الاجتماعي يكون بالغ السهولة إذا لم يخرج على القيم الجماعية . ولكن الكثير من القيم الجماعية في كل المجتمعات التقليدية تقريباً معاد للروح العصرية . من بين ذلك المعتقدات الدينية المتعلقة بالجبر والاختيار ، وبعجز الإنسان عن مغالبة الطبيعة (4)، ومن بين ذلك أيضاً ما ساقه الدكتور طه حسين من آراء تزور عنها الفئة السلفية التي تقود الرأي في المجتمع المصري كما رأينا شواهد من تفكيرها ، على أن من المستحيل في عملية الأخذ بأساليب العصر تجنب بعض المواجهات للقيم الجماعية (5) . وذلك هو ما اتجه اليه طه حسين في كتابه ، وهو الأمر الذي جعله في تلك الفترة « رجل اليوم » كما وصفته صحيفة

(1) المرجع السابق الأهرام 12 مايو 1926 .
(2) ويلبور شرام : مرجع سبق ص 160 .
(3، 4) المرجع السابص ص 160 .
(5) المرجع السابق ص 160 .

« الانفورمسيون » الفرنسية في حديث أجرته معه(1) وتذكر فيه أن « كتابه الأخير عن الشعر الجاهلي أثار ضجة كبيرة: وكان فوق ذلك موضوعاً للتأويلات المتناقضة »(2) وفي هذا الحديث يقول طه حسين: « إن كتابي جدير بما هو جدير به وقد لا تكون له قيمة إلا في نزاهة بحثه. أقول لك هذا فقط لأبين لك أني لم أفكر لحظة في أن أنتهك معتقدات أحترمها بل لم أفكر قط في أني قد أستطيع انتهاكها »(3). ويذهب إلى أن ثمانية وتسعين في المائة من السلفيين من الأزهريين الذين « يتهمونه بالإلحاد ». لم يقرأوا كتابه ». ويذكر أن شيخاً من الزقازيق كتب له يطلب نسخة من الكتاب لكي يستطيع أن يقول فيها رأيه بصراحة « ومع ذلك فإن هذا الشيخ قد وقع منذ اثني عشر يوماً عريضة يطالب موقعوها برفتي! قيل لهؤلاء البسطاء إني أطعن في الإسلام فأشهروا الحرب علي جميعاً على أني أقول عالياً أن ليس في كتابي كلمة يمكن أن نؤول ضد الدين. والعبارة الوحيدة التي يمكن أن أنتقد من أجلها تضع النصوص المقدسة بعيدة عن قسوة المباحث التاريخية: قلت: إنه يكفي لكي تثبت من الوجهة العلمية وجود ابراهيم وابنه في التاريخ أن يكون اسماهما قد ذكرا في التوراة وفي القرآن وليس معنى ذلك أن ابراهيم لم يوجد قط كما نسب إليّ القول بذلك كاتب في جريدة « البورص اجبسيان » لم يقرأ كتابي أيضاً »(4).

ويؤكد الدكتور طه حسين أنه « بعيد جداً عن أن يسيء إلى « كتابنا ». وأن ينتقص من قدره ولو من 'الوجهة الأدبية »(5) يقول: « .. فإني قد حرصت وكتبت مراراً أن القرآن هو أقدم وثائقنا الصحيحة. وأنه يقدم لنا صورة من الحياة العربية وأنه أجل أثر في لغتنا يحتوي كل ضروب الجمال وكل عظمة في الشكل والفكر. ثم إني أكرر لك أنه لم يكن لي نية سوى تمحيص الحقيقة في موضوع أشغف به لأني أحب آدابنا ولغتنا الحب الجم. وإني لأقدر بمعيار الجد مهمتي كأستاذ في جامعة نريد جميعاً أن تكون خليقة بهذا الوصف: هاتان العاطفتان تجعلاني أسير في طريقي

(1، 2)السياسة في 26 مايو 1926.
(3)السياسة 26 مايو 1926.
(4، 5)المرجع السابق.

دون أن أعبأ بوشايات منها ما يرجع إلى البغض أكثر منه إلى الأشياء. فعلى أولئك الذين يؤمنون بالخطر أن يفتحوا أعينهم لمسائل خطيرة غير هذه! أما هذه ... فمسألة أخرى!»(1).

على أن التيار الأساسي الذي حمل ثقل التأييد والدعوة والدفاع عن الكتاب وصاحبه، كان هو تيار الأحرار الدستوريين الفكري، وحزبهم السياسي، وجريدتهم «السياسة» المعبرة رسمياً عن هذا التيار. وهو التيار الذي كان يشارك في حكم الأقلية ضد الأغلبية من جهة، ويقف إلى جانب حرية التفكير والتعبير إذا كان الأمر خاصاً «بالصفوة والنخبة» و «الطائفة المفكرة»، ويجمع هذه الصفوة منهج في التفكير يشدهم إلى مدرسة الأستاذ الإمام، ظهر في «الاسلام وأصول الحكم» أولا، ثم في «الشعر الجاهلي» ثانياً. وعندما يشتد الجدل في الصحافة حول أفكار الدكتور طه حسين تنشر السياسة مقالاً بعنوان: «رجال الدين وحركاتهم السياسية»(2) تقول فيه: «كما صدر كتاب» «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين، وتناوله حضرات رجال الدين بالنقد لم نرد أن ندخل في جدل أو مناقشة لنؤيد حرية الرأي أو البحث العلمي ولو كان صاحبه مخطئاً. وآثرنا أن يتلافى أولو الأمر الخلاف بالحكمة والأناة. فلما طلب بعض المشايخ محاكمة الدكتور طه حسين وإخراجه من الجامعة ومصادرة كتابه. أفهمهم من بيدهم الأمر أن ليس في الكتاب ما يحاكم عليه وأعلن الدكتور طه حسين للناس أنه يؤمن بالله وكتبه واليوم الآخر. واتفق على أن تشتري الجامعة الكتاب فلا تتداوله أيدي الناس. ولم يكن أحد يتوقع أن تثور مسألة الدكتور طه حسين وكتابه من جديد.. ولكن حضرات العلماء الذين تحركوا في المرة الأولى لم يدعوا الوزارة تطمئن إلى مجالها في الحكم ثلاثة أيام حتى قدموا عرائض يطلبون فيها فصل الدكتور طه حسين من الجامعة ومصادرة كتابه وإحالته إلى المحاكمة.

«وكنا نود أن تكون الوزارة قوية غاية القوة، مؤيدة أشد التأييد وأن محاولتهم إحراجها على هذه الصورة لن تصل بهم إلى أي نتيجة وأنهم

---

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق ــ السياسة في 7 يوليو 1926.

يقصدون لغايات خاصة أو فساد الجو السياسي ، مما لم يستطيعوا الوصول اليه وإنا لنود مخلصين أن يذر المشايخ هذه السياسة التي لا تفيدهم ، ولا تفيد أحداً والتي تحرجهم ولا تحرج أحداً ، وأن ينصرفوا إلى التفكير في اصلاح حال المسلمين الدينية » .

وتثير هذه الحملات ، التي لم يقف إلى جانبه فيها إلا الأقلية من الطائفة المفكرة ، تقرير حرية التفكير والتعبير من جانب و« تسفيه القول بربط اللغة والأدب بالبحوث الدينية »(1) من جانب آخر وهما أمران لا يروق أحدهما أو كلاهما للمحافظين والسلفيين ، الذين كما يصفهم الدكتور هيكل « اعتادوا كلما أرادوا مهاجمة شيء من الأشياء أو نظام من النظم أن يجيئوا لمهاجمته من ناحية الدين ولم يكن هذا النظام أو الشيء من الدين في شيء »(2) ويؤكد أن « لا صلة البتة بين التجديد والإلحاد ، وإنما هي صيحة حرب منكرة(3) .

ولذلك يذهب الدكتور طه حسين إلى أن « الخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن الدين يرى لنفسه الثبات والاستقرار ولأن العلم يرى لنفسه التغير والتجدد، فلا يمكن أن يتفقا إلا أن ينزل أحدهما عن شخصيته . والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن أحدهما عظيم جليل واسع المدى بعيد الأمد لا حد له ولا انتهاء لموضوعه ولأن الآخر متواضع ضئيل محدود المطامع بطيء الخطى يقدم ثم لا يكره أن يحجم ويمضي ثم لا يكره أن يرتد ويبني ثم لا يتحرج من الهدم فلا يمكن أن يتفقا إلا أن ينزل أحدهما عن شخصيته .

« فالخصومة بينهما أمر لا بد منه ولكن المسألة في حقيقة الأمر ليست في أن الخصومة واقعة أو غير واقعة وإنما هي في أن الخصومة ضارة أو نافعة أو بعبارة أدق: المسألة هي أن نعرف هل كتب على الإنسانية أن تشقى

---

(1)السياسة في 27 ديسمبر 1926 .
(2)السياسة الاسبوعية في 2 مارس 1929 ـ عبد العزيز شرف: الدكتور محمد حسين هيكل صحفيا ص 218.
(3)السياسة الأسبوعية في 2 مارس 1929 ـ عبد العزيز شرف: الدكتور محمد حسين هيكل صحفيا ص 218.

بالعلم والدين أو هل كتب على الإنسانية أن تسعد بالعلم والدين؟ أما نحن فنعتقد أن الانسانية تستطيع أن تسعد بالعلم والدين جميعاً »(1) .

وهو الأمر الذي يرتبط بموقفه من الأزهر كما سبق ، ومن « التقليديين » الأزهريين بصفة خاصة الذين يلجأون إلى التقليد « اشفاقاً من الخطأ وإيثاراً للعافية »(2) ويذهب إلى أن خوفهم « الفتنة يغريهم بالتورط في الفتنة »(3) وهو الأمر الذي ينبه إلى خطره في محنة « الشعر الجاهلي » حين يكتب « أن الشر مستمر متضاعف ما دام الأزهر قائماً كما هو وما دامت ملحقاته في الأقاليم قائمة كما هي لا يمسها الإصلاح ولا يتغلغل في أعماقها نور الحياة الراقية والعلم الصحيح »(4) ويذهب إلى أن « حياتنا العقلية والعلمية لن تصلح ولن تنتهي إلى خير ما دام في مصر نوعان من التعليم يقف كلاهما في وجه صاحبه عدواً مبيناً وخصماً عنيداً: التعليم المدني في مدارس الحكومة وما إليها والتعليم الديني في الأزهر وملحقاته . هذان النوعان من التعليم يخرجان لمصر في كل عام جيشين مستعدين للخصام أحدهما جيش المتعلمين المستنيرين الطامحين إلى المثل الأعلى الراغبين في الاتصال بحياة العالم الحديث والآخر جيش الجامدين المتعصبين الذين ركبت رؤوسهم إلى الوراء فهم ينظرون إلى أمس حينما ينظر خصومهم إلى غد . وسيظل هذان الجيشان في خصومة وحرب حتى يظفر أحدهما . وليس من شك في أن جيش التعليم المدني هو المنتصر . ولكن انتصاره سيكون بعيداً وسيكون عنيفاً وسيكلف مصر ضروبا من الضحايا إذا تركت الأمور في مصر حيث هي الآن »(5) .

ومن ذلك يبين أن رجال الدين ، الذين يحتلون مكان قيادة الرأي في المجتمع المصري يمثلون موقفاً محافظاً ، في مواجهة التجديد والتغيير الاجتماعي ، ولا نستطيع أن نفسر مبدأ التغير الاجتماعي ذاته طالما أن كل فرد لن يغير من قيمه واتجاهاته إلا بعد موافقة جماعاته على ذلك . على أن

---

(1) الدكتور طه حسين: من بعيد ص 228 وما بعدها.
(2، 3) الدكتور طه حسين: نقد واصلاح ص 230، 237.
(4) السياسة في 16 يوليو 1926.
(5) السياسة في 16 يوليو 1926.

الأمر ليس على هذه الصورة فليس كل الأفراد على درجة متساوية من الولاء لجماعاتهم وقيمها ومعاييرها ولذلك فإن كتاب طه حسين قد فتح الطريق لينادي بعض الأفراد بالتغيير وبالخروج على المعايير الجماعية . وهو الأمر الذي يريد من ورائه توسيع نطاق التغير في المجتمع المصري ، لذلك يذهب من قضية كتابه إلى أن في مصر « خطرين أولهما الجهل وثانيهما الجمود وكلاهما عقبة كؤود في سبيل الحياة الدستورية الصالحة من حيث هي »(1) ومقاومة هذين الخطرين تعني زوال المجتمع التقليدي ذلك أن كلا الخطرين شر: « ولست أدري أيهما أشد نكرا في حرب الحرية العقلية والسياسية . أهذا الجاهل الذي يحارب لأنه لا يعلم . أم هذا الجامد الذي يحارب عن علم أو عما يتخيل أنه علم . وبعبارة واضحة لست أدري أيهما أشد خطراً على الحرية: جهل الرجل الساذج الأمي أم تعصب الرجل الجامد الذي يؤمن لنفسه بالعصمة أو ما يشبه العصمة »(2) .

ومهما يكن من أمر الجدل الذي أثارته قضية الشعر الجاهلي ، فقد أسفرت عن كشف علل المجتمع التقليدي وهو الأمر الذي يزول بعلاج: الجهل والجمود كما أسفرت عن انتصار الدعوة إلى حرية الفكر ، رغم استجواب الدكتور طه حسين أمام النيابة ، في الاتهامات الفكرية المنسوبة اليه ، والذي انتهى بحفظ التحقيق بناء على مذكرة نقدية ممتازة من وجهة نظر قانونية(3) كتبها النائب العام . يقرر فيها حسن نية المؤلف مستشهداً بفقرة من مقال كتبه طه حسين في « السياسة الأسبوعية »(4) تحت عنوان « العلم والدين » يقول فيها إن « كل امرىء منا يستطيع إذا فكر قليلا أن يجد في نفسه شخصيتين ممتازتين إحداهما عاقلة تبحث وتنقد وتحلل وتغير اليوم ما ذهبت إليه بالأمس وتهدم اليوم ما بنته أمس . والأخرى شاعرة تلتذ وتتألم وتفرح وتحزن ، وترضى وتغضب وترغب وترهب . كل ذلك في غير نقد ولا بحث ولا تحليل . وكلتا الشخصيتين متصلة بمزاجنا وتكويننا

---

(1)المرجع السابق.
(2)المرجع السابق.
(3)خيري شلبي: مرجع سابق.
(4)السياسة الأسبوعية في 17 يوليو 1926.

لانستطيع أن نخلص من إحداهما . فما الذي يمنع من أن تكون الشخصية الأولى عالة باحثة ، وأن تكون الشخصية الثانية مؤمنة ومطمئنة وطامحة إلى المثل الأعلى » ؟ . (1)

ونخلص مما تقدم إلى أن هذه القضية الفكرية قد أسفرت عن وضع أصول جديدة لمنهج التغيير الاجتماعي بمظاهره المختلفة ، كما أسفرت عن تجديد البحث العلمي والأدبي ، وانتصار حرية الفكر ، الانتصار الذي حمل أعباء معركته قادة التغيير من المدرسة التجديدية ، الذين قادوا الثورة الفكرية بعد سنة 1919 ، والذين أدركوا ازدواجية القضايا الفكرية حين ترتطم بأوضاع السياسة التي تركن إلى إيقاظ العوامل الوسيطة . كما أسفرت عن ضرورة فصل الدين عن العلم ، وإصلاح الأزهر وتدعيم الوحدة الوطنية ، وضرورة توحيد التعليم وتطويره ، وكان لاشتراك الصحف المصرية جميعاً في الجدل حول هذه القضية ، أيا كانت دوافع هذا الجدل ، فضل توسيع رقعة الحوار حول التغيير الاجتماعي والثقافي ، وهو الأمر الذي أسفر عن تدعيم عامل إيجابي في المجتمع المصري ، ونعني العامل الديني كما سيجيء عند الحديث عن قضية التبشير في الإتجاه الاجتماعي ، في حين أسفر الجدل عن تقبل التغيير فيما عدا ذلك من عوامل ، وهو أمر يتفق مع نتائج الدراسات الإعلامية التي تذهب إلى أن « أجهزة الإعلام تستطيع أن تؤثر في الاتجاهات التي لايشتد التمسك بها وتوجه الاتجاهات القومية توجيهاً طفيفاً نحو الغاية المرجوة » . (2)

وعلى ذلك فإن هذه القضية الفكرية بمنهجها الجديد ، قد أسهمت في تصدع قيم المجتمع التقليدي مع غيرها من العوامل ، وحددت أسلوب التغيير الأمر الذي آتى أكله حين يفشل إسماعيل صدقي في إثارة قضية الشعر الجاهلي من جديد في عام 1932 ، لأسباب سياسية ، حاول فيها مناصروه إيقاظ العوامل الوسيطة باستغلال عامل الدين كذلك ، على النحو الذي يشخصه عبد الحميد سعيد « بالنزعة اللادينية »(3) والذي يلخص

---

(1) المرجع السابق.
(2) ويلبور شرام : مرجع سبق ص 184.
(3) الأهرام في 17 مارس 1932.

مزاعم السلفيين التي أثبت التحقيق بطلانها من قبل. ولكن هذه العوامل الوسيطة عند الجماهير لم تقتنع بأن المؤلف يطعن على الدين، وكذلك لم تقاوم طه حسين وإنما وقفت إلى جانبه ضد بطش صدقي وحكومته ومؤيديه من رجال الأزهر السلفيين.

التدعيم والتغيير في استراتيجية الاتصال الجماهيري:

ونخلص مما تقدم إلى أن منهج التغيير عند الدكتور طه حسين يرتبط بالإستراتيجية العامة في اتصاله، على أن هذه الإستراتيجية تقتضي ــ كما تقدم ــ تدعيم العوامل الإيجابية في المجتمع المصري «القوى الخصب»(1) لينتج للناس ما يفيدهم ويمتعهم كما ينتج لنا ما يفيدنا ويمتعنا»،(2) وهو لذلك يتجه إلى تدعيم القيم الإيجابية «لتنمو وتذكو فإن في نمائها وذكائها نماء لنا وذكاء، بل نماء لغيرنا من الناس وذكاء أيضاً».(3) يدفعه إلى ذلك الإتجاه دافع قوي لا ينفصل عن رؤيته الحضارية، وهو أن ينجلب عن مصر «الجهل ويظلها العلم والمعرفة وتشمل الثقافة أهلها جميعا، فيأخذ بحظه منها الغني والفقير والقوي والضعيف والنابه والخامل والناشيء ومن تقدمت به السن».(4) وذلك حتى تشيع في «مصر كلها حياة جديدة وينبعث في مصر كلها نشاط جديد، وتصبح جنة الله في أرضه حقا يسكنها قوم سعداء ولكنهم لا يؤثرون أنفسهم بالسعادة وإنما يشركون غيرهم فيها»(5).

ولكن طه حسين يتمثل في منهج التغيير والتدعيم: الشخصية المصرية التي تجمع «شخصية مصر القديمة الهادئة، وشخصية مصر الباقية الخالدة، وهي في الوقت نفسه إنسانية قادرة على أن تغزو قلوب الناس وعقولهم وتخرجهم من الظلمة إلى النور، وقادرة على أن تتيح لهم من اللذة والمتاع مما يجدونه أو لا يجدونه في ثقافتهم الخاصة».(6)

فإذا كانت قضية «الشعر الجاهلي» تجدد منهج التغيير عند طه حسين فإن قضية «التبشير» ــ كما سيجيء، هي الطرف المقابل في منهج المقال الصحفي، لتدعيم القيم الايجابية، ذلك أن «القديم لا ينبغي أن يهجر

(1، 2، 3)مستقبل الثقافة ج2 ص 534 ــ 536.
(4، 5، 6)المرجع السابق ص 536، 533.

لأنه قديم ، وأن الجديد لا ينبغي أن يطلب لأنه جديد وإنما يهجر القديم إذا بريء من النفع وخلا من الفائدة ، فإن كان نافعاً مفيداً فليس الناس أقل حاجة إليه منهم إلى الجديد فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد » .(1)

وعلى ذلك فإن منهج التغيير يحدد زوال المجتمع التقليدي في الاستراتيجية العامة لمقال طه حسين ، من أجل بناء مجتمع جديد ينبعث فيه نشاط جديد على أسس علمية يذهب في إرساء معالمها على أسس واقعية في التعليم والثقافة من خلال التغيير للعوامل السلبية والتدعيم للعوامل الايجابية ، ذلك أن مقاله الصحفي يشارك في الحياة الواقعية ـ كما يقول ـ وهو لذلك « أعظم خطراً وأجل شأناً من أثر الذين يحبون العزلة ويعتصمون بالوحدة ويلزمون بروجهم العاجية ينزلزون منها وحيهم الأدبي تنزيلا »(2) ذلك أن المقال الصحفي ظاهرة اجتماعية لا يمكن أن تكون إلا في الجماعة التي تسمع الأثر الاعلامي « وتقرؤه وتتأثر به »(3) .

وصفوة القول ، أن وظائف الاتصال الجماهيري عند طه حسين تتحدد من خلال الوسائل والغايات في الاستراتيجية العامة ، وهي لذلك تتوسل في أدائها بمنهجي التغير والتدعيم ، وفق مقتضيات الاتصال بالمجتمع التي غيرت كثيراً من خصائص المجتمع التقليدي، واضطرتها إلى أنحاء من التصور والتصوير لم تكن مألوفة من قبل ، وأخذ عنصر التغيير يعمل من جديد ، ولكنه كان يتقاطع مع عنصر التدعيم للقيم الايجابية ، الذي يقوي في المجتمع المصري عنصر الثبات والاستقرار على حد تعبير طه حسين ،(4) الذي يلاحظ أن هذا المجتمع قد ثبت لهذا التعاكس العنيف وانتفع به أشد الانتفاع(5) واستقامت له طريقة خاصة تحقق فيها التوازن الصحيح بين القديم والجديد ، فاحتفظ بأصوله التقليدية الايجابية ولم يستعص على التطور ،(6) على أن التطور أو التغيير يعني تفاعل الأشياء مع بيئتها فتتكشف امكانياتها ،(7) كما يبين من دراسة الاتصال الجماهيري

(1)على هامش السيرة ج1 ص 5.
(2)الكاتب المصري في أغسطس 1946 ـ ألوان ص 191.
(3)الثقافة في3 يناير 1939 ـ فصول ص 5.
(4، 5، 6)الكاتب المصري ـ اكتوبر 1945 ـ الوان ص 20 ـ 7 .
(7)الدكتور حسن الساعاتي (وآخرون): مبادىء علم الاجتماع.

وزوال المجتمع التقليدي عند طه حسين ، ذلك أننا حين نصف المجتمع بالتقليد أو الجمود نضع في الاعتبار أن المجتمع المصري في عصر طه حسين كان أقل تغيراً من غيره ، بالقياس إليه من جهة ، وبالقياس إلى المجتمع الأوربي الذي عايشه من جهة أخرى ولا نزال نذكر كيف كان كتاب الغرب يصفون الشرق بالجمود وعدم التغيير ، مع أن درجة التغيير في حياة المجتمع المصري تطرد بسرعة تفوق التغيير في الغرب حين كان يمر في مرحلة مماثلة .(1) والتغيير الحاضر في مصر وزوال المجتمع التقليدي ـ كما يذهب إلى ذلك ليرنر ـ نتيجة تغييرات تمتد إلى الوراء زمناً بعيداً ، وإلى جهود قادة التغيير في المجتمع المصري ، الذين نعتبر طه حسين في مقدمتهم .

ذلك أن طه حسين قد توسل بالمقال الصحفي في إطلاق النشاط الانساني والتفتح السمح أو التقمص الوجداني الذي يحفز الأفراد للعمل في حرية وتعاون كاملين ويسهم في إطلاق إمكانيات المجتمع المصري لتحقيق المثل التي يرجوها من خلال استراتيجية قومية تهتم فيها مصر بنوعية حياتها الوطنية والحضارة الحديثة وسيطرة العقل على الطبيعة والحياة ، من خلال تطور تدريجي يقوم على مراحل عدة تنتهي باقامة التوازن بين العقل والدين . بحيث يوجه العقل أفعال الانسان ، ويذهب الدين إلى إلهامه الأعمال النبيلة والقيم الايجابية ، وإشباع حاجاته الروحية ،(2) كما يذهب إلى أن « تغيير الأشياء لا يكون بالكلام الذي يقال عن إخلاص أو تكلف وعن تفكير أو اندفاع ، وإنما يكون بالعمل الذي ينقل الأشياء من طور إلى طور »(3) ، ذلك أن العمل في الاستراتيجية القومية عند طه حسين هو « وحده ـ الذي يستطيع أن يرضي القلب الذكي ويقنع النفس الكبيرة ، ويزيد البصيرة نفوذاً إلى نفوذ »(4) .

وفي ضوء هذه الاستراتيجية القومية نتحدث عن مضمون الاتصال

---

(1)الدكتور حسن الساعاتي (وآخرون): مبادىء علم الاجتماع.
(2)مستقبل الثقافة في مصر.
(3،4)مرآة الضمير الحديث ص 102.

الجماهيري عند طه حسين في ثلاثة اتجاهات أساسية:

أولاً: الاتجاه السياسي .

ثانياً: الاتجاه الاجتماعي .

ثالثاً: الاتجاه الثقافي .

الفصل الرابع

طه حسين

في الاتجاه السياسي

« وعلى كثرة ما لقى من أهوال السياسة وما احتمل من أثقالها وما تعرض لسخط المتطرفين حيناً والمعتدلين حيناً آخر ، لم ينكر من سيرته شيئا ولم يندم على فعلٍ فعله أو قولٍ قاله » .

نتحدث في هذا الفصل عن الاتصال في الاتجاه السياسي في إطار الاستراتيجية القومية لفن الاتصال الجماهيرى في أدب طه حسين ، فتأثير العامل السياسي في الحياة الاجتماعية لا يقل أثراً عن تأثير العامل الاجتماعي في الحياة السياسية ، وهو الأمر الذى يذهب إليه الاتصال الجماهيرى في الاتجاه السياسي عند طه حسين شأنه في ذلك شأن تلاميذ دوركايم Durkheim(1) الذى درس عليه طه حسين في السوربون ، وتمثل دروسه حول مذهب الفيلسوف الفرنسي « سان سيمون » الذي يقوم على أن « أمور الحكم الصالح المنتج الذى يحقق ويكفل رقي الشعب ويتيح للإنسانية أن تتقدم إلى أمام ، يجب أن تصير إلى العلماء لأنهم الذين يستطيعون أن يلائموا بين نتائج العلم على اختلافها وبين حاجات الناس وطاقتهم واستعدادهم للتطور والمضي في سبيل الرقي »(2) .

وتاسيساً على هذا الفهم ، يتجه المقال الصحفي عند طه حسين في الاتجاه السياسي متخذا مواقف محدودة بإزاء المشكلات السياسية في الداخل والخارج ذلك أن « الحيدة في ذلك الوقت جبن ونفاق »(3) ولم يكن بد من أن يشارك في الحياة السياسية العامة متوسلا بمقاله الصحفي ، ولم يكن بد كذلك من « أن يحتمل تبعات هذاالغرق في السياسة(4)». ذلك أن « كل ما لقيه بعد ذلك في حياته من خير أو شر ، من عرف أو نكر . ومن رضا أو سخط لم يكن إلا أثراً من آثار تلك الحياة السياسية التي أقدم عليها غير حاسب لأعقابها ونتائجها حساباً . وعلى كثرة ما لقي من أهوال السياسة وما احتمل من أثقالها وما تعرض لسخط المتطرفين حيناً

---

(1)مارسيل بريلو (وترجمة أحمد حسيب عباس): علم السياسة ص 43 .
(2، 3، 4)مذكرات طه حسين ص 251، 252، 260، 261 .

والمعتدلين حيناً آخر ، لم ينكر من سيرته شيئا ولم يندم على فعل فعله أو قول قاله(1) .

ومن ذلك يبين أن الاتجاه السياسي في مقال طه حسين اتجاه عمدي وعن قصد في إطار استراتيجية قومية للمقال الصحفي ، فهو « لم يستجب فيما قال أو فعل إلا لما كان يدعوه إليه ضميره من الإقدام في غير تهيب ولا وجل ولاسيما حين يبلغ الشر أقصاه وتنتهي الفتنة إلى غايتها(2) كما أن الاتجاه السياسي شأنه شأن الاتجاهين الاجتماعي والثقافي في المقال ، يؤدى وظائف محددة في إطار من الوسائل والغايات في الاستراتيجية القومية العامة التي لا ينكر منها شيئا ذلك أنه « لو استؤنف الأمر حيث ابتدأ لاستأنف سيرته التي سارها لم يغير منها شيئاً ولم ينكر منها قليلا أو كثيراً(3) ذلك أن العلماء والمفكرين ناس من الناس يتأثرون بالجماعات التي يعيشون فيها »(4) .

القومية المصرية ونوعية الحياة الوطنية

وتأسيساً على ما تقدم ، فإن المقال في الاتجاه السياسي لا ينفصل عن الاستراتيجية القومية ، التي تذهب إلى أن « الاستقلال والدستور ونظم الحكم والوزارات والمصالح ، وسائل لاتقصد لنفسها ، وإنما تتخذ أدوات لشيء آخر هو الذى يجب أن نفكر فيه ، ونحرص عليه وهو سعادة الشعب »(5) .

وتقوم هذه الاستراتيجية القومية على نوعية الحياة الوطنية لمصر ، كما تقدم وهي النوعية التي يقومها على ضوء مبادىء يمكن دعوتها « فلسفة لمجتمع والتاريخ »(6).وقد تعرفنا في بيئة التكوين الصحفي على أثر لطفي السيد في تقويم هذه النوعية الوطنية ، والتي تتحدد بالأرض ذات المعالم

(1، 2)مذكرات طه حسين 261، 254 .
(3)المرجع السابق 261، 253 .
(4)المرجع السابق ص 253 .
(5)الدكتور طه حسين: بين بين ص 113، 150 .
(6)البرت حوراني: مرجع سبق ص 391 .

والتاريخ المحدد ينتسب اليهما قوم يربطهم الولاء لتلك الأرض والمنفعة التي تعود عليهم من ارتباطهم بها وببعضهم البعض، وهي النوعية التي يتمثلها مقال طه حسين في بيئة التكوين الصحفي.

ويذهب إلى تمثل آراء لطفي السيد التي ينشرها في الجريدة ويقول فيها شعراً.

« بمثل مقال الأمس يعجب كاتب أديب ويرضى عاقل وحكيم
حقائق غر يصدع الشك نورها كما يصدع الليل البهيم نجوم »(1)

على أن نوعية الوطنية المصرية في بيئة التكوين، تقتضي أن لا تكون وسط ما يسمى « الجامعة الاسلامية »(2)، ولذلك، يقف طه حسين في هذه المرحلة الأولى من مراحل حياته الصحفية موقف التأييد لدعوة أستاذه لطفي السيد، في مواجهة « اللواء » و« المؤيد » و« الوكالة البريطانية » أيضاً، ذلك أن مذهب « الجريدة » في « المصرية » يخالف مذهب الصحفيين المناوئين لها، كما أن الوكالة البريطانية لاتحب أن ترى ظلا لهذه النزعة في الفكر السياسي المصري(3) من أجل ذلك اشترك طه حسين في المساجلات التي دارت بين الصحف الثلاث وبعضها البعض ويكتب في تأييد « المصرية » كما تذهب إليها الجريدة، يقول:(4)

« نستبشر بما تلقى دعوة المصرية في مصر من كيد ومقاومة، وبما يحتمل الداعون إليها من سفه الذين لا يعملون، فإن ذلك آية بينة على قوة الدعوة على المغالبة وصلاحها للبقاء.(5) إلى أن يقول عن « المصرية »: ونأخذ أنفسنا بتأييدها والذود عنها، وندعو العقلاء من أنصار مصر وشيعتها أن يشاركونا في ذلك حتى تأخذ الفكرة نصيبها من الوجود الكامل والحياة الصالحة، فإن رقي الأمة في أطوارها يستحيل أن يكون رقياً

---

(1) الجريدة في 9 نوفمبر 1911 ــ محمد سيد كيلاني: مرجع سبق ص 81.
(2) الجريدة في 2 ديسمبر 1912 ــ الدكتور عبد اللطيف حمزة: أدب المقالة ص 7.
(3) المرجع السابق ص 86 ــ 88.
(4) الجريدة في 3 مارس 1913.
(5) الجريدة في 30 يناير 1913.

معقولا مؤدياً إلى الاستقلال إلا إذا بني من الاعتراف بالشخصية المصرية، والإذعان لحكمها على أساس متين»(1) .

وفي هذا المقال يتمثل طه حسين دعوة الجريدة إلى المصرية، وما يرتبط بها من اتجاهات دستورية بعد أن كاد جهاد المصريين يقتصر على المطالبة بالجلاء ولذلك يذهب طه حسين إلى أن القومية هي الأساس في كل اتجاه «نسعى إلى الاستقلال ونجد فيه، ونلح على الحكومة أن تعطينا من الحرية السياسية حقنا الفطري، ونسمو إلى أن نكون أمة راقية ذات مكان رفيع ومنزلة سامية بين الأمم .

«وكل هذا حسن وواجب أيضاً، ولكنه لا يفيد ولا خير فيه إذا لم تكن قاعدته الأولى أن مصر للمصريين، وأن المصريين لمصر»(2) .

ويبين تمثل طه حسين للمفهوم القومي في مقال لطفي السيد، الذي لا يحدد القومية على أساس الدين بل على أساس الأرض، حين يتمثل استمرار التاريخ المصري، فلمصر حضاراتان، فروعونية وعربية، ومن المهم أن يدرس المصريون تاريخهم لأنه «يلقنهم قوانين التقدم والنمو»(3) ولذلك يذهب مقال طه حسين إلى أن «الوطنية هي الجامعة الوحيدة المشتقة من الطبيعة الواقعة تحت الحس وأن غيرها من الجامعات ليس له ما لها من ظهور الأصل وثبوته، ومن وضوحه وصراحته»،(4) ويقول «إذا كانت مصر قطعة من الأرض، فلا شك في أني إنما خلقت منها، واغتذيت بهوائها ومائها وثمراتها، واستعنت بحرارتها وضيائها على النشوء والنمو، وعلى الحياة الصالحة والبقاء الحميد. فمن هذه الأرض وجوها يتألف جسمي، وتتكون أخلاق نفسي» .(5) ويذهب إلى أن «جامعة الوطنية الصحيحة — مع الأسف — لم تكن أثبت في أمة منها عند هذا الجيل من الناس الذي يسميه علماء الشعوب بالآريين أو الهندوجرمانيين أما الأمم السامية كما تسميها التوراة وهم العرب وبنو أعمامهم من العبران

(1، 2)المرجع السابق.
(3)أحمد لطفي السيد: تأملات ص 20 ـ الجريدة في 8 ديسمبر 1912.
(4، 5)الجريدة في 30 يناير 1913.

والكلدان ومن السريانيين والفينيقيين وغيرهم فقد كانت لهم حياة تاريخية واستقلال قديم ، ولكن هذا الاستقلال لم يؤسس على أساس الوطنية المتين ، لأن هذه الأمم ميالة إلى الخيال ، مغرقة فيه ، نزاعة إلى الوهم ، حريصة عليه ، ولذلك لم يكن أسرع من ضياع استقلالها وفنائها في غيرها من الأمم فقد بادت الأسماء الخاصة لأجيال الساميين ، ولم يبق منها إلا العرب وهم أمة أصبحت الآن مقسمة بين الترك وغيرهم من أهل الغرب أي ليس لهم وجود سياسي مع أنها صاحبة الدين والشريعة ، وبهم قام الإسلام ودوله الكثيرة . والا اليهود وهم أفراد من الناس قد اندمجوا في الأمم على اختلافها ، فلم يبق لهم من وجودهم القديم إلا هذا الإسم . وحسبك بهذا برهاناً على ما قدمناه من أن الوطنية هي الجامعة الصالحة للبقاء ، الكفيلة بحفظ الاستقلال(1) .

ومن ذلك يبين أن طه حسين يذهب مذهب « الجريدة » في القومية المصرية ، التي تربط بين جميع القاطنين مصر ، الراغبين في ربط مصيرهم بمصيرها(2) ولذلك يذهب إلى تغلب القومية على اختلاف الدين(3) ، ذلك أن الدين على ما فيه من إصلاح للناس وإقامة لحضارتهم وعمرانهم لا يمكن أن يكون جامعة منضبطة للحياة الدنيوية الصالحة »(4) ولذلك يقاوم فكرة الجامعة الإسلامية مع لطفي السيد ، ذلك أن « المسلمين في عصورهم الصالحة التي ارتقوا فيها إلى الأوج وارتقى معهم الدين ، لم يستطيعوا أن يتخذوا الإسلام جامعة سياسية تقوم عليها دولتهم وملكهم . وأنهم حين عدل الخلفاء عن قاعدة الوطنية أخذت دولهم تهبط ويهبط معها الدين حتى وصلوا إلى ما وصلوا إلى ما هم فيه الآن » .(5)

فالجامعة الإسلامية ـ إذن ـ كما يقول لطفي السيد ـ فكرة « استعمارية

---

(1)الجريدة في 30 يناير 1913.
(2)أحمد لطفي السيد: نفس المرجع ص 70، 71 ـ الجريدة في 6 و16 يناير 1913.
(3)الجريدة في 11 مارس 1913.
(4، 5)المرجع السابق.

ينفع التحدي بها كل أمة مستعمرة تطمع في توسيع أملاكها(1) ولذلك يذهب طه حسين إلى الارتباط بين المصرية والاستقلال(2) . في مقال بهذا العنوان يقول فيه إن «خصوم المصرية الطالبين للجامعة الاسلامية لابد لهم من احدى اثنتين: فإما أن يكونوا راغبين في أن تهدر الأمم الاسلامية شخصيتها، ولا يعترف بما بينها من الفروق في الأخلاق والعادات وفي الألسنة واللغات وفي المنافع والمواطن بل تكتفي بهذه الجامعة المقدسة، وهي جامعة الدين. وأما أن يكون مذهبهم اعترافا بهذه الفروق كلها وإعطاءها حظوظها من الاعتبار والعناية مع اتخاذ الدين جامعة تدعو إلى المودة والاخاء، وإلى الحب والتواصل، وتنهي عن التقاطع والتباغض، وعن التدابر والعداء، فإن تكن الأولى فخليق بهم أن يدعوا طلب الحرية لمصر، والاستقلال للمصريين، فإن الحرية والاستقلال مع هذه القاعدة التي اتخذوها لسياسة المسلمين ضرب من المحال، ذلك أن هذه الفروق التي أهدروها وكرهوا الاعتبار لها والعناية بها لن يهدرها الزمان ولن يغفل عنها، لأن الله لم يخلقها عبثاً فلا بد أن تعمل عملها الذي خلقت له. فتتغالب أي تغالب، وتزدحم أي ازدحام وتكون النتيجة لهذا التغالب استقرار الحكم والسلطان في أشد الأمم قوة وأعظمها بأساً . وبعبارة أخرى في أشد الأمم تمسكاً بوطنيتها وأكثرها احتفاظاً بمميزاتها الخاصة. فتكون الحكومة العامة أو الامبراطورية الاسلامية التي تحكم فيها أمة قوية قاهرة أمما ضعيفة غافلة. وهذا النحو من الحكومات هو ما شقيت به الأمم الاسلامية زمناً طويلا. وإن تكن الثانية وهي الاحتفاظ بالوجود الخاص في كل أمة من الأمم مع التواصي بالخير والتعاون على البر بين المسلمين، فذلك ما نلهج به وندعو إليه» .(3) ذلك هو المفهوم القومي الذي تمثله طه حسين في بيئة التكوين الصحفي، هو المفهوم الذي تعمقه ثقافته الأوربية وتمثله للأفكار القومية. ويحتل مكانه الأساسي في استراتيجيته المقالية العامة، فإذا كان الأوربي يعتبر الأمة القطب السياسي الأول لولائه وتضحيته، فإن طه حسين يذهب إلى: أن الانسان لا يكون عصرياً

(1)لطفي السيد: تأملات ص 71، 72 ـ الجريدة في 16 يناير 1913.
(2)الجريدة في 17 مارس 1913.
(3)الجريدة في 17 مارس 1913.

ومتمدناً تمدنا كاملاً ما لم ينتم إلى أمة مستقلة ، وديمقراطية لها حكومة مسؤولة أمام مجلس نيابي منتخب انتخاباً عاماً(1) . والحرية والاستقلال في استراتيجيته القومية ، ليسا « غاية تقصد إليها الشعوب وتسعى إليها الأمم ، وإنما هما وسيلة إلى أغراض أرقى منهما وأبقى وأشمل فائدة وأعم نفعاً »(2) . ذلك أن الحرية والاستقلال ، وسيلة إلى « الكمال وسبب من أسباب الرقي لا يكفان عن العمل وإنما يدفعان إليه ، ولا يجدان الأمل ، وإنما يمدانه ، ويزيدانه قوة وسعة وانبساطاً »(3) .

وان تكون « حياتنا الحديثة ملائمة لمجدنا القديم ، وان يكون نشاطنا الحديث محققا لرأينا في أنفسنا حين كنا نطالب بالاستقلال . ومحققاً لرأي الامم المتحضرة فينا حين رضيت لنا عن هذا الاستقلال »(4) .

وتقوم القومية المصرية ـ عند طه حسين ـ على أسس « التاريخ المصري القديم الذي يحدثنا بأن مصر كانت في تلك العصور قوة أساسية من قوى التوازن السياسي والاقتصادي ، لا بالقياس إلى هذه البلاد وحدها ، بل بالقياس إلى بلاد أخرى كانت مهداً لهذه الحضارة الأوربية التي نريد أن نعرف ما يمكن أن يكون بينها وبينا من صلة »(5) .

ويذهب من استقرائه للتاريخ المصري إلى أن الشعور القومي بالاستقلال والكرامة قد عصم الشخصية المصرية من الفناء ، فالتاريخ يحدثنا عن مقاومتها للفرس منذ ستة وعشرين قرناً(6) وانقضاء السلطان المقدوني اليوناني على مصر بعد ثلاثة قرون(7) ثم انقضاء سلطان روما الإمبراطورية الذي استقر في مصر ستة قرون(8) ، الأمر الذي يدحض ما استقر في « نفوس الناس عامة والمؤرخين خاصة أن مصر قد ضربت عليها الذلة واطمأنت إلى الهوان وأصبحت قليلة الخطر في نفسها و في نفس الذين

---

(1)البرت حوراني: مرجع سبق ص 292.
(2، 3، 4)مستقبل الثقافة ج1 ص 2، 3.
(5)المرجع السابق ص 9.
(6، 7، 8)الدكتور طه حسين وآخرون: العدوان الثلاثي على مصر ـ المقدمة.

كانوا يحكمونها من قريب أو بعيد »(1) ذلك أن القول الخاطىء الذي تحدث به المؤرخون « على تباعد عصورهم وأقطارهم ولهج به الساسة الأوربيون في العصر الحديث »(2) إنما هو « أسطورة لم يفكر أحد من الذين استقرت في نفوسهم في أن يتعمقها ويستخلص وجه الحق فيها »(3) وتأسيساً على ذلك يذهب طه حسين إلى أن « الذلة لم تستقر في نفوس المصريين يوماً من الأيام منذ كان الفتح الفارسي في أواخر القرن السادس قبل المسيح إلى أن شبت الثورة المصرية التي تدبر أمرها الآن »(4) فأيسر « قراءة لتاريخ مصر الذي كتب في أيام اليونان والرومان وفي أيام العرب والترك وفي هذا العصر الحديث نفسه تثبت في أوضح الوضوح وأجلى الجلاء أن حكام مصر من الأجانب أثناء هذه القرون الستة والعشرين لم تكن حياتهم فيها هينة ولا لينة ولا ميسرة وإنما كانوا جميعاً مخيرين بين اثنتين: فإما أن يحاولوا حكم مصر بالتسلط والقهر وإذن فهو البغض القوي العميق، المستقر في قلوب المصريين جميعاً لا يشذ من ذلك إلا الخائن بين حين وحين، وهو لا يكاد يشذ حتى ينبذه المصريون ويجعلونه شريك سادته في الإثم ومعينهم على الظلم، وينبذونه من بينهم نبذاً، ويكيدون له ألوان الكيد حتى يبرءوا منه ويظهروا الشعب من رجسه، ثم لا يلقى هؤلاء الحكام وأعوانهم البغض والمقت فحسب، وإنما يلقون المقاومة بالقلوب والعقول والألسنة دائماً والمقاومة بالثورة العنيفة الملحة المجتاحة بين حين وحين » .(5)

تلك هي طبيعة المصريين، المقاومة بالثورة، ولكن بيئتهم تفرض على الأجانب الغاصبين وحكامهم إن لم يجلوا عن أرضهم أن « يتمصر هؤلاء، أو يخلصوا في تمصرهم وينصحوا لمصر في حكمهم وسيرتهم وسياستهم كلها سراً وجهراً. وإذن فهي الاستجابة للشعب في شيء من التحفظ مع ذلك يقوى ويضعف بمقدار ما يحس الشعب المصري من نصح الحاكم له وبره به واعترافه بتاريخه العظيم ونسيانه لمنافعه الخاصة » .(6)

ويذهب طه حسين كذلك إلى أن مصر في أيام المماليك ظلت « محتفظة

(1، 2، 3)الدكتور طه حسين وآخرون: العدوان الثلاثي على مصر ـ المقدمة ص6.
(4)المرجع السابق ص 7، 8.
(5، 6)المرجع السابق ص 11.

بشعور الاستقلال والكرامة ، وأدت حقها كأحسن ما تؤدى الحقوق ، فنهضت بعبئين خطيرين: حمت العالم العربي كله من التتار وردتهم على أعقابهم ثم قامت على حفظ التراث الإسلامي كأحسن ما يقوم بلد على حفظ تراث عزيز ، ولولا مصر لضاع هذا التراث أو أشرف على الضياع » . (1)

ولكن مصر لم تلق من البطش والبأس والعنت مثل ما لقيت من « الترك العثمانيين الذين قطعوا الصلة بينها وبين العالم الخارجي قطعاً تاماً ونهبوا ما كان فيها من روائع الكتب والفن وقضوا على الحضارة الإسلامية فيها كما قضوا على الحضارة البيزنطية في قسطنطينية وما إليها ولكن مصر لم تقصر في مقاومتهم ، وإنما لقيتهم بالبغض العميق أولا وبالمقاومة المتصلة بعد ذلك وأرهقت ولاة الترك من أمرهم عسراً ، والناس كلهم يعرفون ثورة مصر بالفرنسيين حينما أقبلوا عليها وحاولوا الإستقرار فيها ، وأيسر قراءة لهذا التاريخ المشهور تاريخ الجبرتي ، يعطيهم من هذه المقاومة ، وما أثارت من العنف ، صوراً رائعة حقاً » . (2)

وفي القرن الماضي استقام المصريون لمحمد علي « أول الأمر وظنوا أنهم سيجدون فيه والياً من هؤلاء الولاة الذين أسسوا لها ملكا مستقلا كريماً ، ولا سيما بعد أن اختاروه لهم وأكرهوا سلطان الترك على قبوله وتثبيته ، وقد يسروا له كثيراً من الأمر وأعانوه حتى كاد يبلغ ما أرادوا له ولأنفسهم وما أراد هو لنفسه من تأسيس ذلك الملك المستقل الكريم لولا تنكر أوروبا وائتمارها به وبما كان يطمح إليه من الملك ، وهي مع ذلك قد ظفرت باستقلالها الداخلي ولكنها لم تكد تستريح من أهوال الحروب حتى جعلت تشقى باستبداد الولاة ، فظلت متحفظة تبغض المستبدين في أعماق الضمائر ، وتعبث بهم حين يتاح لها العبث بهم ، وتنتهز الفرص حتى أتيحت لها الثورة العرابية ، فلم تتردد ولم تحجم ، وإنما أقبلت مخلصة في جهادها ، ولكن الإنجليز أفسدوا عليها ثورتها واحتلوا أرضها وتحكموا فيها وفي أهلها »(3) ولكن المصريين قد أضمروا وأظهروا للإنجليز بغضاً

(1، 2)الدكتور طه حسين وآخرون: العدوان الثلاثي على مصر ــ المقدمة ص 11.
(3)المرجع السابق ص 12.

ومقاومة لهم ولأمرائهم أثناء الاحتلال في طوره الأول حتى كانت ثورتهم الأولى في أعقاب الحرب العالمية التي شبت في أوروبا سنة 1914 » .(1)

ومن ذلك يبين مفهوم طه حسين للقومية المصرية التي لا تقبل الفناء في قومية أخرى ، وتمتاز بعناصر المقاومة الأصلية في شخصية المصريين ونضالهم ، ولكن هذه القومية المصرية في استراتيجية طه حسين تقتضي التوسل بأسباب الحضارة الأوروبية لتستعيد مجدها القديم ، ولتتمكن من مقاومة « الطامعين والمستعمرين من الأوروبيين »(2) ومن بناء مصر الحديثة . ذلك أن الله قد خلق النوع الإنساني كله مستعداً للرقي ، قادراً على التقدم ، خليقا أن يبلغ من الكمال ما يتاح للناس أن يبلغوه ، وأن أرسطاليس قد أخطأ خطأً شنيعا حين زعم أن من الناس من يخلق ليؤمر ، وأن منهم من يخلق ليطيع » .(3)

وتأسيسا على هذه الرؤية القومية نحاول التعرف على موقف طه حسين من ثورة 1919 التي ذهبت إلى تغيير ماهية القومية المصرية ، ومانتج عنها من مطالب أساسية تتمثل في الإستقلال والدستور . ذلك أن الناس قد خلقوا جميعا « ليكونوا سواء في الحقوق والواجبات واستقبال هذه الحياة وما أتيح لنا فيها من خير وما كتب علينا فيها من مكروه » .(4)

طه حسين وقضية الإستقلال

لم يعش طه حسين سنوات الحرب العالمية الأولى في فرنسا « لاهيا عما كان يجري حوله من الأحداث ، و لاغافلا عما كان في هذه الأحداث من عبر وعظات . وهو لايذكر أنه صرف عن أحداث الحرب وأصدائها في الأمة الفرنسية وغيرها من الأمم المحاربة يوما من الأيام . كان يقرأ الصحف الفرنسية معنيا بقراءتها ، وكان يطيل التفكير فيما يقرأ » .(5)

ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها « وامتاز المنتصر

---

(1)المرجع السابق ص 12.
(2، 3، 4)مستقبل الثقافة ج1 ص 42.
(5)مذكرات طه حسين ص 251، 252.

من المنهزم وظهرت آثار الانتصار عند الغالبين ، وآثار الهزيمة عند المغلوبين ، وثلت عروش كان الناس يقدرون لها الخلود ، وذلت شعوب كان الناس يقدرون لها سلطانا لا يزول . وفي أثناء تلك الحرب كانت ثورة لم يعرف التاريخ لها نظيراً إلا الثورة الأمريكية والفرنسية في القرن الثامن عشر وقد حاولت هذه الثورة أن تحقق نظاما كان الناس يقرأونه في الكتب ويعتقدون أنه من مثل هذه المثل البعيدة التي لا سبيل إلى تحقيقها(1) .

ويتمثل طه حسين هذا السياق العام لحركة الأحداث حين يعود لوطنه فيشهد ثورة تتحول من حركة خاصة بالنخبة المثقفة إلى حركة كان « بوسعها في أوقات الأزمات ، أن تظفر إلى حد كبير بتأييد الشعب بكامله »(2) . وهي الثورة التي بلغت مداها في التاسع من مارس سنة 1919 ، واطردت حوادثها إلى أغسطس من تلك السنة ثم تجددت في أكتوبر ونوفمبر من تلك السنة أيضاً ولم تنقطع وقائعها السياسية بعد ذلك ، بل تتابعت إلى شهر أبريل سنة 1921(3) .

وفي هذه الأثناء وصلت أنباء الثورة إلى طه حسين مع زملائه من المصريين في فرنسا « فإذا الابتسام ضحك وإذا الوجوه كلها إشراق ، وإذا السكون حركة وإذا الجمود نشاط ، وإذا نحن سرور كلنا وابتهاج كلنا ، يسعى بعضنا إلى بعض ماذا أقول ؟ يسرع بعضنا إلى بعض فيقبل بعضنا بعضا ، ويهنىء بعضنا بعضا وتجري على هذه الوجوه المشرقة دموع حارة . ولكن في حرارتها برد الأمل والرجاء »(4) .

ذلك أن الثورة المصرية ، جاءت لتؤكد القومية المصرية في إطارها الإيجابي فلم تعد صورة الاحتلال صورة « ذلة وانكسار » ، كنا مضطربين بين الأنجليز الغاصبين في مصر المنتصرين في أوربا ، والترك الذين كانوا أصحاب السيادة في مصر ، وكانوا يتجرعون مرارة الهزيمة في بلادهم ، وكنا نود لو نفضنا عن أنفسنا سيادة هؤلاء الأسمية ، وسلطان أولئك الفعلي ،

---

(1) مذكرات طه حسين ص 251، 252.
(2) البرت حوراني: مرجع سبق ص 252.
(3) عبد الرحمن الرافعي: في ثورة 1919 ج1 ص 23 ـ 6.
(4) كوكب الشرق في 15 مارس 1933.

وقلنا إننا مصريـون فحسب . ولكنا لم نجـد إلى هذا سبيـلا »(1) قبل الثورة ، ويصور لنا طه حسين موقفا تعرض له بسبب هذا الاضطراب في ماهية القومية المصرية ، حين كان في باريس أثناء الحرب الأولى ، ذلك أن الإدارة الفرنسية كانت « تراقب الأجانب وتسيء الظن بهم وتـرسل إليهم من حين الى حين من رجال الشرطة من يزورهم ، ويفتش عن أحوالهم ومهما أنسى فلن أنسى يوما دعيت فيه إلى القسم لتنظر الشرطة في أوراقي وتسأل عن أعمالي ، فلما أخذ المأمـور يتحدث الي سـألني عن جنسيتي ؟ قلت: مصر . قال: وانما أسأل عن تبعيتك ؟ قلت: مصري . قال: ما نعرف أن لمصر هذه المنزلة . قلت فلست أعرف لي تبعية أخرى . ففكر قليلا ثم قال في صوته الفرنسي الضخم كأنه قد ظفر بشيء غريب: لقد عرفت .. أنت رعية مصري وحماية انجليزي . وخرجت محزون القلب ، منكسر النفس ، كـاسف البـال ، تـدور في رأسي هـذه الجملة . وكـأنها العجلة المحددة الأطراف تمزق ما تدور فيه: « أنت رعية مصري ! وحماية أنجليزي »(2) .

وفي مواجهة هذه الصورة السليمة للقومية المصرية التي كونتها الظروف الخارجية تمثل الثورة القومية في سنة 1919 صورة إيجابية لمصر « الثائرة »(3) ذلك أن « مصر تقاوم الإنجليز ، مصر تنهض في وجه أوربا المنتصرة تطلب إليها البر بالوعد ، والوفاء بالعهد . مصر تقدم زعماءها إلى النفي . مصر تعرض صدور أبنائها إلى الرصاص . مصر تخضب أرضها بدماء المصريين . والصحف الفـرنسية تنشر هـذا بـالحـروف الضخمـة والخط العـريض .. وتتحدث عن هذا فتوجز وتـطيل ، ورؤوسنـا نحن قد ارتفعت كـأن لها حاجة في السماء » وقد استقامت تلقى الفرنسيين فتسألهم باسمة: ماذا تقولون في أبناء مصر ، أو تحتفظ بالصمت عن هذه الأبناء ، وتدور بالحديث حتى تجره إليها ليبدأ الفرنسي فيقول: حدثني ماذا تنشر الصحف عن بلادكم ؟ ان عندكم لثورة وما أظن الا ان سيكون لها خطر ، وكنا حينئذ نفيض في

(1، 2)كوكب الشرق في 15 مارس 1933.
(3)المرجع السابق.

الحديث عن هذه الثورة ، ولعل منا من لم يتحرج من المبالغة والإغراق ، ثم يصل الوفد إلى باريس وإذا نحن نهرع إليه ، ونستمع منه » وإذا نحن لا نسمع منه إلا أحاديث كلها ابتهاج بما كان ، وأمل فيما سيكون ، وإعجاب بمصر اليوم ، وثقة بمصر الغد . رحم الله شهداء سنة 1919 لقد صغرت حياتهم في نفوسهم لنكبر نحن في نفوسنا ، لقد ماتوا فأحيانا موتهم »(1) .

على أن قضية الاستقلال في مصر ، ليست غاية في ذاتها عند طه حسين ولكنها من الوسائل التي تحقق غاية قومية في الاستراتيجية العامة كما تقدم ، ولذلك يذهب إلى أن « الحرية والاستقلال ليسا غاية تقصد إليها الشعوب وتسعى إليها الأمم ، وإنما هما وسيلة إلى أغراض أرقى منهما وأبقى ، وأشمل فائدة وأعم نفعاً . وقد كانت شعوب كثيرة في أقطار من الأرض تعيش حرة مستقلة ، فلم تغن عنها الحرية شيئاً ، ولم يجد عليها الاستقلال نفعاً ، ولم تعصمها الحرية والاستقلال من أن تعتدي عليها شعوب أخرى تستمتع بالحرية والاستقلال ، ولكنها لا تكتفي بهما ولا تراهما غايتها القصوى ، وإنما تضيف إليهما شيئا آخر أو أشياء أخرى تضيف إليهما الحضارة التي تقوم على الثقافة والعلم ، والقوة التي تنشأ عن الثقافة والعلم والثروة التي تنتجها الثقافة والعلم . ولولا أن مصر قصّرت طائعة أو كارهة في ذات الثقافة والعلم لما فقدت حريتها ، ولَما أضاعت استقلالها ولَما احتاجت إلى هذا الجهاد العنيف الشريف لتسترد الحرية وتستعيد الاستقلال »(2) .

ومن ذلك يبين الارتباط القوى ، بين الحرية والاستقلال ونوعية الحياة القومية في مصر ، وهو الارتباط الذى يجعل « الحضارة » غاية أساسية في الاستراتيجية العامة ، بتطور تدريجي ، فالاستقلال إذن « وسيلة لا غاية »(3) لأننا « نطلب الاستقلال لتكون لنا الحرية الكاملة في تدبير حياتنا والأخذ من لذّاتها المختلفة بأعظم نصيب . نطلب الاستقلال لنسعد لا لنكون مستقلين »(4) .

---

(1)كوكب الشرق في 15 مارس 1933 .

(2)مستقبل الثقافة ج1 ص 3 .

(3، 4) الأهرام في 27 فبراير 1922 .

وفي ذلك تفسير لموقف طه حسين من تصريح 22 فبراير 1922، تأسيساً على أن الحضارة يجب أن يكون الاستقلال وسيلتها »(1)، ولذلك ينبغي أن يمضي المصريون بعد الاستقلال النسبي الذى حققه هذا التصريح، كما يذهب إلى ذلك، وإلى الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية في الفنون والعلوم والآداب(2). فقد أتاح هذا التصريح لمصر أن « تدبر أمورها بنفسها وأتيح للشعب أن يكون له دستور وأن يحيا حياة ديمقراطية كريمة. وأصبح السلطان ملكاً، وأصبح لمصر أن ترسل ممثليها السياسيين إلى البلاد الأجنبية بعد أن عادت إليها وزارة الخارجية التي ألغاها الإنجليز حين أعلنوا الحماية »(3).

ويذهب طه حسين في نفس الاتجاه بالنسبة لمعاهدة 1936، فيرى أنها قد أسفرت عن فوز مصر بجزء عظيم من أملها في تحقيق استقلالها الخارجي وسيادتها الداخلية(4)، ذلك أن الرؤية الحضارية التي صدر عنها موقفه من تصريح 22 فبراير هي نفس الرؤية التي صدر عنها موقفه من المعاهدة، انطلاقا من الاستراتيجية العامة وتطورها التدريجي، فمصر تبدأ بعد 1936، عهداً جديداً من حياتها ان كسبت فيه بعض الحقوق فإن عليها أن تنهض بواجبات خطيرة وتبعات ثقال »(5).

ومن ذلك يبين أن قبول هذا الحد الأدنى مشروط بتحقيق أهداف حضارية تنتهي إلى إشعار المصريين أفراداً وجماعات أن الله قد خلقهم للعزة لا للذلة، وللقوة لا للضعف وللسيادة لا للاستكانة وللنباهة لا للخمول، وأن تمحو من قلوب المصريين أفراداً وجماعات هذا الوهم الآثم الشنيع الذي يصور لهم أنهم خلقوا من طينة غير طينة الأوربي وفطروا على أمزجة غير الأمزجة الأوربية ومنحوا عقولاً غير العقول الأوربية. فهذا كله باطل سخيف لا يثبت أمام أيسر التفكير.(6)

وتأسيساً على ذلك، يذهب طه حسين إلى أن هذا الحد الأدنى من

(1، 2)الأهرام في 1، 3، 5 مارس 1922.
(3)مذكرات طه حسين ص 258 ــ السياسة في 8 ديسمبر 1922.
(4، 5، 6)مستقبل الثقافة ص 5 ــ المقدمة، ص 42.

الاستقلال قد « وفى للمصريين ببعض الحق » .(1) « ويجب عليهم » أن يجاهدوا ليظفروا بالحق كله ،(2) ولذلك يذهب إلى تخطي مرحلة المعاهدة إلى مرحلة أكثر إيجابية ، ذلك أن « هذه المعاهدة قد أكل الدهر عليها وشرب وأبلتها الأعوام القليلة لكثرة ما في هذه الأعوام من الأحداث والخطوب »(3) ويأبى عن المصريين أن يقف طموحهم عند « سنة 1937 بعد أن مضى عام واحد على إمضاء المعاهدة يرضون بالقليل وينتظرون الكثير كأن الحوادث لم تحدث ، وكأن الخطوبة لم تلم ، وكأن إيطاليا وألمانيا واليابان لم تستسلم بلا قيد ولا شرط »(4) ذلك أن المصريين في الحرب العالمية كانوا يظنون « ان إمضاء المعاهدة خطوة تقرب من الأمل وتدني من الحق ، وكانوا يظنون أنهم قد دافعوا عن الديمقراطية وأبلوا في الدفاع عنها بلاء حسناً »(5) وكانوا يظنون « إن هذا كله سيبلغهم آمالهم ويكسبهم حقوقهم ، ولكنهم نظروا فإذا الذين لم يصبروا ولم يثبتوا ولم يفوا أحسن منهم حالاً »(6) .

وفي ضوء هذا الفهم للوسائل والغايات ، يبين موقف طه حسين من قضية الإستقلال ، وهو الموقف الذي يرتبط بالغايات الحضارية ، لتتحقق الحرية بمعناها الكامل ، ولتحوط هذا الإستقلال وتحميه ، ويجب أن « يهدم هذا الطغيان ــ (الذي يمثله الاستعمار) ــ وأن نكون نحن هادميه ، ولكن الناس يبغي بعضهم على بعض ويجب أن يزول هذا البغي وأن نكون نحن مزيليه »(7) ولن نتمكن من ذلك إلا حين نبني مجتمعا حديثاً يتوسل بأسباب الحضارة الأروبية من خلال مفهوم انساني للثورات التي « أنكرت الرق أشد الإنكار وضاقت به أعظم الضيق ورأته مخالفاً أشد المخالفة لما ينبغي للإنسان من الكرامة والإستمتاع بحقه في الحرية » .(8)

وتأسيساً على ذلك يذهب طه حسين إلى أن الإستعمار « في حقيقة الأمر ليس إلا نوعاً بشعا منكراً من أنواع الاسترقاق يتيح للأمة القوية الماهرة أن تملك أوطان الأمم الضعيفة الغافلة بكل ما فيها وبكل من فيها تملك

(1، 2، 3) البلاغ في 30 أغسطس 1944 ــ بين بين ص 46.
(4، 5، 6)المرجع السابق ص 51، 52.
(7، 8) جريدة الجمهورية في 6 أغسطس 1960.

الأرض وتستأثر بما فيها من الخيرات وتتخذ أهل هذه الأرض وسيلة من وسائل الاستغلال وتعامل هذه الأرض ومن فيها معاملة ليست أقل نكرا من معاملة الأحرار للأرقاء في عصر أرسطاطاليس بل قبل هذا العصر وبعده » . (1)

على أن الرق الجديد « لافكاك منه إلا بالعنف العنيف والثورات الجامحة » . (2) وهذه الثورات يجب أن تتوسل بأسباب الحضارة التي تمكن لها النجاح ، وتوفر لها وسائله وأدواته ، والحضارة ، « الحديثة قد أشاعت التعليم وابتكرت الصحافة واخترعت ألوان المواصلات على اختلافها »(3) وفي هذه الحضارة تكمن أسباب القضاء على الاستعمار « رغم أنه من مبتكراتها » . (4)

ومن ذلك يبين أن قضية الاستقلال في مقال طه حسين ، تأخذ مكانها الصحيح بين الوسائل والغايات ، وتقوم مقاومة الاستعمار على رؤية واضحة لطبيعة الإستعمار الأوربي بصفة عامة . والاستعمار الانجليزي خاصة وهي الرؤية التي تستمد أدوات المقاومة من طبيعة الأمة نفسها على النحو الذي أشار إليه فولتير»(5) في الرسائل الانجليزية بعد أن أقام في بلاد الانجليز ذلك أن هذه الأمة « معلمة للشعوب ومؤدبة للأمم بآداب الحياة السياسية الحرة وبآداب الديمقراطية الصالحة التي تحقق ما يطمح الإنسان في تحقيقه من المثل السياسية العليا ، وهو التوازن المعتدل الصحيح بين فكرتين لم تستطيعا أن تتفقا ولا أن تتكافآ ولا أن تعيشا بسلام في أمة من الأمم التي عرفت الديمقراطية في العصر القديم أو الحديث ، وهما فكرة الفردية ، وفكرة القومية » ،(6) وعلى ذلك فإن المقاومة المثلى للإستعمار الإنجليزي في مصر ، هي التي تقوم على استراتيجية قومية تتوسل بأدوات الحضارة الأوربية بصفة عامة ، والحضارة الإنجليزية بصفة خاصة وهذه الإستراتيجية تفتح « للثورة طريقاً جديدة مستقيمة منتجة كان ينبغي أن تفتح منذ عهد

---

(1)جريدة الجمهورية في 6 أغسطس 1960 .
(2، 3، 4)المرجع السابق .
(5)فصول ص 36 .
(6) المرجع السابق ص 36 .

بعيد . ولو أنها فتحت منذ عهد بعيد لاجتنبت ثورتنا المصرية (1919) شيئاً غير قليل من الإضطراب الذي دفعت إليه والخطأ الذي تورطت فيه » .(1)

على أن الثورة القومية في سنة 1919 ، عند طه حسين ، ثورة مستمرة لم « تقطع أكثر أشواطها وأجلها خطراً ، وإذا كانت الثورة الفرنسية لم تنته بعد أن مضى عليها قرن ونصف قرن ، وبعد أن اعترضها ما اعترضها من الأحداث الداخلية والخارجية الكبرى ، فخليق أن نعتقد أن ثورتنا المصرية بعيدة كل البعد عن أن تكون قد انتهت ، ولعلها لم تزد على الإبتداء ، ولعلها لم تبتدىء بعد وما زلنا في مقدماتها الأولى » .(2)

ومن ذلك تبين الوسائل والغايات في الإستراتيجية القومية عند طه حسين فهي مستمرة متصلة ، تؤدي الواحدة منها إلى غاية تصبح بدورها وسيلة إلى غاية أكبر ، حتى تحقق الثورة المصرية هذا التواصل القومي شأنها في ذلك شأن الثورة الفرنسية التي تمثلها طه حسين في استراتيجيته القومية .

ويذهب طه حسين إلى أن وضوح الرؤية القومية والحضارية ، كفيل بأن يقاوم الإستعمار الإنجليزي في مصر ، ذلك أن المصريين يريدون أن يستقلوا استقلالا صحيحاً ، ويريد الأنجليز أن يخدعوهم عن هذا الاستقلال ، أبوا عليهم أول الأمر ثم ظهر أن الإباء لا يجدي ولا يفيد فاعترفوا به ، ونزلوا عن شكله وصورته وما زالوا منذ ذلك اليوم يدورون في هذه الدائرة ، يلتمسون وسيلة إلى خداع المصريين عن استقلالهم ، فلا يظفرون بهذه الوسيلة ، ولا يجدون إلى تحقيقها سبيلاً »(3) .

وفهم الطبيعة الإنجليزية ، يتيح للمقال الصحفي عند طه حسين أن يكشف عن وسائل الاحتلال في خداع المصريين عن الاستقلال ، ذلك أن « الانجليز قوم يحبون الصبر والمصابرة ويتخذونها أساساً للسياسة في الشرق وفي غير الشرق ، واليأس بطىء جداً حين يسعى إليهم أو يحاول التأثير

(1، 2) فصول ص 36 ـ مجلة الثقافة في 27 يناير 1939 .
(3) كوكب الشرق في 28 أغسطس 1933 .

في سياستهم ، ولكنهم لم يعصموا منه ولم يأخذوا على الأيام عهدا بأن تقطع بينهم وبينه الأسباب ، فهم قد احتلوا مصر منذ أكثر من نصف قرن(1) ، وحاولوا أن يسلطوا بطشهم على نفوس المصريين ليخافوهم ويأمنوا لهم فلم يفلحوا ، وحاولوا أن يسلطوا خداعهم على نفوس المصريين ليطعموا فيهم وينتظروا من الاتصال بهم والاندماج في إمبراطوريتهم خيراً فلم يفلحوا ، وخلطوا شدة بلين وعبوسا بابتسام فلم يفلحوا . وأعلنوا الحماية وأقرتهم عليها الدول وأيدوها بالحديد والنار وسفكوا في سبيل تأييدها دماء غزيرة ذكية وأزهقوا في سبيل تأييدها نفوسا نقية كثيرة فلم يفلحوا ، ثم جنحوا إلى السلم فاستردوا حمايتهم وأعلنوا لمصر استقلالها ، ومازالوا منذ ذلك اليوم يدورون ، يبطشون مرة فلا يفلحون ، ويلينون مرة أخرى فلا يفلحون والمصريون ينظرون اليهم في هذا كله مبتسمين ابتسام المؤمن بالحق المطمئن إليه الواثق بالفوز آخر الأمر فوزاً ليس إلى الشك فيه من سبيل »(2) .

ومن ذلك يبين أن منهج المقال السياسي في معالجة قضية الاستقلال عند طه حسين ، يقوم على التغيير والتدعيم أما التغيير فهو الذي يذهب إلى الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية في بناء مصر الحديثة ومقاومة الاستعمار كما تقدم .

وأما التدعيم ، فيذهب إلى تعميق القيم النضالية في الشعب المصري ضد « المحتل الغاصب الذي عجز عن أن يجعل غصبه أمراً مشروعاً »(3) . ذلك أن المصريين قد « عرفوا أنفسهم منذ أقدم عصور التاريخ شعبا كريما ، وعرفهم الناس كذلك شعبا كريما ، وهم قد خضعوا لضروب من البغي ، وألوان من العدوان جاءتهم من الفرس واليونان والرومان وجاءتهم من العرب والترك والفرنسيين وجاءتهم الآن من الأنجليز وهم قد صبروا لهذا كله وانتصروا على هذا كله ، فردوا من ردوا من المعتدين ، وأفنوا في أنفسهم من أفنوا من هؤلاء المعتدين ، فليس غريبا أن

(1)كوكب الشرق في 28 أغسطس 1933 .
(2)المرجع السابق.
(3)كوكب الشرق في 28 أغسطس 1933 .

يثبتوا للإنجليز أكثر من نصف قرن كما ثبتوا لغيرهم ، وليس غريبا أن يخلصوا من الانجليز بعد طول الصراع كما خلصوا من غيرهم ، وانما الغريب ألا يعتبر الانجليز بالحوادث ، ولا يستفيدوا من العظات ، ولا يقدروا أنهم لن يظفروا إلى الآن بما عجزوا عنه في القرن الماضي . فمصر الآن أرقى وأقوى وأعرف لحقها ، وأحرص عليه ، مما كانت في بدء الاحتلال ، ومما كانت بعد الحرب ولا تزيدها الأيام إلا معرفة لهذا الحق وحرصا عليه وتشددا فيه وجدا في السعي إليه »(1) .

فالمقال السياسي إذن يذهب إلى تدعيم قيم إيجابية في النضال المصري لا تنفصل في أسلوبها عن أسلوب التغيير الحضاري ، ذلك أنها وسيلتان لغاية قومية واحدة تبين حين « تجتمع كلمة الأمة وتأتلف نفوسها ، وتظهر إيمانها ، وتظهر تصميمها على المطالبة بالحق حتى تبلغه والجد في الاستقلال حتى تنتهي إليه »(2) لتصحح صورة الوطن المصري الذي « خلقه الله ليكون حرا مستقلا ، عزيزاً كريماً ومتعه الله بحقه في الحرية والاستقلال ونصيبه الأوفى من العزة والكرامة قبل أن يشعر غيره من البلاد بمعاني هذه الكلمات ، بل قبل أن يعرف التاريخ وجود غيره من البلاد »(3) وإذا كان « اليوم قد فقدوا حريته واستقلاله وأوذي في كرامته وعزته »(4) فإن « أهله الآن كما كانوا من قبل يعرفون معنى الحرية والاستقلال ويقدرون قيمة العزة والكرامة ، ويحرصون أشد الحرص على أن يكونوا أحراراً مستقلين ويجدون أشد الجد في أن يكونوا أعزة كراما »(5) .

ومن ذلك يبين تضافر أسلوب التدعيم للقيم الإيجابية في المقاومة ضد الاحتلال ، مع أسلوب التغيير للمجتمع المصري حتى يحقق استقلاله ، ويحافظ عليه ويحوطه بسياج حضاري . ذلك أن مصر في مقال طه حسين هي « الكلمة في حياة الأمم والأجيال منذ عشرات القرون قبل أن يعرف غيرها من الشعوب معنى كلمة الأمم والأجيال ، بل قبل أن يعرف التاريخ غيرهامن الشعوب بزمن طويل ولكنها الآن ليست لها كلمة في حياة

---

(1)كوكب الشرق في 28 أغسطس 1933 .
(2)كوكب الشرق في 24 سبتمبر 1933 .
(3، 4، 5)كوكب الشرق في 14 سبتمبر 1933 .

نفسهـا ، إنمـا الكلمـة في حياة شعبهـا لقـوم آخـرين أقبلوا من وراء البحر » . (1)

ولذلك يصور المقال السيـاسي مصر ـ الوطن «الـذي يعيش أهله عيشة الصراع المتصل العنيف بين الواقع والأمل ، وبين الحياة اليوميـة والمثل الأعـلى ، والذي لا تطلع عليه الشمس إلا أحس ذلا يلم به ، وعـزا يدفعـه إلى رفعة ، والذي عرف كيف يصبر ولكن في غير يأس ، وكيف يثبت ولكن في غير استسلام وكيف يطاول ولكن في غير رضى بالخسف ، أو استسلام للضيم ، والذي اتخذ لنفسه في الحياة مثلا أعلى لن يطمئن للحياة قبل أن يصل إليه ، وهو الحرية الكاملة والاستقلال التام والذي أخذ يجد في سبيل المثل الأعلى رغم ما يثبت في طريقـه من العقبات ومـا يصب عليه من ألوان الشر ، وما يهيأ له من ألوان المكر والكيد فلم يمنعه شيء من ذلك أن يمضي في طريقه ثـابت القدم ، مـاضي العزم وصـادق النية ، مؤثـراً للموت على أن يقف في هذا الطريق » . (2)

ويذهب طه حسين من وراء التغيير والتـدعيم ، إلى إعداد جيـل من الشباب المصري يتوسل بأسباب الحضارة الأوروبية من جهة ، وعميق الإيمان بالقيم النضالية في شخصيته المصرية من جهة أخرى « فالشبـاب المصري اليوم أذكى قلبا ، وأرقى خلقا من أن يخدع نفسه بالألفاظ أو يعلل نفسه بالأماني ، فلن يؤمن الشباب المصري بأنه حر حقا ، والجيش الإنجليزي مقيم في أرض مصر ، ولن يصدق الشباب المصري أنه عزيز كريم حقا ، وأمور مصر كلها صغيرها وكبيرها تصرف على غير ما تريد مصر » . (3)

فـالتغيير والتـدعيم صورتـان نضاليتـان ، تختصمان دائـما ، وتتصـارعـان دائما »(4) إحداهما تذهب إلى « تغيير » « الإعتداء الأجنبي »(5) والأخـرى تمثل « تدعيم » العزة القوميـة . (6) فالمقـاومة في صـورتيها ، تـزيل هـذه

(1) كوكب الشرق في 14 سبتمر 1933 .
(2، 3) المرجع السابق.
(4) المرجع السابق.
(5، 6) المرجع السابق.

« السحابة المقيمة التي تظل المصريين ، وتأبى المقاومة أن تدع مكانها من جو مصر إلا أن تتم لها الحرية الصادقة والاستقلال الصحيح والسيادة التي لاتقبل شكا ولا جدالا ولا تتعرض لعبث ولا لعب »(1) . كما أن المقاومة في صورتيها « تحمي المصريين من اليأس »(2) . يتوسلون بها في « تحقيق آمالهم والوصول إلى مثلهم العليا . . فهم يريدون أن يكونوا أحرارا في بلادهم بكل ما يدل عليه معنى هذه الكلمة ، ويسلكون إلى تحقيق هذه الحرية سبلهم الواضحة التي يراها الناس جميعاً »(3) .

وإذا كانت الرؤية الإبداعية تكشف في مقوماتها عن تنبؤ علمي ، فإن الاتجاه النضالي في مقال طه حسين ، بصورتيه في التغيير والتدعيم ، وتوجهه إلى الشباب ، يكشف عن صدق الحوادث حين . تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها بعد أن ملأت الأرض شراً ونكراً »(4) وتذهب الأمم « الضعيفة » إلى التوسل « بالجهاد في انتزاع الحرية والاستقلال من الأقوياء غلاباً »(5) . وتؤمن مصر مع غيرها من الشعوب بأن « الحرية والاستقلال يختلفان في وسائلهما عن وسائل الوعود والأماني التي كان الناس يصدقونها وينفقون ما يملكون وما لا يملكون لينتصر الحلفاء الذين خدعوهم في المرة الاولى وقد آمنت قلوبهم بأنهم لن يعودوا إلى الخداع بعد أن بلوا عواقبه مرة مروعة(6) . ولذلك يذهب في تأييد ثورة 1952 إلى التوسل بمنهج الحضارة الأوربية في بناء مصر الحديثة ، ذلك أن الاستقلال لا يستقيم للشعوب ولا يثبت فيها بالكلام مهما يكن بليغاً رائعاً ، وانما يستقيم ويستقر ويثبت بالقوة التي تؤيده وتسنده وتحوطه وتذود عنه وعن الوطن كل من يطمح إلى العبث به أو الاعتداء عليه »(7) .

ونخلص من ذلك إلى تكامل الوسائل والغايات في الاستراتيجية القومية التي يصدر عنها المقال السياسي عند طه حسين .

(1، 2)كوكب الشرق في 14 أغسطس 1933 .
(3)كوكب الشرق في 28 مارس 1933 .
(4، 5، 6)الجمهورية في 21 مايو 1960 .
(7)العدوان الثلاثي ــ مرجع سبق .

شهدت مصر في ملحمتها النضالية التي استخلصنا صورتها من مقال طه حسين بإزاء قضية الاستقلال ، بناء نظامها وما أدى إليه من اختلافات أساسية في تسوية مسائل العلاقات المصرية البريطانية ، ومن هذه المسائل ما مس النظام المصري الأساسي في أثناء تحضيره . ومن أهمها التنظيم الحزبي الذي أدى إلى تنظيم الاشتغال بالسياسة من حيث البرامج ومن حيث العمل »(1) .

على أن هذا التنظيم الحزبي يكشف ـ كما يقول طه حسين ـ عن فترة خطيرة في تاريخ الحياة المصرية ، كانت فترة الصراع بين المصريين والانجليز وكانت في الوقت نفسه فترة الاختلاف بين المصريين حول وسائل هذا الصراع وحول وسائل التخلص من الانجليز »(2) .

وفي ذلك تفسير لغلبة اتجاه المقال الصحفي في السياسة الحزبية على اتجاه المقال في مقاومة الاستعمار الانجليزي ، ذلك أن الكتاب الصحفيين ، كما يقول طه حسين كانوا « يخاصمون الانجليز أحياناً . . ولكنهم كانوا يخاصمون المصريين في تلك الأيام أكثر مما كانوا يخاصمون الانجليز »(3) ويقول: « صرفتنا الاختلافات بين الأحزاب عن الإختلاف بيننا وبين العدو المحتل ، وكنا نستبق في خصومة الحزب الذي كنا نناضله وننافسه . وكنا نستبق أشد الاستباق: أينا يكون أنفذ قلماً وأمضى لساناً وأشد نيلا من خصمه . . وكنا نساق إلى المحاكم . فكان يقضي علينا حيناً وكنا نبرأ أحياناً ولكنا كنا ثابتين دائماً في الخصومة ، ولا يزيدنا الاضطهاد الا قوة وشدة ومضاء »(4) .

على أن الأحزاب التي قامت في أعقاب الثورة المصرية مباشرة ، كما يذهب إلى ذلك طه حسين ، هي التي قامت على « الفكرة الصالحة التي

(1)م. شفيق غربال: تاريخ المفاوضات ج1 ص 15 .

(2)من كلمة الدكتور طه حسين في تأبين « الدكتور محمد حسين هيكل » كتاب « الدكتور محمد حسين هيكل أشرف عليه لطفي السيد.

(3)من كلمة الدكتور طه حسين في تأبين الدكتور محمد حسين هيكل كتاب. « الدكتور محمد حسين هيكل » أشرف عليه لطفي السيد.

(4)كوكب الشرق في 18 ابريل سنة 1933 .

يجب أن تقوم عليها الأحزاب ، وهي أن الحكم وسيلة لا غاية ، وأن سعادة الشعب غاية لا وسيلة ، وأن جهود الأفراد والجماعات يجب أن تخلص لتحرير الشعب إن كان مستذلا ، وتعليم الشعب إن كان جاهلا ، واغناء الشعب إن كان فقيراً »(1) .

ومن ذلك يبين موضع التنظيم الحزبي من الاستراتيجية القومية في مقال طه حسين ، ومكانه من الوسائل ، الغايات ، على النحو المتقدم ، ذلك أن الاستقلال وسيلة لها ما بعدها، وليس غاية يقف الجهاد عندها، وفي ذلك ما يفسر موقفه من الأحزاب التي نشأت بهدف الحكم ، واعتباره « غاية » لا وسيلة ، مثل حزب الاتحاد وحزب الشعب ، ومن أحزاب الأقلية ، ذلك أن هذه الأحزاب غايتها « الوصول إلى الحكم ، والسيطرة على الأمور وتحقيق المنافع لبعض الجماعات وبعض الأفراد »(2) ، وهذه الغاية هي التي ألفت « هذه الأحزاب واحداً إثر واحد ، وهي التي جعلت في مصر هيئات سياسية مختلفة تحترب فيما بينها وتقتتل ويسيء بعضها إلى بعض ، ويغري بعضها ببعض ، ويكيد بعضها لبعض ، وهي كلها تسعى إلى غرض واحد هو الاستقلال »(3) .

على أن أحزاب الأقلية تلك تخرج بالغرض الأساسي للهيئات السياسية الصالحة حين تتخذ « الشعب وسيلة إلى الحكم حين يجب أن يتخذ الحكم وسيلة إلى تحرير الشعب »(4) ولذلك يذهب طه حسين إلى أن الأحزاب « التي نشأت بعد الحركة الوطنية الكبرى يجب أن تعاود تاريخها القديم الحديث في وقت واحد فتذكره فإن الذكرى تنفع أحياناً »(5) .

ولعل في ذلك ما يفسر اتجاه طه حسين بعد ثورة 1919 نحو « الأحرار الدستوريين » الذين كان لطفي السيد يقترح أن يسميهم باسم « الحريين الدستوريين » تأسيساً على أن كلمة « الحريين » هي التي تقابل كلمة « ليبرال » بالفرنسية والانجليزية » وإلا فماذا نسمي المحافظين خصوم

(1، 2، 3)كوكب الشرق في 18 ابريل سنة 1933.
(4)المرجع السابق.
(5) المرجع السابق

الأحرار؟ هل نسميهم « بالعبيد » وهم لا يقنعون بالحرية وحدها دون السيادة على العالمين » ؟(1) .

ذلك أن هذا الحزب امتداد لحزب الأمة(2) يضم فريقاً من المثقفين المتحررين(3) كما يجد طه حسين في برنامجه امتداداً لأراء « الجريدة » مع تعديل اقتضته ظروف البلاد بعد الثورة ، وهي الآراء التي تتسم بخطة « الاعتدال الصريح » وتهدف إلى « ارشاد الامة المصرية إلى أسباب الرقي الصحيح والحض على الأخذ بها واخلاص النصح للحكومة والأمة يتبين ما هو خير وأولى »(4) . كما وجد في برنامج هذا الحزب تأييداً « للنظام الدستورى والدفاع المستمر عن حقوق الفرد ومحاربة الأمية في البلاد وتوجيه قوى الأمة والحكومة جميعاً للقضاء عليها بأن يجعل التعليم الأبتدائي إجبارياً ومجانياً »(5) الخ .

وفي ذلك ما يبين اتفاق برنامج الأحرار الدستوريين مع منهج طه حسين في التغيير في استراتيجية مقال القومية . فإذا أضفنا إلى ذلك الامتداد الواضح في البرنامج الحزبي لمدرسة الجريدة ، فإن انتماءه لصحيفة الدستوريين يتسق مع الاستراتيجية الحضارية في مرحلة التغيير ، ذلك أن لطفي السيد يمثل هذا الامتداد الفكرى في توجيه الدستوريين إلى « الاصلاح العقلي وإلى حرية الرأي ومزايلة هذه الفروق التي كانت تقوم بين العقل الشرقي والعقل الغربي ، إلى أن تكون مصر العقلية جزءا من أوربا العقلية ، ولكن على أن تحتفظ بشخصيتها القومية واضحة قوية »(6)

ومن ذلك يتضح أن اتجاه طه حسين نحو الأحرار الدستوريين اتجاه فكري ، نحو بيئة تتقبل منهجه في التغيير الحضاري بكل ما فيه من « تمرد فكري وثورة عقلية ، ولو أنه انضم إلى حزب الوفد في تلك الفترة فإن

---

(1) عباس محمود العقاد: رجال عرفتهم ص 249.
(2) الدكتور محمد حسين هيكل: مذكرات ج2 ص 245.
(3) محمد زكي عبد القادر: مرجع سبق ص 41.
(4) الجريدة في 9 مارس 1927 ـ الدكتور حسين فوزي النجار: أحمد لطفي السيد ص 136.
(5) قانون حزب الأحرار الدستوريين ـ عبد العزيز شرف: الدكتور محمد حسين هيكل صحفيا ص 117.
(6) حديث الاربعاء ج2 ص 49 وما بعدها.

الوفد لم يكن يستطيع ـ لاتجاهه إلى القاعدة الشعبية ـ أن يتقبل مثل هذه الآراء الفكرية الجديدة العاصفة التي جاء بها طه حسين ، والتي كان من المؤكد أن تصدم الجماهير وتثير سخطها » . (1)

ويقوم هذا الاتجاه كذلك على مقومات شخصية طه حسين ، وتمثلها مذهب « الجريدة » في مقاومة « عبادة البسالة »(2) والتي أنكرها طه حسين من صحف الوفد حين ذهبت إلى رواية أمور عن سعد زغلول « هي الخرافة بعينها »(3) وانقسم « العلماء والمفكرون كغيرهم من الناس إلى فريقين: فريق منهم مال إلى الوفد وقال مع القائلين: « لا رئيس إلا سعد » ، وفريق آخر مال إلى الوزارة وقال مع القائلين: « إنما المفاوضات لمن ولى الحكم »(4) . ويجهر « أتباع الوفد في غير تحفظ بدعائهم ذلك البغيض: « الحماية على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلي » ،(5) ويأبى طه حسين قبول هذا الاتجاه ، فيكتب في « المقطم » ساخراً من السعديين: « يقول الوفديون لا رئيس إلا سعد كما يقول المسلمون لا إله إلا الله »(6) .

فإذا أضفنا إلى ذلك موقفاً شخصياً من جانب طه حسين إزاء سعد ، فإننا نتبين مواقفه ضد الوفد في إطار نزالياته الحزبية ، ونعني الموقف الذى أشار إليه في مذكراته عن لقائه برئيس الوفد في باريس ، وإجابته إياه « في فتور وضيق بأن جهده وجهد أصحابه وجهد الشعب كله لن تغني عن الوطن شيئاً »(7) . وإلى هذا الموقف يزجع طه حسين اتجاهه حين توالت خطوب السياسة أنه « كان أطول الكتاب لساناً وأجرأهم قلماً في مهاجمة سعد ونقد سياسته قبل أن يلي الحكم وبعد أن وليه ، وبعد أن اضطر إلى اعتزاله وأصاب الفتى من هذه الخصومة مكروه أي مكروه »(8) ، وكاد أن يلقى « سعداً مرة أخرى لو أريد على ذلك ، ولكنه امتنع وألح في الامتناع فلم يتم هذا اللقاء . كان ذلك حين أراد بعض النواب الوفديين أن يثيروا

---

(1) رجاء النقاش: أدباء معاصرون ص4.
(2) الدكتور عبد اللطيف حمزة: أدب المقالة ج6.
(3) الدكتور محمد حسين هيكل: نفس المرجع ص 170 .
(4، 5، 6) مذكرا طه حسين ص 255، 256 .
(7، 8) المرجع السابق ص 23، 224 ـ 226، 227 .

قصة الشعر الجاهلي مرة أخرى في المجلس فرده سعد زغلول عن ذلك قائلا: « لقد انتهى هذا الموضوع فلا معنى للعودة إليه »(1) .

ويلخص طه حسين صلته بسعد في أنها « كانت يسيرة كل اليسر في ظاهرها، عسيرة أشد العسر في حقائقها ودخائلها . جرت على الفتى شراً كثيراً ، وأتاحت له مع ذلك خيراً كثيراً ، وتقلبت به بين ضروب من الرضى والسخط ، وفنون من الأمل واليأس ، وألوان من الشدة واللين »(2) .

ونخلص من ذلك إلى أن منهج « التغيير » في الاستراتيجية القومية عند طه حسين ، كما تبين من الشعر الجاهلي لم يكن منهجا مقبولا من التقاليد الاجتماعية السلفية آنذاك ، ولكنه يعني ـ اتصالياً ـ(3) خروج الكاتب على الجماعات الذي يحرص على عضويته فيها(4) . وهو الأمر الذى يبين من قضية « الاسلام وأصول الحكم » كذلك إذا كان من المتوقع أن يبدي سعد زغلول فيها تأييداً لرجل من أتباع الأستاذ الإمام ، ونعني علي عبد الرازق ، لكن سعداً لم يظهر أي لون من التأييد ، بل سره أن تحل به هذه المحنة ، لاتصاله بالأحرار الدستوريين من جهة(5) ، ومن وجهة اتصالية(6) فإن سعداً يمثل اتجاهات الأغلبية التي يلتزم بها ، حتى لو كانت تتباين مع اتجاهاته الذاتية . وتفسير ذلك أن الناس يتخيرون ما يتفق مع عقائدهم الراسخة ويلفظون مالا يفعل ذلك أو ينسونه(1) . ولقد أجمع المصريون على حب سعد « وإكباره قبل الثورة لأنه كان زعيم صفوتهم ، وقائد خلاصتهم إلى مثلها الأعلى من الحرية والكرامة ومن العزة والاستقلال . إليه آوى قاسم أمين حين كتب تحرير المرأة فتنكر له الدهر وأهله ، وبه لاذ محمد عبده ، وأصدقاؤه القليلون الذين كانوا يمثلون في آخر القرن الماضي وأول هذا القرن آمال مصر »(8) .

---

(1)المرجع السابق ص 23، 224 ـ 226، 227.
(2)المرجع السابق ص 28.
(3، 4)ويلبور شرام: مرجع سبق ص 176.
(5)ألبرت حوراني: مرجع سبق ص 62.
(6، 7)ويلبور شرام: نفس المرجع ص 176 .
(8)كوكب الشرق في 23 أغسطس 1933 .

وإذا كانت تلك هي اتجاهات سعد قبل الثورة ، فإن مكانه من البيئة العامة قد أصبح مكان « زعيم الأغلبية » الذي « يجمع المصريون على حبه وإكباره إبان الثورة لأنه كان يقود الشعب كله إلى هذا النضال العزيز الذي كان مقصوراً قبل الحرب على الخلاصة والصفوة ثم شاع بعد الحرب في مصر جميعاً »(1) .

وتفرض مكانة « زعيم الأغلبية » أن يحمي اتجاهات الأغلبية ، التي قد تتباين مع اتجاهات « الصفوة » التي كان يحميها ويؤيدها قبل الثورة ، الأمر الذي يبين من موقفه من « الشعر الجاهلي » موقف المقاومة العنيفة التي دفعت طه حسين إلى تعديله ، نتيجة الضغوط الراسخة التي عبرت عنها صحف الأغلبية باسم « الجماعة على العضو المتطرف لإعادته إلى الصراط »(2) وتأسيساً على هذا التفسير الاتصالي فإن « النتيجة المعتادة هي أن يضطر الكاتب المتطرف إلى ترك الجماعة لينضم إلى جماعة أخرى تتفق مبادئها مع مبادئه الجديدة »(3) . ولذلك يتجه طه حسين إلى « الأقلية الفكرية » في « الأحرار الدستوريين » الذين يجد فيهم زملاء من نفس المشرب ، و« اماما » يجمع هؤلاء الزملاء ، ويمثل « شخصية ذات نفوذ »(4) في حياة طه حسين ، ونعني: لطفي السيد ، كما أن هذه البيئة الفكرية تمثل « جماعة جديدة ذات قواعد تدخل في مجال تجربته »(5) ، ويميل فيها إلى زعيم سياسي هو « عدلي يكن » الذي كان « الزعيم المعتدل الوحيد »(6) ويذهب طه حسين إلى أن عدلي قد « آلت إليه أمور الحكم بعد أحداث طوال وخطوب جسام ، فلم يتردد في النهوض بها . واحتمال تبعاتها ما وسعته قوته ، وما وسعه اقتناعه بأنه على الحق . ولقد خاصم في ذلك صديقه سعدا ما وسعته الخصومة ، حتى إذا عجز عن تحقيق أمنيته وأمنية مصر . عاد ولم يتردد في أنه قد عجز عما حاول وأخفق فيما أراد »(7) .

---

(1)كوكب الشرق في 23 أغسطس 1933 .
(2، 3، 4)ويلبور شرام: مرجع سبق ص 178 .
(5)المرجع السابق ص 178.
(6)عباس محمود العقاد: سعد زغلول ص 347.
(7)كوكب الشرق في 23 اكتوبر 1933 .

ومن ذلك يبين أن طه حسين قد وجد في الزعيم السياسي عدلي يكن والزعيم الفكري لطفي السيد في حزب الأحرار الدستوريين الذي يضم « الطائفة المفكرة » بيئة مناسبة للوسائل والغايات الاستراتيجية ، فعدلي لم « يؤلف حزباً لمناهضة سعد ، لأن مناهضة سعد والوفد لا تصلح موضوعاً لتأليف الأحزاب ، ولا ينبغي أن يقدم عليها المصري الذي يحب وطنه ويخلص له الحب ، حتى اذا صدر تصريح 28 فبراير ، وأخذت الوزارة الثروتية تعد لاصدار الدستور ، اعتقد أن هذا الدستور ، وذلك التصريح خليقان أن تؤلف الأحزاب لحمايتهما واستغلالهما واتخاذهما وسيلة إلى تحقيق الاستقلال »(1) .

كما أن « الدستور وحده يجب أن يكون الحكم لنهوض الناس بأعباء الأمور العامة »(2) ، ذلك أن « حقوق الشعب لا يمكن أن تنتزع منه بعد أن ردت إليه »(3) تلك هي الصورة السياسية التي وجدها طه حسين عند مفكري « الأحرار الدستوريين » الذين يمثلون بالنسبة إليه « أصدقاء يتصل بأشخاصهم التي تتحرك وتفكر كما يفكر »(4) ، وهذه الصلة تغلب على صفتهم السياسية فهو « لا يفكر كثيراً في ثروت السياسي ، ولا في ثروت الزعيم ، وانما يفكر دائماً في ثروت الصديق »(5) . ذلك أن الأمم تعيش « قبل الزعماء ، وتعيش بعد الزعماء »(6) .

وتأسيساً على هذا الفهم يمضي طه حسين في اتجاهه إلى « التغيير » الحضاري في المجتمع المصري ، من خلال صحيفة « السياسة » ، وهو الأمر الذي تذهب إليه نتائج تحليل مضمون مقاله في هذه الصحيفة في الفترة الاولى ، حيث نجد المضمون الثقافي والأسلوب المتجه نحو التغيير الاجتماعي يتقدم اتجاهه السياسي ، فالمقالات الاولى مثلا: « حديث الأربعاء »(7) . في الكتب ــ كتب الذكرى »(8) و « هنا وهناك »(9)

(1)كوكب الشرق في 23 اكتوبر 1933.
(2، 3)المرجع السابق.
(4، 5، 6)رحلة الربيع والصيف ص 201.
(7)السياسة في 8 نوفمبر 1922 (العدد 9 السنة الاولى).
(8)السياسة في 10 نوفمبر 1922 (العدد 11 السنة الأولى).
(9)السياسة في 13 نوفمبر 1922 (العدد 13 السنة الاولى).

و « التعليم له قواعده وغايته »(1) و « حديث الأربعاء ـ البؤساء »(2) . ثم يأتي موضوع اغتيال اثنين من الأحرار الدستوريين فاتحة نزال سياسي عنيف ، فيكتب مقالاً بعنوان « في سبيل الحرية والرأي »(3) ، ويبين من عنوان المقال الأخير اتجاه طه حسين نحو قيمة فكرية ، ترفض ما انتهت إليه « سياسة الهدم من نتائج شنيعة »(4) . ويلقي تبعة ذلك على الكتاب المناوئين للأحرار الدستوريين « الذين يعلمون أن إخوانهم في الوطن أبرياء من كل ذنب فيقسمون جهد أيمانهم أنهم مجرمون » (5)ويتخذ من هذا الحادث بداية نزال عنيف يدافع فيه عن « الأحرار الدستوريين ليرى الشعب صفاء نفوسهم وطهارة ضمائرهم وصدق إخلاصهم في خدمة الوطن »(6) . ذلك « أنهم « عاهدوا أمتهم على أن يصلوا بها إلى الاستقلال »(7) و « يضحون بأنفسهم وأموالهم في سبيل الحق والحرية عن طيب نفس وقرة عين »(8) .

ومن ذلك يبين أثر هذا الحادث في تدعيم مقوماته الفكرية ، وما تقتضيه من مناخ تسوده الحرية ، ولذلك يمضي في النزال والعنف فيه ضد الوفد ، وضد الحكومات المناوئة للدستوريين ، ويذهب إلى أن « الوفد مأخوذ بتبعة ما أصاب الدستور من حذف ونقص ، ومن مسخ وتشويه »(9) ويحمل عليه تأييده لوزارة نسيم في مقالات حملت الوفد على أن يعتذر عن هذا التأييد(10) . وقد بلغت نزاليات طه حسين به ضد الوزارة النسيمية والوفد من أجل الدستور إلى أن « أصبح بين عدوين لا يدري أيهما أنكى من صاحبه « يراه السعديون مارقاً قد مالأ

---

(1)السياسة في 14 نوفمبر 1922 (العدد 14 السنة الاولى).
(2)السياسة في 15 نوفمبر 1922 (العدد 15 السنة الاولى).
(3)السياسة في 20 نوفمبر 1922 (العدد 19 السنة الاولى).
(4)الدكتور محمد حسين هيكل: مذكرات ج1 ص 170، 191 (اغتيال حسن عبد الرازق واسماعيل زهدي من الأحرار الدستوريين).
(5، 6، 7)السياسة في 20 نوفمبر 1922 .
(8)المرجع السابق.
(9)السياسة في 10 مايو 1923 .
(10)السياسة في 22 يناير 1923 .

المارقين »(1) ويراه القصر « كافراً بالنعمة جاحداً للجميل »(2) ، ويرى هو « أنه قد أرضى ضميره وأدى واجبه وليكن بعد ذلك ما يكون »(3) .

على أن هذا الموقف المناوىء لحزب الوفد لم يلبث أن أصبح موقف التأييد القوي في العقد الثالث من هذا القرن بعد انضمامه إليه ، في أعقاب أزمته الجامعية في عهد صدقي ، وفترة الانقلاب الدستوري ، وهو العقد الذي شهد ارتباط طه حسين بالوفد وجماهيره وصحافته على النحو الذي أشرنا إليه عند الحديث عن صحيفة « كوكب الشرق » ، وهو الارتباط الذي بلغ مداه حين أصبح وزيراً للمعارف في آخر وزارة وفديه عام 1950 .

على ان ارتباط طه حسين بالوفد لم يكن ارتباطاً حزبياً تنظيمياً ، شأنه في ذلك شأن ارتباطه بالدستوريين ، عن طريق الصحافة والعلاقات الشخصية المباشرة .(4) الأمر الذي يوضع في إطاره الصحيح من تطور الوسائل والغايات الاستراتيجية في مقال طه حسين ، ذلك أن مرحلة العشرينات كما تقدم هي مرحلة « التغيير »الحضاري ، ولكن مرحلة الثلاثينات وما بعدها تقتضي أسلوباً آخر في إطار الاستراتيجية القومية ، ونعني أسلوب « التدعيم » وهذا الأسلوب يجد مناخه الصحي في حزب الأغلبية وصحافته وجماهيره العريضة ، الأمر الذي يبين من مقالاته في صحافة الوفد ، في مقاومة الانقلاب الدستوري ، وتدعيم القيم النضالية ضد الاحتلال ، كما تقدم ، ومواصلة دفاعه عن التعليم وحق الشعب فيه ، ذلك أن النضال الصحيح في هذه المرحلة يقتضي أن « يحتفظ الوفد بالكرامة القومية والعزة القومية ، وأن يعصم الروح الوطني من الضعف وجذوة المقاومة من الخمود ، وأن يبين للانجليز وللعالم كله في وضوح وجلاء ، أنه فوق الخوف ، وأنه فوق الإغراء ، وأنه أعز وأقوى من أن تضعفه التجارب وتفسد عليه المحن أمره ، وأنه أثبت على النضال من أن يبلغ منه الانجليز بترغيب أو ترهيب ، وأنه قد رسم لنفسه خطة فهو

(1، 2، 3)مذكرات طه حسين ص 259.

(4)رجاء النقاش: مرجع سبق ص 43.

ماض في تحقيقها ، لا ترده عنها قوة مهما تكن ، ولا تلهيه عنها حيلة مهما تكن ، حتى إذا أخفقت التجارب وفشلت المحاولات ، وعرف الانجليز أن أمر مصر يجب أن يكون لمصر ، نزلوا هم عند شرط مصر ، ولم ينزلوها عند شرطهم ، وعلى أحكامهم »(1) .

ويتجه طه حسين إلى تأييد الوفد ، لأن الغاية الاستراتيجية تقتضي كذلك تدعيم القيم الدينية ، حين يتعرض الاسلام لخطر التبشير ، وللقيم الدستورية حين يتعرض الدستور لبطش صدقي ، في فترة يقترن فيها ارتباط طه حسين بالوفد ، واتجاهه إلى التدعيم ، ذلك أن وزارة صدقي « قد استكشفت منذ نهضت بالحكم أو منذ همت أن تنهض بالحكم أن الدستور أوسع ما ينبغي فضيقته وبالغت في تضييقه . ولم تكد تعلن إلينا هذا التضييق وتؤاخذنا بتصغير عقولنا وتقصير ألسنتنا والكبح من أقلامنا والحجر على آمالنا لتلائم حياتنا الدستور الجديد حتى استكشفت أن هذا الدستور الجديد نفسه يكفل لنا حريات أكثر مما ينبغي وإذا هي تضيق هذه الحريات بألوان التشريع مرة وبسلطانها الإداري مرة أخرى . وإذا هي قد اتخذت موازين دقيقة شديدة الدقة ، رقيقة مسرفة في الرقة ، حساسة حادة الحس ، تقيس بها ما نرى وما نقول وما نعمل ، وتأخذنا بما تنكر هي من ذلك كله لا بما ينكر العرف ولا بما ينكر الدستور ولا بما تنكر الديمقراطية الغالية في الضيق »(2) .

ومن ذلك يبين ارتباط التأييد الوفدي بمقاومة الانقلاب الدستوري من جهة وتدعيم القيم الايجابية من جهة أخرى ، ذلك أن برنامج المقال في هذه المرحلة عند طه حسين يذهب إلى « مقاومة تضييق التعليم ومراقبته والسيطرة الشديدة المحرجة عليه في جميع فروعه وألوانه »(3) على النحو الذي ذهبت إليه الوزارة الصدقية إلى جانب تدعيم القيم النضالية ضد الاحتلال ، كما تقدم وتدعيم القيم الدينية ، كما سيجيء عند الحديث عن « التبشير » في الاتجاه الاجتماعي .

---

(1) كوكب الشرق في 19 ابريل 1933 .
(2، 3) كوكب الشرق في 9 مارس 1933 .

وتأسيساً على هذا الفهم ، فإن المقال السياسي عند طـه حسين يدور في إطـار من الوسـائل والغـايات الاسـتراتيجية ، ويقـاوم الاتجاه الحـزبي إلى « الاشتغال بالوسائل عن الغايات ، وبالظواهر عن الحقائق »(1) ذلك أن الـدستور ينـظم مـا للمصريـين من حقـوق ومـا عليهم من واجبـات(2) « ولذلك يجب أن ينفذ الدستور في مصر على وجهه وأن تحترم الحريات التي يكفلها للناس(3) وأن تجرى الحياة البرلمانية نقية من كل شائبـة(4) ولذلك يقاوم أي انحراف عن هذه المبادىء السياسية فالشعب يجب « أن ينتخب ممثليه حراً آمناً على ضميره من أن يعبث به الترغيب أو الترهيب ، وأن يؤدي النواب والشيوخ واجباتهم في مراقبة الحكومة ومحاسبتها أحراراً آمنين على ضمائرهم ومصالحهم القريبة والبعيدة(5) وأن تقف الوزارة أمام البرلمان موقف المسئول عن أعماله بالفعل وأن يثق البرلمان بالوزارة فتبقى ويسخط عليها فتزول »(6) .

وتأسيساً على هذا الفهم يذهب المقال في الاتجاه السياسي إلى النـزال والمعارضة ، والمقاومة ، حتى يدرك المصريون « الوسائـل على أنها وسـائل لا على أنها غايات »(7) .

ولذلك يقـاوم الوزارة النسيميـة حين تـولت الحكم بعد وزارة ثـروت المستقيلة في 29 نوفمبر 1922 ، لأن الوزارة الجديدة ذهبت إلى تعديل الدستور وتـوسيع حقـوق الملك في التبعة الـوزارية وتعيـين أعضاء مجلس الشيوخ متوسلة بالتقرب من الوفد واسترضائه بما يجنح به السكـوت عن التعديل المقصود .(8) على أن هذا التقرب إلى الأكثرية لم ينفـع الوزارة النسيمية طويلا فقد كانت الأمة أشد يقظة من أن تؤخذ بهذه الأساليب أو تستمع فيها إلى رأي أحد ، وزادها يقظة وحذراً أن الوزارة لم تصنع شيئاً في مسألة المنفيين والمعتقلين ولم تصنع شيئاً في تمثيل مصر في مؤتمر لوزان

(1، 2، 3)بين بين ص 106، 107 ـــ البلاغ 15 مايو 1947 .
(4، 5، 6)المرجع السابق ص 109، 110 .
(7)المرجع السابق ص 113 .
(8)عباس محمود العقاد: سعد زغلول ص 421، 422 .

الذي كان منعقداً للنظر في مسائل الشرق وتنقيح المعاهدات بين الحلفاء والدولة التركية صاحبة السيادة القديمة على مصر»(1) .

وينصب المقال السياسي عند طه حسين في هذه المرحلة على كشف أساليب التمويه على الأمة ، كما نجد في مقال بعنوان: «بعد خمسة أسابيع»(2) . يقول فيه:

«..نعم كان الناس يعتقدون أن رئيس الوزراء يسعى يوم تأليف وزارته إلى المندوب السامي البريطاني فيحدثه في إلغاء الأحكام العرفية وفي إعادة المبعدين وإطلاق المعتقلين وفيما كان بينه وبين الوزارة المستقيلة من خلاف في أمر السودان والدستور فيقنعه بوجوب إرضاء الشعب وتحقيق أمل الشعب(3) ولكن وزارة الشعب لم تحقق آمال الشعب كما أنها لم تهدىء من روع الشعب ، ونخشى أن يمضي الشهر (وقد مضى) وأن يتبعه غيره دون أن تعمل وزارة العمل: وتقول(4) «ويختم المقال بتوجيه حازم: » ... أيها السادة إن الحياة أحوج إلى الجد منها إلى هذا اللعب وأن الأمة تعبر الآن عصراً دقيقاً عصيباً . هي محتاجة فيه إلى العمل النافع الصريح لا إلى الكيد ولا إلى الهزل فإن كنتم تريدون أن تعملوا وأن تؤثروا الصراحة حين تعملون وتقولون فنحن أشد الناس لكم تأييداً ونصرا وإلا فخصومتنا متصلة ونقدنا مستمر وسواء علينا أن ترضوا وأن تسخطوا فيا لهذا نعمل(5) .

أما موقف الوزارة من مؤتمر لوزان «فهو موقف غريب خطر عليها وعلى الأمة معاً(6) وهو الموقف الذى عبر عنه «كاسترو» في «الليبرتيه» بأن «لا تذهب مصر إلى لوزان»(7) ذلك أن الواجب الوطني ــ كما يقول طه حسين ــ يقضي بأن تذهب الوزارة المصرية فتنكر هذا الأتفاق (اتفاق الانجليز مع الأتراك على أن تتحمل مصر شطراً من دين تركياً) . قبل أن يصبح هذا الاتفاق أمراً دوليا مقرراً واقعا لا سبيل إلى التخلص منه ؟(8)

(1)نفس المرجع السابق.
(2، 3، 4، 5)السياسة في 7 يناير 1923 .
(6، 7)السياسة في 28 نوفمبر 1922 .
(8)السياسة في 28 نوفمبر 1922 .

ويذهب إلى أن تمثيل مصر في لوزان «اعتراف دولي جديد باستقلالنا الدولي»(1) .

وأما اتجاه الوزارة إلى تعديل الدستور، فأمر يواجه بالمعارضة العنيفة في مقال طه حسين، ويرفض «حذف النص على السودان في الدستور (2) ويقاوم اتجاه «الحزب الاستعماري» إلى «تثبيط الهمم وخدر الأعصاب من جهة والاعتذار عن الحكومة إذا اضطرت إلى التقصير في واجبها من جهة أخرى(3) .

ويبين الوضوح في الرؤية الأستراتيجية للوسائل والغايات من حرص طه حسين على أن «تقرأ الأمة لكل وزارة جديدة برنامجها الذى تبين فيه آراءها السياسية وخطتها في تحقيق هذه الآراء»(4) . ويذهب إلى أن مصر كسبت «هذا الحق، وكان هذا الاكتساب خطوة قيمة في سبيل الحياة الدستورية(5)، وفي سبيل هذا المكسب الدستورى، يقاوم الوزارات الإدارية لأن «الرأي العام المصري قد استطاع بدون برلمان أن يلزم الوزارات أن تعرض عليه برنامجها ليرضاه أو يأباه»(6) ويأخذ على الكتاب الوفديين «اعتذارهم عن الوزارة والإشفاق عليها»(7)، لأن سياستها تنحصر في التمويه أو «الوقوف والصمت»(8) بإزاء المسائل المصرية الأساسية، ومن ذلك أن «لجنة الدستور أتمت دستورها منذ زمن طويل، وعرضته على الحكومة وتقبلته هذه الحكومة راضية شاكرة ومضت على ذلك أسابيع والناس لا يعلمون من أمر الدستور شيئاً(9) كما أن الأمة لم تظفر من حقها بشيء فالدستور لم يصدر والحكومة لم تعلن شيئاً من هذه الأسباب الغريبة الخفية القوية التي أخرت صدور الدستور(10) . ويحذّر الوزارة من إدخال تعديلات جوهرية على الدستور تمس السودان وتمس مسئولية الوزارة وتمس سلطة الأمة وتمس أشياء أخرى من مبادىء الدستور(11) ذلك أن «آراء الأمة في الدستور الذى تريده واضحة جلية

(1)السياسة في 28 نوفمبر 1922 .
(2، 3)السياسة في 9 يناير 1923 .
(4، 5، 6)السياسة في 3 ديسمبر 1922 .
(7)السياسة في 15 ديسمبر 1923 .
(8)السياسة في 21 يناير 1923 .
(9، 10، 11)السياسة في 28 نوفمبر 1922 .

تعلمها الحكومة حق العلم(1) » .

وعلى الرغم من انتمائه إلى صحيفة الأحرار الدستوريين ، يذهب طه حسين إلى تحميل الوزارة النسيمية تبعة موقفها من « عودة معالي سعد باشا(2) ، لأنها لا تستطيع ذلك حالا لممانعة الإنجليز(3) ويوضح دافعه إلى ذلك بأن « الخصومة شيء وتحقيق الأماني القومية شيء آخر(4) .

ولم تلبث الوزارة النسيمية أن استقالت قبل أن تمنح الدستور ، وكتب طه حسين مقاله الشهير ، « إذن فقد استقالوا(5) يسخر فيه من الوزارة التي أبت أن تبقى للشعب فورطت هذا الشعب ثم انصرفت عنه وتركته حائراً لا يدري ماذا يفهم ولا كيف يتأول »(6) ذلك أن الدستور قد صدر بعد ذلك في ابريل 1923 محذوفاً منه النصوص الخاصة بالسودان ، ويذهب طه حسين إلى أن هذا الحذف تتحمل تبعته الوزارة النسيمية التي « كانت ضعيفة(7) ، ويذهب إلى أنها « أتقنت خداع الشعب ومهرت في تضليله »(8) كما يذهب إلى أن « الوفد مأخوذ بتبعة ما أصاب الدستور من حذف ونقص ومن مسخ وتشويه »(9) لما كان بينه وبين وزارة الشعب من صلة ، وما كان يمنح وزارة الشعب من ثقة « (10) .

ويبين مما تقدم اتجاه المقال السياسى فى الدفاع عن الدستور منذ وضعته لجنة الثلاثين « دستورا ديمقراطياً يخول الشعب من الحقوق مالا يريد القصر أن ينزل عنه(11) « ويمضي طه حسين في الدفاع عن الدستور غير ملق بالا إلى القصر ولا إلى صاحب القصر »(12) . وهو الاتجاه الذي يحدد المسار العام للمقال السياسي عند طه حسين . حين يتعرض الدستور لبطش إسماعيل صدقي في سنة 1930 ، ويذهب مقال طه حسين إلى مقاومة هذا الافتيات على الدستور وما أحاط به من ملابسات جعلت حكم

---

(1) المرجع السابق.
(2، 3، 4) السياسة في 8 ديسمبر 1922 .
(5، 6) السياسة في 11 فبراير 1923 .
(7، 8) السياسة في 15 ابريل 1923 .
(9، 10) السياسة في 10 مايو 1923 .
(11، 12) مذكرات طه حسين ص 259 .

صدقي ليلا « طويلا مسرفاً في الطول ، ثقيلا مغرقاً في الثقل ، كثرت فيه الهموم حتى تجاوزت الإحصاء »(1) .

ومن ذلك يبين أن المقال السياسي في مقاومة السياسة الصدقية ، يذهب إلى مقاومة هذه السياسة في مجموعها ، كما يذهب إلى مقاومة الملابسات التي أحاطت بالافتيات على الدستور ، مثل إئتلاف حزبي الاتحاد والشعب(2) . وتعجل الحكومة في إنشاء خزان اسوان(3) وفساد أداة الحكم(4) ، ذلك أن عهد هذه الوزارة شهد « عبث المصريين بالمصريين وتحكم الانجليز(5) وينتهي المقال السياسي إلى أن « تستقيل الوزارة القائمة وتعود الحياة النيابية الحرة(6) .

على أن هذا الاتجاه السياسي في مقال طه حسين لا ينفصل كذلك عن الوسائل والغايات الاستراتيجية ، ذلك ، أن هذه الوزارات غير الدستورية تقوم على مصلحة القصر والانجليز معاً في سبيل « الاحتفاظ بالحكم أو الوثوب إليه(7) وهو الأمر الذي يقاومه طه حسين في نزاله السياسي العنيف « لتمكين مصر العزيزة الكريمة من أن تظفر بحقها من الإنجليز الغاصبين(8) وفي سبيل ذلك يقاوم السياسة التي تنذر « بحرب عنيفة تهيء لمستقبل الديمقراطية في مصر »(9) « ذلك أن الوزارة الصدقية « لا تفسد من شئوننا الحاضرة وحدها في السياسة والاقتصاد والتعليم ، ولكن لها برنامجاً آخر خفيا تنفذه شيئاً فشيئاً ، وهو أن ترد مصر إلى حيث كانت في القرون الوسطى بلداً خاضعاً لسلطان مطلق يؤيده رجال الدين ؟ !(10) ويمتد فساد الحكم إلى السياسة الخارجية ، وشرّ هذا الفساد « عظيم ، لأن السياسة الخارجية لا ينبغي أن تعتمد على مداواة الأحزاب ولا مصانعة

---

(1)كوكب الشرق في 28 سبتمبر 1933 .
(2)كوكب الشرق في 11 مارس 1933 .
(3)كوكب الشرق في 13 مارس 1933 .
(4)كوكب الشرق في 22 مارس 1933 .
(5)كوكب الشرق في 30 مارس 1933 .
(6)كوكب الشرق في 3 ابريل 1933 .
(7، 8)كوكب الشرق في 30 ابريل 1933 .
(9، 10)كوكب الشرق في 5 ابريل 1933 .

الأصدقاء ومدافعة الخصوم »(1) على أن هذا الفساد لا ينفصل عن فساد السياسة الداخلية التي يقاومها طـه حسين . من أزمة اقتصادية إلى فساد في الحكم والإدارة وكبت الحريات(2).

على أن المقال النزالي في الاتجاه السياسي يكشف عن قيم أساسية ، تدفع النزال وتحركه وتقومه . ترتبط بالوسائل والغايات الاستراتيجية ، وتطمح إلى « تحقيق المثل الاعلى في حياة الشعوب »(3) وهو المثل الذي يستمده من الثورة الفرنسية في « الكلمات الثلاث التي شخصت صيحة الشعب الفرنسي في وجه الظلم وصورت ضيق الشعب الفرنسي بالاستبداد ، ومثلت حرص الشعب على اعلان حقوق الإنسان (4). « وعلى ذلك فإن النزال السياسي يهدف إلى حماية هذه المعاني من « الأهواء والشهوات السياسية ، وما تدعو إليه المنافع العاجلة من التنازع والخصام »(5) .

وتأسيساً على هذا الفهم ، فإن المقال السياسي عند طه حسين مقال « توجيهي ؟ بمعنى أنه يتوسل بالتوجيه والارشاد للرأي العام المصري ليساعد الشخصية المصرية على حسم أمورها ، وإنارة الطريق أمامها لتحقيق الغايات القومية ، وعدم الانحراف بمفهوم الوسائل والغايات الاسترتيجية فيثني في مقاله على العاملين ، ويؤنب المقصرين ، ويذكر الناس بالغايات القومية ووسائل تحقيقها ، ومن ذلك أن « إرادة الأمة قوام الحكم وعماد الوزارة ، ومصدر الهيئات النيابية التي تشرع القوانين وتراقب السلطة التنفيذية(6) وعلى ذلك فإنه يقاوم أن « تحكم مصر بغير العدل والدستور والقانون(7) . ويدعم القيم النضالية في الأمة المصرية التي « تنظر إلى ماضيها فتعتز بما فيه من مجد وتتعظ بما فيه من محن ، وتنظر إلى مستقبلها فترى ثقة واسعة ، وآمالا عريضة ، وحياة مبتسمة قوامها العزة والكرامة والرقي والاستقلال » (8).

(1، 2)كوكب الشرق في 12 ابريل 1933.
(3، 4، 5)كوكب الشرق في 16 اكتوبر 1933.
(6، 7)كوكب الشرق في 27 اكتوبر 1933.
(8)المرجع السابق.

ونخلص من ذلك إلى تميز أسلوبين توسل بهما المقال في الاتجاه السياسي عند طه حسين . هما أسلوب التغيير وأسلوب التدعيم ، في إطار من الوسائل والغايات الاستراتيجية ، الأمر الذي يجعل المقال السياسي عند طه حسين ، لا ينفصل عن المقال الإجتماعي أو الثقافي . وإنما ترتبط هذه الاتجاهات ارتباطاً إيجابياً في إطار الاستراتيجية العامة للمقال الصحفي كما تقدم .

الفصل الخامس

طه حسين

في الاتجاه الاجتماعي

« كان نقد طه حسين حتى أثناء شبابه الغض معركة رابحة في سبيل النهضة الفكرية والأدبية ولتوسيع آفاق ثقافته القومية وفي سبيل حرية الفكر المطلقة من كل التزام » .

فرانشيسكو جابريللي

إذا كان الاتصال الجماهيري يتأثر بالبيئة الاجتماعية والثقافية التي يعيش فيها ، فإن الأفكار السائدة في المجتمع يمكن أن تعمل على تشكيل المقال الصحفي كما تفعل القوى الاجتماعية والاقتصادية(1) . فالمقال الصحفي في نظرية الاتصال الجماهيري تجسيد لثقافة الأمة وحضارتها ، ومن خلال ذلك يتجه المقال الصحفي إلى تعميق المفاهيم الشائعة في المجتمع ، وترسيخ القيم السائدة فيه وتثبيت العلاقات القائمة بين شتى المؤسسات والجماهير(2) . كما يتجه إلى التغيير وخلق الجو الحضاري الملائم للتقدم والنهضة عن طريق التوعية الشاملة بأهداف المجتمع وخططه(3) .

وتأسيساً على هذا الفهم ، فإن هذا الفصل يعالج « المقال في الاتجاه الاجتماعي » ودوره في التدعيم والتغيير ، ذلك أن المجتمع المصري بفعل الاتصال الحضري وما استحدثه من صراع ومقاومة وتسرب كان لزاما عليه أن يعدل في بعض عاداته وتقاليده ، بحيث تلائم تطوره ، فانقسمت الطبقات المفكرة إلى قسمين ، أحدهما يتشبث بالواقع المألوف ، وثانيهما يدعو إلى الأخذ جملة أو إلى الانتخاب من العادات الجديدة غير المألوفة ، والتقاليد الوافدة غير المتمثلة ما يلائم نزوع المجتمع إلى التقدم(4) . وسار المجتمع في طريقة يأخذ من القديم والحديث ما يسيغه ذوقه ، ويحس بنفعه العام له ، وكانت طبقات المجتمع تتفاوت في درجات المحافظة والأخذ جميعاً(5) . وفي مقال طه حسين في الاتجاه الاجتماعي ، نجد الإسهام في التدعيم والتغيير معا ، فظل القديم الصالح واضحاً في مقاله ، يعمل عمله ، إلى جانب اتجاهات التجديد التي أخذ منها المجتمع ما يتفق مع كيانه العام .

(1، 2)الدكتور ابراهيم امام: الاعلام والاتصال بالجماهير ص 168، 199، 203 .
(3)الدكتور ابراهيم امام: دراسات في الفن الصحفي ص 83 .
(4، 5)الدكتور عبد الحميد يونس: مجتمعنا ص 47 .

قضيـة التبشير وتدعيم العوامل الايجابية .

يعتبر الدين أهم العناصر الثقافية في التراث الاجتماعي المصري ، وأهم مقومات الشخصية المصرية ، فـالأصالـة الدينيـة وليدة الاستقـراء والتأمـل لطبيعة الوادي منذ أقدم العصور(1) ، ومنها تبرز قواعد السلوك والأخلاق عند المصريين ، وتمتزج مقومـات شخصيتهم بكل معنى من معـانيها(2) . فـالمصريون ـ كـما يقول هـيرودت ـ يخافـون الخالق أكـثر من أي شعب آخر(3) . وما من ظاهرة من ظـواهر الحضـارة المصرية إلا وهي متـأثرة بالدين ، الأمر الذي يفسر إقبال المصريين على اعتناق الديانات السماوية: المسيحية ، ثم الإسلام ، ففكرة الوحدانية التي تقوم عليها ديانات السماء ـ كما يقول « رويدر » ـ كانت لب الديانة الفرعونية »(4) واعتنق المصريون المسيحية ثم الاسلام واحتفظوا بغير قليل من تقاليدهم القديمة ولكن بقيت ملامح شخصيتهم ومقوماتهم لا تتغير إلا بقدر ، وبقيت مصر الفـرعونيـة ـ كما يقول جوستاف لوبون ـ حية في مصر المسيحية ومصر الاسلامية . ومن ثم كانت مصر العرب هي مصر الفراعنة(5) .

لهذا طبع التدين حياة المصريين بطابع نافذ غلاب ، غلب على تقاليدهم وعاداتهم ومأثوراتهم وطبع شخصيتهم بطابع فذ فريد . فبقيت الشخصية المصرية خالدة على الزمن لا يمس التطور من فطرتها وعواطفها قدر ما يمس من عقلها ، فالعقل يخضع لعملية دائبة من النمو ، ولكن العواطف القديمة المتأصلة في النفس البشرية تبقى حفيظة على أصولها مـا لم يجتحها تغير الوسط واختلاف البيئة ، وقد سلمت البيئـة المصرية من عـوامل التغـير المفاجىء السريع ، وظل الوسط متجدداً في صورته الدائمة المتكررة يحيي بتجدده كل كوامن العواطف المصرية المحافظة ويبقى بتكراره على مقومات

---

(1)الدكتور حسين فوزي النجار: لطفي السيد والشخصية المصرية ص 20، 21، 34.
(2، 3)الدكتور حسين فوزي النجار: لطفي السيد والشخصية المصرية ص 20، 21، 34.
(4)المرجع السابق ص 36.
(5)المرجع السابق ص 40.

الشخصية المصرية فتية قوية كأن لم تخترقها أجيال وأحقاب(1) . ويبقى الدين ــ كما يقول طه حسين ــ من مقومات الوطنية المصرية(2) . ضرورياً ضرورة العلم لتستقيم الحياة الإنسانية(3) .

وتأسيساً على هذا نتبين موقف ، الاتصال في الاتجاه الاجتماعي من الدين الاسلامي في مصر ، حين يتعرض لتهديدات من الداخل والخارج ، ذلك أنه ينبع من السعي لتكامل المجتمع المصري وتنمية الاتفاق العام ، عن طريق تدعيم القيم الايجابية والعمل على صيانتها والمحافظة عليها .

ولقد تعرض الدين الاسلامي في مصر لتهديد عوامل عدة في ثلاثينات هذا القرن وفي فترة الوزارة الصدقية بما لابسها من أزمة اقتصادية وبطش بالدستور وبالحريات ، وازدياد نشاط المبشرين الأجانب في ظل هذه الظروف . ذلك أن هذه الوزارة قد « ساعدت الأزمة على التفاقم ، فأحدثت انقلابا خطيراً في البلاد وقعدت متحفزة للأمة ، فاضطرب الجو وحفل ببواعث القلق ودواعي الخوف ، من المستقبل القريب فضلا عن البعيد ــ واكفهر الأفق واكتظ بالاحتمالات المخيفة فقبض أصحاب الأموال أيديهم وركدت الأسواق ووقفت حالة التجارة ، وبدت الوزارة أعجز ما تكون حتى من علاج حالتها هي فضلا عن حالة البلاد ، وضعفت الثقة واشتد الخطب بما لجأت إليه الوزارة وانصرفت له ، من إنشاء حزبها وجمع المال له ومطاردة خصومها واضطهادهم(4) ، وكان من أثر ذلك على المصريين أن « أضناهم الجوع وأنهكهم الحرمان وظهرت عليهم آثار السوء وضعفت أصواتهم لأنهم لا يجدون ما يقيم أودهم ويمكنهم من أن يتحدثوا في صوت ظاهر ممتلىء « مستقيم »(5) .

ومن مظاهر الأزمة في المجتمع المصري ما نشرته الصحف في تلك الفترة(6) عن « رجل أخذته الشرطة عند مسجد من المساجد وهو يحاول

(1) المرجع السابق.
(2) مستقبل الثقافة ج1 ص 81.
(3) من بعيد ص. 17، 228 .
(4) الدكتور محمد حسين هيكل وآخرون: السياسة والانقلاب الدستوري ص 62.
(5) كوكب الشرق في 10 يوليو 1933.
(6) كوكب الشرق في 22 أغسطس 1933.

أن يعرض طفلة للبيع ، فلما سئل تبين المحققون أنه إنما كان يعرضها للبيع متفقا على ذلك مع أمها »(1) .

ومن هذا النبأ تتضح خطورة الأزمة على الكيان الاجتماعي المصري ، وما يرتبط بها من ملابسات ، ولذلك نجد طه حسين يعلق على هذا النبأ بقوله: « . . . فقد رأينا إذن في القرن العشرين وفي مدينة القاهرة ، وعند مسجد من مساجد الله رجلا قد اتفق مع أم من الأمهات على أن يبيع ابنتها بثمن بخس دراهم معدودة أو دنانير معدودة ، ولكنه بخس على كل حال إذا قدرت قمية هذا الثمن مهما يكن بالقياس إلى عواطف الأمومة التي لم تمنع أما من أن تبيع ابنتها بالمال »(2) .

وتتناقل الصحف في هذه الظروف أنباء المبشرين بالمسيحية الذين ظهر نشاطهم فجأة في ثوب مخوف ، وأن الجامعة الأمريكية بالقاهرة يومئذ ، كانت مصدر الدعايات التبشيرية ، وكان غريبا حقا هذا الشرط الذي أبداه المبشرون ، والذي لم يسمع بمثيله من عشرات السنين ، فقد امتد من القاهرة إلى بور سعيد وغيرها من المدن والأقاليم(3) . وتتحدث الصحف عن وسائل الإغراء لحمل السذج على اعتناق المسيحية ، وتنصير الأطفال والأبرياء من أبناء المسلمين(4) . ومن ذلك إغراء « فتاة مسلمة من بور سعيد اسمها: نظلة غنيم ، استعانوا بفقرها على أغوائها ، حتى نصروها وزوجوها من أحدهم ، واسمه زكي اسرائيل الفيومي ، ثم كان أن افتضح أمر التبشير والمبشرين ، وكانت نهضة الأمة وجهادها ضد التبشير والمبشرين وقام كل فريق وكل مصري بواجبه في هذا السبيل ، ورفعت نظلة غنيم الدعوى أمام المحكمة الشرعية تعلن توبتها وعودتها إلى دينها وتطلب التفريق بينها وبين من زوجت منه ، ولكن حكم المحكمة لم ينفذ »(5) وأصبح « حكم الإسلام معطلا في بلد أهله مسلمون ، وفي دولة دينها الرسمي هو الإسلام »(6) .

(1، 2) المرجع السابق.
(3) الدكتور محمد حسين هيكل: مذكرات ج1 ص 328.
(4) البلاغ في 25 يناير 1932 ـ الجهاد في 23 يوليو 1932.
(5، 6) كوكب الشرق في في 10 أغسطس 1933.

وتشترك الصحف المصرية جميعها في مقاومة التبشير، عدا جريدة «الشعب» وجريدة «الإتحاد» لسان الوزارة الصدقية، وتألفت جمعية لمقاومة التبشير كانت تجتمع في دار الشبان المسلمين، من أعضائها الدكتور محمد حسين هيكل والشيخ مصطفى المراغي الذي كان شيخا للأزهر في 1928، ولما لم يستطع تطبيق آرائه في إصلاح الأزهر استقال من مشيخته. وكان لانضمامه إلى هذه الجمعية أثر حميد في نظر الرأي العام، مما دعا صدقي ليحسب لهذا الجو الجديد كل حساب. (1) وتذهب حركة المقاومة ضد التبشير إلى تدعيم الوحدة الوطنية بين عنصري الأمة، منبهة إلى أن الخطر لا يهدد المسلمين وحدهم وإنما يتهدد أقباط مصر كذلك (2).

ويذهب طه حسين إلى مقاومة هذا الخطر المزدوج على الوطن والعقيدة مقاومة عنيفة تنتهي إلى تدعيم القيم الايجابية في مقاله الاجتماعي، شأنه في ذلك شأن المقاليين المجددين من أمثال العقاد وهيكل، فلم يعد الهدف من مقاومة التبشير معارضة الوزارة الصدقية، ويغدو الهدف الأساسي مقاومة هذه الحركة التي يقصد بها إلى «إضعاف ما في النفوس من ثقة بدين الدولة، ولما تنطوي عليه من قصد سياسي هو إضعاف معنويات الشعب بإضعاف عقيدته، وان لم يبلغ هذا الإضعاف حد ارتداده عن دينه إلى دين آخر» (3).

ويفتح طه حسين في «كوكب الشرق» حملة عنيفة اشترك فيها رجال الدين ورجال الفكر معا، ويكتب في مقاله الرئيسي عشرات المقالات في مقاومة التبشير منها:

- عدوان (4).
- هزل (5).

---

(1) الدكتور محمد حسين هيكل: نفس المرجع ص 328.
(2) الجهاد في 28 يونيو 1933.
(3) المرجع السابق ص 329 ـ عبد العزيز شرف: مرجع سبق ص 221.
(4) كوكب الشرق في 10 يونيو 1933.
(5) كوكب الشرق في 12 يونيو 1933.

- مشغول (1) .
- عـلاج (2) .
- حـــزم (3) .
- فتنـة (4) .
- تجـــن (5) .
- واجبـات (6) .
- اذن (7) .
- تحريض (8) .
- خطـر (9) .
- نظـام (10) .
- مذهبـان (11) .
- عوجـاء (12) .
- أشكـال (13) .
- نجـدة (14) .
- نـداء (15)... الخ

ومن هذه العنوانات يبين الخط البياني للمقاومة، الإلحاح المستمر في مقاومة التبشير، «حتّى يفتح الله على الوزارة وعلى هيئة كبار العلماء بما يخرجهما من هذا الصمت المريب، ومن هذا السكون الذي لا يستطيع مسلم ولا مصري أن يرضى عنه أو يطمئن إليه، فقد ينبغي أن تعلم الوزارة وأن تعلم هيئة كبار العلماء أن الشعب المصري ليس طفلا يمكن أن يكسب رضاه وينال إقراره بالمطاولة والمماطلة، وبالتعلة والتلهية والاستعانة بالنسيان. وقد ينبغي أن تعلم الوزارة وأن تعلم هيئة كبار العلماء أن الذين يخاصمونها في أمر التبشير لا يريدون لهوا ولا لعبا، ولا

(1، 2)كوكب الشرق في 14 يونيو 1933.
(3)كوكب الشرق في 16 يونيو 1933.
(4)كوكب الشرق في 18 يونيو 1933.
(5)كوكب الشرق في 25 يونيو 1933.
(6)كوكب الشرق في 29 يونيو 1933.
(7)كوكب الشرق في 6 يوليو 1933.
(8) كوكب الشرق في 17 يوليو 1933.
(9) كوكب الشرق في 22 يوليو 1933.
(10) كوكب الشرق في 27 يوليو 1933.
(11) كوكب الشرق في 30 يوليو 1933.
(12) كوكب الشرق في 8 أغسطس 1933.
(13) كوكب الشرق في 12 اغسطس 1933.
(14) كوكب الشرق في 29 أغسطس 1933.
(15) كوكب الشرق في 21 سبتمبر 1933.

يريدون كلاما ينفق الوقت في كتابته وينفق الوقت في قراءته، ثم يمضي مع هذه الأشياء التي يمضي بها كر الغداة، ومر العشى، دون أن ينتج أثراً، وإنما هم يريدون الجد كل الجد، ويكتبون ليروا نتيجة ما يكتبون. فإن ظفروا بهذه النتيجة فذاك وإلا فهم ماضون في المطالبة بـالحق والدعوة في أداء الواجب وليس يضرهم أن تضع الوزارة أصابعها في آذانها، ولا أن تعرض هيئة كبار العلماء كأنها لا تسمع ولا تقرأ، فهم إن فاتهم استماع الوزارة والهيئة فلن يفوتهم أن الناس يقرأون ويفقهون ويعلمون بعد القراءة والفقه، وبعد التدبر والتفكير أين يكون الدفاع عن الحق والنهوض بأداء الواجب وصون الحرمات، والذود عن الكرامة»(1).

ومن ذلك يبين موقف طه حسين من الوزارة والأزهر، وهو موقف يرتبط بالملابسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لحركة التبشير، فموقف الوزارة يرتبط بفساد الحكم، وسياسة «التلهية»(2) للرأي العام المصري «فقد كانت صحيفة الوزارة، مستخذية شديدة الارتباك تعتذر عن الوزارة. وتلح في الاعتذار وتلقي تبعة التبشير وما يسلك إليه المبشرون من طرق الإكراه والعبث على هذا الشعب البائس لأنه يرسل أبناءه وبناته إلى هذه المدارس والملاجىء»(3) ويذهب طه حسين إلى أن سياسة الوزارة بإزاء التبشير «هزل»(4) ذلك أن «البرلمان لا يستطيع شيئاً، وأن الوزارة لا تستطيع شيئاً، وأن الشيخ الأكبر لا يستطيع شيئاً، ومعنى ذلك أن الأمر ينبغي أن يترك بين المسلمين والمبشرين»(5).

على أن معارضة طه حسين لسياسة الحكومة بإزاء التبشير، لا تقف عند المعارضة السلبية بهدف المعارضة لذاتها، ولكنها تذهب إلى أن تطلب من الحكومة أيا كانت ـ أن «تؤدي عملها في قوة وحزم وعلى يقين، لأنها لم تنشأ لنفسها وإنما أنشئت لخدمة الأمة التي تقوم فيها. فمما لا شك فيه أن القوانين لم تشرع عبثاً، وأن القضاء لم يقم ليكون زينة وإنما شرعت

---

(1) كوكب الشرق في 9 أغسطس 1933.
(2) كوكب الشرق في 15 يونيو 1933.
(3) كوكب الشرق في 16 يونيو 1933.
(4، 5) كوكب الشرق في 12 يوليو 1933.

القوانين لتأخذ الناس بما فيها من أحكام ، وأقيم القضاء لينصف المظلوم من الظالم »(1) . ولذلك يرفض « الإجراءات الموقوتة »(2) ويطلب من الحكومة « أن تحيل بالفعل إلى القضاء ما يستكشف من آثار المبشرين الأجانب »(3) وأن « تصدر من القوانين ما يمكنها من أن « تراقب كل ما يقع في أرضها لتتقي شره ، وتدفع نكره ، وتحمي الشعب من آثامه »(4) وذلك « أيسر ما يجب أن تنهض به الحكومات ، وليس الغريب أن يطلب المصريون ذلك إلى الحكومة وإنما الغريب أن تنتظر الحكومة حتّى يطلب إليها ذلك ، وألا تنهض به وحدها من تلقاء نفسها دون أن تحتاج إلى من يذكرها به أو ينبهها إليه . لقد نهض الشعب المصري كله بما يجب عليه لنفسه ولكرامته وللحرية الإنسانية ، والحضارة الإنسانية . وقال الشعب المصري كله في ذلك كلمة الحق التي لا لبس فيها ولا غموض . فاللهم وفق حكومة مصر أن تنهض بواجبها كما نهضت به مصر »(5) .

على أن الوزارة لم توفق في النهوض بواجبها كما نهضت به مصر ، وكادت محنة التبشير أن « تسيء إلى ما يجب أن يكون بين المصريين جميعا من صلات المودة والحب وأسباب الأخوة الوطنية التي لا ينبغي أن يعرض لها الوهن أو يسعى إليها الضعف بل يسيطر عليها الإخلاص والصفاء »(6) . ذلك أن صحيفة « السياسة » قد كشفت عن « دعم الحكومة المصرية لحملات التبشير ، وتنازلها سنويا لجمعياته باسم المسموحات الجمركية عما قيمته مائة وستة وثلاثون ألفاً من الجنيهات ومعنى ذلك أن هذه البعثات والهيئات التبشيرية يرد إليها سنويا من البضائع التي تفرض عليها ضرائب جمركية ما قيمته نحو مليون ونصف مليون من الجنيهات وذلك فضلا عن النقود التي ترد لها ولا يفرض عليها رسم جمركي ، فضلا عما تقتضيه من داخل البلاد من تبرعات ومصاريف مدرسية يدفعها أبناء المسلمين وغيرهم قدرت أن إيراد هذه الهيئات السنوي قد يبلغ الأربعة ملايين من الجنيهات إن لم يزد عليها وقدرت أن قسطا كبيرا من هذا

(1، 2، 3)كوكب الشرق في 29 يونيو 1933.
(4، 5)المرجع السابق.
(6)كوكب الشرق في 12 أغسطس 1933.

الإيراد تدفعه الحكومة المصرية نفسها في صورة مسموحات جمركية وتبرعات من الحكومة ومن مجالس المديريات . . . الخ »(1) .

ويكتب طه حسين مقالا بعنوان «تلهية»(2) يعقب فيه على نبأ آخر نشر في « السياسة » ، « إن صحّ ما فيه كان فضيحة لا كالفضائح ، ونكرا لا غيره من النكر الذي تعوّد الناس أن يشهدوه في هذه الأيام ، تحدثت السياسة بأن وزير الداخلية القيسى باشا عبث بمجلس النواب وبالأمة المصرية كلها حين زعم للنائب الذي سأله مساء الأربعاء في أمر التبشير بأن الحكومة تريد أن ترصد سبعين ألفاً من الجنيهات لإنشاء ملاجىء ومدارس تؤوى فيها الفقراء والبائسين من أبناء المسلمين وبناتهم »(3) ويذهب إلى أن وزير الداخلية قد « عبث بمجلس النواب وبالمسلمين جميعا من أهل مصر ، حين قص عليهم هذه القصة ، لأن الحكومة لم تفكر في رصد هذا المال لعلاج التبشير ولا لحماية أبناء المسلمين وبناتهم من المبشرين ، وإنما أرصدته لتنفيذ قانون آخر أقره البرلمان ، ولم يكن بينه وبين التبشير والمبشرين صلة ، وهو القانون الذي يقضي بمنع التسول » .

ومن ذلك يبين موقف طه حسين من حملاته ضد سياسة الحكومة ، وهو الموقف الذي انتهى بمحاكمته من أجل مقال « تلهية » هو وعبده حسن الزيات رئيس تحرير « كوكب الشرق » والدكتور هيكل وحفني محمود من الأحرار الدستوريين وقضي عليهم جميعا بغرامات مالية كما تقدم وتعطيل « السياسة » شهرا . على أن هذا الموقف يكشف عن أثر مقاومة الكتاب الوطنيين للتبشير في تأليف قلوب المصريين جميعاً ـ رغم انتماءاتهم الحزبية ، الأمر الذي يبين من التقارب السياسي بين الوفد والأحرار الدستوريين . كما يكشف عن عنف النزال في مقاومة الاعتداء على الحريات في غياب الدستور ، الأمر الذي بلغ مداه بعد استقالة صدقي وتأليف وزارة عبد الفتاح يحيي على سنتها(4) بما عرف بنزاهة الحكم ، حين واصلت الصحف تضامنها في مقاومة الفساد الناجم عن غياب النزاهة

(1) السياسة في 28 يونيو 1933 .
(2، 3) كوكب الشرق في في 20 يونيو 1933 .
(4) الدكتور محمد حسين هيكل: مرجع سبق ص 353 .

الدستورية والسياسية ، تأسيساً على أن صلاح السياسة الداخلية هو السبيل إلى الحفاظ على مقومات الأمة ، ولذلك أثارت هذه القضية اهتمام الرأي العام المصري ، ذلك أن طلعة الناس في مصر لا يثير شيء كما يثيرها العبث بالحكم (1) .

أما موقف طه حسين من الأزهر وهيئة كبار العلماء ، فهو استمرار لموقفه من الاتجاه السلفي ومقاومة سلطة رجال الدين حين تنحرف إلى خدمة سياسة الحكومة ، ذلك أن « صحيفة الوزارة لم تكن تتحرج من أن تنال خصوم الوزارة في دينهم وأخلاقهم وكراماتهم معتمدة في ذلك على أكاذيب الكاذبين من شيوخ الأزهر واختلافات المختلقين من غير شيوخ الأزهر زاعمة أننا آخر من ينبغي أن نتحدث عن المبشرين أو يذود عن الدين لأن واحداً أو غير واحد من المأجورين والموتورين والذين لا يشفقون من أن يبيعوا ضمائرهم بمنصب أو مقدار من المال قليل أو كثير لفق طائفة من الأكاذيب واصطنع طائفة من الأضاليل وأعانته الحكومة الإسلامية الصالحة القائمة التي يقطر منها الإيمان ويتصبب منها الورع كلما قالت أو تحركت أو عملت ، فأخذ يذيع أكاذيبه وأضاليله بأعين الحكومة التي تدفع عن الدين ، وتذود عن الأخلاق ، ولا تؤثر إلا الحق والصدق فيما تعمل وما تقول ، ولكننا لم ننتظر وما تعودنا أن ننتظر رأي حامي الإسلام وداعيه ووزير التقاليد ومن يعمل لهما ، من هؤلاء الذين يتخذون دين الله تجارة ويسلكونه طريقا إلى هذا النعيم الزائل في هذه الحياة الزائلة »(2) .

ويأخذ طه حسين على هيئة كبار العلماء ورجال الأزهر السبيل ، ذلك أنهم في تحفزهم وهجومهم ضده في « الشعر الجاهلي » التزموا موقف الصمت من خطر التبشير على الدين .(3) و« ينام البرلمان والوزارة والشيخ ملء جفونهم ، ويحلم البرلمان والوزارة والشيخ بأن أمور المسلمين تجري على خير ما تجري عليه الأمور ، فهم آمنون على أبنائهم وبناتهم أن يمسهم ضر أو يصيبهم إكراه ، وهم مطمئنون على الإسلام أن يعتدى عليه في

(1) الدكتور محمد حسين هيكل: مرجع سبق ص 353.
(2) كوكب الشرق في 16 يونيو 1933.
(3) كوكب الشرق في 9 أغسطس 1933.

دار الإسلام ، حتى إذا ظهر عدوان المبشرين مرة أخرى ، واتصلت شكاة المسلمين لج البرلمان والوزارة والشيخ في هذا النوم الهادىء اللذيذ »(1) .

وتبلغ حملات طه حسين ضد السلفيين من هيئة كبار العلماء مداها ، فتصدر بيانا رسميا يتضمن مطالبة الحكومة بسن تشريع عادل يحفظ أبناء الأمة من الوقوع في حبائل المبشرين ، والتبرع لإنشاء مؤسسات إسلامية يؤمها فقراء المسلمين لتغنيهم عن معاهد التبشير(2).

وفي مقابل هذا الموقف ، الذي اتسم بالسلبية والصمت من جانب الأزهر ، ذهب طه حسين إلى تأييد « جماعة الدفاع عن الإسلام » التي اتخذت مواقف إيجابية في مقاومة التبشير ، وأقرت « الأمور في نصابها ، واصطنعت صراحة لا تدع سبيلا إلى الغموض ، وحزما لا يمكن أن يتهم معه بالضعف أو الفتور »(3) ويذهب طه حسين إلى أن بيان هذه الجماعة الذي وقعه الشيخ المراغي ، قد ارتفع بهذه القضية عن أن تكون قضية طائفية يختص بها فريق دون فريق ، ويلج فيها بعض المصريين دون بعضهم الآخر ، وجعلها قضية مصرية خالصة تنهض بها مصر في وجه الأجنبي الذى يغزوها في أرضها ويعتدى على مرافقها وعقائدها . فالأستاذ ومن ورائه جماعة الدفاع عن الإسلام لا يذود عن الإسلام وحده ، ولكن يذود عن المسيحية أيضا ، بل هو يذود عن الحرية المصرية كلها »(4) .

ومن ذلك يبين ارتباط موقف طه حسين من التبشير ، بعقيدته الدينية التي تلزمه « الذود عن حرية الرأى ، وأن يتوخى الحق في كل ما يقول وما يعمل »(5) كما يرتبط باعتبار الإسلام مقوما خطيرا من مقومات الوطنية المصرية ، فيجب « أن يحميه المصريون جميعا »(6) والحق أن « لا إكراه في الدين ، فيجب على المصريين جميعا وعلى الحكومة في مقدمة المصريين جميعا أن يحموا كل دين قائم في مصر من الإكراه مهما يكن »(7) . فليس

---

(1)كوكب الشرق في 12 يونيو 1933 .
(2)كوكب الشرق في 29 يونيو 1933 .
(3، 4، 5)كوكب الشرق في 29 يونيو 1933 .
(6، 7)المرجع السابق.

التبشير عدوانا على الإسلام فحسب، ولكنه «اعتداء على الحرية الإنسانية، واعتداء على الحضارة»(1)، فإذا كان «التبشير مباحا أو مستباحا في البيئات الهمجية التي لم تأخذ بحظ من رقي، ولم تنل نصيبا من ثقافة، فإن من القبيح الممقوت أن يتخذ التبشير وسيلة إلى محاربة حضارة قائمة لها مجدها ولها حظها الرفيع من الرقي ولها أثرها البعيد في تهذيب الناس»(2).

وتأسيسا على هذا الفهم يتجه المقال الاجتماعي في صحافة طه حسين اتجاها قويا في مقاومة التبشير، فنحن ـ كمصريين ـ نريد أن «نأمن على أنفسنا وحريتنا وأن نأمن على آرائنا وعقائدنا، وأن نأمن على ديننا وشعائرنا وهذا أيسر ما يطلبه الناس. وهذا أيسر ما تنهض به الحكومات في أي بلد من بلاد الأرض. نحن لا نكره غير المسلمين على أن يسلموا، ولو قد حاول أحد منا شيئا من ذلك لبطشت به حكومتنا فاشتدت في البطش، ولنكلت به حكومتنا فألحت في التنكيل. أستغفر الله بل إن رجال الدين عندنا لا يدعون المسلمين إلى الدين ولا يفكرون في دعوتهم إليه، ولو قد فعلوا ذلك أو هموا أن يفعلوه لعج الأجانب وضجوا، ولأنكر الوزراء المفوضون واحتجوا، ولتقدمت حكومتنا إلى رجال الدين في أن يكفوا عن هذه الدعوة، ويكتفوا بوعظ المسلمين وإرشادهم إلى الخير»(3).

على أن قضية التبشير في الصحافة المصرية تكشف عن خيوط فكرية وسياسية حكمت الصراعات التي فجرها طه حسين مع زملائه من. كتاب المقال الصحفي، وهي الخيوط التي ترتبط بمسرح الأحداث السياسية والإجتماعية والفكرية في مصر فيما بعد، كنتيجة وسبب معا للتبشير، وبالقياس إلى المقاليين من قادة الفكر بصفة خاصة. ويكفي أن نجمل الإشارة إلى بعض عناوين هذه الآثار والنتائج في النقاط التالية:

أولا: أن قضية التبشير - قد ألفت بين قلوب المصريين ـ كما تقدم ـ رغم

(1) المرجع السابق.
(2) المرجع السابق.
(3) كوكب الشرق في 4 أبريل 1933.

انتماءاتهم الحزبية ـ في مقاومة عدوان المبشرين ، وما يرتبط به من ملابسات السياسة الحكومية المصرية في الداخل ـ الأمر الذى أسهم مع غيره من الأمور في تعجيل نهاية الوزارة الصدقية في سبتمبر 1933 ، وعرف الإنجليز أن إرادة الشعب أقوى من كل عنف أو بطش أو قمع ، وبادرت الحكومة الإنجليزية بتغيير سفيرها في مصر ، وهو الأمر الذى يكشف عن النتيجة التالية:

ثانياً: أن قضية التبشير قد دعمت من مقاومة الاستعمار والامتيازات الأجنبية في نفوس المصريين ، الأمر الذى ظهر أثره المباشر في تغيير المندوب السامي عقب استقالة الوزارة الصدقية ، ثم في معاهدة 1936 التي نصت على السعي إلى إلغاء الامتيازات الأجنبية في مصر وما يتبع ذلك من إلغاء القيود المالية التي تقيد السيادة المصرية في شئون التشريع والصحافة والاقتصاد ونحو ذلك ، وهي الامتيازات التي اتفق على إلغائها في مؤتمر مونترو في 1937(1) .

ومهما يكن من شأن هذه المعاهدة وذلك الاتفاق ، فإنهما جاءا ليضعا الحلول التي ذهب إليها المقال الصحفي في مقاومة التبشير ، كما نجد أن مقال طه حسين يتجه إلى التحذير من الخطر العظيم(2) الذى « يتعرض له الموقف السياسي بين مصر وانجلترا في هذه الأيام(3) بفضل مسألة التبشير والمبشرين: فقد أخذت هذه المسألة تخرج من وضعها الطبيعي إلى وضع آخر يدفعها إليه الإنجليز بما لهم من مهارة وبراعة في انتهاز الفرص واستغلال الظروف لتحقيق مآربهم وكسب ما يريدون . قوم من الأجانب اعتدوا ولعلهم لا يزالون يعتدون على المصريين في أطفالهم وضعفائهم . يصرفونهم عن دينهم ، سواء كان هذا الدين هو الإسلام أم المسيحية الارثوذكسية ، بالترغيب والترهيب ، وبالإغراء والإكراه فأنكر المصريون جميعا هذا الاعتداء ، ومازالوا ينكرونه ، وألح المصريون جميعا على الحكومة ، ومازالوا يلحون في أن تسلك أقصر الطرق وأشدها ملاءمة للحق والعدل

---

(1)عبد الرحمن الرافعي: في أعقاب الثورة المصرية ج 3 ص 29.
(3،2)كوكب الشرق في 22 يوليو 1933.

والكرامة والمنفعة إلى وقف هذا الاعتداء وأخذ السبيل عليه ، واضطرت الحكومة أمام إلحاح الشعب وبأمر جلالة الملك أن تأخذ بعض الأسباب لتحقيق ما يطلب إليها ، وعجزت عن أن تأخذ ببعضها الآخر إلى الآن . فالوضع الطبيعي لهذه المسألة أن تظل كما هي الآن ، شعب يطالب بحماية حرية العقيدة ، وحكومة تعمل ما استطاعت لتحقيق بعض ما يريد الشعب ولكن الإنجليز أسرعوا فأخرجوا هذه المسألة من هذا الطور إلى طور آخر . وقال وزير خارجيتهم في مجلس النواب منذ أسابيع إنه قد أذن للمندوب السامي بأن يتحدث للحكومة المصرية في مراقبة التبشير والمبشرين ويعني ذلك أنه أقام انجلترا مقام الكفيل بحقوق الأجانب المدافع عنها . وأبى على الحكومة المصرية أن تراقب المبشرين إلا بالاتفاق مع الإنجليز . . (1) .

وينكر طه حسين ذلك ، ويلفت الحكومة إليه(2) ولكن « الحكومة لم تقل شيئاً »(3) ، ذلك أن « هؤلاء الذين أقبلوا إلى هذه البلاد ضيوفاً فلم يرعوا لها حرية ولم يحفظوا لها عهدا وإنما اعتدوا على أهلها جميعاً سواء منهم المسلمين وغير المسلمين ليفتنوهم في دينهم ويصرفونهم عنه بألوان الغواية وضروب الإكراه هؤلاء هم الذين أثاروا الفتنة ، وقد أثاروها مرة ومرة ، وقد ثبت المصريون لهم وصبروا عليهم »(4) . وهؤلاء الأجانب تحميهم امتيازات تشكل وجهاً خطيراً من وجوه الاعتداء على الحرية السياسية ، وهؤلاء الأجانب « يسمعون شكوى المسلمين فلا يحفلون بها ولا يلتفتون إليها ولا يكُفّون سفهاءهم عن هذا الإثم والعدوان ، وهم يعلمون حق العلم أن لو ذهب المبشرون المسلمون إلى بلادهم يدعون فيها إلى الإسلام لردوا عن ذلك رداً عنيفاً ، وهم يعلمون حق العلم أن لو أخذ المبشرون المسلمون يدعون الأجانب في مصر نفسها إلى الاسلام لردوا عن ذلك رداً شديداً أفيريد الأجانب أن نفهم أنهم يأبون أن يعرفوا لنا حقا ، أو يرعوا لنا حرمة ، أو يؤمنوا لنا بكرامة ؟ أفيريد الأجانب أن يستقر هذا الرأي في نفوسنا ؟ وهل يقدر الأجانب نتيجة هذا الرأي إن استقر في نفوسنا بالقياس إليهم ؟ وهل يأمن الأجانب نتيجة هذا الرأي على مصالحهم ومرافقهم عندنا ؟ الخ »(5) .

(1، 2، 3)المرجع السابق.
(4)كوكب الشرق في 18 يونيو 1933 .
(5)كوكب الشرق في في 10 يونيو 1933.

ومن ذلك يتضح مدى عنف التحذير في مقال طه حسين من السياسة الانجليزية في مصر، وحمايتها للامتيازات الأجنبية، فمن «الإثم أن تمضي الحكومة في إعانتهم وأن لا تكف عنهم بما تمنحهم من المال، وأن لا تقتضيهم ما تنزل لهم عنه من المال، وألا تطالبهم بما تحط عنهم من الضرائب»[1] الخ.

ويقترح المقال درءاً لخطر الامتيازات، الذي يكشف عنه التبشير، علاجاً دائماً يتمثل في «تشريع لابد من أن يصدر، ومن أن يصدر في أسرع وقت وأقربه ونؤكد للحكومة والبرلمان أنه أنفع لمصر وأجدى عليها وألزم لها، وأوجب على نوابها وشيوخها ووزرائها من جيل الأولياء وما يشبهه من هذه المشروعات التي إن لم تنفع فإن نفعها مشكوك فيه وهو بعيد على كل حال. هذا التشريع الذي ندعو إليه ونلح فيه هو الذي يمكن الدولة من أن تراقب المدارس الحرة مراقبة دقيقة تتيح لها العلم بما يدرس فيها، وما يلقى على تلاميذها من ضروب التعليم.

وقد فكرت مصر في هذه المراقبة منذ أول هذا القرن، ولكنها كانت تقدم ثم تحجم، وتدنو ثم تنأى، ونظن أنه قد أصبح من الحق عليها ألا تتردد في إصدار هذا التشريع بعد أن أخذ التعليم الحر على اختلافه يعرض الحياة المصرية العامة لألوان من الخطر لا حد لها... وكلها تمس الأخلاق وتمس الكرامة القومية، وتمس الدين»(2).

وتذهب صحيفة الوزارة إلى أن هذا الاقتراح «تعجيز للوزارة وإحراج لها»[3]، وتفسير ذلك عند طه حسين، يرجع إلى «لغة الساسة البريطانيين»(4) التي «تأبى على الحكومة المصرية أن تراقب المبشرين إلا بالاتفاق مع المبشرين، أو قل إلا بإذن من المبشرين؟ بـ!»[5]. ولعل في ذلك ما يفسر الارتباط القوي بين مقاومة التبشير ومقاومة «الاحتلال في آن معا، الأمر الذي يبين بوضوح من ترحيب طه حسين بمعاهدة 1936 وإلغاء الامتيازات في «مستقبل الثقافة في مصر» حين يسجل

---

(1) كوكب الشرق في 29 يونيو 1933.
(2) كوكب الشرق في 15 يونيو 1933.
(3) الشعب في 4 يوليو 1933.
(4) كوكب الشرق في 6 يوليو 1933.
(5) كوكب الشرق في 22 يوليو 1933.

حصاد هذه المقاومة ، فيذهب إلى مصر « تبدأ عهدا جديدا من حياتها إن كسبت فيه بعض الحقوق فإن عليها أن تنهض فيه بواجبات خطيرة وتبعات ثقال »(1) . ويذهب إلى تفصيل النتائج التي أسفرت عنها مقاومة التبشير في مقاله ، من أشراف للدولة على شئون التعليم لحياطة الاستقلال (2) إلى وجوب مراقبة التعليم في المعاهد الأجنبية (3) وفرض التعليم الديني في هذه المعاهد(4) وأن يكون هناك قدر مشترك من مناهج التعليم في جميع المدارس مصرية كانت أو أجنبية أو معاهد دينية(5) .

ثالثا: إن قيام طه حسين « بدور » إيجابي في مقاومة التبشير قد أثمر أثرا إيجابيا في اتجاهاته نحو نفسه ونحو قرائه ، واتجاهات المجتمع المصري إزاءه ، بعد الأثر الذي تركته قضية الشعر الجاهلي وما اتخذ ضده من إجراءات ، حركت العوامل الوسيطة ، في الإتجاه السلفي المحافظ شأنه في ذلك شأن المقالين من قادة الفكر المصري الحديث مثل الدكتور محمد حسين هيكل وعباس العقاد وغيرهم من الذين اتجهوا إلى طريقة مثلى في مقاومة التبشير وتدعيم القيم الإيجابية في المجتمع الاسلامي ، من خلال الاسلاميات التي جاءت رد فعل قويا لحركة التبشير ، تنشد وفاقا إنسانيا بين الأصالة الدينية والثقافة الغربية .

فيتفق طه حسين مع أحمد أمين وعبد الحميد العبادي على كتابة التاريخ الإسلامي من فجرالإسلام حتى آخر عصر الدولة الأموية ، بحيث يختص كل منهم بجانب من هذا البحث فاختص طه حسين بالحياة الأدبية في الإسلام وأحمد أمين بالحياة العقلية والعبادي بالحياة السياسية .(6) ويأتي كتاب « على هامش السيرة » ثمرة إيجابية من ثمار التدعيم للقيم الروحية والذي نشر فصوله في مجلة « الرسالة » عام 1933 أثناء اشتداد حركة التبشير وهو لذلك يذهب إلى أن فصول هذا الكتاب ، تؤازر مقاله الصحفي في مقاومة عدوان المبشرين ، فهي « صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين

---

(1)مستقبل الثقافة ج 1 ص د، 71 ـ 93.

(2، 3)مستقبل الثقافة ج 1 ص 5، 71 ـ 93.

(4، 5)المرجع السابق ص 71 ـ 93.

(6)الدكتور طه حسين: مقدمة فجر الاسلام« لأحمد أمين ص د ».

لأني لم أرد بها إلى العلم ولم أقصد بها إلى التاريخ »(1) ومن ذلك يبين اتجاه هذه الفصول إلى الجماهير العريضة من المسلمين ترد عليهم « أطرافا من الأدب القديم قد أفلتت منهم وامتنعت عليهم فليس يقرؤها منهم إلا أولئك الذين أتيحت لهم ثقافة واسعة عميقة في الأدب العربي القديم » ،(2) وهو لذلك يتوسل بتبسيط سيرة ابن هشام وعرضها عرضا جديدا في صورة « يسيرة طبيعية صادقة لبعض ما وجد من الشعور حين قرأها » ،(3) وذلك حتى يجنب الشباب التأثر بمزاعم المستشرقين والتي اجتذبت فريقا مهم إلى قراءة كتبهم ، بعد أن عزت عليهم قراءة « الأسانيد المطولة والأخبار التي يلتوي بها الاستطراد ، وتجور بها لغتها القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل والذوق الهين الذي لا يكلف مشقة ولا عناء »(4) .

وتأسيسا على هذ الفهم فإن ما يذهب إليه الأستاذ إبراهيم أحمد (الذي كان مبشرا ثم أعلن إسلامه)(5) من أن «المستشرقين يتناولون موضوعات الدكتور طه حسين التجديدية من زاوية تختلف اختلافا جوهريا مع الحق ومع رسالة العلم»(6) قول صحيح في جملته. فالتحليل الإعلامي لمقالات طه حسين في مقاومة التبشير، يكشف ــ كما تقدم ــ عن تدعيم للقيم الروحية والدينية في المجتمع المصري ، وفي نفوس الشباب خاصة(7) . لأن طه حسين يرى في هذه القيم « غذاء لما حوى العقل من ملكات »(8) ، ولا تكشف المقارنة بين « الشعر الجاهلي » و« على هامش السيرة » عن « انتقال من العلم إلى الأدب »(9) فحسب ، كما يذهب إلى ذلك الدكتور هيكل ولكنها تكشف عن تكامل التغيير والتدعيم في الاستراتيجية القومية وراء مقال طه حسين واتجاهاته الفكرية ، ولعل في ذلك ما يلقي الضوء على قول طه حسين في الجزء الثاني من « السيرة »:

« . . . أظن يابني بأن لروحك غرائز كما لجسدك غرائز ، وأن هذه الغرائز التي لروحك ولجسدك ليس لها مصادر نابعة من الروح ، وإنما هي من صميم طبيعة كل فرد ، ومن صميم تكوين كل فرد ، وحاجة الروح إلى الأيمان يا بني كحاجة الجسد

(1، 2، 3) على هامش السيرة ج 1 المقدمة.
(4)المرجع السابق ص هـ.
(5 ، 6)ابراهيم خليل أحمد « المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والاسلامي ص 38 .
(7 ،8)على هامش السيرة ج 1 ــ ص . ي.
(9)الدكتور محمد حسين هيكل: ملحق السياسة 5 ديسمبر 1933 .

إلى الطعام والشراب »(1) . فإذا كان الأمر كذلك بالقياس إلى الأفراد ، فإنه بالقياس إلى المجتمع يحقق التوازن بين عناصر الأصالة وعناصر الاستحالة أو التجديد ، ذلك أنه بدون تحقيق هذا التوازن ، فإن الصحافة قد تتيح الفرصة لغزو ثقافي(2) ، ولذلك فإن مقاومة التبشير في مقال طه حسين تقوم بوظيفة التعبئة والتوعية ، في مواجهة التهديدات التي قد تعصف بالاستقرار الجماعي ، ولذلك وجدنا مقاله يتجه إلى المحافظة على التراث القومي من خلال تدعيم القيم الروحية ، كما يتجه إلى حماية التراث من خطر التقوقع وعرقلة النمو الثقافي ، بما يقدمه من إثراء للثقافة المصرية متوسلا بالتنوير الثقافي والحضاري . ذلك أن طه حسين ــ كما تقدم ــ لا يرفض القديم لقدمه ولا يقبل الجديد لجدته ولكن معيار القبول والرفض هو النفع العام . ومقاله الصحفي في قيادة الفكر(3) يمتاز بالحرص على المعايير الإيجابية للجماعة وزيادة تعرضه لوسائل الأعلام ، ليدفع الشعب المصري « قديمه العزيز إلى جديد عزيز ، ويدفع ماضيه المجيد إلى مستقبل مجيد ، ويحس من نفسه القوة على أن ينظر إلى قديمه فلا يغض رأسه استخذاء واستذلالا ، وأن ينظر أمامه فلا يرد بصره عجزا وقصوراً »(4) .

وتدعيم هذه القيم الإيجابية يعصم المجتمع من « الضعف واليأس »(5) لأن التراث الإسلامي بما فيه من قيم نضالية تجعل المسلمين « يثبتون للروع كما تثبت جبال مكة »(6) ، فلن يستطع المعتدون والظالمون أن(7) « يبلغوا من نفوس المصريين والمسلمين ما يريدون ، ولا أن يردوا هذه النفوس إلى الرضى بالذلة ، والإذعان للضيم ، مادام الفلك يدور ، وما دامت تمر بالمصريين والمسلمين هذه الأيام التي تذكر بالقديم المجيد ، وتدفع إلى الجديد المجيد ، والتي تملأ القلوب بما فيها من عبرة وعظة وذكرى ، ولأمر ما قال الله عز وجل « وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

---

(1)على هامش السيرة ج 2 ص 55، 56.
(2)الدكتور ابراهيم امام: دراسات في الفن الصحفي ص 90، 92.
(3)الدكتور ابراهيم امام: الاعلام والاتصال بالجماهير ص 166.
(4، 5)كوكب الشرق في 26 ابريل 1933.
(6)المرجع السابق.
(7)المرجع السابق.

رابعا: إن قضية التبشير لم تحـدث تدعيما للقيم الإيجابية في المجتمع فحسب ، ولكنها أحدثت الأثر نفسه في الرؤيا الإجتماعية عند طه حسين ، الذي قام « بدوره » في المقاومة كجزء من البناء الاجتماعي المصري ، الأمر الذي يجعله كمرسل على وفاق متبادل مع المستقبل ، ذلك أن الاتصالات المختلفة التي تمت من خلال مقاله الصحفي وفصوله الإسلامية ، بالمجتمع ، ليست أفعالا عشوائية ، ولكنها عنصر في نمط كلي من التفاعلات المستمرة في النسق الاجتماعي الكلي ، فالقيام « بدور » في الاتصال الجماهيري ،(1) يؤدي في نهاية الأمر إلى اعتناق الآراء التي يرددها ، من خلال ترتيب الشواهد وأساليب الإقناع للجماهير ، ذلك أن الأسلوب الوظيفي في دراسة الإدراك والتذكر والانتقاء يذهب إلى أن الكاتب يتذكر مادته على ضوء تصوره للجمهور في ذهنه(2) . كما تبين من العـلاقة بـين « الشعر الجاهلي » و « التبشير » ، ذلك أن تدعيم القيم الروحية هو تدعيم « لقوة الفرد أو الأمة »(3) ، ولكن عقول الناس تتغير من زمن إلى زمن ، ولذلك يجب التعبير عن هذه الرموز تعبيرا جديدا .

وفي ضوء هذا الفهم ، نجد أن مقاومة الاتجاه السلفي المحافظ ، هي مقاومة لعرقلة « النمو الثقافي ، كما نجد في مقاومته لشيخ الأزهر و « هيئة كبار العلماء » ، ولعله كان متأثرا في ذلك بموقفهم تجاه « الشعر الجاهلي » « حين » طلبوا إلى الدولة مصادرة كتب المسلمين »(4) ، ولكنه يستنهض همم هؤلاء لمقاومة « الغزو الثقافي » المتمثل في التبشير والذي اتخذوا منه موقفا سلبيا ، يبين من قول طه حسين الساخر:

« إنما يتحدث عن التبشير والمبشرين رجل فارغ البال ، هادىء الحال كالأستاذ المراغي »(5) ، يشير بذلك إلى جماعة « الدفاع عن الاسلام » التي تحملت عبء مقاومة التبشير خارج صفوف الأزهر وضمت صفوة المفكرين وعلماء الدين .

ومقاومة الغزو الثقافي ، عند طه حسين ، تجعله يقاوم اتجاهات المبشرين أنفسهم ، الذين وجهوا إليه رسائل يصفونه فيها بأنه « رضع لبان الحرية في بلد

Raymond A. Baver, «The Communicator and the Audience» Dexter and White(2، 1) (Eds.) People, pp. 125 – 130.

(3)الدكتور ابراهيم امام: مرجع سابق.

(4)كوكب الشرق في 18 يونيو 1933 .

(5)كوكب الشرق في 14 يوليو 1933 .

الحرية »(1) يطلبون إليه ألا يغفل « حرية الضمير »(2)، ويرفض تفسير مقاومة التبشير على هذا النحو، ذلك أن مقاومة التبشير عند طه حسين « دفاع عن حرية الضمير وحماية لها وقيام دون ما يراد لها من العبث والبغي والطغيان »(3)، كما أن هذه المقاومة دفاع عن « الحرية التي اجتمعت كلمة المصريين على حبها وتقديسها واتخاذها أساساً للوحدة القومية ونورا تهتدي به مصر في سبيل العزة والمجد والاستقلال»(4) ويجمل رده على هؤلاء المبشرين في هذا التساؤل القوي:

ــ « أفإن دعوت إلى حرية الضمير يقال إني أهمل حرية الضمير أو أعتدي عليها، أفإن دعوت إلى احترام المرأة يقال إنني أغض من قدر المرأة أو أنكر عليها حقها في الاحترام »(5).

ونخلص مما تقدم إلى أن هذه القضية قد أسفرت عن الالتصاق الوثيق بين الكاتب والمجتمع، وتحديد المسئولية الملقاة على الكاتب في التوجيه الروحي والفكري، أمام ضميره أولا، وأمام مجتمعه ثانيا، وهي علاقة تضامن حقيقي بين الكاتب والمجتمع(6).

القضية الاجتماعية وتطوير العوامل الايجابية:

يبين مما تقدم، أن تدعيم القيم الاجتماعية، لم يقف عند تدعيم القيم الروحية فحسب، ولكنه يرتبط كذلك بالقضية الاجتماعية في مصر بملابساتها السياسية وأزمتها الاقتصادية، وعلى ذلك فإن كتاب « مستقبل الثقافة » ليس أول رسالة في الأدب الإصلاحي، تزايدت بعدها الكتابات بشكل ملحوظ خلال السنوات الخمس التي سبقت الثورة، كما يقول جاك بيرك(7)، ذلك أن هذا الكتاب جاء ثمرة لمقال طه حسين في الاتجاه الاجتماعي قبل صدوره بسنوات طويلة، كما سيجيء عند الحديث عن التعليم الذي اتجه إليه مقاله في عشرينات هذا القرن. ولكن الشق المتعلق بإصلاح النظام الاجتماعي يرتبط بحوادث التبشير والأزمة الاقتصادية والسياسية في ثلاثينات هذا القرن. قبل صدور كتابه بخمس سنوات تقريبا، حين تلمس بنفسه

(1، 2)كوكب الشرق في 21 أغسطس 1933.
(3، 4، 5)كوكب الشرق في 22 أغسطس 1933.
(6)الدكتور طه حسين: ألــوان.
(7)مرجع سبق ص 39. أيضا: الغرب تاريخ ومستقبل.

في مصر قوما « يشقون لا بالجوع الذى يحسونه هم وحدهم ، بل بالجوع الذي يحسه النساء والأطفال »(1) والذي بلغ مداه في نبأ بيع طفلة أمام مسجد من بيوت الله ــ كما تقدم ــ والذي قابلته الوزارة الصدقية بفتور يكشف عن انفصالها عن قضايا المجتمع ، يظهر من قول صحيفتها(2) . « لا تثور مصر وهي جائعة »(3) ، وهو القول الذي يكشف كذلك عن سياسة البطش بالحريات بإزاء قضايا المجتمع المصري ، واغفال قضايا التغيير الاجتماعي ، كنتيجة لنمو طبقة ملاك الأراضي والرأسمالية الناشئة ، وتصديها لقيادة الأحزاب في حكومات الأقلية .

على أن الأحزاب السياسة التي نشأت بعد الثورة ، قد ضمت مقالين من قادة الفكر الذين لم يغفلوا مطلب التغيير الاجتماعي ، فكان العقاد من أوائل الذين بذروا الفكرة الاشتراكية وبين أصولها النظرية في 1922(4) ، ولكنه لم يقبل الاشتراكية الماركسية ، شأنه في ذلك شأن طه حسين ، وغيرهم من الذين لا يحسبون أنفسهم من الاشتراكيين ولا يحسبهم الاشتراكيون منهم ، وهم مع ذلك يتجهون إلى إصلاح النظام الاجتماعي في مصر اتجاها يتفق مع قيمهم الفكرية والحضارية والاجتماعية .

وعلى ذلك ، فإن المعاناة الشخصية في الريف التقليدي المصري ، التي قضى فيها طه حسين أهم سنوات التكوين ، لم تجنح به إلى قبول الاشتراكية الماركسية كما يذهب إلى ذلك بعض الكتاب(5) مستندين إلى كتاباته ومواقفه التي دافع فيها دفاعا متصلا عن الفقراء ، وقاوم فيها فساد النظام الاجتماعي الذي لا يكفل لهم حقوق الغذاء والمسكن والتعليم والدواء ، ذلك أن هذا الجانب الاجتماعي من استراتيجية طه حسين القومية ، إنما هو نتاج الشعور بالتضامن الاجتماعي كأقوى ما يكون ، وهو حين يخير بين الرأسمالية والاشتراكية الشيوعية يرفضهما معا ، ذلك أن أنصار العدل من الشيوعيين والاشتراكيين يعتمدون قبل كل شيء على المادية التي تجمد الديانات جمودا تاما ، وتنظر إلى الحياة الاجتماعية على أنها نتيجة لازمة لتطور تاريخي محتوم ، وأصحاب الحرية (الرأسمالية) ، ولاسيما منذ

---

(1)كوكب الشرق في 10 يوليو 1933 .
(2،3)الاتحاد 3 يونيو 1933 .
(4)عبد العزيز شرف: عباس العقاد صحفياً ص 276 .
(5)الدكتور عبد العظيم أنيس: الطليعة ديسمبر 1973 ــ محمود أمين العالم.

الثورة الفرنسية ، لا يكادون يحفلون بالدين »(1) ، كما أن « الديمقراطية قد ضمنت للناس شيئا من الحرية وقليلا من المساواة أمام القانون . ولكنها لم تضمن لهم من العدل الاجتماعي شيئا والشيوعية قد ضمنت للناس قليلا أو كثيراً من العدل الاجتماعي فألغت ما بينهم من فروق . . ولكنها ضحت في سبيل ذلك بحريتهم كلها فلم تدع لهم منها شيئا أو لم تكن تدع لهم منها شيئا والفاشية قد ضحت بالحرية والعدل جيمعا »(2) .

ومن ذلك يبين أن القضية الاجتماعية في مقال طه حسين ، ليست نتاج عقيدة مذهبية معينة ، ولكنها نتاج شعور بالتضامن الاجتماعي من خلال رؤية حضارية ، توجه مقاله في الاتجاه السياسي كما توجهه في الاتجاه الاجتماعي والثقافي(3) . وهو في اتجاهه ضد التضحية بالحرية في الاشتراكية الشيوعة ، يرفض كذلك ما وصفته به مجلة « الفجر الجديد » اليسارية في الأربعينات بأنه « كاتب بورجوازي ليبرالي » ، ذلك أنه يرفض كذلك « التضحية بالعدل الاجتماعي » .

وتأسيساً على هذا الفهم ، يتجه طه حسين في اتجاه « ثالث بين هذين المذهبين يلائم بين الحرية والعدل من جهة وبين الدين من جهة أخرى ، ويتخذ الدين أساسا لحياة إنسانية جديدة ترتفع عن المادة وترقى إلى المثل العليا ، وتؤمن بأن في الانسان قوة لا تستطيع أن تحيا ولا أن تثمر ولا أن تتيح للإنسان حظه في الرقي إلا إذا اتصلت بمصدرها القدسي الأول من طريق الإيمان والثقة والأمل ـ أقول إذا أمكن أن ينشأ هذا المذهب كان في نشوئه الخير كل الخير ، لأنه يصلح ما أفسدت الثورة ، فيرد إلى الدين مكانته في القلوب وسلطانه على النفوس ، ويعصم الناس من المادية الجامحة والإلحاد المتمرد ، ويكفل لهم في الوقت نفسه نصيبا معتدلا من الحرية ، ويتيح لهم في الوقت نفسه سعيا متصلا إلى تحقيق العدل في الأرض »(4) .

(1 ، 2)الدكتور طه حسين: « بين العدل والحرية» ـ الكاتب المصري يوليو 1946 ـ ألوان ص 244، 245.

(3)الدكتور طه حسين: هذا مذهبي ـ الهلال مارس 1955.

(4)الدكتور طه حسين: مرجع سبق.

وتتحدد معالم الاتجاه الثالث في مقال طه حسين بأن يتحقق فيه « العدل من غير عنف ، وتتحقق فيه الحرية من غير ظلم ، ويذوق الناس فيه سعادة لا يشوبها بؤس ولا شقاء »(1) ويجد هذا الاتجاه بمعالمه ومثله العليا في صدر الاسلام « فقد أراد عمر أن يحمل المسلمين على ذلك ، ومضى بهم في سبيله قدما ، وحقق لهم منه شيئا كثيرا »(2).

ذلك أن الاتجاه الجديد في المجتمع المصري الإسلامي ، لا ينظر « إلى ما وراء البحر الأبيض المتوسط ، يلتمس في أوربا مصادر هذا الشعور بالحاجة إلى العدل الاجتماعي »(3) ، لأن المذاهب الأوربية لا تتلاءم مع اتجاه هذا المجتمع ، الذي يوجهه طه حسين إلى فكرة المطالبة بالعدل الاجتماعي ، كما وجدها المسلمون قبل أن ينتصف القرن الأول للهجرة »(4) بل إن « المتطرفين من قدمائنا قد سبقوا إلى طائفة من الأصول في تنظيم الحياة الاجتماعية لم تستكشف في أوربا إلا في القرن التاسع عشر أو في عصر الثورة الفرنسية الكبري . فنحن إذن لسنا عيالا ولا يمكن أن نكون عيالا على المطالبين بتحقيق العدل والثائرين على الظلم الاجتماعي من الأوربيين ، وإنما نحن أبعد منهم عهدا وأشد منهم ممارسة لهذا النحو من محاولة الإصلاح »(5). كما أن الاتجاه شطر الإسلام يحقق هذا المزج الدقيق بين العدل والحرية ، في حين أن « الستار الحديدي الذي يقال إن روسيا قد ألقته من دون جزء عظيم من أوربا الشرقية والجنوبية ليس إلا سورا منيعا يحول بين الحرية والعدل ، وبين أن يلتقيا وجها لوجه ويصطدمان في ميدان واحد فأوربا الغربية خاضعة للحرية وما تستتبع من تنافس وخصام ، وأوربا الشرقية خاضعة للعدل وما يستتبع من تسلط وقهر وكبح لجماح المنافع والأطماع »(6).

ومن ذلك يبين أن المقال في الاتجاه الاجتماعي عند طه حسين ، يرتبط « بظواهر الحياة الاجتماعية »(7) في مصر « بأصولها المعروفة وقواعدها التي يلزمها الناس »(8) ، وهو لذلك لا يعبر البحر إلى استيراد مذاهب اجتماعية

(1، 2)الدكتور طه حسين: مرجع سبق.
(3، 4، 5)الدكتور طه حسين: « ثورتان » ـ الكاتب المصري مايو 1946 ـ ألوان ص 168.
(6)ألوان ص 242.
(7، 8)كوكب الشرق في أول أغسطس سنة 1933.

أو اقتصادية ، ولكنه يستقرىء المنابع الأولى في التراث الإسلامي ، والمصري، ذلك أن الايمان الديني « لا قوام للأمم بدونه وهو شعور التضامن بين أبناء الشعب الواحد ، حتى يصبحوا وكأنهم أخوة لا يسعد أحدهم إلا إذا سعدوا جميعاً ، ولا يشقى أحدهم إلا أصابهم جميعا ما أصابه من الشقاء ، وكأنهم أعضاء في جسم واحد لا يألم عضو إلا شاع الألم في الجسم كله »(1) .

وتستمد الرؤية الاجتماعية خصائصها من الخصائص المأثورة عن المجتمع المصري ، أنه مجتمع متكامل العناصر والطبقات ، مثله في ذلك مثل المدرجات النيلية سواء بسواء . والأصل في الحياة المصرية هو التضامن بين الآحاد والمنظمات ولم يكن التفريق أو التباعد أو التشتت إلا سمة من سمات الأستعمار والإقطاع(2) .

ولذلك رأينا « التضامن الإجتماعي » يتخذ مكانه الواضح في المقال الصحفي عند طه حسين في توجيه الحياة . وسعيه الدائب إلى التخلص من تلك العوامل المصطنعة التي تقاوم التضامن وتجعله جهداً مظهريا فحسب . ذلك أن أخص صفات الإصلاح أنه أشبه شيء بالأنهار الجارية لا ينبغي لها أن توقف ولا تهمل مجاريها ، وإنما ينبغي أن تتعهد بالعناية والرعاية حتى تفيض بالخير على الناس جميعاً وعلى الطبيعة الحية كلها .(3)

ومن خلال هذه الرؤية يذهب مقال طه حسين إلى مقاومة « عقدة النظام الإقتصادي البغيض الذي شقيت به مصر ، والتي قسمت الشعب إلى الأغنياء المترفين الذين ينفقون بغير حساب فيما لا يغني عنهم ولا عن غيرهم شيئاً ، والفقراء المعدمين الذين يشقون بغير حساب لأنهم لا يجدون ما يقيم الأود أو يرضى حاجة الإنسان الذي يستطيع أن يكون إنساناً »(4) . ولذلك يتجه المقال الاجتماعي في مقاومة « المرض والفقر والجهل ، أو الأعداء الثلاثة التي كانت الحكومة تتشدق بها فيما مضى »(5) ذلك أن طه حسين ينظر إلى هذه الكلمات نظرة عملية واقعية تنبع من

---

(1)الدكتور طه حسين: « نقد واصلاح » ص 204.
(2)الدكتور عبد الحميد يونس (وآخرون) كفاح الشعب والجلاء ص 154.
(3، 4، 5)الدكتور طه حسين: نفس المرجع ص 205.

رؤيته الاجتماعية تلك . وهي لذلك كلمات « عسيرة معقدة حين نحاول أن نحقق معانيها في نفوسنا فهي تصور أشقى ما يمكن أن يفرض على الناس من ضروب الحياة ، وهي تمتحن نفوسهم بألوان لا تحصى من التعقيد الذي يميت القلوب ويفل الحديد ويلغي النشاط ويبغض العيش إلى الناس »(1) .

وتأسيساً على ذلك يذهب إلى وجوب « التضامن » بين العلم والدين والسياسة في تحقيق « التضامن الاجتماعي » ، ذلك أن الديمقراطية في مفهوم طه حسين ليست كلاماً يقال ولا هي دعوة تنشر ولا تذاع ، وإنما هي أعمال يقدم عليها أصحابها عن بصيرة ويحققونها عن رؤية . وليس يكفي أن يقال للناس كلوا ليأكلوا ويأمنوا شر الجوع ، وليس يكفي أن يقال للناس تعلموا ليتعلموا ويأمنوا شر الجهل ، وإنما ينبغي أن يهيأ الطعام على قدر الطاعمين وأن يهيأ العلم على قدر المتعلمين فإن لم نفعل كانت دعوتنا إلى الطعام والعلم أشبه بعبث جحا حين أراد أن يقسم تسع عشرة أوزة على عشرين رجلا قسمة متساوية(2)، ذلك أن الحكومة قد أنشئت لتجري أمور الناس بينهم بالقسط ، ولو أن جحا أصلح الأوز وهيأه للطعام لحار أن يغذي بهن مائة أو مئات من الناس دون أن يقع بين هؤلاء الناس صراع أو قراع ، ولكن جحا لم يكن مصرياً ولا عربيا وربما كان له حظ من دعابة ولكنها دعابة غير عاقلة ، ولو كان مصرياً عربياً لعرف أن في مصر أمة تمتاز بخصلتين إحداهما القناعة والرضى بالقليل والأخرى الإيمان بالمعجزات والكرامات(3) . وعلى ذلك فإن « القليل » حين يقسم قسمة عادلة « يكفي الكثير »(4) لأن المصري إلى جانب إيمانه بالبركة « يؤمن بالعدل كذلك »(5) في « الحقوق والواجبات »(6) لا يمتاز عن أخيه إلا « بالتقوي والأعمال الصالحات »(7) .

على أن العدل الإجتماعي عند طه حسين ليس « فتيات تملأ علينا أرض مصر جمالا وأملا وخوفا وإشفاقاً فحسب »(8) ولكنه يذهب إلى

(1)المرجع السابق ص 205 .
(2)جنة الحيوان ص 16، 17 .
(3، 4، 5)المرجع السابق ص 20 .
(6، 7، 8)المرجع السابق ص 20، 104 .

ايقاظ الضمائر من خلال هذه الفتيات اللائي وكلت كل منهن بكل فرد من أفراد المجتمع المصري، تبعث، «أملا مخيفا»(1) عند الظالم والمظلوم على السواء، ليتمثل هؤلاء جميعاً مبادىء المساواة والعدل والحرية، أساس كل حياة «اجتماعية متحضرة تقدر الحرية والكرامة، والعزة، وتطمح إلى تحقيق المثل الأعلى في حياة الشعوب»(2). ولكن المقال الإجتماعي عند طه حسين، في اتجاهه العملي، لا يطمع في أن «يكون ساستنا والناهضون بأعباء الحياة العامة فينا مثلا حية لعمر (رضى الله عنه)، ولا للذين اقتدوا بعمر من خلفاء المسلمين وقادتهم في عصور المجد الإسلامي القديم فذلك مطمع يدل كل شيء على أن تحقيقه في هذه الأيام(3) لا سبيل إليه، وإنما نطمع ومن ــ حقنا أن نطمع ــ في أن تكون سيرة عمر رحمه الله هدياً للذين ينهضون بأعباء السياسة يتأثرونها ما وسعهم ذلك»(4) ذلك أن هذه السيرة تعمق «إذاعة الخير ونشر المعروف وأخذ الناس بحب العدل، والرغبة في الإنصاف، والشعور بمنافع القوى الديمقراطية والإيمان القوي بأنها خير ما صل إليه الناس من أصول الحكم والنظام»(5).

وتأسيساً على هذا الفهم يذهب المقال الاجتماعي في اتجاه التحذير للمصريين «ما دام أغنياؤهم يزدرون فقراءهم، وعلماؤهم يزدردون جهلاءهم وحكامهم يزدرون محكوميهم، ويل للمصريين ما دامت نفوسهم لم تذق حلاوة المساواة حقاً، مادامت المساواة لم تجر مع دمائهم في عروقهم، مادامت المساواة لم تكوّن حياتهم تكويناً»(6). ذلك أن النظام الاجتماعي في مصر ــ كما يصوره طه حسين ــ قد جعل مصر «بين النعيم والجحيم ــ(7) اللذين «لا يختاران أصحابهما وإنما يتخطفانهم تخطفاً، ويستبقان إليهم استباقاً»(8) فأصحاب النعيم، نعيمهم «مقل لا يحب الإكثار، مترفع لا يحب أن يتسفل إلى الدهماء ولا أن يمس العامة بجناح من رفقه ولينه وهو لا ينتخب أصحابه من أهل المعرفة ولا من أهل الجهل»(9) أما أصحاب الجحيم، فهم» الجائعون الضائعون والبائسون

(1)المرجع السابق ص 103.
(2)كوكب الشرق في 16 أكتوبر 1933.
(3، 4، 5)كوكب الشرق في 17 أكتوبر 1933.
(6)كوكب الشرق في 14 اكتوبر 1933.
(7، 8، 9)الهلال في ديسمبر 1947.

اليائسون ، والمأزومون المحرومون الذين لا يحفل بهم أحد ولا يحفلون بأنفسهم »(1) . على الرغم من أن أصحاب النعيم « طفيليون يستغلون جهد أولئك وهؤلاء »(2) ، من العاملين الجاهدين الذين يمثلون عند طه حسين « مصر » بهم حياتها فيجب أن تكون فيهم عزتها . إنما هم مصر ، لهم على الممتازين من المصريين حقوق يجب أن تعرف ، وأن يطالبوا بها ويلحوا فيها ، لهم على أغنيائهم أن يواسوا الفقراء . لهم على علمائهم أن يثقفوا الجهلاء ، لهم على مترفيهم أن يرفهوا المعدمين »(3) .

ومن أجل ذلك ، يتجه المقال الاجتماعي إلى المطالبة والالحاح فيها بحقوق الطبقات العاملة في المجتمع المصري ، من فلاحين وعمال وموظفين ومعلمين ، ذلك أن الفلاح المصري « صورة صادقة لتاريخه المحزن الطويل »(4) . و « شقاء الفلاح وعناؤه ، وجوع الفلاح وظمؤه ، وتعرض الفلاح للأوبئة المهلكة ، والأمراض الفاتكة بسبب الجوع والظمأ والحرمان ، كل ذلك أهون وأيسر من غضب الأجنبي »(5) ، والعمال المصريون ، الذين فصلوا في الوزارة الصدقية ، واصطدموا بالبوليس أمام منزل عباس حليم(6) ، يثيرون قضية اجتماعية تقتضي تشريعات « تشتد على المضربين وتشتد على أصحاب رأس المال ولا تقبلْ من أولئك ولا هؤلاء عبثاً بمصالح الناس ولا تعطيلا لها »(7) ، فطه حسين لا يميل إلى الاضراب « والله يعلم ما نرغّب العمال فيه ، ولا ننصح لهم بالاصرار عليه ، ولكن هؤلاء العمال ناس مثلنا ، ومن الحق عليهم أن يحتملوا الألم ويصبروا للخطوب ، ويجاهدوا في سبيل الحياة ، ولكن من حقهم أيضاً أن ينظر إليهم على أنهم ناس يشعرون ويحسون ويطمعون في الخير ، ويطمحون إلى شيء من حسن الحال ، فإذا كان الألم قد كتب على الناس جميعاً ، فإن الرغبة في تخفيف الألم قد أبيحت للناس جميعاً ، وإذا كانت الحياة

(1 ، 2)المرجع السابق .
(3)كوكب الشرق في 14 اكتوبر 1933 .
(4 ، 5)كوكب الشرق في 12 مايو 1933 .
(6)البلاغ في 21 مايو 1933 .
(7)كوكب الشرق في 17 يونيو 1933 .

لا تستقيم بغير مشقة ولا عناء ، فإنها أيضاً لا تستقيم بغير اجتهاد في تخفيف المشقة وتيسير العناء »(1) .

ويكشف مقال طه حسين عن ازدواجية قضية العمال في مصر ، واختلافنا عنها في أوربا ، بل هي « أشد تعقيداً ، فهذه الخصومات تقع بين قوم تختلف طبقاتهم ، ولكنهم متحدون في الجنس والوطن والمنفعة فأي الفريقين ظلم صاحبه ، أو أسرف عليه فظلمه قبيح ، ولكن خير العمل وشره ، ونفع العمل وخسارته ، راجعة كلها إلى أمة واحدة . أما في مصر فالأمر مختلف ، فالشركات التي تستغل العمال أجنبية ، والعمال الذين يخضعون لهذا الاستغلال مصريون ، فخير العمل وربحه يرجعان إلى الأجنبي أكثر مما يرجعان إلى المصري ، ومن هنا كان العامل المصري في حاجة مضاعفة إلى حماية الحكومة له »(2) .

ومن ذلك يبين ارتباط تأييد طه حسين للعمال المصريين . بالمنفعة الاقتصادية من جهة ، والكرامة القومية من جهة أخرى(3) ، على أنه يحذر إذا لم تعالج وجوه هذه القضية ، من أن « تنتشر في مصر مذاهب في الاقتصاد والسياسة ، نحب أن يتأخر انتشارها إلى أبعد أجل ممكن »(4) ويذهب إلى أن العلاج الملائم يقتضي النظر إلى قضية العمال على أنها « اختلاف جوهري ، أساسي في طبيعة العلاقة بين الشركات والعمال فقد مضى الوقت الذي كانت الشركات تنظر فيه إلى العمال كما تنظر إلى أدوات العمل »(5) ذلك أن « هذا الوقت انقضى وأصبح من الحقائق الواقعة أن العامل شيء ، والأداة شيء آخر وأن العمال شركاء في حقيقة الأمر لأصحاب رؤوس الأموال ، في استغلال أدوات العمل »(6) ، وتأسيساً على ذلك ، فإن الصِلات بين الشركات والعمال ، يجب أن تنبع من هذا الفهم(7) . ويتعاطف مع العاملين في الدولة ، من خلال رؤيته للتضامن

(1، 2)كوكب الشرق في 20 مايو 1933.
(3)كوكب الشرق في 20 مايو 1933.
(4، 5)المرجع السابق.
(6، 7)المرجع السابق.

الاجتماعي ، ذلك أن الموظفين « يعبث بنفوس بعضهم اليأس والحزن والبؤس »(1) نتيجة ما يحدثه « التنافس من فرقة »(2) وعدم العدالة في فرص الترقيات و« الجور المنكر الذي يفرق بين الناس إلى هذا الحد »(3) .

ومن هذه الصور « لأصحاب الجحيم » في النظام الاجتماعي والاقتصادي ، يبين عدم اطمئنانهم إلى « العدل »(4) وتغدو « الحياة في مصر ساخطة قلقة مضطربة »(5) ، الأمر الذي يجعل الرؤية الاجتماعية في مقال طه حسين لا تقنع بالديمقراطية السياسية ، ولكنها يجب أن تحاط بالعدل الاجتماعي الذي يضمن للناس « ما يقيم أودهم ، ويعصمهم من عادية الجوع . ويضمن لهم مع ذلك القدرة على أن يصلحوا أمرهم ، ويتجاوزوا ما يقيم الأود إلى ما يتيح الاستمتاع بما أباح الله للناس من لذة ونعيم في هذه الحياة »(6) وأن يمنح الناس « وسائل الكسب التي يسعون بها في الأرض ، ويلتمسون بها الرزق ، وأن يزال من طريقهم ما قد يقوم فيها من العقبات التي قد تنشأ عن الظلم والجور ، وعن التحكم والاستبداد »(7) .

ومن أجل ذلك يتجه المقال الإجتماعي إلى مقاومة العقبات السلبية التي تنشأ عن الظلم وتعطل العدل الإجتماعي والحرية السياسية معاً ، ومن هذه العقبات ما يرتبط بفساد أداة الحكم ، مثل « المحاباة في تطبيق القوانين من الناحية الإدارية على أفراد الشعب .(8) وغيرها من العقبات التي تستوجب النقد الإجتماعي « الصريح إلى أبعد آماد الصراحة » ،(9) ذلك أن هذه العقبات ترتبط بالتخلف الحضاري ، وتسبب « انحلالا إجتماعياً أو تقلقلا واضطراباً في العلاقات الإجتماعية » .(10)

ويقوم هذا الإتجاه على أساس قومي يجعل لوطنه « مركزاً ممتازاً في

(1، 2، 3)كوكب الشرق في 16 مايو 1933 .
(4، 5)كوكب الشرق في 17 ابريل 1933 .
(6، 7) مستقبل الثقافة ج1 ص 94، 95 .
(8، 9، 10)الثقافة في 17 اكتوبر 1939 .

العالم ، لم يتح له عفواً ، ولم تكسبه له المصادفات » .(1) ولذلك يقاوم ما يصيب الجنس المصري نفسه من علل . نتيجة نقص المواليد وكثرة الوفيات وتناقص السكان ، وما تدخله المهاجرة إلى مصر من أسباب الضعف وألوان الفساد الخلقي أحياناً ،(2) كما يبين من مقالات « المعذبون في الأرض » التي نشرت في مجلة « الكاتب المصري » عام 1948 ، والتي تقاوم هذه العلل جميعاً ، وما أحدثه وباء الكوليرا من النتائج السلبية ، وإرسال المصريين إلى الموت وأصبحت مصر الأم ، « مريضة ، ومرضها هو النزيف المهلك ، ولكنها لا تنزف دماً وإنما تنزف أبناءها وبناتها نزفاً » ،(3) ولكن مرض ــ مصر الأم ــ لا يقف عند هذا النزيف المهلك ــ وإنما يجعله النظام الإجتماعي « جحيما من الفقر والجهل والمرض والموت للكثرة الكثيرة من المصريين وجحيماً من الخوف والذعر والبغض والحسد للقلة القليلة من المصريين لم يبلغ بهم الفقر أن ييتئسوا ، ولم يبلغ بهم الثراء أن يترفوا ، فهم مذبذبون بين أولئك وهؤلاء من أصحاب الجحيمين » .(4)

ومن أعراض هذا المرض: فساد أداة الحكم والافتيات على حقوق الشعب(5) والرشوة التي يقوم عليها نظام الحكم في مصر ، القائم على بيع الضمائر ،(6) ومقاومة هذه الأعراض في مقال طه حسين ، لا تنفصل عن علاج المرض من أساسه من جهل وفقر ومرض ، في إطار الإستراتيجية القومية التي تنظر إلى « مناصب الحكم على أنها ليست غايات وإنما هي وسائل فإذا استحالت إلى غايات وجب أن تزول » (7)

ونخلص مما تقدم إلى أن المقال الإجتماعي عند طه حسين ، حين يعمد إلى الإصلاح الإجتماعي ، يذهب إلى إلغاء الفروق بين الطبقات دون أن يمس النظم الإجتماعية التقليدية التي « يفرضها الدين ويفرضها الإلف

(1، 2)المرجع السابق.
(3)المعذبون في الارض ــ الفصل الأخير.
(4)الهلال في ديسمبر 1947 .
(5)كوكب الشرق في 29 اكتوبر 1933 .
(6)كوكب الشرق في 21 مايو 1933 .
(7)كوكب الشرق في 14 مايو 1933 .

والعـادة » . (1) وينصف العـاملين دون أن « يحكمهم في أصحـاب العمل »(2) ويطمح لمصر في نوع « من الحياة الإجتماعية المستقرة التي تقوم على القصد والعدل والمساواة الصحيحة بين الناس فيما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات » . (3)

التعليم والتنشئة الاجتماعية:

يذهب طه حسين إلى أن كل إصلاح اجتماعي أو سياسي في شعب جاهل لا قيمة له ولا بقاء ، ذلك أن « المصريين يريدون أن يصلحوا غذاء الشعب وصحته على أنه شعب من النـاس الـذين يعقلون ويشعرون ويعرفون أنفسهم ويريدون أن يعرفها غيرهم من الناس ، والسبيل إلى ذلك واحدة ليست ثانية وهي التعليم »(4) فالتعليم عند طه حسين « قبل كل شيء وبعد كل شيء وفوق كل شيء »(5) يجعل « المصري إنساناً يحتال للفقر حتى يخرج منه ويحتال للعلة حتى يبرأ منها ، ويتحدث إلى الناس فيفهمون عنه ، ويتحدث إليه الناس فيفهم عنهم ، وينهاه المصلحون عن الشر فينتهي ، ويدعوه المصلحون إلى الخير فيجيب »(6)

وعلى ذلك فإن « التعليم » محور الإصلاح الإجتماعي والتنشئة الإجتماعية في مقال طه حسين ، كما يغدو ركيزة التحول من التقليدية إلى العصرية تأسيساً على أن التخلف إنما يكمن في « المـوارد البشرية » ،(7) ولـذلك يذهب طه حسين إلى بناء الأفراد من خلال تنشئة اجتماعية وتعليم يرفع مستوى المهارات ، ويغدو « المحرك الأعظم في تطوير كل مظهر من مظاهر الحياة »(8) فالتعليم ـ بهذا المفهوم ـ جزء لا يتجزأ من الإستراتيجية القومية وراء مقال طه حسين ، لأنه أساس الحضارة والإستقلال ، في حين أن الإستقلال والحرية وسيلة إلى الكمال وسبب من أسباب الرقي » . (9)

وتأسيساً على ذلك يذهب مقال طه حسين بعد عودته من فرنسا مباشرة

(1، 2، 3)العدوان الثلاثي ــ مرجع سبق ص 14 .
(4، 5، 6)سامي الكيالي : مرجع سبق ج2 ص 24 .
(7، 8)ويلبور شرام: مرجع سبق ص 46، 65 .
(9)مستقبل الثقافة في مصر ج1 ص 2 .

إلى تأكيد هذا الفهم «لمسألة التعليم»،(1) ذلك أنه لا يعرف»: بعد المسألة السياسية الكبرى مسألة يجب أن تعنى بها مصر كمسألة التعليم ولو أن الناصحين المخلصين في هذا البلد كانوا بمأمن من تهويش المهوشين ولغط اللاغطين ومن هذه الأهواء المضطربة والشهوات المضطربة التي تفسد النفوس والأخلاق في هذه الأيام(2) لاستطعت أن أقول إن مسألة التعليم في مصر يجب أن تقدر كما تقدر المسألة السياسية الكبرى لأن كلتيهما موقوفة على الأخرى من جهة ولأن إحداهما أبقى أثراً وأشد خطراً من التأثير من جهة أخرى».(3) ويؤكد طه حسين هذه الرؤية المبكرة في «مستقبل الثقافة» فيما بعد ذلك بخمسة عشر عاماً حين يذهب إلى أن «ليس إلى الاستقلال سبيل إذا لم تكن مصر متعلمة. ثم ليس إلى الإحتفاظ بهذا الاستقلال سبيل بعد الوصول إليه إذا لم يكن في مصر تعليم صالح يمكن للمصريين من أن يقدروا الاستقلال حق قدره ويفهموه على وجهه ويتخذوا من السبل والوسائل ما يتيح لهم حمايته من عبث العابثين وإفساد المفسدين سواء أكانوا أجانب أم مصريين»(4)

ومن أجل ذلك يذهب طه حسين إلى استحداث «تعليم جديد يكوّن بلداً مستقلا يستغل نفسه ويحول بين الأنجليز وغير الأنجليز وبين إذلاله واستغلاله»(5)، ويستخلص من هذه النتيجة من اهتمام الجمهورية الثالثة في فرنسا بمسألة التعليم، حين ذهب العلماء والمفكرون إلى تعرف أسباب الهزيمة التي أصابت فرنسا سنة 1870 وأجمعوا على أن سوء التعليم من أهم الأسباب إن لم يكن أهمها. وإذن فالسبيل هو استبدال هذا التعليم بتعليم آخر يكون رجالا أقل استعداداً للهزيمة وأقدر على احتمال المكروه وعلى المقاومة من أولئك الذين أخرجهم التعليم القديم(6). وتأسيساً على ذلك يذهب طه حسين إلى توجيه المصريين «الذين يشعرون بوجودهم وكرامتهم ويفهمون معنى الوجود والكرامة ويريدون الاحتفاظ بالوجود

(1، 2، 3)السياسة في 7 يونيو 1923.

(4، 5، 6)المرجع السابق ـ مستقبل الثقافة ج1 ص 71.

والكرامة »(1) إلى أن ليس من سبيل إلى ذلك إلا إذا « أصلحوا التعليم ولن يصلحوه إلا إذا درسوه وتناقشوا فيه »(2) وهذا الدرس وهذه المناقشة أجدى ـ عند طه حسين ـ من « هذه الجعجعة السياسية التي لا تفيد »(3) .

ومن ذلك يبين أن المقال الاجتماعي عند طه حسين في العشرينات يتجه إلى درس وتفصيل مشكلة التعليم ، الدرس والتفصيل الذي أثمر في أواخر الثلاثينات تصوراً نظامياً « لمستقبل الثقافة في مصر » ومن ذلك اتجاه المقال المبكر إلى تحديد العلاقة بين « التعليم والدولة »(4) ، حتى « لا ينحرف التعليم عن الطريق التي رسمت له ، وحتى لا ينتهي إلى غرض مباين للغرض الذي أنشىء من أجله »(5) . وهو « خلق الشخصية المصرية الجديدة ، ذلك أن غاية التعليم »(6) في مقاله ، تقتضي أن تبذل الأمة التي « وجدت وجودا سياسياً ونظمت نظاماً سياسياً من الجهود المختلفة لإيجاد تعليم يوافق وجودها السياسي الذي كسبته ونظامها السياسي الذي ألفته ويمكن من الاحتفاظ بهذا الوجود وهذا النظام ومن ترقيتهما والملائمة بينهما وبين أطوار الحياة المختلفة »(7) و« غاية التعليم » في مصر ، يجب أن « يتاح لها أن تحتفظ بشخصيتها القديمة الخالدة وأن ترقى في الوقت نفسه بحيث تستطيع أن تكون الأمة المصرية القديمة دون أن يفوتها حظها من هذا الرقي الحديث الذي تستمتع به الأمم الحية »(8) ، وتقتضي هذه الغاية « تغيير برامج التعليم ومناهجه وقواعده العامة . وأن يوضع لمصر المستقلة نظام تعليم يلائم حياة بلد مستقل»(9).

(1، 2، 3)السياسة في 7 يونيو 1923 .
(4)السياسة في 10 يونيو 1923 .
(5، 6، 7)المرجع السابق.
(8، 9)السياسة في 24 نوفمبر 1922 .
(10) الدكتور ابراهيم امام: دراسات في الفن الصحفي ص.9
فشلت بعض الدراسات الجادة حول «زوال المجتمع التقليدي» لدانيال ليرنر Lerner ـ السابق الاشارة إليه ـ في تفهم العلاقات المتبادلة بين الحاضر والماضي، وبين الثورة والمحافظة: مما أضعف من مكانة الكتاب وقدرته على التحدي، وأدرك الأستاذ جاك بارك هذا التناقض في كتابه (العرب: تاريخ ومستقبل) كما نبه إليه الدكتور ابراهيم إمام في المرجع السابق.

ومن ذلك يبين الارتباط بين غاية التعليم والوجود السياسي لمصر ، وهو الارتباط الذي يحدد معالم التغيير للمجتمع التقليدي « الجامد المنعزل المتمزق »(10) ذلك أن الوجود السياسي يعني تصور أفراد المجتمع انتماءهم إلى أمة كبيرة ، ويستتبع ذلك بالضرورة تصحيح مفهوم القومية المصرية و« هو محور الوطنية التي تحصرها الحدود الجغرافية الضيقة لأرض الوطن »(1) ويقتضي هذا المفهوم التوسل بأسباب الحضارة الحديثة في « تكوين العقلية المصرية تكويناً يلائم الحاجة الوطنية الجديدة »(2) .

وفي ضوء هذه الرؤية ، يذهب المقال الاجتماعي عند طه حسين إلى تحليل وعلاج كثير من مشكلات التعليم في مصر ، وأطواره واتجاهات التفكير فيه . فمستقبل الثقافة في مصر ــ ذات التاريخ الثقافي القديم يجب في عقيدته ألا يبقى بمعزل عن التطور الذي يهز العالم ليحفظ هذا التوازن بين ماضيها وحاضرها . فالتعليم الجامعي ، لا ينفصل في رؤيته العامة عن التعليم العام ولذلك كانت إباحة التعليم العام للمستطيعين ومن يقدر من الفقراء على الانتفاع به(3) أولى خطوات برنامجه الثقافي الكبير الذي يهدف إلى إنشاء المدرسة الإبتدائية في كل قرية والمدرسة الثانوية في كل مدينة والمدارس الفنية على اختلافها في كل اقليم، وكل ذلك يعزز الحياة الجامعية، التي « تلائم حاجتنا وآمالنا وكرامتنا »(4) .

ويقتضي ذلك هدم قواعد التعليم القديمة التي أرساها الاحتلال « لتحقيق أهدافه في مصر »(5) وأن تقوم قواعد جديدة تهدف إلى خلق « الشخصية المستقلة القادرة على الابتكار »(6) ، كماً وكيفاً ، في التعليم الجامعي والعام . (7)

ذلك أن غاية التعليم في الاستراتيجية القومية عند طه حسين ، تريد الملاءمة بين الصورة العقلية للفرد والمثل الاعلى للأمة . (8) ذلك أن هذه الملاءمة أساس الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية .

(1، 2)مستقبل الثقافة ص 92 ــ 93 .

(3)المرجع السابق ص 133 ــ السياسة في 12 ديسمبر 1923 .

(4)السياسة في 12 ديسمبر 1923 .

(5، 6، 7، 8)السياسة في 22 يونيو 1923 .

وتأسيساً على هذا الفهم، يذهب طه حسين إلى أن « حاجة الشعب إلى التعليم الصالح ليست أقل من حاجته إلى الدفاع الوطني المتين »(1) وهو يذهب إلى اقتناعه بأن دعوته إلى إصلاح التعليم « منتجة غدا أو بعد غد، مقتنعاً بأنه سيصل إلى حمل الناس على التفكير في التعليم وإصلاحه مهما يكن انصراف الناس عن هذا التعليم واصلاحه قوياً »(2).

ومن وجوه هذا الاصلاح دعوته الى أن يكون التعليم الجامعي « بيئة للثقافة بأوسع معانيها »(2) وأن تكون الجامعة مستقر الحضارة الراقية(4) ولذلك « لا بد من تمكين الاستقلال للجامعة »(5) حتى تنهض « بهذا القسط من التعليم والثقافة »(6). وهو « الاستقلال » الذي تعرض لبطش صدقي وأصبح « شكلا من الأشكال »(7).

ويرتبط استقلال الجامعة عند طه حسين بمفهومه للروح الجامعي، الذي « يسمو على كل الفروق ويرتفع فوق كل لون من ألوان الخلاف، وهو الذي ميز الانسان وسيميزه من الكائنات الحية كلها، هو حب الحق والبحث عنه، هو الرغبة في المعرفة والحرص عليها، هو الإقبال على العالم من حيث هو لا من حيث قد ينتج من الخير أو يحقق من النفع »(8).

أما التعليم العام فيقوم على أساس من الارتباط الوثيق بالتعليم الجامعي من جهة(9)، وعلى أساس توسعي من جهة ثانية، أي يقوم على الكم والكيف معاً، وهو لذلك يرفض سياسة التضييق وما تستند إليه من علاج البطالة، ذلك أن هذا « لا يكون بإشاعة الجهل بين الناس أو الحد من نشر التعليم وإنما يكون بإصلاح النظام الاجتماعي »(10).

ومن أجل ذلك يقاوم الاتجاهات التي تذهب الى تضييق التعليم الجامعي والعام، ومنها ما ذهب إليه زكي عبد القادر في الأهرام، وزكي العرابي

---

(1)مستقبل الثقافة ج 1 ص 144 ــ 158.
(2)السياسة الاسبوعية في 12 مارس 1927.
(3، 4، 5)المرجع السابق ــ مستقبل الثقافة ج2 ص 441 ــ 446.
(6)المرجع السابق ــ ص 447.
(7)كوكب الشرق في 17 مارس 1933.
(8)مجلة الهلال ج4 م 46 عام 1398.
(9)الجمهورية في 16 ديسمبر 1961.
(10)مستقبل الثقافة ص 142 ــ 154.

وزير المعارف السابق الذي دعا الى تضييق التعليم الجامعي الذي يكلف الدولة نفقات باهظة، فيذهب طه حسين في مقال بعنوان: «إسراف»(1) إلى أن أبواب التعليم الجامعي ستظل كما هي مفتوحة على مصاريعها ما دامت غرفات الجامعة وحجراتها ومقامها تستطيع أن تستقبل الطلاب»(2)، ويذهب الى أن مصر في حاجة الى التعليم الإلزامي والتعليم الجامعي معاً «وعلى الدولة أن تحققها وتسلك الى هذا سبيل الاقتصاد وتسلك الى هذا سبيل فرض الضرائب وتسلك الى هذا ما تشاء من الطرق»(3)، ويوضح هذا المقال ارتباط رؤيته للتعليم برؤيته الاجتماعية حين يذهب الى «إلغاء الفروق بين أبناء الشعب»(4) قائلا: «لا تضيفوا إليها فروقاً أخرى في التعليم، حسب الأغنياء ما أتاح الله لهم من النعيم المادي فلا تختصوهم بالنعيم العقلي أيضاً، حسب أبناء الشعب ما يشقون به من البؤس في حياتهم المادية فلا تضيفوا شقاء الى شقاء وحرماناً الى حرمان»(5).

ويواصل طه حسين معركة الكم والكيف في التعليم، في الصحف الوفدية في الفترة التي أعقبت إقالة حكومة الوفد في سبتمر 1944 وخروجه من منصبه كمستشار فني لوزارة المعارف حتى عودته لها وزيرا في عام 1950 وهي المعارك التي تنصب حول مجانية التعليم، ودار الجدل بينه وبين اسماعيل القباني حول أسلوب تطبيق مبادىء إصلاح التعليم في مصر، والذي انتهى الى الاتفاق على ديمقراطية هذا التعليم ونشره بين جميع الطبقات.

ومن ذلك يبين مكان التعليم في التنشئة الاجتماعية عند طه حسين، في اطار عام من الاستراتيجية القومية التي لا تفصل بين المسألة الاجتماعية والمسألة الحضارية، فيذهب المقال الى تحرير الشباب من البؤس والجوع وهم التفكير فيما يقيم الأود، وتحريرهم من الجهل وإتاحة العلم والأدب والثقافة لهم وتيسير جو سمح غير متزمت ولا متحرج يعيشون فيه بعد ذلك(6).

---

(1)سامح كريم: طه حسين في معاركه الفكرية ص 245.
(3،2)المرجع السابق ص 246 ـ الأهرام في 3 يونيو 1939.
(5،4)المرجع السابق ص 246 ـ الأهرام 3 يونيو 1939.
(6)مرآة الضمير الحديث 119.

التطورات الاجتماعية واكتساب الوعي.

ليست هذه التطورات الاجتماعية ملموسة بالضرورة، ولكنها قد تكون غير ملموسة. وهي في مجموعها ترتبط بسياق حركة المجتمع المصري، منتظما العلاقات بين الثقافة الانسانية والعامل الطبيعي، الأمر الذي يكشف كما يقول جاك بيرك(1) ــ عن التطور الاقتصادي، والريفي والحضري وتطور الأخلاق. ثم اكتساب الوعي في نهاية الأمر، من خلال الهياكل الأساسية التي تتم في شكل هرمي وتنتهي الى الاستراتيجية القومية، على النحو المتقدم، في الثبات على القيم الأصلية، والنزوع الى مسايرة التطور بما فطر عليه المجتمع المصري من مرونة في وحداته ومنظماته.

ولعل التوازن بين العناصر التي يتألف منها هذا المجتمع، لم يظهر في أمة كما ظهر في الأمة المصرية. وإذا كان المقال الاجتماعي عند طه حسين قد وجه الأمة المصرية الى غايتها، فإن التكافل بين تلك العناصر هو الذي ينظم جهودها ويرتب خطواتها نحو هذه الغاية، ولذلك وجدنا المقال الاجتماعي يكبر من شأن العمل ويضعه في مكان الصدارة من الحياة، ويعادل بينه وبين رأس المال، ينبغي أن يفاد من كليهما في النفع العام، وألا يختل التوازن بين هذين العنصرين.

وإذا كانت الأسرة هي اللبنة الأولى التي يتألف منها مجتمعنا(2)، فإن المجتمع المصري في عصور الانحطاط والجمود لم يكن يحمي جميع لبناته، لانقطاع الأواصر والوشائج بينها انقطاعا مقصودا. وكان مرغما على تعطيل جوارحه التي أصبحت كالأعضاء المشلولة أو الخلايا المنفصلة حتى تنمو بمعزل عن الكيان العام(3). ولذلك وجدنا مقال طه حسين في بيئة التكوين الصحفي يتجه في اتجاهات «الجريدة» التي تقوم على مضمون واحد في الاتجاه الاجتماعي هو الارتقاء(4)، ومن مظاهر اتجاه طه حسين في اتجاه «الجريدة تبنيه أفكار وآراء قاسم أمين وتمثل مقاله لهذه الأفكار وتلك الآراء، في صحف الحزب الوطني، وكان ذلك مظهرا للاختلاف

---

(1)مرجع سبق.

(2، 3،)الدكتور عبد الحميد يونس: المرجع السابق ص 125.

(4)الدكتور حسين فوزي النجار: لطفي السيد والشخصية المصرية ص 182.

الفكري بينه وبين الشيخ عبد العزيز جاويش، كما سبق.

ومن ذلك ما نشره في مجلة «الهداية سنة 1911» بعنوان «كلمات في المرأة» يعلن فيها عن رأيه في سفور المرأة وتعليمها، ويذهب الى أن «الاسلام لم يأخذ المرأة بحجاب ولا نقاب(1) ولكن «الاسلام قد جاء للمرأة بأحسن نظام تسمو إليه»(2).

ومن ذلك يبين أنه ينطلق من منطلق قاسم أمين، في اعتبار مركز المرأة جوهر القضية الاجتماعية، وهو مركز لا يتحسن إلا بالتربية(3) وهو أمر تقره الشريعة الإسلامية التي سوت بين الرجل والمرأة(4) ولذلك يصرح طه حسين في التمهيد لمقالاته بأن «لكل كاتب في أي مسألة من المسائل حدا يجب ألا يتعداه ومدى ما يجب أن ينتهي إليه، وحدنا في هذه المسألة إنما هو دين الله الذي أنزله شفاء لأدواء الأفراد والأمم، وإصلاحا للفاسد من أمورهم»(5) ويذهب الى أن «عناية الرجال في هذه الأيام بمسألة المرأة إنما هي عناية بمسألتهم قبل كل شيء، إذ كان ما ينالهم وينال أنسالهم من هوى ورقي نتيجة لازمة لما تكون عليه حال المرأة من صلاح وفساد. كيف لا والمرأة هي قالب النوع الانساني يفرغه الله فيه، ويصوغه على مثاله. تحمل وليدها تسعا، وترضعه شفعا وتربيه طفلا، وتؤدبه يافعا، وترشده غلاما وكهلا(6).

ويذهب طه حسين الى أن «العلم الصحيح يؤيد الحرية ويمقت الرق»(7) وعلى ذلك لا يؤيد «الحجاب لأنه نوع من الرق والاستعباد»(8) وأن «المرأة لا يسكتها عن الحجاب إلا الجهل. فإذا تعلمت وجب علينا أن نحسب لها حساباً كبيراً»(9).

وفي ذلك ما يبين اختلاف الرأي بين طه حسين وكتاب الحزب الوطني وصاحب «الهداية» من بينهم، ذلك أن هؤلاء يتفقون مع «الجريدة» على

(1، 2)مجلة الهداية سنة 1911 — محمد سيد كيلاني: المرجع السابق ص 123.
(3، 4)قاسم أمين: تحرير المرأة ص 116 — 131 — المرأة الجديدة ص 161، 12، 14.
(5)مجلة الهداية يناير 1911.
(6)مجلة الهداية يناير 1911.
(7، 8، 9)المرجع السابق.

الشق الخاص بتعليم المرأة «ليربى النسل في هدوء البيت وسلامه»(1) ولكنهم يختلفون معها في السفور وطه حسين يذهب في الشق الآخر مذهب قاسم أمين ومحرر الجريدة من أن التربية تتضمن إعداد المرأة لكسب الرزق، كضمان أكيد لحقوقها»(2)، ولذلك يذهب طه حسين الى أنه «إذا كان للحجاب عمل ظاهر فإنما هو إخفاء الشر، واسدال الستر عليه»(3) وهو لذلك لا يصلح «قاعدة اجتماعية تبنى عليها نهضة الأمة ويرجع إليها في إصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق»(4) ذلك أن الحجاب يقوم على عدم ثقة الرجل، بالمرأة، كما يقول قاسم، ويقوم عند طه حسين على «الأثرة من جانب الرجل واحتقاره المرأة واتهامها بسوء السيرة في نفسها وليس مصدر خضوع المرأة للحجاب إلا سوء ظن بنفسها، وإلا ضعف عزيمتها وخلودها في الخوف من الرجل»(5) وعلى ذلك يذهب الى أن الشر الذي نخشاه من السفور «ليس لازما» «ذاتياً» وإنما هو نتيجة لازمة لفساد النفوس، تقع في السفور وتحت الحجاب على السواء، وليس لها من دواء إلا أن نتوخى في نهضتنا إصلاح نفس المرأة والرجل إصلاحا دينيا منذ النشأة الأولى».(6)

ويبين مما تقدم أن قضية المرأة في بيئة التكوين الصحفي، قد اتخذت محور القضية الاجتماعية في مقال طه حسين، متأثراً في ذلك بقاسم أمين ومحمد عبده ولطفي السيد، وتأثرهم بمبادىء القرن التاسع عشر الكبرى: الحرية والتقدم والمدنية، فالحرية تعني استقلال الإنسان في التفكير ضمن حدود القوانين واحترامه للمبادىء الخلقية، وعدم خضوعه خارج هذه الحدود لإرادة سواه(7)، إنها أساس التقدم البشري، لكن حرية المرأة هي أساس جيمع الحريات الأخرى ومعيار لها، ولذلك يذهب طه حسين الى أن الحرية المطلقة التي اكتسبها الرجل والمرأة بحق الحياة فحسب تتيح لهما

---

(1) الدكتور عبد اللطيف حمزة: أدب المقالة ج5 ص 199.
(2) قاسم أمين: تحرير المرأة ص 27، 83، 75.
(3، 4) الهداية سنة 1911.
(5، 6) المرجع السابق.
(7) قاسم أمين: المرأة الجديدة ص 47.

أن يجتمعا على شكل من أشكال الاجتماع »(1) وأساس هذا الاجتماع هو « الزواج، فإن أقل مرتبة يتصورها العقل من مراتب الاجتماع هو اجتماع اثنين »(2).

ولذلك يذهب المقال الاجتماعي في بيئة التكوين الى تمثل اتجاهات « التعقيل » التي ذهب اليها لطفي السيد في الحياة المصرية، ومحاولة التوفيق بين المثل الاعلى من ناحية والواقع الذي يلمسه من ناحية أخرى، ولذلك يتجه مقال طه حسين الى البحث عن أسباب النهضة المصرية، حيث لا ينقصنا « العلم وحده، وإنما تنقصنا معه حرية الرأي، فإن العلم في بلدنا كثير بالقياس الى العصور الماضية، غير أن العادة والخلق والتربية والسياسة كلها مؤثرات منعت العقل من التفكير في البحث »(3) ويذهب الى ضرورة « تعويد العقول أن تبحث حرة غير مقيدة بشهادة المدرسة، ولا منصب الحكومة، ولا رضى العامة، والجامعة وحدها هي القادرة على كل ذلك »(4).

ولذلك يحتفل طه حسين حين تؤتى قضية المرأة ثمارها، وتنتهي الى « فوز »(5) يسجله عنوان مقاله الرئيسي في الثلاثينيات، حين تخرجت « الطبقة الأولى من الفتيات اللائي أتممن دراسة الآداب والحقوق، وظفرن فيها بدرجة الليسانس »(6). ويذهب الى أن هذا الحدث لو تم منذ « ثلاثة أعوام لاغتبطت به مصر أشد الاغتباط، ولأثار في مصر أشد ما تثيره الحوادث من عناية الأفراد والجماعات. ولكنه لم يثر شيئا في هذا العام(7)، لأن الناس عن الخير القليل في شغل بهذا الشر الكثير الذي يأخذهم من كل ناحية ويفسد عليهم حياتهم كلها »(8). ويحتفل طه حسين بعناصر النبأ الجديد الذي يعلن فوز المرأة المصرية، فقد « أخرجت كلية الآداب فتاة مصرية قد درست اللغة العربية واللغات الشرقية وآدابها وظفرت فيها بدرجة الليسانس وهي الآنسة سهير القلماوي، ولأول مرة أخرجت كلية الآداب فتاة درست اليونانية واللاتينية وآدابها وظفرت فيهما

(1، 2)الهداية في يناير 1911.
(3، 4)الجريدة في 25 يناير 1914.
(5، 6، 7)كوكب الشرق في 26 يوليو 1933.
(8)المرجع السابق.

بدرجة الليسانس، وهي الآنسة فاطمة سالم. . . الخ »(1).

ومن هذه العناصر الخبرية يبين استمرار التطور الاجتماعي، بذلك أن هذه العناصر تجعل من نبأ فوز المرأة عند طه حسين « حديثا خطيراً في حياتنا المصرية العقلية والاجتماعية، وأي فوز عظيم هذا الفوز لأنصار الرقي والنهوض وأصحاب تحرير المرأة والتسوية بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات أي أمل عظيم وسط هذا الحادث أمام المصريين في أن يروا أنفسهم كغيرهم من الأمم الراقية لا يختص فيهم بالعلم فريق دون فريق، ولا يحتكر الثقافة فيهم جنس دون جنس، ولا يحتفظ الرجل فيهم بما كان يحتفظ به من أسباب التفوق والعلو والسلطان رحم الله قاسماً فلو قد عاش الى هذه الأيام لسعد حين يرى جهوده قد وفقت وآماله قد حققت وكفاحه قد انتهى الى غاية. رحم الله قاسماً لو عاش الى هذه الأيام لوجد في هذا الفوز العظيم عزاء عما لقي في حياته من أذى، وما احتمل في دعوته من مكروه »(2).

فلم تعد قضية المرأة محور القضية الاجتماعية كما كانت في بيئة التكوين ولكنها أصبحت جزءاً من الاستراتيجية القومية العامة، عند طه حسين كما تقدم، ولذلك نجد مقاله الاجتماعي يتجه في اتجاه مقاومة الاتجاه السلفي المحافظ الذي واجه قاسم بالمكروه، وواجهه هو في « الشعر الجاهلي » ونعني المحافظين من رجال الأزهر. ولذلك فإن تجديد الأزهر ـ كما يذهب الى ذلك طه حسين ـ منذ حركة الإصلاح التي قام بها الأستاذ الإمام لإعادة بناء الشرق، أصبح موضوعاً لا يعني الشرقيين وحدهم، بل أن « بعض البيئات الأوربية تعني بما ينال الأزهر من أصلاح عناية خاصة(3) ويذهب الى أن الأوربيين ليسوا « مسرفين ولا مغالين حين يقدرون أن للأزهر حظا عظيما وأثراً بعيداً في حياتنا الجديدة »(4) فالأزهر « مصدر من مصادر الحياة العقلية في الشرق الاسلامي، وهو أقدم هذه المصادر، وكان أقواها وأجلها خطرا الى عهد بعيد، وسيظل مصدراً قويا من مصادر الثقافة في هذا الشرق، ويكفي أن تلاحظ أمرين أحدهما أنه

(1، 2)المرجع السابق.
(3، 4)كوكب الشرق في 6 أغسطس 1922.

أكبر معهد يدرس فيه الإسلام، والثاني أن الطلاب الذين يقصدون إليه ويدرسون فيه لا يحصون بالمئات، وإنما يحصون بالألوف».

وعلى ذلك فإن الذين لا يحسبون للأزهر حساباً «حين يحللون هذه الحياة المصرية، وحين يقدرون مستقبلها من أي نحو من أنحائها يسيئون إلى أنفسهم لأنهم يأخذونها بنوع من الدرس منقوص لا خير فيه ولا عناء ويسيئون الى أمتهم لأنهم يهملون مصدراً من أقوى المصادر التي تؤثر في حياتنا العقلية والشعورية والدينية ثم تؤثر لهذا كله في حياتنا السياسية والاجتماعية على اختلاف فروعها وأشكالها»(1).

وتأسيساً على هذا الفهم يتجه المقال الصحفي عند طه حسين إلى تجديد الأزهر اتجاها قويا، مقاوما بشدة جمود الاتجاه السلفي المحافظ الذي يثقل الأزهر بالقديم ويحمله على التخلف(2).

ويذهب طه حسين إلى أن «الأزهر كغيره من المرافق المصرية مضطر إلى أن يخضع لضرورات الحياة الحديثة، والأزهريون كغيرهم من المصريين مضطرون معه إلى أن يخضعوا لضروارت هذه الحياة»(3)، متجها في ذلك في الاتجاه الاصلاحي الذي شقه الأستاذ الإمام(4)، والذي يريد «للأزهريين كغيرهم من المصريين المثقفين من الحق في الكرامة والاحترام وفي الثقافة والعلم»(5) وأن يكون «لهم حظ من هذا العلم الحديث وهذه اللغات الأجنبية»(6)، وأن «يغير التعليم في الأزهر وتمحى الفروق بين الأزهريين وبين الطلاب في المدارس المدنية»(7).

وتجديد الأزهر عند طه حسين يقتضي النظر إليه من وجهين:(8)

«أحدهما أن الأزهر معهد من معاهد التعليم لا أكثر ولا أقل، والثاني أن الأزهر معهد من معاهد التعليم الديني الإسلامي، فالوجه فالأول يقضي بأن يحال بين الأزهر وبين كل ما من شأنه أن يضعف سلطان الدين، أو يشكك الناس في القائمين على خدمته أو يسيء ظنهم بالذائدين

(1)كوكب الشرق في 6 أغسطس 1933.
(2)المرجع السابق.
(3، 4، 5)المرجع السابق.
(6، 7، 8)المرجع السابق.

عنه »(1) . ومعنى ذلك حماية الأزهر من السياسة(2) ، ذلك أن السياسة لم تدخل في شيء من أمور الدين إلا أثارت حوله الريب والشكوك وألقت بينه وبين الناس حجاباً كثيفاً وكم نحب أن يحال بين الأزهر خاصة ومعاهد التعليم عامة وبين السياسة وآثارها المفسدة لكل نظام من نظم التعليم حين تندس إليه »(3) .

ذلك أن السياسة تجعل من الاتجاه السلفي المحافظ في الأزهر « دولة في داخل الدولة »(4) ، كما يبين من اتخاذ مشيخة الأزهر « لنفسها منذ ذلك الوقت الرياسة الدينية العليا وهو اسم مبتدع لم يعرفه الاسلام ولا يؤمن له مسلم يعرف واجباته الدينية حقاً »(5) ، فالاسلام « حر طلق ليس له ما للمسيحية من (الاكليروس) والكنيسة المنظمة ، وأن الاسلام حر طلق أيضاً لا يأخذ العقل الإنساني بما لا يطيق ولا يكرهه على الايمان بما لا يفهم ولا يضع أمامه الأسرار التي يجب أن يتقبلها دون رؤية أو تفكير »(6) .

فإذا كان الاسلام دين التطور والرقي والطموح إلى المثل الأعلى في الحياة(7) فإن تجديد الأزهر يقتضي الملاءمة بين الثقافة الأزهرية وحياة الشعب وحاجاته(8) ومجاراته للتطور(9) بحيث يلائم حاضره ومستقبله وماضيه المجيد(10) . وليس من الخير « أن يكون الأزهر حربا على الحياة الحديثة »(11) كما فعل مع قاسم وطه حسين في الشعر الجاهلي ، وإنما « الخير والواجب أن يكون الأزهر ملطفا للحياة الحديثة مخففاً لأثقالها ملائماً بينها وبين ما يأمر الله به من الخير والمعروف مباعداً بينها وبين ما ينهي الله عنه من الشر والمنكر »(12) والسبيل إلى ذلك هو أن « يثقف الأزهر بالثقافة الحديثة كما يثقف بها غيره من المعاهد وأن يمتاز بعد هذا بما لا تمتاز به هذه المعاهد الأخرى من هذه الثقافة الدينية الخالصة »(1) ، بل ويذهب إلى تعميق هذا المفهوم بعد ثورة 1952 ، حين توحد القضاء ،

(1، 2، 3)المرجع السابق.
(4، 5، 6)من بعيد ص 242، 221 ـ مستقبل الثقافة ج1 ص 88ـ 191 .
(7، 8، 9)مستقبل الثقافة ج2 ص 471 ـ 481 .
(10، 11، 12)المرجع السابق ص 47 ـ 473، 479 ـ 480 .
(1)المرجع السابق.

ويرى أن « الخطوة الثانية » هي « توحيد الأمة وتقريب ما بين أبنائها من الآماد ، لا أقول في حياتهم الاجتماعية والسياسية وحدها بل في حياتهم العقلية . لأن هذه الحياة هي أساس التفكير وهي قوام العمل وهي التي تتيح للشعب أن يفكر تفكيراً متجانساً ، وأن يعمل عملا مطردا لا ينافي بعضه بعضا ولا يلغي بعضه بعضا »(1) ، ويذهب طه حسين إلى أن هذه الخطوة عودة بالاسلام إلى منابعه الاولى حين كان علماؤه يجمعون إلى « التخصص في علوم الدين إتقان العلوم الرياضية أو إتقان الطب »(2) .

على أن هذه الخطوة الثانية ، قد ووجهت بتعبئة حشد لها الاتجاه السلفي المحافظ في الأزهر إمكاناته ، ونشر جزء من تعبئته في «الجمهورية» وخصصت مجلة« الأزهر » عددا خاصا لهذا الجدل أيضاً ، الذي « شرف فيه ــ طه حسين ــ بلوم أي لوم وتعنيف أي تعنيف »(3) ، ولم يكن نصيبه من هذا التعنيف بأقل من نصيب الأستاذ الإمام ، فذهب السلفيون إلى وصفه بأنه « من أنصار الاستعمار ، وبأنه سفير مصري لفرنسا الكاثوليكية »(4) لأنه يريد في الخطوة الثانية أن ــ يظل ــ أولا ــ التعليم الابتدائي والثانوي جزءاً من الأزهر كما هو .

وثانياً ــ أن يوضع منهج مطابق لمنهج التعليم العام في وزارة التربية والتعليم ويفرض على المعاهد الابتدائية والثانوية والأزهرية .

ثالثاً ــ أن تؤلف هيئة مشتركة من الأزهر ووزارة التربية والتعليم للإشراف من قرب على تنفيذ هذا المنهج .

رابعاً ــ أن يوفق بين هذا المنهج وبين ما يدرس في الأزهر من علوم أساسية للتخصص في علوم الدين(5) .

ومن ذلك يبين أن الخطوة الثانية ، تتفق في محتواها وصورتها مع آرائه في تجديد الأزهر التي صورها مقاله الصحفي ، كما رسم تفاصيلها في برنامجه الثقافي « مستقبل الثقافة » . ولم تلبث هذه الخطوة الثانية أن وجدت صداها عند تلاميذ الأستاذ الإمام الذين انتصروا له في نهاية الأمر ،

(1، 2، 3)الجمهورية في 9 يوليو 1960 .
(4، 5)نقد واصلاح ص 272، 245 ــ الجمهورية في يوليو 1960 .

وأطلقوا اسمه على قاعة من قاعات الأزهر ، وتقبلوا برنامج طـه حسين ، الذي ينبع من دور الأزهر في الحياة المصرية ، ورغم إخراجه من الأزهر ساخطا عليه في مطلع القرن ، فقد كان « يشعر بين وقت وآخر بحنين نحو الأزهر »(1) ، ويستقبله شيخ الأزهر ويعرب له طـه حسين عن أمله في أن « يرى قريباً مهندسين وأطباء وصيادلة من أبناء الأزهر »(2) ، ويفصح عن إيمانه « بقدرة الأزهريين على التفوق والنبوغ في شتى الميادين »(3) .

ونخلص مما تقدم إلى أن الاتصال في الاتجاه الاجتماعي عند طـه حسين ، يدور حول محورين أساسيين في استراتيجية القومية ، ونعني محور التدعيم ومحور التغيير ، تنتظمهما وحدة الشعور التي قومت شخصية المصريين ، فالشخصية إذ تتكون ــ كما يقول علماء النفس ــ تتكون من وحي الفرد: وحي ذاته ووحي بيئته ، وكان التفكير الغالب على المصريين ــ كما تقدم ــ هو التفكير المشترك والشعور الواحد ، فلا غرور أن كانت وحدة الشعور أولى مقومات الشخصية المصرية ، وسمة طه حسين الاولى ، حين يحللها ويستوحي مقوماتها في وحدتها واتساقها ليضع الخطوط الرئيسية لمستقبلها الحافل .

فتدعيم القيم الايجابية ، لا ينفصل عن صفة البقاء والاستمرار التي عرفها المؤرخون عن تطور التاريخ في مصر ، والتي حفظتها وحدة الشعور التي تجمع المصريين وتربط بينهم كما تربط ماضيهم بحاضرهم . ولا ينفصل هذا « التدعيم » لعناصر الأصالة ، عن عملية « التغيير والتجديد » كما يسميها « آرنولد توينبي » ، في إطار من وحدة الشعور ، يجعل من مقال طـه حسين توفيقا بين عملية التدعيم وعملية التغيير ، في مجتمع يتسم بوحدة الشعور التي تتيح لهاتين العمليتين أن تتفاعلا وتدفعا بالمجتمع إلى غايته القومية . الأمر الذي يجعل من اتصاله في الاتجاه الاجتماعي وسيلة من وسائل الاستراتيجية العامة ، لا تنفصل عن الوسائل الأخرى ، بحيث لا ينفصل « التثقيف » عن « التنشئة الاجتماعية » وإنما يرتبطان ارتباط

(1، 2، 3)الأهرام في 14 نوفمبر 1960 .

تفاعل وارتباط منهج وأسلوب ، كما سيجيء عند الحديث عن « الاتصال في الاتجاه الثقافي » .

الفصل السادس

طه حسين

في الاتجاه الثقافي

« وما نعرف شيئا يحقق للانسان تفكيره وتعبيره ومدنيته كالقراءة ، فهي تصور التفكير على أنه أصل لكل ما يقرأ ، وعلى أنه غاية لكل ما يقرأ فالكاتب يفكر قبل أن يكتب وأثناء كتابته ، والقارىء يفكر فيما يقرأ أثناء قراءته وبعد أن يقرأ » .

طه حسين

يبين مما تقدم الارتباط الوثيق بين « التثقيف » و « والتنشئة الاجتماعية » في مقال طـه حسين ، فالمثقف . . ليس مسئولا عن عقله فحسب ، ولكنه مسئول عن نتائج هذا العقل وعن آثاره في معاصريه من جهة وفي الأجيال المقبلة من جهة أخرى »(1) . وعلى ذلك فإن كاتب المقال الثقافي ـ عند طـه حسين ـ أستاذ ، سواء أشغل منصب التعليم أم لم يشغله ، ومن الحق على الأستاذ لتلاميذه أن يكون لهم مثلا صالحا وقدوة حسنة ، وأن يعصم لهم نفسه من الضعف الذي يفسر رأيهم في العقل ويشككهم فيه ويدفعهم أن ينظروا إليه كما ينظرون إلى مصادر الإنتاج المختلفة ، كالتجارة والزراعة والصناعة ، على أنه شيء قابل للبيع والشراء والأخذ والعطاء »(2) .

وتأسيساً على هذا الفهم يتجه مقال طـه حسين في الاتجاه الثقافي ، محتفظاً « لنفسه بالحرية المطلقة التي لا تشوبها شائبة ، وبالكرامة النقية التي لا يكدرها مكدر . وهو بعد ذلك أو بحكم ذلك يصطنع من الناس صراحة واضحة جلية لا يشوبها لبس ولا غموض »(3) ذلك أن المقال الثقافي محتاج إلى هذه الحرية ، « ليستكشف قانوناً من قوانين العلم ، أو لينتج لوناً من ألوان الأدب ، أو ليستنبط أصلا من أصول الفلسفة ، أو ليخرج ضرباً من ضروب الفن »(4) وهو محتاج إلى هذه الحرية والصراحة التامة في معالجة المشكلات التي تعرض للناس(5) . ولكنه يجب ألا يؤثر نفسه بخيرات الديمقراطية ، ولا يدفع عنها(6) ، وبذلك تخرج الثقافة من

(1، 2، 3)مجلة الثقافة في 7 نوفمبر 1939 ـ فصول ص 172. 174.
(4، 5)المرجع السابق.
(6)الكاتب المصري في أغسطس 1946 ـ ألوان ص 104، 188، 189، 191.

عزلتها في الحياة الواقعة من خلال ما يسميه « التضامن في تبعات الحياة »(1) .

فالمقال الثقافي ــ إذن ــ ليس نتاج العزلة والبروج العاجية ، ولكنه ثمرة من ثمار المشاركة في الحياة الواقعة ، وهو لذلك ، « أعظم خطراً وأجل شأناً من أثر الذين يحبون العزلة ويعتصمون بالوحدة ويلزمون بروجهم العاجية ينزلون منها وحيهم الأدبي تنزيلا »(2) فالعزلة الثقافية « ليست إلا حكما بالموت على الأديب »(3)

وعلى ذلك تتحدد تبعة المقال الثقافي في التضامن مع الحياة الواقعة بما فيها من عدل وحرية(4) . ومشكلات « تمس الجماعة وتؤثر في حياتها »(5) من « المشكلات الإنسانية التي لا تنقضي والتي تتجدد في كل يوم »(6) ويقوم المقال بتثقيف الشعب ، وحثه على ألا يقنع من « الثقافة بالقليل »(7) . متوسلا بوسيلة الاتصال الصحفي بالجماهير التي تخرج الثقافة من عزلتها ، وتوسع في ميدانها(8) في المجتمع المصري والعربي .

ويحدد هذا الفهم لوظيفة التثقيف موقف طه حسين من الالتزام عند سارتر(9) فيذهب إلى أن وجه الحق في هذه القضية هو أن « لكل شيء موضعه وأن كل صاحب فن ملتزم محتمل تبعاته أمام الفن أولا ، وأمام الذوق العام ثانياً ، ثم أمام طوائف بعينها من الناس إذا كان من شأن موضوعه أن يلزمه ويحمله التبعات أمام هذه الطوائف من الناس فالأديب الذي يعرض للسياسة ملتزم أمام فنه الأدبي وأمام مذهبه السياسي . وقل مثل ذلك في الأديب الذي يعرض لشئون الاجتماع ، ولم يحظر أحد على الأديب ولا على صاحب فن أن يعالج من الموضوعات ما لا يلزمه إلا أمام الفن والذوق وحدهما »(10) .

وعلى ذلك فإن المقال الثقافي عند طه حسين ، يتجه إلى « ترقية العقل

(1، 2)المرجع السابق.
(3، 4، 5)المرجع السابق ص 194، 195 .
(6، 7، 8)المرجع السابق ص 195، 203 .
(9)الكاتب المصري في يونيو 1947 ــ ألوان ص 277 .
(10)المرجع السابق ص 277، 285 .

وتوسيع الأفق ومـد آماد الفكر الإنساني ، من حيث هي مصدر لشعور الفرد بحقه وتقديره لواجبه ، ومن حيث هي مصدر لشعور الجماعة بحقها وتقديرها لواجبها وثباتها للخطوب واحتمالها لأثقال الحياة »(1) . والمقال الثقافي بهذا المعنى ـ عند طـه حسين ـ جدير بالعناية حقاً ، لماله من الأثر البعيد « في حياة الشعوب ، في قدرتها على البقاء ، وقوتها على المقاومة واستعدادها للرقي »(2) فالثقافة ـ التي يتجه إليها المقال ـ هي التي « هدت علماء أوربا إلى استكشاف العلم الحديث ، ثم إلى التفكير في تراث القدماء ، ثم إصلاح التفكير ، ثم إلى تجديد الفلسفة ثم إلى تغيير قيم الأشياء وتغيير الحكم عليها »(3) .

وفي ضوء هذه الرؤية ، تمتاز المدرسة التجديدية في المقال الصحفي في مصر والتي ينتمي إليها طـه حسين . بتوظيف هذا المقال في أداء أغراض التثقيف والتنشئة الاجتماعية ، ذلك أن الكتاب المقاليين الذين اشتغلوا بالكتابة في الصحف اليومية ، من الذين صاحبوا ثورة 1919 ، هم أصحاب الأثر المحسوس في « نشر الأدب بين قراء الصحف السياسية ، وفي نشر السياسة بين القراء المتأدبين الذين كانوا لا يحفلون بها ولا يقرأون من المقالات والكتب إلا ما كان أدباً محضاً أو بحثاً في موضوعات الشعر والنقد والبلاغة ، فمنذ اشتغل أفراد هذه المدرسة بالصحافة والسياسة تعود قراؤهم السياسيون أن ينتقلوا معهم إلى مباحث الأدب والنقد وما إليها ، كما تعود قراؤهم الأدبيون أن ينتقلوا معهم إلى السياسة ومناقشاتها حيثما خاضوا فيها وناضلوا عنها ، فاتسع نطاق الأدب كما اتسع نطاق السياسة ، واستفادت الأساليب العربية كما استفادت النهضة الوطنية من جودة التعبير وحسن التوجيه وارتقاء مذاهب القول والتفكير »(4) .

المقال الثقافي في بيئة التكوين:

على أن وظيفة التثقيف في مقال طـه حسين ، لم تتحدد معالمها إلا بعد عودته من فرنسا ، واشتراكه في الحياة العامة ، ذلك أن مقاله في بيئة

(1، 2، 3)فصول ص 209، 212، 215، 216 .

(4)عباس محمود العقاد: مجلة الهلال ديسمبر 1926 .

التكوين ، يتسم بالحركة الأدبية التي ذهبت إلى دفعها « الجـريدة » والتي أسفرت عن ظهور « النقد الأدبي » و « تاريخ الأدب »(1) بعد انشاء الجامعة بسنتين أو ثلاث ، فقد ظهرت حاجة الطلاب إلى بعض الكتب التي تسد حاجتهم في تاريخ الأدب العربي وكان من أول الكتاب الذين خفوا إلى ذلك مصطفى صادق الرافعي ، وهو أديب معروف في ذلك الوقت ، كانت له بعض مقالات في الجريدة ، وهو صاحب النشيد الوطني الذي نشر فيها (11 مارس 1908)(2) . ومنذ ظهر كتاب الرافعي بعنوان « تاريخ آداب العرب » بدأت معركة حول دراسة الأدب في الجامعة ، وكـانت الجريـدة مسرحـاً لمساجـلات أدبية عنيفـة دارت بين الـرافعي من جهـة والشبـان التجديديين كطـه حسين ومحمد حسين هيكل من جهة ثانية .

وتبدأ هذه المسـاجلة الأدبية في 4 مـايو 1911 بمقـال في « الجريـدة » لكاتب مجهول وقع بإمضاء « غيور على الأدب » لام فيه الجامعة المصرية على انتدابها أحد المستشرقين لتدريس تاريخ الأدب العربي ، ويرد طــه حسين على هذا المقال بمقال(3) كان فاتحـة سلسلة من المقالات المتبـادلة بلغت ستا ، ثم تدخل الرافعي بمقال قصير(4) ــ رد فيه على إشارة وردت في ثنايا مناقشات طــه حسين . وبعد ذلك أعلنت الجريدة قفل باب المناظرة في الموضوع « لتنـزل المتناظـرين من أوج الفائـدة العموميـة إلى حضيض المغـامز الشخصيـة »(5) فعقب طــه حسـين بخـطاب مفتـوح إلى مـديـر الجريدة(6) يأخذ فيه على الجريدة تعريضها به وبمناظره وافتياتها على حرية الرأي وبقفلها باب المناقشة ، ثم يطالبها بالاعتذار صراحة على صفحاتها حتى لا يخيب ظنه في التئام أقوال الجريدة مع أفعالها . فتعتذر الجريدة في نفس العدد(7) وفي 4 مارس سنة 1914 يكتب لطفي السيد مقالا حول كتاب الرافعي وصف فيه أسلوبه بأنه « سليم من الشوائب الأعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا نحن العرب المتأخرين » ولكن هذا المقال لم يفصل في

(1، 2، 3)الدكتور عبد اللطيف حمزة: أدب المقالة ج6 ص 163 ــ 174 .
(4)الجريدة في 18 مايو 1911 .
(5)الجريدة في 30 مايو 1911 ــ المرجع السابق ص 144 .
(6)الجريدة في 11 مايو 1921 ــ المرجع السابق ص 145 .
(7)الجريدة في 31 مايو 1921 ــ المرجع السابق ص 145 .

لمعركة الأدبية بين الرافعي وطـه حسين . ذلـك أن شبابا آخرين قـد خلوا ميدان المعركة ، منهم محمد حسين هيكل الـذي انحاز وقتئـذ إلى طـه حسين وأخذ يكتب مقالات في نقد كتاب الرافعي (1) وأعقب ذلك ظهـور مقـالات أخـرى لـطـه حسـين في الجـريـدة تحت عنـوان « نحن والرافعي »(2) وقد سبقتها مقالات بعنوان « من حين إلى حين - أو نحن والنقد »(3) وما تلبث هذه المعركة أن تتخذ شكلا جديداً أكثر نضوجاً بعد عودته من أوربا واشتراكه في تحرير « السياسة » .

على أن المقالات الاولى تكشف عن قدرة نزالية تلازم مقال طـه حسين من بعد ، كما تكشف عن قدرة نقدية ولغوية تمثل حصيلته الثقافية في بيئة التكـوين ، فهو متأثر بـالبيئة العـامة ومنـاهج المستشرقـين ودراسـاتهم في الجامعة(4) إلى جانب الإحساس المبكر بالذات في مواجهة البيئة المحافظة السلفية ، في الأزهر وخارجه .

وفي ضوء هذه العوامل يمكن تفسير الخصومة المستمرة ، التي يندفع اليها بوازع من نفسه ، ومن تأكيد ذاته في كثير من الأحيان ، ولعل في ذلك ما يوضح انتقاد طـه حسين لنقده العنيف للمنفلوطي ، انتصافا للشيخ عبد العزيز جاويش الذي حرضه على هذا النقد القاسي ، ذلك أن المنفلوطي كتب عن جاويش يقول: « لولا مقامه في اللواء ، ومذهبه في الهجاء لكان هو وفريد وجدي سواء »(5) ولذلك أغرى به طـه حسين إذ ذاك وحرضه تحريضا ، عـلى أن ينهج منهج الغلو والإسراف الذي عـرف به الشيـخ جاويش(6) ، كما سبق . على أن هذه المقالات تكتسب أهمية خاصة حين توضع في موضعها من الاتجاه العام عند مدرسة التجديد إلى رفض أسلوب المنفلوطي ومذهبه . فالعقاد يأخذ عليه الإفراط في « الليونة » وعدم نفاذه

---

(1) الجريدة في 10 مايو 1912 - عبد العزيز شرف: الدكتور محمد حسين هيكل صحفياً ص 78.

(2) الجريدة في 13، 18، 20 يناير 1913 .

(3) الجريدة في 25 يناير 1912.

(4) الجريدة في 15 مايو 1911.

(5) المرجع السابق ص 58 - النظرات ط1 ص 426.

(6) مذكرات طه حسين ص 36.

إلى باطن النفس الإنسانية(1) . والمازني يأخذ عليه: نظرته السوداوية ، والشيوع وروح التخاذل ، ثم التكلف في الشعور والصياغة جميعا(2) .

ثم ان هذه المقالات تكشف عن الثروة اللغوية التي اكتسبها طه حسين من دراسته الأزهرية ، كما يبين من النظرة العاشرة حيث يعطيها وما بعدها عنوان « الخطأ اللفظي في كتابات النظرات »(3) ويقول في النظرة الرابعة عشرة: « ولآخذن الآن فيما قصدت إليه فقد أردت أن أكمل من أغلاط النظرات مائة قبل البحث في طبقات الشعراء والكتاب »(4) ويهيب بالقراء أن « لا يقرأوا ما يكتبه على أنه نقد للنظرات فحسب ، بل على أنه كذلك إصلاح لطائفة من الاستعمالات التي شاع فيها الخطأ هذه الأيام »(5) . ولم يقتصر هذا النقد اللفظي على الأغلاط اللغوية ، وإنما تعرض للأخطاء النحوية والبلاغية والذوقية كذلك(6) . كما يبين من مقالاته الأخيرة تخففه من تمسكه بالنصوص والقواعد جاعلا الكلمة الأولى للذوق العام والعرف الأدبي . بل لقد بدأ يعيب فكرة الاحتكام إلى القواعد والنصوص أصلا ، ويسجل على بعض العبارات أنها وإن أمكن تخريجها فهي نابية عن أذواق الأدباء . أو يقول على لفظة « التفاعل »: « فإنه وإن صح في حكم القاموس فلن يحسن للظرفاء »(7) .

وفي الاتجاه الأدبي كذلك ، يذهب مقال طه حسين إلى النقد الأدبي للشعراء ، كما في مقالاته في نقد حافظ إبراهيم التي نشرت على سلسلتين أولاهما بعنوان: « زلة حافظ » وقد نشرت على يومين(8) . وكانت تدور حول قصيدة « صفحة البرق أومضت في الغمام » لحافظ وهي التي ألقاها سنة 1911 في جمعية رعاية الأطفال(9) . ثم نشر طه حسين مقالا قصيرا

---

(1)عباس العقاد: المراجعات ص 183، 184 .
(2)الديوان ج 2 ص1 ـ 31 . .
(3)العلم 5 يونيو 1910، 27 يونيو 1910 .
(4)العلم 4 يوليو 1910 .
(5)العلم 22 يوليو 1910 .
(6)العلم 10، 19 أغسطس 1910 ـ محمد سامي البدراوي: مرجع سابق ص 73 .
(7)المرجع السابق ص 73 ـ العلم 7، 8 فبراير 1911 .
(8)المرجع السابق ـ العلم 7، 8 فبراير 1911 .
(9)المرجع السابق ص 108 ـ ديوان حافظ ط 2 ج3 ص 129 .

بعنوان « إلى حافظ »(1) ، وهو أشبه ما يكون بالتحرش أو الإنذار وقد أعقبه بالسلسلة الثانية من كتاباته في نقد « شعر حافظ »(2) .

أما جرجي زيدان ، فقد كتب طه حسين في هذه المرحلة ثلاثة مقالات في نقد كتاب زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية) ، وقد نشرت تباعا في مجلة الهداية سنة 1911 (مجلدات 4 ، 5 ، 6) ونقلتها عن صحيفة « العلم » وهي مقالات طويلة تشغل من الهداية الصفحات 447 - 462 ، 632 - 640 ، 812 - 830 .

وقد تخللتها مقالة لزيدان في الرد على المقالة الأولى لطه حسين ، نشرت في المجلد الخامس من الهداية سنة 1911 . وفي هذه المقالات يبين الازدياد الواضح في دائرة الاطلاع عند طه حسين ، فهو يشير إلى بعض المآخذ في الكتاب نفسه ، ثم يخطو خطوة أخرى فيقرأ مؤلفات زيدان الأخرى ويحاول أن يبين ما بينها وبين كتابه من وجوه النقص أو التناقض(3) ثم بعد ذلك يرجع إلى مراجع خارجية رجع إليها وينص عليها صراحه . ويترك هذا الاطلاع أثره في مقال طه حسين كما يبين من منهج المناقشة(4) .

كما يظهر مقال طه حسين النقدي عمق الصلة بموضوعه ، لاسيا فيما يتعلق بالأدب العربي ، وتصنيف الشعراء وتقسيم الأدب على ما يطرأ عليه من تطورات لا على أساس العصور الأدبية(5) .

ومما تقدم يبين تأثر طه حسين في مقاله النقدي بالمنهج العلمي في دراسة الآداب والذى استفاد فيه من دراسات المستشرقين وغيرهم ممن تمثلوا الثقافتين الشرقية والغربية ، وكان طه حسين من أوائل الذين استجابوا لهذا المنهج الجديد آنذاك ، وأصبح معروفا في بيئته الصحفية الأولى بميوله الخاصة واتخاذه وجهة النقد والتاريخ الأدبي . ومنذ ذلك التاريخ وطه حسين يكتب في هذين الموضوعين ، حتى غلبا على مقاله في الاتجاه الأدبي طوال مسيرته الصحفية .

(1، 2)المرجع السابق ص 109 ــ العلم 14 فبراير 1911 .
(3، 4، 5)محمد سامي البدراوي: نفس المرجع ص 204، 205، 206 .

على أن الجانب اللغوى في هذا الاتجاه ، يبين كذلك من مقالاته الأولى: « هل تسترد اللغة مجدها القديم »(1) و« في اللغة »(2) ، وهي التي تكشف عن اتخاذه الجانب المؤيد للفصحى إلى حد كبير ، حيث كانت العربية ما تزال حديثة عهد على المستوى الصحفي والأدبي العام في مصر ، فكان طبيعيا بالنسبة لطه حسين الذى ألم بالثقافة العربية قبل التحاقه بالجامعة أن يرى نفسه ملتزما بمحاربة أي تساهل في شأن الفصحى خاصة مع المشهورين ، كما رأينا في معركته مع المنفلوطي .

ولذلك لم يوافق استاذه لطفي السيد في موقفه من الفصحى بل لم يتحرج من إعلانه هذه المخالفة صراحة على صفحات الجرائد(3) . ولم تلبث الوظيفة اللغوية أن تطورت في مرحلة التكوين ، من البداية القاموسية الضيقة إلى رفضه عدم التفريق بين اللفظ والمعنى(4) .

على أن هذا التطور في الوظيفة اللغوية مرتبط بدعوة لطفي السيد إلى « المساواة » من جهة ، وإلى تمصير الأدب من جهة أخرى(5) ، ونجد هذا الأثر في نزوع طه حسين إلى السهولة البالغة في تعبيره ، حتى لقد أصبح له أثر واضح في تقريب المسافة بين لغة التخاطب ولغة الكتابة(6) . بعد أن كان ينزع في بداية مرحلة التكوين إلى الغرابة والتعقيد والاهتمام باللفظ أكثر من الاهتمام بالمعنى . ولعل ذلك يرجع إلى أثر البيئة السلفية المحافظة التي جعلته لم يتقبل دعوة لطفي السيد منذ البداية ، وانتهى إلى تطبيقها في لغته وأسلوبه في التعبير .

القديم والجديد والذوق العام:

يتمثل المقال في الاتجاه الثقافي عند طه حسين سمات محلية تنتمي إلى

(1)الجريدة 5، 6، 7 نوفمبر 1911 .
(2)الجريدة 26 ابريل 1913، 10 مايو 1914 .
(3)أشار الدكتور طه حسين الى ذلك في النظرة (14) دون أن يصرح باسم لطفي السيد، ثم في النظرة (18) مصرحا باسمه ومناقشا رأيه ــ البدراوي: ص 73 ــ 272 ــ وكان لطفي السيد يقول: « نريد أن نرفع اللغة العامة الى الاستعمال الكتابي، وننزل بالضروري من لغة الكتابة الى ميدان التخاطب والتعامل » الدكتور حمزة: أدب ج6 ص159 .
(4)محمد سامي البدراوي: نفس المرجع ص 272 .
(5)الدكتور عبد اللطيف حمزة: نفس المرجع ص 165 .
(6)المرجع السابق.

صميم الثقافة العربية ولا تفهم إلا في إطارها الخاص . ولكنه يتمثل كذلك كثيرا من السمات العالمية التي يمكن أن نجد لها نظيرا في أية ثقافة أخرى ، وينطوي على قيم عصر النهضة الأوربية ، والطابع المميز لهذه القيم هو أنها قيم انتقالية ، من عصر سلفي متخلف يسوده الجمود والسكون ، إلى عصر متطور متقدم تشيع فيه الحركة والتجديد(1) . فالسمة التي تلخص دور طه حسين في الفكر العربي عامة ، والمصرى خاصة ، خلال نصف القرن الذى كانت فيه شخصيته مهيمنة على الحياة الثقافية والفكرية ، هي أنه واحد من عمالقة عصر من عصور النهضة ، وفي حياته وصراعاته ومعاركه تتمثل جميع الخصائص التي تميز عصور الانتقال الفكري الحاسم(2) .

وتأسيسا على هذا الفهم يمكننا أن نتعرف على طه حسين في الصحافة المصرية ، وأن نحدد موقعه من عصره ومن عصرنا الحاضر ، ونستخلص قيم النهضة الفكرية من مقاله الثقافي .

ولعل أبرز ما تتصف به عصور النهضة هو أن القديم فيها لا يكون قد اختفى في الوقت الذى يكون الجديد فيه قد بدأ يتولد . بل ان عصور النهضة الحقيقية هي تلك التي تكون فيها سطوة القديم على أشدها ، لا لشيء إلا لأن بذور الجديد قد بدأت تظهر(3) . ففي عصر النهضة الأوربية بلغت شراسة السلطات المحافظة الكنسية أوجها ، لأن الجو العقلي العام بدأ يكشف عن مظاهر تدعو في نظرها إلى القلق ، وتثير فيها إحساسا غير مريح بأن استتباب نفوذها لم يعد أمرا مضمونا . ومن هنا كانت صرامة محاكم التفتيش في ذلك العصر أشد مما كانت عليه في العصور الوسطى ، حيث لم تكن ثمة مخاوف ولا أخطار(4) . وفي مقابل ذلك فإن الفكر الجديد يبدو فكرا تقدميا بالقياس إلى عصره ، ما يلبث

---

(1) الدكتور فؤاد زكريا: « قيم النهضة الفكرية عند طه حسين مجلة الآداب » ــ بيروت ــ اذار ــ مارس 1974 .

(2) الدكتور فؤاد زكريا: « قيم النهضة الفكرية عند طه حسين » مجلة الآداب ــ بيروت ــ آذار ــ مارس 1974 .

(3) المرجع السابق .

(4) المرجع السابق ص 9 .

أن يكتسح معاقل السلطة المتخلفة بقيمها التقليدية إلى غير رجعة (1)

وقد تعرفنا فيما تقدم على تمثل طه حسين للقيم الباعثة للنهضة الفكرية في بيئة التكوين والتي ذهب إلى إشاعتها في المجتمع المصري محمد عبده ولطفي السيد وقاسم أمين ، وغيرهم من رواد النهضة ، على أن طه حسين جاء امتدادا وتجسيدا حيا لقيم النهضة الفكرية ، ينقل الصراع من مستواه الضيق الذى كان عليه من قبل إلى مستوى أوسع وأرحب بكثير ، ويجعله جزءا من التكوين الفكري لعصر كامل . فبفضل طه حسين أصبح الصراع الذى هو ألزم لوازم عهود النهضة الفكرية ، حقيقة أساسية من حقائق العصر ، وموضوعا من أكثر موضوعاته تداولا ، بعد أن كان هذا الصراع محصورا في أوساط محدودة دون أن تعرف الجماهير العريضة عنه شيئا ، ودون أن تشارك فيه(2) .

وقد تبين من قضية « الشعر الجاهلي » منهج التغيير الذى يتوسل به في النهضة الفكرية ، وكيف انتقل الصراع بين القديم والجديد من مرحلته في « الجريدة » إلى مرحلة تشارك فيها الجماهير بالقبول أو الرفض . ذلك أن طه حسين يذهب في الاتجاه الثقافي إلى تغيير الذوق العام وإنشاء الذوق الفني في نفوس الشباب المصريين ، ليضيفوا إلى فنهم القديم فنا حديثا ، ثم ليشاركوا في تنمية الفن العالمي والثقافة العالمية التي « تجعل الإنسان إنسانا وتحبب الحياة إلى النفوس ، وتجعل الدنيا شيئا ذا خطر على رغم ما يحيط بها من هذه الظروف البشعة »(3) . على أن تحقيق هذه المهمة يقتضي أن يمنح « الشباب ما ينبغي لهم من الحرية التي تتيح لهم أن يقبلوا ، وأن يرفضوا وأن يحبوا ، وأن يبغضوا ، وأن يفعلوا وأن يتركوا ، حين يريدون هم لا حين يريد غيرهم ، وغيرهم هذا كثير لا يكاد يحصى ، منه التقليد الموروث الذي يفرض على الشباب أن يفكر ويعبر ويعمل ويشعر ، كما تلقى ذلك عن أسرته وعن بيئته لا كما تريد نفسه ، ولا كما يريد طبعه أن يفكر ويعبر ويشعر ويسير ، ومنه التقليد الاجتماعي المكتسب الذي يفرض

(1، 2) المرجع السابق ص 9.
(3) مرآة الضمير الحديث ص 115، 116، 118.

عليه أن يحيا كما يحيا الناس ، ويحظر عليه أن ينفرد أو يشذ أو يأتي من الأمر ما يكره النظراء والأتراب . ومنه السلطان الـذي يشرع القوانـين ، قاسية مرهقة مقيدة ، ثم يصطنع في انفاذها وسائل أشد منها قسوة وإرهاقا وتقييداً »(1) . ولذلك يضع طه حسين منهج النهضة الفكرية في إطار من « تحرير الشباب قبل كل شيء ، من هذه القيود كلها أو بعضها . دعهم يفكـرون كما يـريدون . ودعهم يحيـوا كـما يـريـدون وارشـدهم بـالقـدوة الصالحة »(2) .

ومن ذلك يبين أن منهج التغيير الفكري لا ينفصل عن منهـج التغيير الاجتماعي والسياسي في الاستراتيجية القومية ، ذلك أن: التقاليد الموروثة والمستحـدثة ، وسلطان الحكـومة وسلطان الجـماعة كلهـا عوائق تـأبى على الشباب أن « يكونوا أحرارا »(3)، وقيم النهضة الفكريـة تسعى إذن إلى تحرير الشباب من « البؤس والجوع وهم التفكير ، فـيما يقيم الأود ، ومن الجهل »(4) وتسعى إلى أن يتاح لهم علم وأدب وثقافة(5) ، وأن يعيشوا في « جو سمح غير متحرج ولا متزمت »(6) ، وحيثما وجد « الانسان الحر العامل » ، وجد الذوق الفني ، ووجدت آثار الذوق الفني من الاستمتاع والإمتاع جميعاً(7) .

وفي ضوء هذا الفهم ، نجد أن مقال طه حسين في الاتجاه الثقافي ، شأنه في ذلك شأن الاتجاهـين السياسي ، والاجتماعي ، يكشـف عن وثائق جديرة بالاهتمام في تطور المجتمع المصري الحديث ، فالنزاع حول « القديم والجديد » نزاع حول ما هو أساسي وما هو قابل للنقد ، والمناقشات حول الشخصية المصرية ومقوماتها ، والموازنة بين الشرق الروحي والغرب المادي ، ومـا ارتبط بهذه المنـاقشات من تـطور الأدب المصري عن طريق القصـة والرواية والمسرحية ، والتعمق في الذات كما في « الأيام » التي تمهد لأدب

(1، 2) مرآة الضمير الحديث ص 115، 116، 118 .
(3، 4، 5)المرجع السابق ص116، 118 .
(6)المرجع السابق ص 119 .
(7)نفس المرجع السابق.

الاعترافات(1) وعن طريق الواقعية والأسلوب الغنائي على السواء، وعن طريق العديد من الظواهر الأخرى في تطور الاقتصاد والنظم الرئيسية والمناقشات السياسية(2) .

أما موقف طه حسين من « القديم » و« الجديد » ، فهو موقف لا ينفصل عن الاستراتيجية القومية التي صدر عنها في مقاله الصحفي في جميع اتجاهاته ذلك أن النزاع بينهما يقسم الأدباء والكتاب أقساماً ثلاثة: قسم يؤيد القدماء تأييداً لا احتياط فيه ، وقسم يظاهر المحدثين مظاهرة لا تعرف اللين ، وقسم يتوسط بين أولئك وهؤلاء ، ويحاول أن يحفظ الصلة بين قديم السنة الأدبية وحديثها ، وأن يستفيد من خلاصة ما ترك القدماء ، ويضيف إليها ما ابتكرت عقول المحدثين من ثمرات أنتجها الرقي ، وأثمرها تغير الأحوال وتبدل الظروف(3) . ولا يقتصر الاختلاف بين القديم والجديد على الأدب وحده ، وانما يتناول كل شيء ، الفن والعلم ، والفلسفة ، والحياة نفسها في فروعها المختلفة المادية والسياسية والاجتماعية(4) . ويقف طه حسين بين القديم والجديد موقفه بين التدعيم والتغيير ، بين الأصالة والتجديد ، ذلك أن الحياة الإنسانية ــ كما يقول ــ تقوم على أصلين « هما: البقاء من ناحية والاستحالة من ناحية أخرى »(5) .

وعلى ذلك فإن منهج التغيير في الاتجاه الثقافي حتمي بحكم « الاستحالة والتطور(6) وأن المصريين « مكرهون على أن يشعروا بأن يومهم يغاير أمسهم وبأن حياتهم الآن إن أشبهت حياتهم أمس من وجه أو وجهين فهي تغايرها من وجوه »(7) ، ولكن هذا المنهج في التغيير يقابل منهجه في التدعيم لتحقيق « اعتدال الطبع وصفاء المزاج والصلة الصحيحة المنتجة بين القديم والحديث »(8) .

وتأسيساً على هذا الفهم ، تنتقل معركة الجديد والقديم من دائرتها

(1، 2)جاك بيرك: مرجع سبق ص 37.
(3، 4، 5)السياسة في 6 ديسمبر 1922 ــ حديث الاربعاء ج2 ص 3.
(6، 7، 8)المرجع السابق.

المحدودة في بيئة التكوين إلى طور جديد يشمل الحياة « المتصلة على اختلاف حلقاتها »(1)، وتتجدد الخصومة بين الرافعي وطه حسين، وطائفة من الكتاب المصريين. حول رسالة بعث بها الرافعي إلى « السياسة » تحت عنوان « أسلوب في العتب » ذهب فيها مذهب المتكلفين من بعض الكتاب القدماء، فأنكر عليه طه حسين هذا الأسلوب(2)، وكانت حول هذا الانكار خصومة طويلة انتهت إلى الشتم والتنابذ ثم لم يلبث طه حسين المحرر الأدبي « للسياسة » أن نشر لكاتب فلسطيني هو خليل السكاكيني رسالة حول الأسلوب القديم والأسلوب الجديد، وحول الإيجاز والإطناب تناول فيها بالنقد كاتبا أدبياً من كتاب سوريا هو الأمير شكيب أرسلان، فرد عليه الأمير رداً طويلا واشتدت المناقشة بين الكاتبين انتهت إلى شيء من العنف ليس بقليل(3) ثم تعرض سلامة موسى للرافعي في مجلة « الهلال » فعده مع شكيب أرسلان. من زعماء المذهب القديم وأشار إلى السكاكيني على أنه من أنصار المذهب الحديث(4) ويوجه طه حسين هذه الخصومة في المقالات التي نشرت في « السياسة » من ديسمبر 1922 إلى فبراير 1924، لتنتج « نتائجها التي أنتجتها خصومة القديم والحديث في كل زمان، وفي كل مكان، فينتصر جديد على قديم، ثم يصبح هذا الجديد قديما، وتكون الخصومة حوله وحول جديد آخر، ينتصر متى آن له الانتصار وستظل الحال كذلك ما دام للغة العربية والأدب العربي حظ من حياة »(5).

ولا يقف أثر هذه الخصومة على تجديد الأسلوب الكتابي فحسب، وإنما يمتد ليشمل تجديد الذوق الأدبي والذوق العام ذلك أن للعصر الذي نعيش فيه حاجات وضروبا من الحس والشعور تقتضي أسلوباً كتابياً يحسن وصفها ويجيد التعبير عنها دون أن يسرف في القدم أو يغلو في الجدة. ولست أدري لِمَ لم يتفق الأدباء على هذه القضية، ونحن في حياتنا المادية إنما

(1) المرجع السابق.
(2) السياسة في 6 يونيو 1923.
(3) السياسة في 6 يونيو 1923.
(4) السياسة في 6 فبراير 1924 ـ حديث الاربعاء ج3 ص 10.
(5) نفس المرجع السابق.

نلائم بين حاجاتنا وبين الأدوات التي نستخدمها لنرضى هذه الحاجات ، فما لنا إذا أردنا أن نتكلم لنذل على هذه الحاجات لا نلائم بين لغتنا وبين حاجاتنا »(1)

ويتمثل طه حسين في منهجي التغيير والتدعيم ، تيارين ثقافيين ، أحدهما يأتي من الغرب الأروبي والآخر من الأدب العربي القديم ، ولذلك أسفرت خصومة الجديد والقديم عن ثقافة عربية مصرية خالصة لم تفن في الغرب الأروبي ولم تفن في أدب الجاهليين والإسلاميين والعباسيين وإنما صورت شخصية مصرية ممتازة من هذين التيارين ، ثم ذاعت هذه الشخصية فيما وراء حدود مصر من أقطار العالم العربي(2) . ذلك أن الأمة الحية في نهاية الأمر هي التي تساير الزمن وتتأثر بالأحداث تأثر من ينتفع بها ولا يفنى فيها وأن تتطور حسب ما تمليه الظروف(3) .

وعلى ذلك يمكن القول إن الاتصال في الإتجاه الثقافي عند طه حسين في مواقفه من القديم والحديث ، إنما يذهب إلى تكوين ذوق ثقافي جديد لمصر الحديثة ، قد ينكره القدماء لو ظهروا عليه ولكنه على ذلك عربي خالص لا شك في عروبته ، ومصري خالص لا شك في مصريته ، وملائم مع ذلك كل الملاءمة لأغراض الحياة المعاصرة على اختلافها(4) .

ويقوم هذا الذوق الثقافي عند طه حسين على القصد والتوسط بين الغلو في المحافظة الذي ينتهي بالثقافة العربية إلى الجمود ثم إلى الموت وبين الغلو في التجديد الذي ينتهي بها إلى الفناء في الثقافات الأجنبية أو في الحياة الأجنبية(5) ، وذلك على الرغم من أن التعليم العام لم يستجب لحاجات النهضة الفكرية ، وإنما اقتضت ظروفه ألا يتقدم في بطء شديد ، واقتضت ظروفه أيضاً أن يحسب القائمون على أموره حساباً أي حساب للمغالين في المحافظة والمسرفين في الجمود والمبغضين لكل تطور وتجديد(6) ومع ذلك فإن المقال في الاتجاه الثقافي ، قد استمر في تغيير الذوق المصري

(1) نفس المرجع السابق.
(2، 3، 4) من أدبنا المعاصر ص 154، 156، 157، 158.
(5، 6)المرجع السابق ص 160، 161، 162، 164.

لأن كتابه من جيل طه حسين ، لم يعيشوا بعيداً عن الناس وإنما كانوا يعيشون مع الشعب بل يعيشون بالشعب وللشعب(1) .

ولذلك ذهب المقال الثقافي في اتجاه تجديد الثقافة المصرية والمشاركة في تنمية الثروة الانسانية من العلم والفلسفة ومن الأدب والفن . وفي تمكين الانسانية من الانتفاع بما تنتجه المعرفة في الحياة العملية اليومية(2) ، ولذلك يذهب المقال عند طه حسين إلى نشر أعظم حظ ممكن من الثقافة في طبقات الشعب(3) ، وهي ثقافة عميقة واسعة منوعة تحقق الصلة العقلية القلبية بين الصفوة الممتازة وغيرهم من الطبقات التي تصرفها الحياة اليومية عن الفراغ للمعرفة(4) . ويتجه المقال الثقافي عند طه حسين كذلك إلى تجاوز حدود الوطن يغذو أمماً أخرى ، ويتصل بها ، لتعترف « لنا هذه الأمم بأننا لسنا خاملين ولا خامدين ولا قاعدين ولا عيالا عليها »(5) . ذلك أن « الفوز في السياسة والاقتصاد لا يتأتى للأمم الجاهلة ولا للشعوب الغافلة ولا للدول التي لا تمنح الثقافة من عنايتها إلا حظا يسيرا »(6) .

ومن ذلك يبين أن المقال في الاتجاه الثقافي في الاستراتيجية القومية عند طه حسين يذهب إلى تأصيل وتجديد الثقافة المصرية ، التي تقوم ـ أولا ـ عل وحدتنا الوطنية وتتصل اتصالا عميقا قوياً بنفوسنا المصرية الحديثة كما تتصل اتصالا قويا عميقا بنفوسنا المصرية القديمة أيضاً تتصل بوجودنا المصري في حاضره وماضيه(7) ، ومن حيث أنها ـ ثانيا ـ تصور آمالنا ومثلنا العليا في الحياة ، فهي تتصل بمستقبلنا أيضاً بل هي تدفعنا إلى هذا المستقبل دفعا(8) . تجمع بين الجدة والقدم وتثب إلى أمام ولكنها تستأنى وقد تقف من حين إلى حين لتنظر إلى وراء(9) . وتقوم ـ ثالثا ـ على الاعتدال المصري الذي يشتق من اعتدال الجو المصري والذي يأبى على

---

(1) المرجع السابق ص 160 ، 161 ، 162 ، 164 .
(2 ، 3 ، 4)مستقبل الثقافة في مصر ص 487 ، 488 ، 490 .
(4 ، 5) المرجع السابق ص 488 ، 490 ، 529 ، 530 .
(6)المرجع السابق نفس الصفحات.
(7 ، 8 ، 9)المرجع السابق ص 530 ، 532 .

الحياة المصرية أن تسرف في المحافظة كما يأبى عليها أن تسرف في التجديد (1). ثم هي في ذلك كله تتمثل التراث المصري الفني القديم والتراث العربي الاسلامي وما كسبته مصر وتكسبه كل يوم من خير ما أثمرت الحياة الأوربية الحديثة، تتمثل هذه العناصر المتناقضة فيما بينها فيصفي بعضها بعضا، ويهذب بعضها بعضا وينفي بعضها من بعض ما لا بد من نفيه من الشوائب التي لا تلائم النفس المصرية ثم يتكون منها هذا المزاج النقي الرائق(2) الذي يلخص الدور الثقافي في مقال طه حسين.

ويتوسل المقال في الاتجاه الثقافي بفنون مقاليه تجمع بين الأصالة والتجديد تقوم على أداء الوظيفة الثقافية من جهة، وعلى توطين هذه الفنون وتأصيلها في اللغة العربية من جهة أخرى، لتكوين ذوق ثقافي جديد لا شك في عروبته وفي مصريته، وملائم مع ذلك لأغراض الحياة الحديثة ومن هذه الفنون المقالية: فن العمود الثقافي ـ وفن المقال النقدي وفن المقال التنويري.

(أ) فن العمود الثقافي:

ونعني به «العمود المتخصص» احد أنواع فن العمود الصحفي، في مقال طه حسين، في «حديث الأربعاء» الذي نشر في «السياسة» و«الجهاد» وجمع بعد ذلك في ثلاثة أجزاء، ويتمثل هذا المقال العمودي المتخصص الدور الثقافي في صحافة طه حسين بعد عودته من باريس، ذلك أن أول مقال نشره في «السياسة» لم يتجه في الاتجاه السياسي، ولكنه يتجه في الاتجاه الثقافي متخذاً هذا الشكل المقالي الجديد، في «حديث الأربعاء»(3) الذي احتل الصفحة الأولى في بداية الأمر، ثم لم يلبث أن احتل الصفحة الثالثة كاملة في أيام الأربعاء كما يبين من عنوان العمود المتخصص(4)، وظل في مكانه من هذه الصفحة لا يتغير مثيراً

---

(1) المرجع السابق ص 530، 532.
(2) المرجع السابق ص 531.
(3) السياسة في 8 نوفمبر 1922.
(4) السياسة في 3 يناير 1923.

موضوعات ثقافية عامة لاتتعلق بالأدب القديم وحده ، وإنما قد تدور حول « الأدب ــ والسياسة »(1) ونقد حافظ في « البؤساء »(2) و« حرية الرأي »(3) . . . الخ .

ويرتبط هذا الفن المقالي بالوظيفة الثقافية في صحافة طه حسين التي تفرض عليه حين يتولى تحرير الصفحة الأدبية بجريدة« السياسة » في أواخر عام 1922 أن يطور التحرير الأدبي في الصحف ويطوعه لأشكال التحرير الصحفي فكان من أوائل الذين دعوا إلى عناية هذه الصحيفة بالأدب والخوض فيه ، وحثها عليه(4) ، ولقد لبث حينا يكتب وحده في الأدب « لأن الناس كانوا منه في شغل بالسياسة وأحاديثها . ولكن ما هي إلا أيام أو أسابيع حتى أسرع الكتاب فكتبوا والشعراء فنظموا . وأصبحت . « صحيفة الأدب » في السياسة ، أو أصبحت جريدة « السياسة » كلها ملتقى لطائفة من خيرة الأدباء(5) ، ويسجل طه حسين « هذا الفوز للأدب »(6) مغتبطاً به مستزيداً منه(7) ، ويتجاوز هذه الدعوة الخالصة إلى ما هو خير منها ، ليستفيد الأدب من هذه الظاهرة التي هي أساس الحياة ومصدر الحركة في كل فرع من فروعها(8) ، ولذلك أخذ ينشر في كل يوم أربعاء مقالا متخصصا في الأدب العربي ــ أدب الأمويين والعباسيين ليبث من خلاله آراءه الجديدة ، التي تحث على التفكير ، ثم ليثير معركة القديم والجديد في الأدب ، ثم يعود إلى الأدب الجاهلي ، متوسلا بالتفسير والتبسيط في تعميق المفاهيم الأصيلة في التراث العربي ، وإشاعة هذا التراث على أوسع نطاق بين جماهير القراء .

ومن ذلك يبين أن المقال الثقافي في « حديث الاربعاء » قد مر بطورين طور التغيير في المقالات التي نشرت في « السياسة » في العشرينيات وطور التدعيم في المقالات التي نشرت في « الجهاد » في الثلاثينيات ، متوسلا في

---

(1) السياسة في 8 نوفمبر 1922 .
(2) السياسة في 15 نوفمبر 1922 .
(3) السياسة في 29 نوفمبر 1922 .
(4، 5، 6) السياسة في 30 مايو 1923 .
(7) المرجع السابق .
(8) المرجع السابق .

الطورين بأسلوب التفسير والتبسيط من خلال قدرات عديدة تجعل من طه حسين مقاليا مبسطا بارعا ، فهو ـ كما تقدم ـ يكتب كتابة واضحة مقروءة ، ويستطيع أن يحول أكثر الموضوعات غموضا إلى جمل عربية بسيطة مفهومة ، وهو واسع الاطلاع في الأدب القديم والحديث ، يستخدم هذه القدرات عندما تتسع الهوة « بين الأدب الجاد وذوق جمهور القراء(1) بحيث يصبح المقال الثقافي « همزة الوصل بين العمل الغامض أو الصعب وبين القارىء »(2) .

وفي « حديث الأربعاء » يتوسل طه حسين بالتبسيط الصحفي ، لأن الحاجة إلى التنوير والتغيير تصحبها حاجة مشابهة إلى التدعيم والتأصيل متوسلا بالترجمة والتنوير كذلك ، لا من لغة إلى أخرى فحسب ، كما في المقال التنويري ، وإنما في اللغة العربية ذاتها ، وقد وجد في اللغات المختلفة كتاب قاموا بنفس الدور كما فعل « أدموند ويلسون »(3) و « وليم أمبسون » وغيرهما من الكتاب والنقاد »(4) .

على أن هذه المقدرة التفسيرية عند طه حسين ، تتسم بسمات نقدية ومقدرة على إدراك العلاقات ثم استخراج التعميمات منها ، في عملية النمذجة للشعر القديم ، حين يلاحظ بين قرائه من يجهل هذا الشعر ويزدريه(5) نتيجة لانقطاع الصلة بينهم وبين هذا الشعر ، كما يقول صاحبه وهو يحاوره في « حديث الأربعاء » (6): « أن الصلة قد انقطعت أو كادت تنقطع بيننا وبينهم ، ولا سيما بعد أن أقبل العصر الحديث ، وحمل إلينا الحضارة الحديثة وما تفرض على الناس من أساليب الحياة والتفكير ، فباعد بيننا وبين القدماء وغير طبائعنا وأمزجتنا وأذواقنا » (7) . و « الحياة كلما تطورت وتحولت زادت في تغيير طبائعنا ، وفي تغريبنا ، إن صح هذا التعبير »(8) . ومن ذلك يتضح « نموذج » المشكلة الثقافية ، الذي يقتضي ،

(1، 2، 3)ستانلي هايمن: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ص 37 .
(4)المرجع السابق ص 37 .
(5)الجهاد في 30 يناير 1935 ـ حديث الاربعاء ج1 ص 8، 9 .
(6)الجهاد في 30 يناير 1935 ـ حديث الاربعاء ج1 ص 8، 9 .
(7)الجهاد في 30 يناير 1935 ـ حديث الاربعاء ج1 ص 8، 9 .
(8)المرجع السابق ص 10 .

تحقيق التوازن بين التغيير والتدعيم ، متوسلا بالتبسيط والتفسير في تقريب الصلة بين هؤلاء القراء و« كنوز الأدب القديم » ولذلك يصرح طه حسين بأنه يريد أن « يترجم » الشعر العربي للقارىء الحديث نتيجة حواجز قامت بينهما ، متمثلة في اللغة التي قيل فيها هذا الشعر ، فإذا ما ضاق القارىء الجديث بهذه اللغة وعاد إلى بعض المراجع القديمة أو الحديثة لتعينه على فهم هذا الشعر لم يجد عونا بل ربما وجد الصورة مشوهة في النوعين كما يبين من نموذج صاحبه في الحوار ، ولذلك يذهب المقال الصحفي في الثلاثينيات إلى عرض الشعر القديم وتبسيطه للقارىء الحديث ، ليصل بينهما وصلا محكما يقوم على الفهم والتذوق معاً(1) .

ويتوسل طه حسين بالتفسير والتبسيط في طور التدعيم أي في مقالات « حديث الأربعاء » التي نشرت في « الجهاد » عام 1935 ، والتي ضمنها الجزء الأول في الطبعات التالية ، لأن طور التغيير كان قد انتهى إلى وسائل لا يملكهاالأدب القديم ، ذلك أن الحضارة الحديثة تكاد تصرفنا عن هذا الأدب القديم ، الذي لا يكاد يسعى إلينا إلا بطيئا قد أثقلته القرون ، وهو لا يكاد يخطو إلينا خطوة حتى يتعثر في هذه العقبات التي تبثها الحضارة أمامه والتي يتصل بعضها بالعلم وبعضها بالجهل ، وبعضها بالذوق المترف الرقيق وبعضها بالذوق الخشن الغليظ ، وبعضها بما شئت وما لم تشأ من هذه الخطوب ، التي تفرضها الحضارة الحديثة علينا فَرضا ، فتصرفنا عن كل ما يحتاج إلى الجهد والروية والأناة » ومعنى ذلك أن الأدب القديم صائر إذا مضت الأمور على هذا النحو الذي تمضي عليه ، إلى أن يصبح لونا من ألوان الترف ، لا يعنى به ولا يتوفر عليه إلا الذين يفرغون للتخصص في بعض الفنون ، ومع ذلك نحب لأدبنا القديم أن يظل « في هذا العصر الحديث كما كان من قبل ضرورة من ضرورات الحياة العقلية ، وأساسا من أسس الثقافة ، وغذاء للعقول والقلوب »(2) .

وتأسيساً على هذا الفهم ، يتمثل طه حسين مسئوليته في المقال الصحفي

---

(1)مجلة الآداب ــ مارس 1974 ــ ندوة « طه حسين ومنهجه النقدي » .
(2)الجهاد في 30 يناير 1935 ــ حديث الاربعاء ج1 ص 13 .

التي تجعل كافة الحقائق والمعلومات ذات القيمة الحضارية في متناول أفهام كل الناس . ذلك أن الحضارة الحديثة ، كما يذهب إلى ذلك علماء الفن الصحفي (1) تصبح غاية في التعقيد والتجريد ، والبعد عن التجربة الفردية المباشرة (2). فالحضارة الحديثة ــ كما يلاحظ طه حسين ــ حملت إلى عقولنا شرا غير قليل ، لم يأت منها هي ، وإنما أتى من أننا لم نفهمها على وجهها ، ولم نتعمق أسرارها ودقائقها . وإنما أخذنا بالظواهر ، وقنعنا منها بالهين اليسير ، فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود وجهل ، كما كان التعصب للقديم مصدر جمود وجهل أيضاً(3) .

وهنا تظهر وظيفة الكاتب الصحفي في رأب الصدع ، وسد الهوة السحيقة بين الثقافة الجادة والإنسان العادي ، بين المتخصص وعامة القراء ، متوسلا بكل الوسائل والفنون الصحفية التي تخلص الأحداث من تجريدها ، والمعلومات من صعوبتها (4) .

ومن هذه الوسائل في المقال الثقافي ، التوسل بالأسلوب القصصي والحواري الذي لم يستخدمه في مرحلة التغيير ، ولعل ذلك يرجع إلى أنه كتب هذه المقالات بعد « الأيام » و« دعاء الكروان » و« أديب » ، ويذكرنا الأسلوب الحواري في مرحلة التدعيم ، بحوار سقراط لتلاميذه ، فالقضية معروضة عرضاً كاملا من خلال هذا الحوار الذي « لا يدور بين طه حسين وشخص آخر . ولكن مع نفسه حين تنازعه إلى الرجوع لموضوعات تاريخ الأدب التي قدمها في الأدب الجاهلي كمشكلات الشك والإقحام والإمتحان (5)

على أن التوسل بهذا الأسلوب الحواري ، ليس عفوياً أو جمالياً ، ولكنه توسل وظيفي ، يتغيا التبسيط والتجسيد والتشخيص بهدف التدعيم . يقول لصاحبه :

ــ « كلا يا سيدي : إني لا أريد أن ألقي عليك درساً ، وإنما أريد أن

(1، 2)الدكتور ابراهيم امام : المرجع السابق ص 63، 64 .
(3)الجهاد في 30 يناير 1935 ــ نفس المرجع ص 15 .
(4)الدكتور ابراهيم امام : نفس المرجع ص 64 .
(5)مجلة الآداب ــ المرجع السابق ص 14 .

آصل بينك وبيني حواراً ، فإما أن تقرأ هذه القصيدة ، وإما أن ينقطع الحوار (1) .

ويقول صاحبه بعد نشر جزء كبير من الحوار(2) : إنك تذيع أحاديثنا في شيء من التبسيط ، لا تتحفظ ولا تحتاط ، فتروي عني كثيراً مما أقوله لك ، لا تصفيه ولا تنقيه ، ولا تزيل منه الغشاء ، ولا تنفي عنه كثيراً من هذا السخف الذي تجري به الألسنة في المألوف من الحديث ، ولكن الأقلام تتجافاه وترتفع عنه حين تسجل هذه الأحاديث »(3) .

ومن ذلك يبين غرض الحوار في إيقاظ القارىء ، وإثارة انتباهه وتهيئة ذهنه للفهم ، وحثه على متابعة القراءة للموضع الجاد ، وهو من هذه الوجهة غرض صحفي ذلك أن استعمال المسرحة أو الأسلوب الدرامي لا يمكن أن ينفصل عن الفن الصحفي (4) . ولذلك يتوسل طه حسين بالوسائل السقراطية في الحوار توسلا وظيفياً ، شأنه في ذلك شأن سقراط حين أحس أن في نفسه شيئاً يخالف ما في أنفس الأثينيين ، وأن له ميولا تخالف ميولهم ، وأهواء تخالف أهواءهم ، وأخذ يحاور السوفسطائيين من جهة والشبان من جهة أخرى ، لايصرفه ذلك عن واجباته الوطنية (5) . ونفس الشيء تقريباً في مقالات حديث الأربعاء ، حين يذهب طه حسين إلى محاورة السوفسطائيين المحدثين المصابين بجهل الحضارة الحديثة ، ومسخ المعنى الصحيح لكلمة التجديد في نفوس الناس (6) ، ليصحح لهؤلاء معنى التجديد وإحياء القديم ، وأخذ ما يصلح منه للبقاء (7) .

ويحاور طه حسين نموذج هؤلاء الشبان ، في ألفاظ إن لم ترق له فقد كانت قوية خلابة ساحرة ، كما كانت ألفاظ سقراط (8) ، تمتاز بالدعابة ، والهزل اللذيذ (9) ، كستار لطيف شفاف ينم « بما دونه من حق

(1) الجهاد في 27 فبراير 1935 ـ حديث الاربعاء ج1 ص 57 .
(2، 3) الجهاد في 6 مارس 1935 ـ المرجع السابق ص 65 .
(4) الدكتور ابراهيم امام : المرجع السابق ص 64 .
(5) قادة الفكر ص 33 .
(6، 7) الجهاد في 30 يناير 1935 ـ حديث الاربعاء ج1 ص 24 .
(8 ، 9) قادة الفكر ص 33 .

وجد »(1) . فيأخذ على صاحبه الذي يحاوره السبيل ، ويمنعه أن يمضي ، ويلقي أسئلة عادية ويمضي الشاب في الجواب ، وإذا هما في حوار فكري كحوار سقراط(2) . يجمع حولها أكبر عدد ممكن من القراء ، يدور حول المباحث النقدية في رفق ولطف ، وما يزال يدور حولها ، حتى يجد مسلكاً ضيقاً يسلكه فينتهي به إلى النتيجة التي كان يبتغيها ، من تدعيم للقيم الأصيلة في التراث .

ويمتاز العمود الثقافي في طوره الثاني عنه في الطور الأول ، بهذا الأسلوب السقراطي ، فيتضمن المقال حديث الكاتب ، فيسأل ويناقش جواب صاحبه الذي يحاوره ، ثم يسأل ثم يتعرض للسؤال ، ثم يجيب ، ثم يورط محاوره في الخطأ ، أو يتورط هو في الخطأ ، وما يزال في حوار وأخذ ورد حتى يستخلص النتيجة كأنها إحدى القضايا الأولية التي لا تحتمل الشك ولا الجدال . ومصدر هذا الأسلوب عند طه حسين ، أن سقراط كان يعتقد أن النفس بطبعها قادرة على العلم بالأشياء وعلى استكشاف الحقائق ولكن ظروف الحياة العملية وأعراضها ، وما ورث الناس من عادات وأخلاق ، ومن أساطير وسخافات ، كل ذلك قد تراكم على هذه النفس الصافية(3) . فعمل المقال الثقافي إذن ليس تعليم الإنسان ما لم يعلم ، وإنما هو إعداد الإنسان لكشف الحقائق(4) .

ومن هنا يغدو أسلوب المقال الثقافي عند طه حسين هو أسلوب « التوليد السقراطي »(5) في عرض نقده التطبيقي للشعر القديم ، وتبسيطه لتكوين صور حقيقية عنه في أذهان القراء . بعد أن يزيل « الصدأ عن المرآة »(6) ذلك أن المحصول اللغوي للقارىء يكون في معظم الأحيان « محدوداً ، فلا يفهم ما يقال له ، ومن هنا جاءت أهمية التبسيط والتجسيد والنمذجة نتيجة لظروف الجماهير العريضة التي يزداد عددها كقراء للصحف

---

(1) قادة الفكر ص 33 .
(2) المرجع السابق ص 36 .
(3، 4) المرجع السابق ص 47 .
(5) المرجع السابق نفس الصفحة.
(6) المرجع السابق ص 47 .

من جهة ، ولضغوط الحيز الضيق من جهة أخرى »(1) ولذلك يجيء الأسلوب الحواري في « التوليد » السقراطي ، أنسب الأساليب مع « هؤلاء الذين أفسدهم الأخذ بظواهر الحضارة ، فجهلوا القديم ثم كرهوه ، ثم اتخذوا من جهله وكراهته مذهباً يغرون به ويدعون إليه »(2) .

. ويذهب طه حسين إلى أن العلماء المتخصصين « لا ينبغي أن يؤثروا أنفهسم بالعلم ، وأن يحتكروه من دون الناس ، وإنما يجب عليهم أن يتعبوا لتستريح أنت وأمثالك ، وأن يشقوا لتسعد أنت وأمثالك ، وأن يستخرجوا لكم من هذه الحدائق القديمة المهلمة ، التي طال عليها الزمن ، وبعد بها العهد ، زهرات لا تستطيعون أنتم أن تخرجوها ، فمن يدري لعل هذه الزهرات أن تعجبكم ، ولعلها أن تغريكم بمصادرها »(3) ؟ .

على أن هذا الأسلوب السقراطي في الحوار ، لا يقف عند التبسيط والتفسير ، في تقريب المعاني إلى الأفهام ، وإنما يتجاوز هذا التبسيط وذلك التفسير إلى « تقويم » الابداع الشعري عند العرب ، واستخلاص ما فيه من معان ، عجز محاوره عن قراءة ألفاظها « لا بغضا ولا قلى ، ولكن عجزاً ويأساً » (4) .

وهو لذلك « يترجم الشعر العربي القديم إلى اللغة العربية الحديثة ، ذلك أن هذه القرون الطوال التي مضت بين القدماء وبيننا ، لم تمض عبثاً ، وانما أنشأت بينهم وبيننا فروقا عظيمة ، جعلت من العسير علينا أن نفهمهم إذا تحدثوا كما نفهم أنفسنا حين يتحدث بعضنا إلى البعض ، وإذا كان الفرنسيون يحتاجون إلى أن يترجموا بعض آثارهم في القرون الوسطى ، وفي أول العصر الحديث إلى لغتهم التي يألفونها الآن ، فلم لا نحتاج نحن إلى أن نترجم أو نقرب شعر القدماء من الجاهليين أو من الإسلاميين إلى هذه اللغة اليسيرة التي نصطفيها فيما يكون بيننا من الأحاديث »(5) . وفي خلال هذه « الترجمة » للشعر القديم ، يتحدث إلى محاوره عن الوحدة

---

(1) الدكتور ابراهيم امام: المرجع السابق ص 64.
(2، 3) الجهاد في 30 يناير 1935 ـ حديث الاربعاء ج1 ص 15.
(4) الجهاد في 6 فبراير 1935 ـ حديث الاربعاء ج1 ص 19، 27.
(5) المرجع السابق نفس الجزء ونفس الصفحات.

المعنوية في الشعر القديم متوسلا بالاستشهاد والمقارنة والتحليل التقويمي (1) .

ويلاحظ محاوره هذه الخصلة التفسيرية في « حديث الأربعاء »(2) ، حين يصفه بتعمد الصعب ، والقصد إلى العسير: « كأنك تؤمن لنفسك بقوة نادرة لا ينبغي لها إلا أن تواجه المشكلات والمعضلات ، وتتجافى عن الأمور الهينة الممهدة »(3) ، ويؤثر طه حسين ذلك عن عمد ، ليرشد إلى « جمال الشعر »(4) ويدل عليه مقوما إياه ، مبيناً « ما فيه من محاسن »(5) ، الأمر الذي يجعل الأصل في « حديث الأربعاء » أنها أحاديث حوارية بين رجلين يختلفان في حب الشعر القديم وتقويمه ، فإذا اتفق هذان الرجلان ، فقد يحسن أن ينقطع الحوار بينهما فيما اتفقا عليه »(6) .

ذلك هو أسلوب العمود الثقافي في مرحلة التدعيم « وتقريب الهوة بين كنوز الأدب وذوق جمهور القراء ، على نحو ما يقتضي التبسيط من تحقيق للتواصل الأدبي التاريخي في أسلوب مستساغ ومألوف للقارىء العادي ، يخلو من التفاصيل العملية المعقدة »(7) .

أما العمود الثقافي في مرحلة التغيير ، فقد كان تمهيداً لكتاب « في الشعر الجاهلي » ، ونعني مقالات « حديث الأربعاء » التي نشرت في « السياسة » منذ أواخر عام 1922 ، والتي ذهب فيها في اتجاه تغيير للقيم التقليدية المحافظة ، من جهة صدم المتعارفات أو المقدسات فيما يتصل بالنواحي الاجتماعية ، فإذا كان المصريون يعتقدون في عصره أن حياة العرب القديمة كانت طهراً خالصاً ، فقد اختار من الحياة في العصر العباسي ما يكشف عن أن هذه الحياة كانت خليطاً مضطربا من القيم الأخلاقية المتنوعة ، ويركز في العصر العباسي على الغزليين الذين حرصوا على القواعد الأخلاقية المألوفة التي كان المجتمع يظن أنها مألوفة فيه ،

---

(1) الجهاد في 13 فبراير 1935 ـ المرجع السابق ص 28.

(2) المرجع السابق ص 77، 78.

(3، 4، 5) المرجع السابق ص 77، 78، 79.

(6) المرجع السابق ص 79.

(7) الدكتور ابراهيم امام: المرجع السابق ص 63.

ويحاول في قسم الغزل أن يشكك قدر الإمكان في الغزل العذري ، بينما اعترف ان الغزل الأصيل المعترف به هو غزل عمر بن أبي ربيعة ليكشف حقا عن طبيعة الحياة في هذه الفترة »(1) .

ويتوسل بهذا الأسلوب في « هدم الهدم » في إطار الاستراتيجية القومية التي تقتضي تصدع قيم المجتمع التقليدي ، ليتيسر الخروج بمصر من جرة المجتمعات التقليدية ، التي لا مشاركة فيها إلى نطاق المجتمع الحديث المشارك في الشئون العامة ، وبذلك تُصبح الوظيفة العامة في مقال طه حسين هي تقريب البعيد ، وتبسيط القريب ، بحيث تتمكن من أن تصبح جسراً للعبور بين المجتمعين التقليدي والحديث .

ولذلك يقتضي المقال الثقافي في «حديث الاربعاء» في مرحلة التغيير ، منهجاً نقدياً ديكارتياً، أسفر عنه نقده التطبيقي للشعر في العصرين الأموي والعباسي من خلال كشف النقاب عن القيم التقليدية السلبية، المتمثلة في مواضعات أخلاقية وأدبية تعارف عليها الناس دون تحقيق أو تجديد ، ولذلك يتلمس مظاهر الشبه بين العصرين الأموي والعباسي وعصره ، فيما يتعلق بالصراع بين القديم والجديد ، مصدره ونتائجه في فروع الحياة المختلفة ، ومظهره في الحياة الأدبية وآثاره في الأدب اليوناني والأدب العربي ،(2) كذلك كانت الحال قديماً ، وكذلك كانت الحال في هذا العصر الذي نعيش فيه .(3)

ومن ذلك يبين الجهاد بين القديم والجديد ، ضرورات المرحلة التي كتبت فيها المقالات الأولى من « حديث الأربعاء » لزوال المجتمع التقليدي ، متضافراً في ذلك مع « المقال التنويري » لإشاعة تفتح سمح وتقمص وجداني ظهرت آثاره « بين الأمم الأوربية نفسها في الآداب الأوربية

---

(1)مجلة الآداب ـ مرجع سبق ص 14 .
(2)السياسة في ديسمبر 1922 ـ حديث الاربعاء ج2 ص 3 .
(3)المرجع السابق ص 4 .

الحديثة »(1) كأثر من آثار الاحتكاك بين الثقافات ، ولكن العرب قد حرموا « هذا الاختلاط ، فحرم الأدب العربي نتيجته »(2) .

ولذلك يذهب المقال الثقافي في مرحلة التغيير إلى إذكاء عنصر « الاستحالة والتجديد ، جريئا وحرا في البحث »(3) يعمد إلى « الحرية والجرأة » عمداً ،(4) ويضطره إليهما اضطراراً ، بحيث « يعتقد أنه صحيح وصدق في التاريخ يعتقد أنه واجب على الباحثين »(5) :

ويمتاز منهج المقال الثقافي في هذه المرحلة بجملة أشياء .

أولاً ــ أن المقال يصل إلى شخصية الشاعر ، فيفهمها ، ويحيط بدقائق نفسه ما استطاع ، فيعرف قراءه « كيف أحس ما أحس ، وكيف شعر بما شعر به ، ثم كيف وصف إحساسه ، وأعرب عن شعوره »(6) .

ثانياً ــ أن المقال يتخذ شخصية الشاعر وما يؤلفها من عواطف وميول وأهواء ، وسيلة إلى فهم « العصر الذي عاش فيه هذا الشاعر ، والبيئة التي خضع لها هذا الشاعر »(7) ، من حيث هو « صورة من صور الجماعة التي يعيش فيها »(8) . وهو يتفق في ذلك مع « سانت بوف » صاحب « أحاديث الأثنين » من حيث اتخاذ « الجزئي وسيلة إلى الكلي »(9) .

ثالثاً ــ أن المقال يقصد إلى « اللذة الفنية »(10) حين يعرض للشعر ويحاول نقده، وهي « اللذة التي تجدها إذا نظرت إلى شكل جميل ، أو استمعت إلى قطعة من الموسيقى ، أو خضعت لمظهر من مظاهر الطبيعة الساحرة ، عقلك وشعورك يعملان إذن حين تقرأ الشعر ، وحين تنقده ، لأنك تريد أن تفهم ، وتريد أن تلتذ »(11).

وتتكامل هذه العناصر في مقال طه حسين ، في مرحلة التغيير للمجتمع التقليدي ، الذي ، يسبغ علماؤه « على التاريخ الإسلامي صفة من الجلال والتقديس الديني ، أو الذي يشبه الديني ، تحول بين العقل وبين النظر فيه

(1، 2، 3)المرجع السابق ص 5، 13 ــ السياسة في 13 ديسمبر 1922.
(4، 5، 6)المرجع السابق ص 51، 52 السياسة في 31 يناير 1923.
(7، 8، 9)المرجع السابق ص 52، 53.
(10)المرجع السابق ص 53.
(11) المرجع السابق ص 53.

ـظراً يعتمد على النقد والبحث العلمي الصحيح ، فهم يؤمنون بمجد القدماء من العرب وجلال خطرهم وتقديس مكانتهم ، وهم يضيفون إليهم كل خير ، وينزهونهم عن كل شر ، وهم يصفونهم بجلائل الأعمال . ويرفعونهم عن صغائرها ، وهم يتخذون ذلك قاعدة من قواعد البحث ، ومقياساً من مقاييس النقد ، فإذا أضفت إلى الرشيد شيئا فليس هذا الشيء صحيحاً إلا إذا كان في نفسه خليقا بالرشيد ، يليق به وبمكانته ، وليست هذه المكانة هي مكانته في نفسها ، وإنما هي المكانة التي خلعها عليه القدم ، وبعد العهد ، وجلال الخلافة ، وكرامة الدين ، وسطوة الأمة العربية »(1) . ولذلك يتوسل المقال الثقافي في هذه المرحلة ، بالنقد التاريخي(2) لينظر إلى « الناس من حيث هم ناس ، ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس ، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم والملاءمة بين هذه الأخلاق والعادات وما اكتنفها من الظروف والأحوال »(3) .

وعلى ذلك يمكن القول أن « حديث الأربعاء » في مرحلة التغيير ، يمهد لكتاب « الشعر الجاهلي » وما أسفر عنه من تصدع القيم التقليدية ، عند الاتجاه السلفي الذي « يسبغ الدين على التاريخ »(4) ، لأن مقالات « حديث الأربعاء » تلك ، ذهبت إلى شق طريق جديد في التغيير الثقافي ، ومواجهة الجمود الذي كشفت عنه قضية « الشعر الجاهلي » كما تقدم .

ونخلص مما تقدم إلى أن المقال الثقافي في عمود « حديث الأربعاء » قد مر بطورين ، وتوسل بمنهجين ، يمثلان الانتقال من تغيير المجتمع التقليدي إلى تدعيم القيم الإيجابية في التراث الثقافي العربي ، من خلال تأصيل منهج يراه بالنسبة لتأريخ الأدب العربي ، ثم الكشف عن الكنوز المجهولة في أدبنا القديم ، لتحقيق الصلة بين القديم والحديث .

على أن المنهجين يصدران عن كاتب واحد ، هو طه حسين ، ولذلك نجد النقد التحليلي أو التفسيري قاسماً مشتركاً ، في دراسة الأثر الفني

(1، 2)المرجع السابق ص 63، 64 ـ السياسة في 22 فبراير 1923 .
(3، 4)المرجع السابق ص 64 .

الذي تدعمه المناهج الخارجية أو الأبحاث العلمية ، في الإقناع المقالي المتوسل بالتجسيد والتبسيط في معالجة «الانفصام الاجتماعي» الذي يعاني منه المجتمع الحديث(1) ، بعد زوال المجتمع التقليدي ، وهو بذلك يؤدي وظيفة من أهم الوظائف الإعلامية ، وهي إعادة التفاهم إلى هذا المجتمع القائم على الإيمان بأهمية الرأي العام ، والاعتراف بضرورة التبسيط والتفسير(2) ، من أجل تحقيق التفاهم الاجتماعي .

(ب) فن المقال التنويري:

يرتبط المقال التنويري عند طه حسين بالتغيير والتجديد في الثقافة المصرية الحديثة ، وهو يسير على تواز تام مع المقال الثقافي والاجتماعي والسياسي تجاه زوال المجتمع التقليدي ، إذ يقوم هذا المقال التنويري على ما يسميه الباحثون في الاتصال بالجماهير(3) ، بالمهارات التقمصية التي تعني العصرية ، من حيث أنه يسعى إلى تصوير الأدوار التي قد يوجهها الإنسان المصري، ويبسط الأراء والفنون التي قد يحتاج إليها، وهذه المهارات هي « القوة الدافعة للتغيير والوسيلة التي تستطيع نشر ما يتطلبه الأمر من معرفة »(4) وهي التي تجعلنا نؤثر أن نسمي هذا الفن المقالي بالمقال « التنويري » للإشارة إلى وظيفته ، في تنمية التفتح السمح والإستشعار بالغير والقدرة على التقمص الوجداني ، أو رؤية الذات في الآخرين وتصورها تحتل أدوارهم ، فالمقال التنويري يهيء الانفتاح على العالم في العلاقات الاجتماعية والثقافية ، ذلك أن الأفكار والفنون الجديدة ، يدخلها المقال التنويري بحرية من مصادرها الخارجية إلى النسق الاجتماعي ، مما يؤدي إلى التفاعل بين أعضاء هذا التنسيق وبين أعضاء المجتمعات الخارجية .

وعلى ذلك فإن المقال التنويري يسعى إلى تنمية هذه القدرة على التقمص الوجداني ، التي تيسر السبل أمام التجديد ، من خلال الترويج والتنوير بالمعايير العصرية وقت كتابة المقال ، وتطوير التعليم والتفكير العلمي والانفتاح على العالم ، كما تقدم ، ويعتبر « ليرنر » وهو خير من

(1 ، 2)الدكتور ابرهيم امام: مرجع سبق ص 67، 65.
(3 ، 4)ويلبور شرام: مرجع سبق ص 69، 171.

كتب في موضوع التقمص الوجدني(1) ـ أن التفتح السمح والاستشعار بالغير هو الصفة الأساسية الهامة التي لا بد منها للمجتمع الذي يريد أن ينفض عن نفسه غبار التخلف ، ليعمل بكفاية في مجتمع متغير ، ولذلك يذهب مقال طه حسين إلى توسيع مجال الحديث والمشاركة والمناقشة بترويج الاصطلاحات الحضارية والثقافية الجديدة ، بطريقة التبسيط والتفسير في الفن الصحفي(2) .

وقد تبين من الاستراتيجية القومية في مقال طه حسين ، وجوب الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية في نواحي الحياة المصرية(3) ، الأمر الذي يوظف « المقال التنويري » في اتجاه هذه الحضارة متفقا مع كتاب المقال الفكري من الفرنسيين في منهج التناول القائم على إحالة المشكلات التي يفرضها العصر(4) تحقيقاً لانتشار الفهم والمشاركة والتذوق ، وهي أمور مؤاتية للمقال الفكري(5) ، من خلال العرض والنقد والترجمة في إطار من التفسير والتبسيط .

فالمقال التنويري ، إذن ، وسيلة للتغيير الثقافي والاجتماعي ، عن طريق إخراج الشعب من الجهل إلى المعرفة ، ومن الخمود والجمود إلى النشاط والإنتاج(6) ، يتوسل إلى ذلك بالتنوير بما يكتب في اللغات الأوربية الحية(7) الأمر الذي يجعلنا نذهب إلى أن الثقافة الفرنسية مدينة بالكثير لطه حسين(8) وهو الأمر الذي يعبر عنه « ايتامبل » في « العصور الحديثة » و« أندريه روسو » في « الفيجاروليترير » و« اميل هنريو » في مركز البحر المتوسط الجامعي في مدينة نيس ، حيث يذهب هؤلاء في موضوعية تامة إلى تأكيد ما تدين به الثقافة الفرنسية لطه حسين الذي عين وزيراً للمعارف المصرية عام 1950 ، وكانت الصحافة الباريسية والإقليمية قد أشارت في نوفمبر 1938 وبمناسبة درجة الدكتوراه الفخرية التي منحتها إياه

(1)ووسلبور شرام: مرجع سبق ص 69، 171 .
(2)الدكتور ابراهيم امام: مرجع سبق ص 38 .
(3)مستقبل الثقافة ج1 ص 30، 35 .
(4، 5)Caétan, Picon, op. cit, p. 250
(6، 7)مستقبل الثقافة ج 2 ص 496 ـ 197 .
(8)الدكتور ريمون فرنسيس: مجلة الهلال فبراير 1966 .

جامعة ليون في احتفال « مهيب » إلى طابع الوصل بين الفكرين الفرنسي والعربي « مما يدعم العمل الإنساني الكريم لخادم الفكر المخلص العبقري العظيم: الدكتور طه حسين »(1) .

ويبين هذا الدور بوضوح في المقال التنويري خاصة ، من خلال ثقافة أوربية عميقة وأسلوب قوي ، كان لهما أبعد الآثار في توجيه الثقافة المصرية الحديثة ، شأنه في ذلك شأن الكاتبين الفرنسيين: « فولتير » مكتشف « شكسبير » و « مدام دي ستال » التي عرفت الفرنسيين بالأدب الألماني(2) .

على أن المقال التنويري ـ عند طه حسين » يرتبط بمقتضيات التنوير الفكري في مصر . والتي أثارت جدلا عميقاً حول التأليف والترجمة ، واتجهت المدرسة الحديثة في اتجاه لطفي السيد إلى البدء بالترجمة كطريق طبيعي لنقل المعارف إلى بلادنا « كما فعلت أوربا في نهضتها الحديثة »(3) ، ولذلك ينتفع المقال التنويري عند طه حسين بأنماط الكتابة وطرائق ترتيب الفكر في الثقافة الأوربية ليجعل من اللغة العربية التي « يكبرها ويقدسها لغة »(4) حية مرنة خصبة تسع كل ما في الأرض من علم ومن فلسفة وأدب »(5) ، يتصل من خلالها بالكثرة القارئة التي « تجهل اللغات الأوربية جهلا تاماً »(6) ، ليرفع عنها إصر الجهل »(7) عن طريق نقل خلاصة هذه اللغات إلى اللغة العربية »(8) ، الأمر الذي يدفع كذلك « كثيراً من الشباب إلى التقليد والمحاكاة »(9) ، وهذا الأمر الأخير عند طه حسين « من أرقى عناصر الحياة العقلية وأقواها »(10).

وقد يتبادر إلى الذهن أننا نقصد بالمقال التنويري إلى ما تقوم به الترجمة فحسب ، وواقع الأمر أنه يختلف اختلافا بينا ، ذلك أن الترجمة شأنها شأن

---

(1) الدكتور ريمون فرنسيس: مجلة الهلال فبراير 1966.
(2)الدكتور محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن ص 124.
(3)أحمد لطفي السيد: « هل نؤلف أو نترجم؟ » مجلة الهلال ج3 م33 عام 1924.
(5،4)مستقبل الثقافة ج2 ص 498 ـ 499.
(6)مستقبل الثقافة ج2 ص 498 ـ 499.
(7 ، 8، 9)المرجع السابق ص 499.
(10)المرجع السابق.

العرض والنقد، وسيلة من وسائل المقال التنويري عند طه حسين، حيث يقوم الكاتب «مقاما وسطا بين الكاتب والمترجم»(1)، ذلك أن طه حسين ناقد «يدعو الغرباء بسحره وبراعته إلى التعرف على ثقافة عظيمة»، إن جاز هذا التعبير، ولذلك لا يعمد إلى الترجمة الحرفية، ولا يضيفها إلى نفسه، أو يهمل إضافتها إلى صاحبها: «لأن ذلك يخالف الأمانة العلمية والصحفية. فاكتفيت بالتلخيص، وربما أضفت إليه ما يفسر رأياً غامضاً، أو يوضح معنى مشكلا. وأعتقد أن هذا العمل قد يفيد»(2).

على أن التنوير لا يقف عند حد التنوير الأدبي أو الفكري فحسب، وإنما يتجاوز ذلك ليؤدي أغراض التنوير السياسي والإجتماعي، ومن ذلك مقال كتبه عن «السلطان والحرية»(3) في بداية الحياة الدستورية المصرية التي «يعسر فيها فهم الواجب. فليجتهد كل مخلص قادر على النفع في أن يخلص وأن ينفع(4)، ثم يعرض «لكتاب ليون ديجوي Léon Duguit عميد قسم الحقوق في جامعة بوردو، منبها إلى دلالة لفظ «السلطان» إذ يستعمل في شيء يستعمل الناس فيه لفظ «السيادة»(5) حينا ولفظ «الولاية» حينا آخر، ولفظ «سلطة الأمة» في كثير من الأحيان(6). ثم يحلل الكتاب تحليلا نقديا يجعلنا نذهب إلى أن المقال التنويري ليس ترجمة خالصة، ولكنه يمهد أمام القراء سبيل فهم الأحداث الثقافية الفكرية والإجتماعية في العالم من خلال متطلبات البيئة المصرية في وقت كتابة المقال متوسلا بمهاراته النقدية في الحكم والتمييز والتقويم.

وتأسيساً على هذا الفهم فإن المقال التنويري يذهب إلى التصحيح المستمر للخطأ في فهم العمل الفني أو الحدث الثقافي أو الإجتماعي، مما قد ينشأ عن الجهل أو التحيز، أو القصور في إدراك القارىء. ويتجه هذا المقال التنويري في أربعة اتجاهات:

أولاً: اتجاه التعريف بفنون جديدة لم توجد في اللغة العربية، كما نجد

(1، 2، 3)السياسة في 11 يونيو 1923.
(4، 5، 6)المرجع السابق.

في القصص التمثيلي أو الفن المسرحي(1) .

ثانياً: الاصلاح الاجتماعي والتغيير الثقافي في ضوء استراتيجيته القومية التي تقتضي التوسل بأسباب الحضارة الأوربية . ومن ذلك: قضية المساواة بين المرأة والرجل كما عرض لها في مقاله عن قصة بول هرفيو « قانون الرجل »(2) التي لم يعن بها « إلا من أجل هذه القضية »(3) .

ثالثاً: تعميق التفتح السمح والتقمص الوجداني عند القراء من خلال إرضاء العقل والشعور معا(4) .

رابعاً :تعميق القدرة النقدية والتحليلية عند القراء ، لتنشئتهم تنشئة فنية ممتازة قوامها الملاحظة والمراقبة الشديدة والنقد لا اسماح فيه(5) .

ويعتبر طه حسين ، إذا ما قورن بغيره من النقاد المصريين أو الفرنسيين مؤهلا أحسن تأهيل لهذا الفن المقالي القائم على التبسيط والتفسير والتقويم لتمكنه الفذ من اللغة الفرنسية ، وتمثله للثقافة اليونانية واللاتينية ، التي قدم منها « نماذج مختارة من الشعر التمثيلي » ثم « من الأدب التمثيلي عند اليونان ، ونقل ألوانا مختلفة من التراجيديا والكوميديا ، عدا المحاضرات التاريخية التي نشرها في صحيفة الجامعة المصرية ، ولعل في ذلك ما يفسر عنايته أيضا بنقل كتاب « نظام الأثينيين » الذي اكتشف في مصر عام 1891 والذي كان قد وضعه أرسطو ثم نقل إلى المتحف البريطاني في لندن(6) ونكتفي في دراسة نماذج هذا المقال التنويري بما نشره في « السياسة » ثم جمعه بعد ذلك في كتاب من ثلاثة أجزاء بعنوان « صوت باريس » والذي يضم المقالات التنويرية بالأعمال الدرامية الفرنسية أو المترجمة إلى الفرنسية ، حيث أتيحت له فرصة مشاهدتها أو قراءتها في كتاب أو عدد من « الالوستراسيون »(7) ، وكذلك مقالاته التي جمعت في جزءين بعنوان « لحظات » شأنها في ذلك شأن مقالات « صوت باريس » نشرت

(1، 2، 3)قصص تمثيلية ص 54، 39.
(4)المرجع السابق ص 54.
(5)مجلة الثقافة في 28 نوفمبر 1939 ــ فصول ص 144.
(6)نظام الاثينيين: المقدمة ــ الدكتور عبد الرحمن بدوي: مرجع سبق ص 20.
(7)الدكتور ريمون فرنسيس: مرجع سبق ص 97.

مبدئياً في « السياسة » من يناير 1923 إلى مايو 1924 – لمسرحيات بول جيرالدي ، وهنري لافدون ، واسكندر دوماس الابن ، وفيكتور هيجو ، وغيرهم . وكذلك مقالاته التي نشرت في « الثقافة » في غضون عام 1939 ، وجمعت بعد ذلك في « فصول في الأدب والنقد » ومقالاته التي نشرت في « الكاتب المصري » من عام 1945 إلى عام 1948 ، ونشرت في كتاب « ألوان » بعد ذلك .

1 – التنوير المسرحي والفني:

يذهب طه حسين إلى أن ، الأدب المسرحي « حاجة من حاجات ، الجماعات المثقفة المتحضرة التي تستمتع بحظ من حياة الشعور والعقل »(1) ولذلك فإن من « أحب الأشياء إليه بل من أعز الأماني »(2) أن يرى « أدبنا العربي الحديث يظفر بما لم يظفر به أدبنا العربي القديم من فن التمثيل »(3) ، لأن هذا الفن « وسيلة من وسائل الإعراب الفني عما نحس ونشعر ، وعما تجيش به عقولنا من ألوان التفكير »(4) .

ولعل في ذلك ما يفسر اتجاه المقال التنويري عند طه حسين إلى التعريف بالمسرح الفرنسي أو المترجم إلى الفرنسية ، من خلال الصحف التي أسهم ، في تحريرها ومن ذلك مقاله عن الممثلة الفرنسية « سارة برنار »(5) والذي يتناول فيه بالمقارنة الحياة الفنية في مصر وفرنسا: « متى يبلغ أهل مصر من الرقي العلمي والخلقي ما يمكنهم من أن يقدروا نابغة « كسارة برنار » لم تنبغ في السياسة ولا في الدين ولا في العلم إنما نبغت في الفن »(6) .

ويتوسل المقال التنويري عند طه حسين بأدوات النقد الفني في الصحف ، من حيث مشاركته ، في مشاهدة الأعمال الفنية ، أو قراءتها ، ثم تسجيل رأيه في هذه الأعمال ، كما فعل حين استمع إلى قطعة موسيقية أدتها إحدى المغنيات الفرنسيات في دار « الأوبرا كوميك Opéra-comique »

(1، 2، 3)الدكتور طه حسين: « في الأدب المسرحي » كوكب الشرق في 23 مارس 1933 .
(4)المرجع السابق.
(5، 6)السياسة في 11 ابريل 1923 .

من أشعار « رنيه فوشوا » وموسيقى « جبرائيل فوريه » والقصة مأخوذة عن الأودسا(1) .

ويتناول هذا العمل في شيء من التبسيط والنقد ، الأمر الذي يجعلنا نذهب إلى أن المقال التنويري عند طـه حسين يؤدي وظيفة الصحافة في « استعراض الفنون »(2) ، وهو استعراض لا يقوم على التقرير فحسب ، ولكنه تعبير عن الرأي أيضاً .

ويمتاز التنوير المسرحي والفني عند طـه حسين باطلاعه على النقد المنشور في الصحف الفرنسية ، التي لا تدعوه إلى المسرح وحده ، ولكن إلى « حفل موسيقي ، ومعرض من معارض الفن ، أو لخصومة من خصومات الأدب والفن »(3) وتتيح له هذه الميزة عنصرا لاختيار ما ينبغي أن يشهد من أعمال(4) وهو الاختيار الذي يقوم على رغبته في استقصاء « ألوان المتاع العقلي »(5) الذي يجده في باريس .

ومن هذه الفنون المسرحية التي يعرض لها مقاله ، ما يثير « ألواناً من النقد لها خطرها ، بعضها يتصل بالسياسة فيختصم فيه الناس كما يختصمون في السياسة ، وبعضها يتصل بالأدب فيختصم فيه الأدباء دون غيرهم من الناس ، وبعضها يتصل بالأدب والسياسة جميعاً(6) كما في مقاله عن قصتين عرضتا ، إحداهما في بيت موليير وهي « الاسبانيون في الدانمرك ، للكاتب الفرنسي « ميرميه »(7) ، والأخرى هي « الأيدي القذرة » « لسارتر »(8) والتي أثارت مشكلات سياسية بين المتطرفين والمعتدلين(9) وفي عرضه لهاتين القصتين ، يذهب إلى عرض رأيه من خلال نقده لبلاده بأسلوب مباشر أو غير مباشر ، ذلك أن « الحضارة والثقافة في بيئتنا ما زالتا أشبه شيء بالطلاء الذي لا يستطيع أن يثبت لحر الشمس وتقلب الجو »(10)

---

(1)من بعيد ص 35.

(2)ف. فريز ربوند (ترجمة راجي صهيون): مدخل في الصحافة ص 325، 326.

(3، 4، 5)رحلة الربيع والصيف ص 57، 59.

(6)رحلة الربيع والصيف ص 66.

(7، 8، 9)المرجع السابق ص 67، 68.

(10)المرجع السابق ص 71، 72.

ولذلك يذهب طه حسين إلى أن مقاله التنويري ليس تلخيصاً لقصة من القصص لمجرد التلخيص(1) وإنما يريد من ورائه تنوير المصريين بهذه «الحياة السمحة التي يحياها المتحضرون الذين هذبت عقولهم وقلوبهم تهذيباً أصيلا، فنظروا إلى الحياة وأحداثها نظرة فيها كثير من الرفق والاسماح»(2) ولذلك يناقش قصة تمثيلية هزلية تعرض لمجلس من مجالس القضاء وتتندر بالسلطات(3) كما يعرض لأعمال فنية تعبث برئيس الجمهورية، ورئيس الوزارة والنواب والشيوخ والبرامج السياسية لأولئك وهؤلاء والجمهورية نفسها، ونظم الحكم الأخرى(4)، ويتخذ من هذا العرض وسيلة للمقارنة بين مصر وفرنسا(5). الأمر الذي ييسر للتقمص الوجداني أداء دوره في التغيير.

ونخلص من ذلك إلى أن المقال التنويري – في الاتجاه الفني – يرسي مبادىء للنقد المسرحي والفني، نستخلصها فيما يلي:

أولاً – أن الكاتب يمهد بفكرة عامة عن العمل الفني في مجموعه قبل الإشارة إلى أجزاء معينة منه، كما يبين من مقدماته التي تطول بعض الشيء ربما لأنه ينور قراءه بفن جديد، وربما انسياقاً وراء رغبته في التبسيط، ومهما يكن من شيء فإن هذا المبدأ صحيح في جملته، بالقياس إلى النقد الصحفي، لأن «القارىء معني دائماً بالوقوف على طرف مما يشتمل عليه الكتاب أو المسرحية أو العمل الفني الذي ينوي التعرف إليه»(6)، ومن ذلك مدخل مقاله عن قصة «الأغواء» للكاتب الفرنسي «شارل ميري»(7). يقول:

«ولولا أني خشيت الاغراب أو الغموض لوضعت لهذه القصة عنواناً غير هذا هو التسويل، فهذه الكلمة تترجم العنوان الفرنسي ترجمة دقيقة حرفية ولكني أقرأ في قاموس الفيروزابادي: سولت له نفسه زينت، وسول له الشيطان أغواه. فليكن عنوان القصة الإغواء، وليكن هذا الإغواء قد

(1، 2) المرجع السابق ص 71، 72.

(3، 4، 5) المرجع السابق ص 72، 73، 150، 151.

(6) ستانلي جونسون، جوليان هاريس (ترجمة وديع فلسطين): استقاء الأنباء فن ص 300.

(7) صوت باريس ج2 ص 21، 24 – السياسة في 25 يناير 1925.

صدر عن النفس أو عن الشيطان فالأمر سواء »(1) الخ . ثم ينتقل من تفسير العنوان إلى التعريف بالكاتب وأعماله وتطوره الفني ، ثم إلى التعريف بالعمل نفسه تعريفاً يتيح للقارىء التعرف على طابعه العام .

ثانياً: أن طـه حسين ينقد العمـل الفني في ضوء أهـدافه ومقـاصده وداخـل إطاره . لأن الهـدف من النقد في المقـال التنويـري ليس إغنـاء القارىء العربي عن الأصل الأوربي(2) ، وإنما يريد أن يرغبه فيه ويحبب إليه قراءته ودرسه(3) . ولذلك يعتمد على الترجمة في بعض الأحيان ليدل القـارىء على مـا في العمل الفني من « جمـال وروعة »(4) . ويستخلص شكـل العمل الفني من العمـل ذاته كـما في مقالـه مسرحيـة « انتـوانيت سـابرييـه » للكاتب الفـرنسي « رومان كـولدس »(5) . التي يـلاحظ فيهـا « أصول المنطق ونظام التفكير الإنساني »(6) : « فأنت تنتقل بين مناظرهـا وفصولها ، كما تنتقل بين قضايا القياس المنطقي المتقن . وقد وضـع كل شيء فيهـا موضعـه لا يستطيـع أن يتجاوزه ولا ينبغي لـه أن يتقـدم أو يتأخر »(7) .

ثالثـاً : إن النقد في المقـال التنويـري ، يقوم عـلى تلخيص محتويـات الكتاب أو العمل الفني ، تلخيصاً يجمل للقراء الفكرة العامة للمـوضوع والتي تثير اهتمامهم . ولذلك لا يتـوسل بـالتلخيص الشامـل الوافي الـذي يقضي على حبكة العمل الفني ، ذلك أنه يتوسل بالتلخيص توسلا وظيفياً لأداء أغراض التنوير ، وهو لذلك ينظم حبكة ملخصـاته ومختصراتـه في مقاله ، تنظيماً متقناً ، ينبع من رؤيته الإبداعية المتكاملة للعمل الفني ، كما تجد في مقاله عن مسرحية « السـيل »(8) للكاتب الفرنسي « موريس دونيه » ، وغيره من المقالات في « صوت باريس » التي تصور الفكرة أو الرأي أو الاتجاه من خلال « القصة نفسها ، فلست أريد أن أطيـل في

(1، 2)صوت باريس ج2 ص 21، 24 ــ السياسة في 25 يناير 1925.
(3)المرجع السابق ص 55 ــ السياسة في 17 نوفمبر 1926.
(4)المرجع السابق ص 55.
(5، 6، 7)المرجع السابق ص 73، 74 ــ السياسة في 8 يناير 1927.
(8)المرجع السابق ج1 ص 5، 6 ــ السياسة في 5 مايو 1924.

شرحها ولا في تفسيرها ، وإنما أريد أن تفسر لك القصة نفسها بنفسها كما يقولون »(1) .

رابعاً : إن المقال التنويري يجعل النقد في حد ذاته باعثا على الاهتمام من خلال أسلوب التناول والإتقان الفني وحسن تخير الألفاظ والتحليل المقالي ، والتوسل بهذا الأسلوب توسلاً وظيفياً يخدم أغراض التنوير وهو لذلك يتوسل بالقالب القصصي الذي تمتاز فيه المقدمة بإثارة الاهتمام(2) ثم يتسلسل مع اهتمام القارىء صعوداً إلى الذروة من خلال الحوار ورواية الأحداث ، مرتكزاً على أسس الفن الصحفي الواقعي(3) ، فهو يشعر القارىء بأنه يشاهد معه المسرحية حين يقول: « نحن في إقليم من أقاليم فرنسا الوسطى(4) ثم يصل به من خلال تتابع الأحداث وتحليل الشخصيات إلى الذروة أو لحظة التنوير ، حتى نهاية المقال .

خامساً : إن طه حسين حريص على توجيه المقال التنويري للكثرة القارئة التي تجهل اللغات الأوربية ، ولذلك يقلل قدر الامكان من استخدام المفردات الفنية . فيستخدم كلمة « التمثيل » بدلا من « الدراما » ويصور الأزمة و« الذروة » دون أن يستخدم المصطلح(5) . ومن ثم يتوسل بالتبسيط القائم على أسلوب واضح سهل ، يحمل القارىء على أن « يتفكر ويتبدر ويشعر بهذه اللغة التي يشعر بها من يقرأ ليفهم حين يحس كأنه استكشف المعنى استكشافاً في غير مشقة ولا عناء »(6) .

سادساً : إن المقال التنويري لا ينفصل عن الوظيفة الأساسية في المقال النقدي عند طه حسين ، وهي وظيفة « التقويم » للعمل الفني ، والتي قد تحتل المدخل التمهيدي للمقال كما في عرضه لقصة « الوصل »(7) .

2 ــ التنوير الأدبي:

ويقوم التنوير الأدبي في مقال طه حسين ، على الأسس الفنية في مقاله

---

(1) المرجع السابق ج 1 ص 5، 6 ـ السياسة في 5 مايو 1924.

(2، 3)الدكتور ابراهيم امام: دراسات في الفن الصحفي ص 159.

(4)صوت باريس ج1 ص 9.

(5، 6، 7)صوت باريس ج1 ص 73، 132، 150.

النقدي ، من تحليل وتقويم وتأويل ، في التنوير بالأعمال الأدبية الأوربية ، للكتاب الفرنسيين خاصة مثل « بول فاليري »(1) الذي يسميه الفرنسيون شاعر العقل ، ويسميه طه حسين « عقل الشعر »(3) والذي تعرف اليه(2) وأقبل على آثاره عن فهم له(4) نتيجة « الجهد المكرر والقراءة المرددة والتفكير المتصل »(5) معرفا بلغته « الصافية العذبة السائغة التي تجمع بين الرقة والرصانة وبين النعومة والجزالة ، والتي تخيل اليك أنها واضحة كل الوضوح ، وهي كذلك واضحة كل الوضوح ولكنها على ذلك مليئة بالأسرار . لا تقرؤها مرة إلا حصلت من قراءتها علما ولذة لعقلك وذوقك وشعورك جميعاً »(6) .

ويتوسل المقال التنويري في الاتجاه الأدبي بالنقد التقويمي المقارن ، الذي يخترق حواجز الزمان والثقافات بحثا عن التشابه في سبيل المقارنة التنويرية ، كما في نقده للغة الصافية عند فاليري ، الممتلئة بالأسرار :
« وقد أتيحت لبول فاليري أشياء لم تتح لغيره من الكتاب والشعراء . فقد كان كشاعرنا القديم المتنبي يستطيع أن ينشد .
« أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم »(7)

ومن ذلك أيضاً مقارنته بين شاعر فرنسي هو فيكتور هيجو وشاعر مصري هو حافظ إبراهيم(8) ، وتفسيره « لعمر بن أبي ربيعة » بمقارنته ببعض خصائص الشاعر الفرنسي « ألفرد دي موسيه »(9) ، كما يقارن بين « عمر بن أبي ربيعة » وأديب فرنسي آخر هو « بييرلوتي »(10) الذي يذهب طه حسين إلى اعتباره صورة صادقة لابن أبي ربيعة لولا فروق الزمان والمكان(11) ويوضح الفارق بين « ابن حزم الأندلسي » و « ستندال » (12) في مقارنته بينهما ، ويتوسل بالنقد التقويمي المقارن كذلك في دراسته عن « فرانز كافكا »(13) الذي يقارنه بأبي العلاء(14).

(1، 2، 3)مجلة الكاتب المصري في اكتوبر 1945 ــ ألوان ص 51، 57، 58 .
(4، 5)المرجع السابق ص 58، 59 .
(6)المرجع السابق ص 58، 59 .
(7)المرجع السابق ص 58 .
(8)حافظ وشوقي ص 84 .
(9، 10، 11)حديث الاربعاء ج1 ص 311 ــ 212 .
(12، 13، 14)ألوان ص 102 .

على أن المقال التنويري عند طـه حسين ، يمتاز فوق التقويم المقارن ، بالتبسيط الشديد لأعمال أدباء وشعراء ، يوحي لقرائه بإمكان فهم أعمالهم ، وبأنها جديرة بالقراءة في سبيل المتعة « وليس هناك من يملك مقدرة طـه حسين على تبسيط قصيدة « المقبرة البحرية Le cimetière marin » لفاليري وما يرتبط بها من مصطلح حديث: الشعر الصافي(1) ، ذلك أن طـه حسين يذهب إلى تبسيط القصيدة ومفهوم الشعر الصافي من خلال تحليل الرؤيا الإبداعية في شعر فاليري تحليلا ييسر فهمه وفهم قصائده(2) . التي تمثل « نموذجاً من أرقى وأروع نماذج الشعر الحديث » (3) ، الأمر الذي يشير إلى تشابه بين طـه حسين وفاليري ، وفق التقويم المقارن ، في المثل العليا في الفن والشعر ، وهو تشابه يمتد ليشمل حياة كليهما ، الأمر الذي يتيح له فهم صاحبه ، وتبسيطه لقرائه ، فالفن عندهما غاية وليس وسيلة ، كما أنهما تأثرا أشد التأثر بحوار سقراط كما نقله افلاطون(4) . وأتقنا اللغتين القديمتين ، وعلما بأسرارهما وتذوقا خصائصهما(5) ، ثم إنهما تعمقا مذاهب الفلسفة(6) ، وجمعا إلى العقل الناقد الممتاز قلباً ذكياً وإحساساً مرهفاً وشعوراً رقيقاً حاداً وذوقاً دقيقاً لا يفوته شيء(7) . ولذلك يتفقان على أن الفلسفة والشعر إنما يصدران عن ملكة واحدة في أصلها ، ترفع الإنسان عن الحقائق التفصيلية الواقعة إلى عالم آخر أرقى منها ، يفسرها ويعرضها في شيء غير قليل من الروعة يسمو بها إلى هذا الكمال الذي يطمح إليه الإنسان الممتاز « فالفيلسوف شاعر يعرض شعره نثراً في أكثر الأحيان ، والشاعر فيلسوف يعرض فلسفته شعراً دائماً »(8) .

ويعرف طـه حسين « فاليري » إلى قراء العربية ، فتحدث عنه في « الرسالة » غير مرة ، وتحدث عنه إلى جمهور المثقفين في غير محاضرة ، وترجم في « الرسالة » شيئاً من كتابه عن « النفس والرقص »(9) ، ويخلص التنوير الشعري في مقال طـه حسين إلى توجيه الحركة النقدية للشعر

---

(1) الكاتب المصري ـ أكتوبر 1945 ـ الوان ص 58.
(2، 3، 4) فصول ص 194، 197، 199.
(5، 6، 7) المرجع السابق ص 199 ـ ألوان ص 60.
(8 ، 9) المرجع السابق ص 61، 62 ، 63.

المصري الحديث ، الذي يمتاز عنده ، وعند فاليري أيضاً ، بأن جماله يأتي من تجدد اللذة الفنية ، في نفس القارىء كلما جدد قراءته ، واستكشاف فنون الجمال في كل قراءة ، وما تستتبعه من شعور جديد بالجمال(1) . والشعر الجيد يتوسل بوزنه وقوافيه ، وبهذه الصور الخاصة التي لا نجدها في النثر(2) . ولذلك يذهب طه حسين في توجيه الشعر إلى تعميق مفاهيم « التجربة الفنية » والصدق الفني ، ويذهب إلى أنهما أساس كل تجديد (3) .

ويتوسل التنوير الأدبي بشكل مقالي يرتبط بما يسميه الفرنسيون « أدب الأفكار » (4) وإلحاح الضرورة على التفسير والتبسيط إزاء هذا الأدب من جانب القارىء(5) ، الذي يريد أن يتعلم كيف يتمثل هذه الأفكار(6) على أن المقال التنويري عند طه حسين لا يزعم أنه يفسر كل شيء ، ولذلك يحرص على عرض أفكاره بأسلوب بسيط منطقي ، بعيد عن الوعظ ، يتميز بالايناس والرشاقة واللطف . ذلك أن المقال يتجاوب مع الحاجة إلى التعبير عن رؤيته الابداعية . من جهة ، ومع حاجة القراء إلى القراءة من جهة أخرى ، فهو يصور « التفكير على أنه أصل لكل ما يقرأ وعلى أنه غاية لكل ما يقرأ ، فالكاتب يفكر قبل أن يكتب ، وأثناء كتابته ، والقارىء يفكر فيما يقرأ أثناء قراءته وبعد أن يقرأ »(7) .

فالمقال التنويري ، إذن ، يهدف إلى نشر الثقافة ، وترقية الذوق الأدبي والفني ، وإزالة الفروق بين الطبقات ،(8) وهو عند طه حسين نتيجة طبيعية « لهذا الطور الذي نحن فيه من أطوار حياتنا ، وفي الأرض أمم سبقتنا في هذا العصر الحديث إلى الرقي وقطعت فيه أشواطاً لم نقطعها بعد »(9) . وحاجتنا إلى التنوير والتيسير « أشد من حاجتها ، وضرورات الحياة الحديثة تفرض علينا أن نقطع أبعد الآماد إلى الرقي في أقصر الأوقات »(10)

(1، 2)فصول ص 197 .
(3)من أدبنا المعاصر ص 33 ، 16 .
(4، 5، 6)R.M Albéres, op. cit. p.120
(7، 8، 9)أحلام شهرزاد ص 5 ، 6، 7، 9 .
(10)المرجع السابق ص 9 .

ولذلك يتنوع الموضوع في مقاله التنويري ، فيتناول فروع الإنتاج العقلي في الأدب الإنشائي والأدب الوصفي ، في العلم الخالص ، وفي التاريخ ، في السياسة ، في العمران والاجتماع ، في كل لون من ألوان النشاط الذي يجعل العقل الإنساني منتجاً في جميع فنون المعرفة »(1) .

3 ـ العـرض التنويري:

1 واستمراراً في أداء أغراض التنوير ، يتوسل طـه حسين إلى جانب النقد الفني والمسرحي ، والنقد التقويمي الأدبي ، بفن مقالي يقوم على أسس مستمدة من « المقال العرضي » في التنويـر ، بالكتب الجـديدة ، وإعـطاء القارىء صورة واضحة أمينة عن قيمتها لدفعه إلى قراءة الصالح والمحبب له وتركه السيء أو غير الملائم لميوله .

وعـلى ذلك فـإن العرض التنـويري يمتـاز إلى جانب خصـائص المقال العرضي بالموضوعيـة التي تشحذ اهتـمامات القـراء ، ليجدوا في الصحـافة ضالتهم المنشودة والاستنارة عن شئون العـالم(2) . ولعل في فهم طبيعـة المقـال التنويـري عند طــه حسـين ، تفسيراً لإيثـاره كلمة « مفكـر » في توصيف دوره المقالي بدلا من كلمة « فيلسـوف »(3) وهو التوصيف الذي يتفق مع مفهوم المقال الفكري الفرنسي الذي ينتسب إلى الأدب وليس إلى الفلسفة(4) . ولذلك يتسم هذا المقال عند طــه حسين بسمات العـرض والنقـد والتقـويم ، ونفـاذ التحليـل ، الـذي يجعـل منـه « حجـة لمبحث طويل »(5) ، ولذلك يبدأ المقال بـالإجابـة عن التساؤلات التي يمكن أن يثيرها الكتاب الذي يعرض له ، في ذهن القارىء ، فيدلي إليه بالمعلومات الوافية التي يكتبها عنه ، ثم يتدبر وصف الكتاب في فقراته الأولى . ويتبع هذا الوصف بالمعلومات والآراء التي يريد أن يثبتها ، ويرتبها على مقتضى

---

(1)المرجع السابق ص10 .

(2)الدكتور ابراهيم امام: « الاعلام من فلقة المكنـوبجي » « الى القمر الصنـاعي » مجلة الاذاعة والتليفزيون في 14 أغسطس 1971 .

(3)من حديث أجراه الأب كمال قلته مع الدكتور طه حسين ـ مرجع سبق ـ المقدمة . .

(4) Gaétan Picon, op cit. p. 260

(5) Roland E. Wolseley, Critical Writing.

أهميتها ، وتدور هذه المعلومات ـ كما يقول « روبرتسون »(1) حول « بيان هدف المؤلف ومدى نجاحه فيما سعى إليه ، ووصف الكتاب ومحتوياته وأسلوبه ، وعقد مقابلة بينه وبين ما وضعه المؤلف من كتب أو ما أخرج الغير من كتب مماثلة ، ثم تقويم الكتاب وتقييمه »(2) .

فإذا ذهب طه حسين إلى عرض قصة من القصص ، وتقويمها ، فإنه يشير إلى نوعها والفترة التاريخية التي حدثت فيها ، ويروي شيئاً عن شخصياتها الرئيسية ، وفي « قصص تمثيلية » التي كانت تنشر في « السياسة » أيام الآحاد ، يعمد في عرضها إلى التلخيص الذي يتميز عند طه حسين بغوصه إلى أعماق الفكرة التي أرادها الكاتب من قصته . فبعد أن « يهضمها هضماً جيدا يناقشها مناقشة أدبية مثيرة . ثم يعرض خطوطها البارزة ، ونقاطها الدقيقة: وصورها المتباينة ، ورأى النقد فيها ، حتى إذا تملى القارىء الفكرة ساق اليه مشاهد الرواية وفصولها ، وما يزال حتى يكشف روح الكاتب وفكرته وسخريته وفلسفته ، وما شئت من عوالم فياضة ، بحيث لا ينتهي القارىء من تلاوتها إلا وقد اكتسب متعة وفائدة معا »(3) .

ولذلك قد يجمع طه حسين بين قصتين في مقال واحد ، إذا كان موضوعهما يوشك أن يكون واحدا ، أو كان مذهبهما واحدا ، كما فعل مع قصتي « موليير » و« جيرودو »(4) ، حيث يعرض لفن الكاتب ومراماه الفكري واتجاهه الاجتماعي وروح البيئة ، حتى اذا اقترب بالقارىء من مضمون الكتاب أو العمل الأدبي يعمد إلى ابراز فصوله في إيجاز ، غير مخل ، وفي منهج تتكامل عناصره تكاملا وظيفياً لأداء أغراض التنوير: « وأنا على كل حال أرجو أن يثير تلخيص هذه القصة ، في نفوس القراء المصريين ما أثارت القصة نفهسا في نفوس القراء والنظارة الفرنسيين من ألوان الملاحظة والنقد والتفكير »(5) .

(1، 2) Stewart Roobertson, Introduction to Modern Journalism, p.303.

(3) سامي الكيالي : مرجع سبق ص 48.

(4) مجلة الثقافة في 14 فبراير 1939 فصول ص 132.

(5) المرجع السابق ص 139.

والعرض التنويري ليس مقالا نقدياً، بالمعنى الكامل، وإن كان رافداً من روافده، لأن المقال النقدي يبيح مخالفة المؤلف في آرائه ووجهات نظره(1) في حين أن العرض يمتاز بروح الألفة بين الكاتب والكتاب، من خلال طريقة تقتضي الكياسة عند التقديم في لطف وتواضع، وفي هذا يقول «يونج»(2) إن لقاء الكتاب الجديد كلقاء الصاحب الجديد، وهو الأمر الذي يتسم به العرض التنويري عند طه حسين الذي يتوسل «بالكلام إلى» الإعراب عما يريد أن يفهم عنه، فهما واضحاً جلياً لا لبس فيه ولا غموض(3) وهو لذلك يضطر في كثير من الأحيان، كما في عرضه لقصة «جيردو»: «بين بين»(4)، إلى تلخيص «المقدار الذي يستوي الناس جميعاً في فهمه»(5). ولكنه يمتاز إلى ذلك بتمرس يقوم على تذوق الكتب والوصول إلى جوهرها والوصول إلى رأي سديد، كما في مقاله الذي يعرض فيه لكتب ثلاثة، هي: «خيانة المثقفين» للكاتب الفرنسي «جوليان بندا»(6) و«الدفاع عن الأدب» «لجورج دوهامل»(7) و«نحن الفرنسيين» للكاتب الفرنسي «جورج برنانوس» (8)، ذلك أن هذه الكتب دفعت مقاله إلى «مذاهب من التفكير والتروية»(9) على الرغم من اختلاف هذه الكتب، كما يبين من عنواناتها، ولكن مقدرة طه حسين على الوصول إلى جوهر الكتاب، تدفع مقاله إلى أن ينتظمها جميعاً لأنها «متفقة في حقيقة الأمر»(10). ولأنها تناقش موقف «الرجل المثقف من مشكلات الحياة حين تعرض للناس في سياستهم ونظمهم الاجتماعية»(11).

ويتوسل طه حسين بالعرض التنويري كذلك، للمذاهب الجديدة، كما ذهب إلى عرض الأدب الوجودي من خلال قصة «خطأ التقدير» للكاتب الفرنسي «البيركامو»(12)، مبينا أصول هذا الأدب منذ عرفه الفرنسيون أواخر الفترة التي انقضت بين الحربين(13)، كما يعرض للأدب

(1، 2)مصطفى عبد اللطيف السحرتي: الفن الأدبي ص 118.
G.M Young, Last Essays, 101
(3، 4، 5)فصول ص 158.
(6، 7، 8)مجلة الثقافة في 8 نوفمبر 1939 — فصول ص 170.
(9، 10، 11)المرجع السابق ص 170، 171، 172، 178.
(12، 13)نقد واصلاح ص 5.

« المظلم » (1) والالتزام في الأدب (2) ولآراء سارتر في الالتزام ، وفي السينما (3) ، وللأدب بين الاتصال والانفصال (4) . وقد يتخذ العرض التنويري شكل الدراسة الأدبية ، كما في مقاله عن « صور من المرأة في قصص فولتير » (5) ومقاله عن « الحب » (6) الذي يعرض فيه لآراء ابن حزم وستندال ، ومقاله عن « أبطال الأساطير اليونانية » (7) الخ . الأمر الذي يوضح اتجاه التنوير في مقال طه حسين إلى الثقافة العالمية بما فيها الثقافات الكلاسيكية البعيدة زمنياً والمختلفة حضارياً ، لأن طه حسين كان « يشعر بأن كل كسب مستمد من الثقافات العالمية يمكن أن يعود علينا بنفع جزيل لو عرفنا كيف نهضمه ونستوعبه ، ولم يكن يؤمن بأن للحواجز القومية أهمية أساسية إذا كان الأمر متعلقاً بتراث إنساني رفيع » (8) .

ونخلص مما تقدم إلى أن المقال التنويري في اتجاهاته المختلفة عند طه حسين ، يستوعب التراث العالمي فينقله إلى القراء المصريين ، ويدافع عنه بنفس القوة التي كان يدافع بها عن الثقافة العربية والمصرية الأصيلة ، من خلال تفتح سمح على العالم ، وعلى القيم الفكرية المبشرة بالتحول من الجهل والتخلف والجمود إلى نور العقل ، والتسامح إزاء كل الثقافات . ولعل في ذلك ما يفسر احتفاءه بـ « أهل الكهف » (9) للحكيم ، حين يجد فيها ثمرة من ثمار التنوير ، إذ يتمثل بعض المصريين « الغرب ويسيغونه ويهضمونه إن صح هذا التعبير ويذيبونه في أنفسهم ، ويغلبون شخصيتهم عليه ويغذون قوميتهم به ثم يتحدثون إلينا بلغتنا مهذبة ، ويفكرون معنا بطرائق تفكيرنا مصفاة ، قد أضيفت إلى ثروتنا ثروة أخرى فأخصبت وآتت ثمراً نحبه ونستعذ به ونستزيد منه فنلح في الاستزادة » (10) ، والحق أن في

(1) الكاتب المصري — سبتمبر 1946 — ألوان ص 206.
(2) الكاتب المصري - يونيو 1947 — ألوان ص 271.
(3) الكاتب المصري — نوفمبر 1947 — ألوان ص 223.
(4) الكاتب المصري أغسطس 1946 - ألوان ص 188.
(5) الكاتب المصري ديسمبر 1945 — ألوان ص 76.
(6) الكاتب المصري — فبراير 1946 — ألوان ص 99.
(7) الكاتب المصري — أكتوبر 1946.
(8) الدكتور فؤاد زكريا: مرجع سبق ص 12.
(9، 10) فصول ص 81، 82.

هذه الكلمات تلخيصاً للدور التنويري في مقال طه حسين، الذي يذهب إلى تحقيق « الاتصال العقلي والفني »(1) بين الغرب والشرق « بعد أن كان الاتصال بينهما مادياً تقليدياً »(2) .

ومن جهة أخرى ، فقد أدخل المقال التنويري عند طه حسين فنوناً مقالية جديدة في صحافتنا المصرية تتمثل في: مقال النقد الفني والمسرحي ، والمقال النقدي الأدبي ، والمقال العرضي ، يتوسل بها جميعاً في أداء وظيفة التثقيف والتنوير ، من خلال التبسيط والتقويم ، والتحليل ، في نسق استقرائي ، يذهب من الأفكار البسيطة كل البساطة والسهلة كل السهولة والتي تعود المهندسون استخدامها ـ كما يقول ديكارت ـ(3) في الوصول إلى أصعب البراهين ، إلى تصور أن جميع الأشياء يمكن أن تكون محلا لمعرفة الإنسان .

(جـ) فن المقال النقدي:

يرجع المقال النقدي في الأدب الأوربي إلى فترة مبكرة ، فنحن نجد « جون دورايدن » يكتب مقالا طويلا عن الشعر المسرحي سنة 1668 ، وآثار « بوالو » الكاتب الذي قدر له أن يقنن في الأدب ، مستوحياً كتاب « الشعر » لأرسطو و« فن الشعر » لهوراس(4) . على أن هذا النوع المقالي بصورته الشائعة اليوم من ثمار المجلات الأدبية في فرنسا وانجلترا وأمريكا والشرق . ولقد ازدادت ـ حصيلته بازدياد العناية بالموضوعات الأدبية منذ النصف الثاني للقرن الماضي(5) .

وقد جاء طه حسين ليجد الصحافة المصرية قائمة على فن المقالة الأدبية وكانت « الجريدة » تضم محمد السباعي تلميذ « لي هنت » في فن المقالة ، على أسلوب المدرسة الإنجليزية ، التي تأثر بها العقاد والمازني ، إلا أننا نجد طه حسين ، يتجه بالمقال النقدي اتجاهاً جديداً ، ذلك أن

(1) فصول ص 81، 82.
(2)المرجع السابق ص 85 .
(3)اندريه كرسون: ديكارت ص 68.
(4)الدكتور ابراهيم امام: تطور الصحافة الانجليزية ص 65.
(5)الدكتور ابراهيم محمد يوسف نجم: فن المقالة ص 132 .

« النقد » نفسه كان ــ اسما « غريباً على أسماع الكثيرين من المتعلمين في مصر أول الأمر ثم لم يلبثوا أن ألفوه . وفهموا الغرض منه »(1) ، فينتقل طــه حسين بالمقال النقدي من مرحلته اللغوية الأولى كما في معال « نحن والتقريظ »(2) ومن النقد التأثري لحـافظ وزيدان والـرافعي إلى نوع من التقويم والتوجيه للعمل الأدبي وللأديب نفسه الأمر الذي يقترب به إلى ما يمكن أن يسمى « النقد الموضوعي »(3) كنتيجة لمطالعاته الحديثة في تلك الآونة والتي كانت تستوعب أدب المقالة أو تكاد ثم قراءاته في الصحف الفرنسية التي تجد في كل منها « نقداً لكتاب لا تكاد تنظر فيه حتى تشعر بالحاجة الملحة إلى قراءة هذا الكتـاب » (4) و« فصولا أدبيـة تغني عن قراءة الكتب التي تتناولها هذه الفصول بالنقد والتقريظ »(5) ويقرأ في الطان «Le Temps» فصلا بيبلوغرافيا مرة في كل أسبوع(6) ويذهب من مقارنته بين الصحف الفرنسية والمصرية في أداء وظيفة التثقيف إلى السخط على الصحف المصرية(7) .

وغني عن البيـان ، أن السخط من أول عوامـل التجـديـد في المقـال النقدي بصفة خاصة ، والمقال الصحفي وفنون القول عامة ، حين يشعر بعدم كفاية صحافته القوميـة في الاستجابـة لحاجـات عصرها وتلك هي « نقطة البدء في التأثير والتجديد(8) . لمـا تستتبعه من « شبـه ثورة عـلى القديم ، وحرص على اكماله في وقت معا يقول « جوته » ينتهي كل أدب إلى الضيق بذات نفسه إذا لم تأت إليه نفائس الآداب الأخرى لتجـدد الخلق من ديباجته »(9) ومن ذلك دعوة طــه حسين إلى اعادة النظر في الشعر الجاهلي على ضوء جديد وما أثارت هذه القضية من مناقشات بين التجديديين والسلفيين من دعاة المحافظة على القديم لا يتجاوزون حدوده .

وإذا كانت هذه الدعوة وغيرها تـوجه إلى الصفـوة من ذوي المواهب

---

(1)الدكتور عبد اللطيف حمزة: أدب المقالة ج 6 ص 186 .
(2)الجريدة في 20 ابريل 1912 .
(3)محمد سامي البدراوي: مرجع سبق ص 172 .
(4، 5، 6)رحلة الربيع والصيف ص 57 ، 160 ، 163، 164 .
(7)المرجع السابق ص 164 .
(8، 9، 10)الدكتور محمد غنيمي هلال: مرجع سبق ص 106، 107 .

الـذين يخرجـون من نطاق أدبهم تلبيـة لحاجـاتهم الفكريـة والفنيـة أينـما وجدت(1) . فان طــه حسين يذهب إلى تهيئة البيئة المصرية لتلقي آراء التجديد واتجاهاته في التأثير والتأثر ، من خلال عناصر الأصالة والتجديد في ثقافته القديمة والحديثة ، التي تظهر في تخصيص صفحات أسبوعية للنقد الأدبي والفني في الصحف التي اشترك في تحريرها كـ « السياسة » و « كوكب الشرق » ، على نحو ما وجد في الصحف الفرنسية والأوربية « التي تتابع كل حركة أدبية أو فنية وتعني بتخصيص الملاحق القيمة للنقد والدراسة والتلخيص(2) فإذا به « يستعرض الأدب القديم »(3) مع رواد التجديـد « يحيونه حياة جديدة بالنقـد والتحليل »(4) وإذا هم يستعـرضون الآداب الأوربية يذيعونها ناقدين ومحللين ومترجمين(5) » ومن ذلك يبين الارتباط بين النقد والتنوير في مقال طــه حسين ، ارتباط تأثير وتأثر .

ويفسر هذا الارتباط عن تحديد مفهوم المقال النقدي المنشور في الصحف الـدورية ، من حيث أنـه لا يتوجـه إلى خاصـة المثقفين أو الجـماليـين أو الأكاديميين في فن من الفنون ، إنما يتوجه إلى جمهور عريض من القراء من خلال لغة مقروءة مفهومة مستساغة ، تختلف عن لغة العلماء في اتصالهم ببعضهم البعض(6) . ذلك أن النقد الأدبي في الاتصـال الصحفي يقوم على تبسيط هذه اللغة وتحويلها إلى لغة اتصال بالجماهير(7) .

فالمقال النقـدي في الصحف مقال صحفي Article بهـذا المعنى وليس مقالا أدبيا Essay(8) ، لاختلافهما في الوظيفة والأسلوب ، فالمقال النقدي يهـدف إلى الاقناع والاعـلام والتقويم ، الـذي يدرك الكيفيـات الجـماليـة والموضوعية في العمل الفني أو الأدبي ، ويتفق مـع المقال الأدبي في أنهـ قطعتان نثريتان قصيرتان(9) ، ولكنهما يختلفان بعد ذلك في استخدام اللغ

---

(1) الدكتور محمد غنيمي هلال: مرجع سبق ص. 106، 107

(2)عباس محمود العقاد: على الأثير ص 143 .

(3، 4، 5)مجلة الكاتب المصري اكتوبر 1945 ــ ألوان ص 28 .

(6، 7) Roland E. Wolseley, op. cit. p. 132

(8) Roland E. Wolseley, op. cit. p.3

(9)المرجع السابق ص 132 .

في الاتصال بالجماهير فاللغة في المقال النقدي تستخدم استخدام وظيفيا في حين تستخدم في المقال الأدبي استخداما جماليا .

على أن المقال النقدي يأخذ من فنون القول: الذاتية والموضوعية معا ، من الفن ذاتيته ومن العلم موضوعيته(1) . وعلى ذلك فإن المقال النقدي ـ في نموذج الاتصال عند طه حسين ـ كما تقدم ، يبلغ إلى « الناس رسالة الأديب فيدعوهم إليها ويرغبهم فيها ، أو يصرفهم عنها ، ويزهدهم فيها « والذي يبلغ الأديب صدى رسالته في نفوس الناس »(2)

وينشيء هذا المقال النقدي « انسان أديب له في أكثر الأحيان ما للأديب المنتج من الخصال المحمودة والمذمومة »(3) فهو « ينقد لنفسه وللناس كما ينتج الأديب المنشيء لنفسه وللناس »(4) .

فالمقال النقدي ـ عند طه حسين ـ يقصد أعمالا فنية بعينها ،يتخذ منها مادته وموضوعه ، ويساعد القارىء على فهم العمل الفني وتذوقه ، ويقوّم عمل الفنان ، ويعين على تقدم الفن وتطوره ، بتعميم المعايير المنشودة أو بتجديدها وتجهيزها . وهو في حالات معينة يوقظ جيلا من الشعراء كما فعل طه حسين مع العقاد والمازني ، حين ردوا إلى حافظ وشوقي شبابهما في أعقاب الحرب الأولى(5) ويظل المقال النقدي عند طه حسين شأنه عند غيره من النقاد(6) داخلا في النطاق الذاتي مهما تبلغ درجة التجارب الموضوعية في تحليله النقدي ما دامت هناك مصطلحات مثل « تقويم » و « تذوق » . ذلك أن المقال النقدي عمل إبداعي في رؤية طه حسين ، فما « أكثر ما يحتاج الناقد إلى أن يعالج الموضوع الذي عالجه الأديب أو ليتبين ما عسى أن يكون قد عرض للأديب من صعوبة ، وما عسى أن يكون الأديب قد سلك إلى تذليل هذه الصعوبة من طريق ، وما عسى أن يكون الأديب قد وفق إليه من اجادة أو قد تورط فيه من إساءة »(7) .

---

(1)الدكتور عبد اللطيف حمزة: المدخل ص 172 .
(2، 3، 4)فصول ص 9 ـ مجلة الثقافة في 3 يناير 1939 .
(5)ألوان ص 18 .
(6)ستانلي هايمن: مرجع سبق ص 21 .
(7)مجلة الثقافة في 3 يناير 1939 ـ فصول ص 10 .

وتأسيساً على هذا الفهم تتحدد وظيفة النقد في « التقويم » واعتباره « أعدل الحاكمين » وهو التقويم الذي يعتمد على قدرته في تذوق الأثر الأدبي ثم تعليل الأحكام وتفسيرها وتقويم الأثر بوجه عام . ومن هذه الوظيفة التقويمية يبين الارتباط بين المقال النقدي ووظائف الفن الصحفي في « التوجيه والارشاد »(1) ولذلك يتسم المقال النقدي عند طه حسين « بالقسوة على الكتاب حين ينقدهم »(2) كما « يقسو على الطلاب حين يعلمهم »(3) فالرفق والتظرف « لا يلائمان النقد ولا يلائمان تقويم الشباب وتثقيفهم حين يقولون فيشطون ، أو يكتبون فيقصرون »(4) ، كما لا يلائمان تغيير الذوق الأدبي العام ، ولذلك يقف عند الأثر الأدبي « لنقده وتحليله ، وبيان ما فيه من إجادة وإتقان ، أو من ضعف وتخاذل وإسفاف »(5) ليحمل الأدباء والنقاد على تجنبها والتخلص من أوزارها الثقال(6) والقراء على تقبل « المثل الأعلى في الفن الأدبي »(7) . ذلك أن « الأدب انساني ، والنقد انساني أيضا ، والأدب يصور حياة الناس والنقد يبين ملاءمة هذا الأدب لأذواقهم أو مخالفته لها »(8) .

وترتبط وظيفة التقويم بمكان طه حسين من قيادة الحياة العقلية(9) ولذلك يصطنع مقاله النقدي الشجاعة والصراحة والحرية(10) ، لم يحسب « لمقاومة المحافظين حسابا »(11) ، الأمر الذي يتيح له أن « يبعث في الحياة العقلية نشاطا لم تألفه مصر »(12) وانتفع « الأدب بهذا كله واستفاد النقد(13) ولذلك يتوسل المقال النقدي بالنزال الأدبي في كثير من الأحيان ، مع زملائه من التجديديين وغيرهم من المحافظين ، ومع الأدباء الناشئين(14) ، كما نجد في الخصومة التي ثارت بينه وبين هيكل حول ثورة الأدب والخصومة التي ثارت بينه وبين العقاد حول اللاتينية

---

(1)الدكتور ابراهيم امام: مرجع سبق ص 69 .
(2، 3، 4)فصول ص 59 ـ مجلة الثقافة في 11 ابريل 1939 .
(5، 6)السياسة في 6 فبراير 1924 ـ حديث الاربعاء ج 3 ص 202 .
(7)من أدبنا المعاصر ص 154 ـ 156 .
(8)خصام ونقد ص 44 .
(9، 10، 11)الرسالة في 8 يونيو 1936 .
(12، 13، 14)المرجع السابق.

والسكسونية وغيرها(1) . وفي نزاله مع الناشئين ، يهدف النقد أساسا إلى تقويم أدبهم وتوجيههم(2) . على أن النزال في المقال النقدي ، يقوم على تقويم آراء الخصوم بصفة عامة ، من الذين « يخالفونه ، ثم يجادلونه ثم يثبتون له فيما يكون من خلاف أو جدال »(3) .

ومن ذلك يبين مكان « التقويم » في المقال النقدي عند طـه حسين ، وهو مكان يرفع النقد إلى « هذه السماء الممتازة التي تظل الأدباء والقراء جميعاً »(4) يعرج منها ــ خلال الاتصال الصحفي ــ ليشرف على « الأدباء جميعا في فصول من النقد تتناول تـأثير أولئـك وتأثـر هؤلاء »(5) . وهو لا يقبل « على القراء مسالما ولا موادعـا »(6) وإنما يقبـل عليهم « مخلصا وملحا في الخصام »(7) .

على أن طه حسين لا يتوسل بالنزال في النقد التقويمي « حبا في الخصام أو إيثارا له أو رغبة في الاستعلاء والكبرياء »(8) ، وإنما يلجأ إلى ذلـك « تعمداً لإيقاظ قوم نيام ، قد طال عليهم النوم حتى كاد يشبه الموت . وهؤلاء القوم النيام هم الأدباء والقراء . أولئك ينتجون وهم نيـام ، قد أمنـوا النقد أو استيأسوا منـه ، فهم ينتجون في فتـور ، ويرضـون عن أنفسهم أو يسخطون عليها ، لأنهم قد اطمأنوا إلى أنهم لن يظفروا من الناس بما يدل على الرضى أو يبين عن السخط ، وهؤلاء يقرأون وهم نائمون ، قد تعودوا أن ينفقوا الوقت بين حين وحين بقراءة هذا الكتاب أو ذاك ، لم تدعهم إلى القراءة رغبة قوية ولا خصومة عنيفة ، حول رأي من الآراء أو مذهب من مذاهب الإنشاء ، وإنما دعتهم العادة إلى القراءة . ودعاهم الفراغ الثقيل أيضاً »(9) .

ومن ذلك يبين ارتباط وظيفة التقويم بمنهج التغيير في مقال طـه حسين في إيقاظ الفكر ، وهدم الهدم ، وتقديس العقل ، وتعقيل النقد والتفسير في مناخ من الحرية وهي أمور تقتضيهـا طبيعة التغيـير في مجتمع ثقـافته

(1، 2)المرجع السابق.
(3)فصول ص 102 .
(4)المرجع السابق ص 11 ــ مجلة الثقافة في 3 يناير 1939 .
(5، 6، 7)المرجع السابق ص 11 .
(8، 9)المرجع السابق ص 11 .

تقليدية تتسم بالجمود ، ولذلك يذهب طـه حسين إلى تحطيم القيود الثقيلة التي أمسكت بأيدينا وأرجلنا ورؤوسنا فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة والحركة العقلية الحرة أيضا(1) . ولذلك يتوسل بالمنهج الديكارتي في تغيير مذاهب الأدباء في أدبهم والفنانين في فنونهم(2) . وذلك في إطار منهجه العقلي الصارم الذي يمتاز بالوضوح والتميز في الحكم والتعبير والتحليل من خلال إحساس عملي واقعي ، لكي ينجاب « الفتور الذي يشمل الحياة الأدبية في مصر »(3) ، فينشىء « الأدباء ويقرأ القراء وهم أيقاظ والنقد وحده كفيل بايقاظهم . ولكنه لن يبلغ أسماعهم فيما يظهر إلا إذا رفع صوته رفعا عنيفا وهز النائمين هزا قويا ، واضطرهم إلى هذه الحركة المضطربة التي يضطر اليها النائم المغرق في النوم حين يزعجه الصوت المرتفع أو الهز العنيف »(4) . فالوظيفة النقدية في تغيير القيم التقليدية ، تحدد المقال النقدي في صحافة طه حسين في اطار من « الرد والنقد والخصومة والحكومة ، واضطراب في الجدل والحوار »(5) . وإذاعة الرأي والحكم »(6) . ليخلق هذه الحياة العنيفة الخصبة »(7) في نهاية الأمر .

وتقتضي وظيفة النقد في مقال طـه حسين ، اتصالا بالأفكار الجمالية الأساسية ودراسةِ لتاريخ وفقه اللغة العربية ، فضلا عن النقد النفسي وعلم الاجتماع وتأثيرية الثقافة الفرنسية(8) ليس من جهة الآراء التي تخضع لتقويمه وإنما من جهة مناهج البحث(9) التي توصله في كثير من الأحيان إلى استكشاف أخطاء في آراء المستشرقين ، لأن علمهم بالعربية وأسرارها أقل من علم المتخصصين العرب(10) .

وهي أمور تتيح للناقد « تقويماً » سديدا ، ذلك أن « قلة من الناس هي

(1، 2)الأدب الجاهلي ص 68 .
(3، 4، 5)فصول ص 11 ، 12 ــ مجلة الثقافة في 3 يناير 1939 .
(6، 7)المرجع السابق ص 12 .
(8)فرانشيسكو جابريللي: « طه حسين الناقد » ــ طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ص 164 .
(9، 10)من حديث مع طه حسين أجراه فؤاد دوارة في « عشرة أدباء يتحدثون » ص 15 .

التي تملك الموهبة والثقافة اللتين تتيحان لنا أخذ الأحكام مطمئنين »(1) .

على أن المقال النقدي يجمع إلى ذلك علما بأسرار العربية ، وتوفيقاً بين نفسانية « سانت بيف » وآراء « تين » الاجتماعية »(2) ، في التقويم القائم على العلم بجماليات الفن كذلك .

كما يبين من مقاله عن الشاعر الفرنسي « بودلير »(3) حين يقول: « هل يستطيع الفن أن يتخذ الشر موضوعا ويستخلص منه صورا فنية جميلة » ؟(4) .

وترتبط هذه الجماليات بما يسميه « المثل الأعلى للشعر »(5) و « الذوق الأدبي »(6) ، ذلك أن الجمال الفني لا يستمد من القدم والجدة وحدهما وإنما يستمد من « هذا الروح الخالد الذي يتردد في طبقات الانسانية كلها ، فيحل كل جيل منها بمقدار ، وهو يتشكل في كل جيل بالشكل الذي يلائمه ويتصور في كل بيئة بالصورة التي تناسبها . وهو من هذه الناحية مصدر وحدة وفرقة للإنسانية . مصدر وحدة لأنه واحد يجمع الناس مهما يختلفون على الإعجاب والشعور باللذة القوية ، ومصدر فرقة لأن له من أشكال الأجيال والبيئات المختلفة ما ينوعه ويخيل إليك أنه كثير »(7) . ومن ثم تصبح القيمة الجمالية في التقويم النقدي ، ملائمة لذوق العصر الذي قيل فيه الأثر الفني ومتصلة بنفوس الناس الذين ينشد بينهم ، ويمكنهم من أن يتذوقوا هذا الأثر حقا(8) .

وهنا يصل طه حسين بين « التقويم والذوق والفن » وخلاصة تصوره أن الحياة الفنية مزاج ذوقين: ذوق فني عام يشترك فيه أبناء الجيل الواحد في البيئة الواحدة وفي البلد الواحد ، لأنهم يتأثرون بظروف مشتركة

---

(1) ستانلي هايمن: مرجع سبق ص 92.

(2) فرانشيسكو جابريللي: مرجع سبق ص 176.

(3، 4، 5) حافظ وشوقي ص60 ـ 62.

(6) المرجع السابق ـ الدكتور عزالدين اسماعيل ـ « طه حسين والنقد الأدبي » ـ مجلة الثقافة ديسمبر 1973.

(7، 8) المرجع السابق ـ الدكتور عزالدين اسماعيل: « طه حسين والنقد الأدبي » ـ مجلة الثقافة ديسمبر 1973.

نطبعهم جميعا بطابع عام يجمعهم ويؤلف بينهم ، وذوق فني خاص ، يتأثر بهذا الذوق العام ولكنه متأثر مع ذلك بالشخصية الفردية ، أما الذوق العام فهو الذي يعطي التقويم النقدي حظا من الموضوعية ، وأما الذوق الخاص فهو ما يعطيه حظا من الذاتية(1) .

وتأسيسا على هذا الفهم ، يذهب طه حسين بالمقال النقدي إلى الحرص على تحديد الألفاظ والتدقيق في اختيارها والكشف الجلي الواضح عن معانيها(2) ذلك أن التقويم النقدي في ضوء مفهومه للذوق العام والخاص ، يجب أن يصدر عن « ضمير أدبي »(3) يؤمن « بالمبدأ الأدبي كما يؤمن الرجل النقي بمبدئه الديني »(4) ويفرض على النقد أن يكون « صارما حازما » لا يهمل ولا يهمل ، ولا يجامل ولا يصانع »(5) ويطبق هذا المبدأ النقدي على أساتذته وأصدقائه الخلص ، وفي مقدمتهم لطفي السيد في ترجمته « علم الأخلاق لأرسطاليس(6) ومحمد الخضري في « مهذب الأغاني »(7) ، ذلك أنه لا يبتغي النقد للنقد وإنما هو مضطر إليه اضطراراً » يضطره اليه حبه للحق وميله إلى الإصلاح ورغبته في الخير »(8) . ولذلك يتجاوز بالنقد نطاق السياسة الحزبية ، ليدعم « الحرية العقلية »(9) وما تقتضيه من درس ونقد وعلم وإخلاص وإنصاف(10) . كما يبين من نقده لسلامة موسى وعباس العقاد(11) ، على الرغم من أن العقاد من أصحاب الألوان السياسية الظاهرة(12) فهو « سعدي مغرق في السعدية »(13) ولكن طه حسين ينسى في نقده « صلات المودة والقربى وعواطف الرضا والسخط(14) » في تناول الأصدقاء والزملاء والأساتذة بالنقد(15)متجاوزا الخصومات السياسية ليقول « كلمة حق في الأدب ليس بينها وبين السياسة والأحزاب صلة »(16) فيذهب إلى نقد صديقه « هيكل »

---

(1)المرجع السابق ص 62 .
(2، 3، 4)حديث الاربعاء ج3 ص 209 ، 216 ، 218 .
(5، 6، 7)المرجع السابق ص 218 ، 50 ، 69 .
(8، 9، 10)المرجع السابق ص 69 ، 94 ، 95 .
(11، 12، 13)المرجع السابق ص 95،96 .
(14، 15، 16)المرجع السابق ص 96 .

نقدا « عنيفاً »(1) في صحيفة « السياسة » استنادا إلى مفهومه للحرية العقلية » .

لقد عاصر طه حسين عدة أجيال أدبية ، تفاعل مع أربعة منها ، من خلال النقد الصحفي على أقل تقدير ، وأولاها عنايته النقدية ، الجيل الأول هو الذي سبقه إلى الظهور، جيل شوقي وحافظ والرافعي ، والجيل الثاني هو ذلك الجيل الذي درج معه ، جيل العقاد والمازني وهيكل، منتهياً بسلامة موسى . وتوفيق الحكيم، والجيل الثالث هو جيل الرومانسيين من جماعة « أبولو » أما الجيل الرابع فهو جيل التحول إلى الواقعة ، جيل نجيب محفوظ ثم رواد حركة الشعر الجديد . على أنه من خلال مسيرته النقدية ، لم يقصر في قيمة من قيمه النقدية ، التي تخلو من شوائب النقد السلفي ، على النحو المتقدم ، بعضها يتعلق بالحرية العقلية ، والقيم الجمالية ، والعلمية ، وبعضها يتعلق باخلاق الأدباء أنفهسم وموقفهم حيال النقد والنقاد(2) . من خلال فهمه للأديب كرجل عام(3) . واختلاف «الأحكام على الناس وما يصدر عنهم من الأثار والأعمال »(4) .

وتأسيساً على هذا الفهم للارتباط بين النظرية والتطبيق في المقال النقدي عند طه حسين ، نجد أن نقده التطبيقي يسهم مع فنون المقال الأخرى في الاتجاه الثقافي في النهضة الفكرية من خلال « تغيير أسلوب التفكير » في المجتمع المصري ، وهذه النهضة الفكرية « أمر حتمي لا بد منه قبل تحقيق النهضة الشاملة » ولهذا فإن واجب الأديب والناقد ، وواجب كل كاتب أن يقوم بدوره في قيادة الشعب ، وتوجيهه »(6) وهو الدور الذي يرتبط بوظيفة التقويم النقدي كما تقدم ، من خلال وسيلة الاتصال الصحفي بجماهير القراء .

(1، 2، 3)المرجع السابق ص 97، 12، 158 ، 159 .

(4)المرجع السابق ص 159، 160 .

(5)الدكتور طه حسين: « نهضتنا الأدبية وما ينقصها » ـ الهلال يناير 1932 .

(6)الدكتور طه حسين: « نهضتنا الأدبية وما ينقصها » ـ الهلال يناير 1932 .

تعقيب

بقلم الدكتور حسين فوزي النجار

لا ادري لماذا اختار الدكتور عبد العزيز شرف هذا العنوان لكتابه عن الدكتور طه حسين ، لقد كان للدكتور طه حسين حقا يد في تقويض هذا المجتمع ولكن هل زال هذا المجتمع التقليدي وتقوضت معالمه فلم يبق منها شيء ، وهل انتقلت بنا الحياة الى مجتمع كان ينشده ويتطلع اليه وهل سعى بنا الفكر الى ما ننشد من اصالة وابداع هما ابرز معالم التجديد ، وهل تحررنا من خرافات الماضي وتهويماته الباطلة فلم يبق لها اثر في عقولنا وضمائرنا ، وهل استقام بنا الطريق على استواء في الحق وفي التعرف على الاشياء وفي التفكير العلمي وفي النظرة الى الدولة ونظرة الدولة الينا .

واخيرا ماذا نعني بالمجتمع التقليدي فما من مجتمع مهما لفحته المعاصرة الا وبقي في اصوله تقليديا ، لا يتحرر من ماضيه ابدا ، ومهما لجت بنا الحياة وأوغل بنا الفكر في دروب المعاصرة والتجديد ، سيبقى الماضي يشدنا بارسان ثقال ، لا نبغي منها فكاكا ، فاذا كانت الصلة بين حضارة اوربا السائدة وحضارة اليونان والرومان لم تنقطع ابدا — كما يقول استاذنا الدكتور هيكل — واذ كان الماضي هو الاب الطبيعي لحضارتنا وادبنا ، كما يقول ، فأولى بنا ان نصل بين هذا الماضي في جلاله وعمقه وبين هذا الحاضر في قدرته وحيويته ، ولا سبيل لنا لبعث حضارة الشرق ما لم نعمل على احيائها على الطريقة العلمية الحديثة ،

وقد كانت ثقافتنا العربية والاسلامية المنهل الذي نهل منه طه حسين واضرابه من عمالقة الفكر في عصره حين اوغلوا في الفكر الغربي يلتمسون فيه الحقيقة اقتناعا منهم بأنهم لن يجدوها في كتب العرب والمسلمين وكانت هذه الثورة على القديم ثورة على الجمود العقلى اكثر منها ثورة على تراث الماضي « فقد قطع ما بين حاضر الشرق الاسلامي وماضيه قرون من الجمود والتعصب غشت على تفكيره السليم القديم بطبقة كثيفة من الجهل وسوء الظن لكل جديد فلا مفر لمن يريد ان يصهر هذه الطبقة ــ كما يرى الدكتور هيكل ــ من الاستعانة بأحدث صور التفكير في العالم ليستطيع من هذه السبيل ان يصل بين الحاضر الحي وثروة الماضي وتراثه العظيم » .

فاذا كان الدكتور شرف قد اختار « زوال المجتمع التقليدي » عنوانا لبحثه عن الدكتور طه حسين فلا شك انه لا يعني ان المجتمع التقليدي قد فني وزال ، ذلك ان الجديد اذا تأصل يغدو تقليديا قديما وفي ثورة القرن العشرين على تراث القرن التاسع عشر من القيم والمثل وانماط الحياة خير شاهد على ذلك بل ان الثورة الفكرية التي لفحت العالم في اعقاب الحرب العالمية الثانية تكاد تودى بكل ما كان من قيم الماضي ومثله القديمة وهي ثورة ذهب فيها المحافظون في العالم الغربي ، كنوع من رد الفعل ينشدون مباهج العالم القديم ومثله الخيرة في وحدة العالم المسيحي القديم بينما لج الثائرون في تحطيم معالم الماضي والتحرر من قيمه ومثله الزائفة كما يقولون .
وسيبقى الجديد والقديم والجديد والمحافظة والتقليد والابداع والسكون والحركة كل منهما صنوان لا يفترقان .

وقد كان طه حسين وهيكل والعقاد والحكيم والمازني وعزمي ومنصور فهمي واضرابهم من عمالقة جيلهم حلقة في هذا التطور واداة مشبوبة للتغير دفعت بعجلة التقدم قدما الى الامام وهو ما ابرزه وافاض فيه الدكتور شرف في كتابه عن طه حسين ، وقد كان هؤلاء جميعا ممن حملوا على القديم والتقليدي حلقة في سلسلة توالت حلقاتها اليهم وامتدت من بعدهم ولقد سالت يوما استاذ الجيل احمد لطفي السيد : اترانا جيلا تخلف عمن سبقوه وقصر عن اللحاق بهم ، فقال رحمه الله : بل انتم خير ممن قبلكم ومن قبلكم خير منا فقلت : ومع هذا السياج الفكري الذي نعيش في داخله ؟ فقال : نعم ، ومع هذا السياج الفكري الذي يبعدكم عن الانطلاق ، فالقهر لا يقتل الفكر وانما يقتل نفسه . وقد سبق جيل طه حسين

من مهدوا له الطريق وشقوا له قنوات الفكر والابداع من امثال محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول ومصطفى كامل ولطفي السيد وعلى يوسف والشيخ جاويش وغيرهم ومن قبلهم كان رفاعة الطهطاوي وعلى مبارك وعبد الله فكري ، ثم كان جيلنا هذا بعد جيل طه حسين وما حمل من رهق ، ولكن الحياة تمضي دون وناة وستبقى الشعلة متقدة تنير للاجيال القادمة ظلام الطريق .

ولقد تحدث الدكتور شرف عن هذه الصلة التي ربطت بين طه حسين ومن قبله فهو يكتب في الجريدة ويسعد بما يكتب ويغريه مدير الجريدة احمد لطفي السيد على الكتابة « ويحثه عليها حثا ويعلمه القصد في اللفظ والاناة في التفكير » ويمضي الدكتور شرف في الحديث عن تأثير الذات في اتجاهات طه حسين وما كان من ذاتيته من اثر على الموضوع في تفكيره ولقد عاش طه حسين حقّا اسير ذاته ولكنه استطاع ان يفلت من عقدة « الانا » حين يدلي برأي او ينادي باتجاه ، حين استهدى مشاعره والام عصره فكرس قلمه لتحرير العقل والنفس والبدن من كل ضنى ، وكانت دعواه للتحرر من التقليدية والجمود في الفكر ومن كل ما يؤذي البدن او يضني النفس من شقاء وحملته تجربة حياته وما لقيه من عناء ورهق على التماس ما يمنع عن الناس العناء والرهق من ضروب الاصلاح الاجتماعي والتحرر الفكري والبدني « فطه حسين » كما يستشهد الدكتور شرف يقول السنيور جيوافرامي ــ اذ يذكر بصره المفقود يصيح من اعماق سجنه إلى شعبه بالثورة حتى لا تفقد ابصار بريئة اخرى لاطفال صغار » .

وكان القلم ، كما هو لكل مصلح ، اداتة للإصلاح و«للاتصال الجماهيري» على حد تعبير الدكتور شرف، فكتب وظل ينشر ما يكتب في الصحف او يصدره كتبا وهو فيما ينشره في الصحف او يطلع به على الناس كتابا يصدر عن ذاته في موضوعية صارمة هداها المنطقوالترشيد العقلي ، او التعقيل بتعبير الدكتور شرف .

وقد عاش طه حسين معلما واستاذا جامعيا ثم اصبح وزيرا للتعليم ، ولكنه اكثر من هذا عاش كاتبا وصحفيا وكان مقاله الصحفي اكثر انتشارا وتأثيرا من كتبه ومحاضراته في الجامعة وفي غير الجامعة ، وقد بقيت أكثر مقالاته لتصدر في كتب بعد ان يطالعها الناس في الصحف وهو ما اغرى الدكتور شرف على أن يتخذ من المقال الصحفي لطه حسين بحثه لاجازة الدكتوراه ، ولعله في هذا الاطار الفسيح والضيق معاقد استطاع ان يفي بالجوانب الأخرى في حياة الكاتب

الكبير وتراثه الباقي فاذا كان قد أوفى بهذا الجانب على الغاية من الكمال من الناحيتين الفنية والتقريرية . فقد أبرز كيف كان للصحافة كوسيلة من وسائل الاتصال الجماهيري دورها في قضيتين من قضايا الفكر في العشرينيات من هذا القرن هما قضية «الاسلام وأصول الحكم» و«الشعر الجاهلي» .

واذا كان الدكتور شرف قد قصر بحثه على التأثير الذي تركه طه حسين على صفحة الفكر المصري في كافة اتجاهاته السياسية والاجتماعية والثقافية واثر كل ذلك في تقويض المجتمع التقليدي فانه قد افاض واسهب في مقومات الاتصال الجماهيري واصوله الفنية واستراتيجيته العامة بما يتطلبه بحث اعد عن الاعلام وبما يعني به الدكتور شرف وتفرد فيه بوضع قواعد جديدة للاعلام في مجال الفكر .

أهـــم المـــراجع

أولاً - المراجع العربية والمترجمة

ابراهيم امام (دكتور):

فن المقال الصحفي في الأدب الأنجليزي — القاهرة — 1955

تطور الصحافة الأنجليزية — القاهرة — 1956

العلاقات العامة والمجتمع — القاهرة — 1957

فن الاخراج الصحفي — القاهرة — 1957

الاعلام والاتصال بالجماهير — القاهرة — 1969

دراسات في الفن الصحفي — القاهرة — 1972

ابراهيم عبده (دكتور):

أعلام الصحافة المصرية — القاهرة — 1948

تطور الصحافة المصرية — القاهرة — 1951

ابراهيم عبد المازني:

قبض الريح — القاهرة — 1928

ابراهيم اليازجـــي:

لغة الجرائد (وهي المقالات التي نشرت تباعا في مجلة الضياء) — القاهرة — د.ت.

أحمد أمين:

زعماء الاصلاح في العصر الحديث — القاهرة — 1948

أحمـــد بهاء الدين:

فاروق ملكا 1936 - 1952 — القاهرة — 1952

أحـــمد خاكي:

قاسم أمين — القاهرة — 1944

أحمد الشايب:

الأسلوب — القاهرة — 1963

أحمد شفيق (باشا):

مذكراتي في نصف قرن ج 2 — القاهرة — 1936

أحمد لطفي السيد:

المنتخبات ج 1 — القاهرة — 1937

المنتخبات ج 2 — القاهرة — 1945

تأملات في السياسة والأدب والاجتماع — القاهرة — 1946

(أشرف علي):
(الدكتور محمد حسين هيكل) القاهرة 1957
قصة حياتي كتاب الهلال القاهرة 1962
آدمس (تشارلز):
(ترجمة عباس محمود)
الاسلام والتجديد في مصر جزآن) 1926
ادمنوند كوبلنتز (تحرير)
ترجمة أنيس صابغ): فن الصحافة بيروت 1958
البرت حوراني (ترجمة كريم عزقول):
الفكر العربي في عصرم النهضة بيروت 1968
اميل بوافان (ترجمة محمد اسماعيل محمد):
تاريخ الصحافة ــ الألف كتاب القاهرة 1958
أميــن الخــولي:
فــن القــول القاهرة 1948
أندريه جيد (ترجمة ـ روايات الهلال):
الباب الضيق العدد 229
أندريه كرسون (ترجمة الدكتور حسن سعفان):
ديكارت ــ الألف كتاب ــ القاهرة 1961
توفيق الطويل (دكتور):
أسس الفلسفة القاهرة 1954
الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر):
البيان والتبيين.
تحقيق وشرح عبد السلام هارون القاهرة 1950/48
جلال الدين الحمامصي:
معركة نزاهة الحكم القاهرة 1957
هذه هي صحافتنا بين الأمس واليوم 1957
بين الخبر والموضوع الصحفي القاهرة 1965
الصحيفة المثالية القاهرة 1972
جوستاف لانون (ترجمة الدكتور محمود قاسم).
تاريخ الأدب الفرنسي -ج- القاهرة 1962
جورج فيل (ترجمه ولخصه ادجار موصلي وحسن سلومة):
الجريدة ــ الألف كتاب ــ القاهرة 1957
حافظ عفيفي (دكتور):
على هامش السياسة ــ بعض مسائلنا القومية ــ القاهرة 1938
حافظ محــمود:
المعارك في الصحافة والسياسة والفكر القاهرة 1969
حسين فوزي النجار (دكتور):

لطفي السيد والشخصية المصرية — القاهرة 1963
أحمد لطفي السيد ـ أعلام العرب ـ القاهرة 1965
الجريدة: تاريخ وفن — القاهرة 1957

حسين المرصفي:
الكلم الثمان — القاهرة 1869

خيري شلبي (تحقيق وتعليق):
محاكمة طه حسين — بيروت 1972

دار الهلال:
طه حسين كما يعرفه كتاب عصره — القاهرة 1966

دافيد بوتر (ترجمة محمد مصطفى غنيم):
مخبرو الصحف — القاهرة 1966

زكريا ابراهيم (دكتور):
سيكولوجية الفكاهة والضحك ـ مشكلات فلسفية.

زكي مبارك (دكتور):
النثر الفني في القرن الرابع — القاهرة 1934

زكي نجيب محمود (دكتور):
جنة العبيط أو أدب المقالة — القاهرة 1947

سامح كريم:
طه حسين في معاركه الأدبية والفكرية
(كتاب الإذاعة والتليفزيون)ـ القاهرة 1974

سامي الكيالي:
مع طه حسين ـ سلسلة اقرأ ـ جزآن ـ دار المعارف.

ستانلي جونسون وجوليان هاريس (ترجمة وديع فلسطين):
استقاء الأنباء فن — القاهرة 1969

ستانلي هايمن (ترجمة د. احسان عباس و د. محمد يوسف نجم):
النقد الأدبي ومدارسه الحديثة — بيروت 1958

سلامة موسى:
الصحافة حرفة ورسالة — القاهرة 1958،
البلاغة العصرية واللغة العربية — القاهرة 1964

سهير القلماوي (دكتورة):
فن الأدب، المحاكاة — القاهرة 1954

سيد قطب:
كتب وشخصيات — القاهرة 1946

السيد ياسين:
التحليل الاجتماعي للأدب — القاهرة 1970

شكري عياد (دكتور):
فن القصة لقصيرة في مصر — القاهرة 1970

« دراسة في تأصيل فن أدبي »	القاهرة	1968/67
شكري فيصل (دكتور):		
الصحافة الأدبية	القاهرة	1960
شوقي ضيف (دكتور):		
الفن ومذاهبه في النثر العربي	القاهرة	1946
الأدب العربي المعاصر في مصر	القاهرة	1961
مع العقاد ــ سلسلة « اقرأ »	القاهرة	1965
طه حسين (دكتور):		
دروس التاريخ القديم في الجامعة المصرية ــ نشرت في		
صحيفة الجامعة المصرية من	1919	1924
صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان	القاهرة	1920
قادة الفكر ط 10	القاهرة	1971
فلسفة ابن خلدون الاجتماعية (ترجمة عبدالله عنان):	القاهرة	1925
- حديث الاربعاء 3 أجزاء:	القاهرة	1925
في الشعر الجاهلي	القاهرة	1926
في الأدب الجاهلي	القاهرة	1927
- الأيام ج 1، 2 -	القاهرة، 1929	1939
رحلة الربيع والصيف	بيروت	1957
حافظ وشوقي	القاهرة	1933
على هامش السيرة 3 أجزاء	القاهرة	1933
مــن بعـــيد	القاهرة	1935
أديــب	القاهرة	1935
مستقبل الثقافة في مصر - جزآن -	القاهرة	1938
لحظات - جـزآن -	القاهرة	1942
فصول في الأدب والنقد ج 1		
المعذبون في الأرض	بيروت	1949
مرآة الضمير الحديث	بيروت	1949
بـين بيـن	بيروت	1952
خصام ونقد	بيروت	1955
نقد واصلاح	بيروت	1956
العدوان الثلاثي على مصر (مع آخـرين)	القاهرة	1956
ــ من أدبنا المعاصر ط 2	بيروت	1966
ــ من لغو الصيف إلى جد الشتاء	القاهرة	1959
ــ جنـة الشوك	القاهرة	1962
ــ أحاديث	بيروت	1959
ــ ألـوان ط 4	القاهرة	1970
ــ مذكرات طه حسين	بيروت	1967

(مع آخرين) الثقافة الانجليزية وأثرها في تقدم العالم» - الحياة والحركة الفكرية في بريطانيا ـ المجموعة الأولى للمحاضرات العربية 13 مارس 1941 ـ 24 أبريل 1941.

عباس محمود العقاد:
الفصـول — القاهرة 1922
سعد زغلول سيرة وتحية — القاهرة 1936
فرنسيس باكون ـ مجرب العلم والحياة — القاهرة 1945
بين الكتب والناس — القاهرة 1952
مراجعات في الآداب والفنون — القاهرة 1925
محمد عبده (أعلام العرب) — القاهرة 1961
رجال عرفتهم (كتاب الهلال) — القاهرة 1963

عبد الحميد يونس (دكتور):
مجتمعنا ـ (اخترنا لك العدد 24) — القاهرة
فن الاذاعة ـ سرس الليان (مع آخرين) — القاهرة 1958
الأسس الفنية للنقد الأدبي — القاهرة 1966
فن القصة القصيرة في أدبنا الحديث — القاهرة 1973

عبد الرحمن بدوي (دكتور): (أشرف على):
إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين — القاهرة 1962

عبد الرحمن الرافعي:
ثورة 1919 (جزآن) — القاهرة 1946
في أعقاب الثورة ط 2 — القاهرة 1959

عبد العزيز البشري:
فـي المرآة — القاهرة 1927
المختـار ج 2 — القاهرة 1937

عبد العزيز شرف:
لطفي السيد فيلسوف أيقظ أمة - السنبلاوين — القاهرة 1963
عباس العقاد صحفياً — القاهرة 1968
الدكتور محمد حسين هيكل
صحفيا (رسالة ماجستير) — القاهرة 1972
الاعلام ولغة الحضارة — الرباط 1973

عبد العزيز فهمي:
هذه حياتي (كتاب الهلال) — القاهرة 1962

عبد اللطيف حمزة (دكتورة):
أدب المقالة الصحفية في مصر (8 أجزاء)
مستقبل الصحافة -ج 1 — القاهرة 1961
المدخل في فن التحرير الصحفي — القاهرة 1965

عثمان أمين (دكتور):

رائــد الفكر المصري	القاهرة	1955
فــؤاد دوارة:		
عشرة أدباء يتحدثون ـ (كتاب الهلال)	القاهرة	1965
فؤاد صـروف:		
الصحافة والعمران	القاهرة	1929
فيل أولت (وترجمة قاسم جودة):		
وراء الأخبار ليلا ونهارا	القاهرة	1965
قاسم أمين:		
تحرير المرأة ط 2	القاهرة	1941
كارل وارين (وترجمة عبد الحميد سرايا):		
كيف تصبح صحفيا	القاهرة	د.ت.
كمال قلتة (الأب):		
طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في أدبه	القاهرة	1973
م. محمد حسين (دكتور):		
الاتجهات الوطنية في الأدب المعاصر ج 1 من الثورة العرابية إلى قيام الحرب الأولى	القاهرة	
محمد حسين هيكل (دكتور):		
مذكرات في السياسة المصرية جزآن	51	1953
محمد سامي البدراوي عويضة:		
النقد الأدبي عند طه حسين في مرحلة التكوين رسالة ماجستير.	63	1964
محمد سيد كيلاني:		
طه حسين الشاعر والكاتب	القاهرة	1963
محمد شفيق غربال:		
تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية	القاهرة	1952
محمد رشيد رضا:		
تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده (3 أجزاء)	القاهرة	1342 هـ
محمد زكي عبد القادر:		
محنة الدستور	القاهرة	1955
محمد عبد القادر حاتم (دكتور):		
الرأي العام	القاهرة	1972
الاعلام والدعاية ـ نظريات وتجارب ـ	القاهرة	1972
محمد غنمي هلال (دكتور):		
الأدب المقارن	القاهرة	1961
محمد كامل جمعة (دكتور):		
الأسلوب	القاهرة	1963
محمد يوسف نجم (دكتور):		
فن المقالة.	بيروت	1960

محمود عزمي (دكتور):
مبادىء الصحافة العامة | القاهرة | 1941
محمود نجيب أبو الليل (دكتور):
الصحافة الفرنسية في مصر منذ نشأتها حتى نهاية الثورة العرابية. | القاهرة | 1953
الأماني الوطنية والمشكلات المصرية في الصحف الفرنسية منذ عهد الاتفاق الودي حتى اعلان الحرب العالمية الأولى | القاهرة | 1953
مختار الوكيل:
بين الصحافة والأدب | القاهرة | 1954
نالينو (كارلو):
تاريخ الآداب العربية | القاهرة | 1954
نعمات أحمد فؤاد (دكتورة):
أدب المازني | القاهرة | 1954
قمم أدبية | القاهرة | 1966
ويلبور شرام (ترجمة محمد فتحي):
أجهزة الاعلام والتنمية الوطنية | القاهرة | 1970
يحيى بن حمزة العلوي:
الطراز | القاهرة | 1914

ثانياً: الصحف والمجلات

1 ـ الجريدة 1909 ـ 1914
2 ـ اللـواء 1909
3 ـ مصر الفتاة 1909
4 ـ العلم 1910 ـ 1911
5 ـ الهداية 1910 ـ 1911
6 ـ السفور 1915 ـ 1917
7 ـ الاستقلال 1919 ـ 1922
8 ـ الأهـرام 1922
9 ـ السياسة 1923 ـ 1930
10 ـ السياسة الأسبوعية 1926
11 ـ الاتحـاد 1926
12 ـ كوكب الشرق 1933
13 ـ الـوادي 1934
14 ـ مجلة الهلال 1923 ـ 1963
15 ـ الجهـاد 1947 ـ 1950
16 ـ البـلاغ 1947 ـ 1950
17 ـ المصري 1947 ـ 1950
18 ـ مجلة الكاتب المصري 1945 ـ 1949
19 ـ مجلة الرسالة 1933 ـ 1947
20 ـ مجلة الثقافة 1939 ـ 1947
21 ـ مجلة الجديد 1928
22 ـ جريدة « الجمهورية » 1959 ـ 1964
23 ـ مجلة النهضة الفكرية 1931
24 ـ المقتطف 1906 ـ 1910

الفهـــرس

شرف (عبد العزيز)
طه حسين وزوال المجتمع التقليدي/
عبد العزيز شرف؛ [تقديم محمد عبد المنعم خفاجي]
ط. 2. - تونس
عبد الكريم بن عبد الله، 1988. - (تونس:
مطبعة كوتيب) 328 ص: اشكال.
غلاف ملون؛ 24 سم

ISBN 9973-707-02-8 مسفر   ر.ق 88/306

انتهى طبع هذا الكتاب
بمطبعة كوتيب - تونس
جويلية 1988

سحب من هذا الكتاب ثلاثة الاف نسخة